

مَسَائِلُ مُلِحَّةٌ فِي الْقَدَرِ

تأليف

الشيخ عبد الرحمن الدمشقي

لَقَدْ كَفَرَ الْكُفْرَ الْأَكْبَرُ



الفهرس

الصفحة	الموضوع
٤	متى يُشرع البحثُ في تفاصيلِ مسائلِ القدرِ؟
٤٥	من السلامة تركُ التعمقِ في بحثِ تفاصيلِ القدر
٥٨	القدرُ والشرعُ
٩٦	القدرُ والعقلُ
١٠٨	فحجَّ آدمُ موسى
١١٨	جفَّ القلمُ بما هو كائنٌ
١٤٦	كيف يريدُ الله تعالى أمراً لا يرضاه؟
١٦٩	هل كلُّ القضاء خيرٌ للمؤمن؟
١٨٠	(وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خيرٌ لكم)
١٩٨	كيف تتخطأُ مرحلةُ الد(لو)
٢١٩	عمومُ الرضا بالزمان والمكان واللون والجنس والنسب والزوج والولد والرزق وسائر أحوال
الدنيا	
٢٣٠	حكمُ الرضا
٢٦٠	الرضا والبلاء
٣١٢	هل الأفضل الدعاء برفع بلاء الدنيا، أم الرضا والتسليم؟
٣٣٠	(والله يعلم وأنتم لا تعلمون)
٣٣٩	(كذلك كدنا ليوسف)
٣٥٠	الابتلاء بالأسقام
٣٥٨	حكمُ التداوي، وهل يقدرُ في الرضا؟
٣٧٢	أحكامُ تمنّي الموت خشيةً الفتنة أو غيرها
٣٩٠	أخطاءٌ في فهمِ الرضا بالله تعالى أو تطبيقه
٤٣٥	هل الدعاء على الظالم فضيلة؟
٤٤٨	فقته مسلكي في شأن التشدد في حراسة الخطرات
٤٥١	زيعة الحكيم



بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، خلق الخلق بقدرته وعلمه وحكمته ورحمته وعدله، لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون، والصلاة والسلام والبركة على خير الأنام نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد؛ فهذه حروف متعلقة بموضوع شديد الأهمية، وهو الإيمان بالقدر، فبين يديك . أخي . مسائل مُلِحَّةٌ في القَدَر، وتقريره، وحسن فهمه، وسلامة تصوّره، وحسن التدين لله تعالى به اعتقادًا وقولًا وعملاً، حري بكل مؤمن تحقيقه، لأنه ركن الإيمان السادس، سائلًا ربي الأعلى العليم أن يددني ويرشدني ويتقبل مني ويغفر لي ولكل مسلم يؤمن بالله واليوم الآخر، إنه سميع قريب مجيب.

إبراهيم الدميحي

١٤٤٥ / ٥ / ١

aldumaiji@gmail.com



متى يُشرع البحثُ في تفاصيلِ مسائلِ القدرِ؟

الحمد لله رب العالمين، قضى وقدر وهو العليم الحكيم، ووعد وأندَر وهو الغفور الرحيم، وصلى الله وسلم وبارك على من بعثه الله رحمة للعالمين ومناراً للسالكين وحجة على الناس أجمعين، أما بعد:

فإنَّ علم القضاء والقدر علم شريفٌ، وركنٌ إيمانيٌّ مُنيفٌ، أمرَ الله تعالى بمعرفته واعتقاده والإيمان به، وجعلَ ذلك ركنًا للإيمان لا يصحُّ إلا به، فعلم القدرِ كسائرِ علوم الشريعة التي أمرنا الله تعالى بالعلم والإيمان بها وعقد القلب عليها، لذلك جاء التأكيدُ عليه وتكرارُ الإخبار به في القرآن العظيم وتعليمنا إيَّاه في حديث جبرائيل الشهير الذي جعله ركنًا لا يصحُّ عقدُ الإيمان إلا به، ولا زال العلماء يُقرِّرون مباحثه، ويبينون مراتبه، ويكشفون غوامضه، ويُقيمون معانيه من أدلته في قلوب الأمة، ويبينون لها آداب واحترافات طلبه؛ من عدم المنازعة والجدال فيه، وترك الخوض فيما لم يؤذن لنا فيه مما طوى الله علمه عنا لحكم ربانية عظيمة يستحقُّ عليها ربنا كل حمد وشكر.

فعلم القضاء والقدر هو علم كغيره من علوم الشرع، ولكن لما كان هذا العلم مرتبطاً مباشرة بحياة الناس بالكلية، مُحيطاً بمصائرهم في الدنيا والآخرة، مع ما جُبل عليه البشرُ من القلق والترقب والضجر حيال ما يمَسُّ أحوالهم مباشرة، وكذا هوسهم بإلقاء اللوم على غيرهم حين نزول الضرر بهم أو فوات الخير عنهم، وهنأ في العزم، وعيلاً في الصبر، ونقصاً في العلم، وضعفًا في الإدراك، وأيضاً عجَلتِهم في كلِّ قضاء يخصهم، فيخاصموا



وينازعوا فيما يعينهم وما لا يعينهم، وما يدركونه وما لا يدركونه، إضافة إلى رغبتهم الكامنة في معرفة المستقبل واختراق حواجز الغيب الموصل أمامهم، إلا من رحم الله تعالى، مع ضميمة ارتباط القَدَر بأسماء وصفات وأفعال الله تعالى كالعلم والخلق والحكمة والرحمة ونحوها. فلأجل هذه الغرائز الأربع في جُملة البشر: القلق، وإلقاء اللائمة، والعجلة، ورغبة كشف الغد، مع ارتباط العلم والإيمان به بصفات الربوبية - والله أعلم -؛ كان لمسائل القدر خاصية عن غيرها، لذا وجب أخذها بحذر، وتعاطيها بتؤدة، وتناولها بإتقان، لأنّ الزيف فيها مفضٍ لعطب سريع وهلاك عظيم، فالانحراف فيه يؤدي لسوء الأدب مع رب العالمين، لأن القدر مرتبط بصفات الربوبية، فالقدر أمره الكوني الربّاني. وهذه الغرائز الأربع مردّها لاثنتين: الكفر والجهل، (وحملها الإنسان إنه كان ظلومًا جهولًا)، (قتل الإنسان ما أكفره). فيكفر نعم ربه تعالى جهلاً و جهالةً، ومتى سلّم الإنسان منها أفلح وأنجح بإذن ربه تبارك وتعالى.

فباب القدر على شَرَفِهِ خطير جدًّا، وسعيدٌ من أهل الإسلام من لم تزغ قدمه فيه، وبحمد الله تعالى فعامة عقائد العوامّ فيه سليمة كسائر عقائد الإيمان، لأنها باقية على الفطرة، ولأنها تعتقد ظواهر الآيات والأحاديث التي تمرّ بها بلا تكلف ولا تعقيد ولا تحريف، فتؤمن بها كما يتبادر للذهن من معانيها، فتسمع القرآن وتفهم بسليقتها معناه المباشر بلا قيود كلامية ولا قوانين فلسفية، فهو قد نزل بحروف عربية واضحة مبينة، فما تبادر للذهن من معاني الكتاب والسنة فهو الحقّ الذي نزل لإقامته في القلوب، فهي تؤمن بظواهر تلك المعاني المباشرة مع قطع طمعها عن الإدراك والإحاطة والتكليف، وهذا مضطرد في أفعال الله تعالى وصفاته، فعقيدة العامة في باب القضاء والقدر على الجادة



السليمة ما دامت سالمةً من قُطَاعِ الطريقِ إلى الله تعالى صافٍ مشربها من من كَدَرٍ وِكَوْثِ أهل الأهواء.

ومن آتاه الله علماً مُفَصَّلاً فيه فهو على خير وهدى ورفعة في الآخرة، وبحمد الله تعالى فالقَدْرُ المبسوط منه في القرآن والسنة نافعٌ كافٍ، فهو علم ظاهر واضح، وليس بعلم أسرارٍ مخفية ولا أمور مُعَيَّبة ولا حبالٍ مُقَطَّعة، خلا ما كان خارج نطاق العلم والإدراك المأذون لنا فيه، فالمؤمن يتوقَّف عنده حين تنتهي به أطراف الأدلة الشرعية وأدوات المعرفة الإنسانية، وَيَسَّعه ما وَسَّع سلفه الصالح، فيؤمن بما لديه وَيُسَلِّم ما طُوي عنه لربه علام الغيوب تبارك وتعالى.

ولكن الخطر يجري على مَنْ تَنَاوَله بنقصٍ في آلة العلم أو زيغ في قصد القلب! فينشأ عن ذينك أو أحدهما تساهلٌ أو تجاوزٌ في تعاطي مُعْضَلات هذا العلم. فإلى تلك الختلاتِ جَرَّتِ الإشاراتُ إلى سدِّ بابه عمَّن لم يتأهلوا له. فقد ذهبتُ لُبني فما أنت صانعٌ؟!!

وكلُّ إنسان بحكم قيام حياته على المقادير لا بدُّ أن ترد عليه خواطر إيمانية أو شيطانية فيه بحسب مَسَاقِي قلبه علماً وإيماناً وتوفيقاً وهدى وسعادة، أم جهلاً وكفراً وخذلاناً وضلالاً وخيبة. وكل البشر باختلاف نحلهم لهم معتقد في هذا الباب، إما بالإقرار به على اختلاف معتقداتهم فيه، أو بإنكاره كلياً أو جزئياً، ولكن الجميع يتفق على ذلك الشيء المنتظم للحياة وجوداً أو عدماً، ومتفقون على أن الحياة في الغاية من الاتساق والانتظام حتى وإن اتَّسمت نظراتهم بسوداوية أو سوء ظنٍّ أو قولاً بتناقضٍ أو كفرٍ بالله عظيم. وغالب اتجاه إنكار القدر أنه يكون من جهة الإحساس بالشقاء والحرمان والظلم ونحو ذلك، لهذا كانت الضرورة ملحةً جداً للعلم بالمعتقد الحق في القضاء والقدر، فإنَّ معتقد



أهل السنة فيه هو في الغاية من الأحكام الشرعي والأتزان العقلي والاتساق الروحي والسلام النفسي والحركة المباركة ضرباً في الأرض وعملاً ليوم العرض، (والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم).

فليس للناس سكينه لقلوبهم وسلامة لتصوراتهم وراحة لعقولهم إلا بالعلم اليقيني أن حياتهم كلها ومصيرهم مرتبط بعلم الله الرحيم تعالى وكتابتة وعموم مشيئته وخلقه، ولولا ذلك لم تقم لدينهم قائمة، فحتى الأديان المحرفة نجد أن نظام القدر فيها قائم سامق حاضر في أذهانهم مع غشٍ غير قليلٍ في تصوّره لهم، وأن أمرهم كله متعلق بقدر الله تعالى واختياره وقضائه. لأن الإيمان بالقدر سلوى وعزاء وأمل ورجاء، واتكأ على ركن شديد من لأواء الحياة. لذا قال بعض مفكريهم الشكوكيين: لو لم يوجد مفهوم القدر لدينا لأوجدناه ضرورة!

فالإيمان بالقدر مرتبط بالدنيا والآخرة، ومنتظم لكل أمر الدين والدنيا، لهذا وصفه ابن عباس رضي الله عنهما بنظام التوحيد، فقال: "القدرُ نظام التوحيد، فمن وحد الله وكذب بالقدر؛ نقض تكذيبه توحيدَه". (١) فكيف يقوم توحيد الأمر - أي: العقيدة والشريعة علمًا وعملاً - لدى من يكذب بتوحيد الخلق؟! فمشكاتها واحدة، ومعينها واحد، وتوحيد الربوبية ومنه القدر أساس لتوحيد العبادة وهو اتباع الأمر، فمن كذب بالقدر فقد كذب بالعلم والكتابة والمشية والخلق والحكمة والإرادة وغير ذلك مما يقتضي بطلان توحيد الإلهية ونقض الأمر لديه، فالإيمان بالقدر هو سلك نظام عقائد التوحيد، فمن كذب بالقدر انتقض دينه. فمعنى كلام ابن عباس رض الله عنهما: أنّ الإيمان بالقدر مرتبط بأصول الدين وعلمياته وعمليّاته وبشعب الإيمان وأمور الشريعة كلها مثل ما



ينتظم السلك خرزات السبحة، فمن كذب بالقدر انتقضت معتقداته وتناقضت تصوراته وتناثرت في بيداء الضياع حظوظه وأمنيته، لأنه قد قطع السلك الناظم لها وهو إيمانه بالقدر. لذلك كانت النعمة من الله تعالى عظمة جداً بتعليمنا القدر الكافي من القدر، ولك أن تتخيل ضد ذلك حتى تعلم قدر النعمة الربانية عليك بمعرفته والعلم به والإيمان به، والصدُّ يظهرُ حُسْنَهُ الضدُّ، وإنما يعرف قدر النعمة مَنْ فقدها، فله الحمد كله كما ينبغي له.

إنَّ علم القضاء والقدر (٢) علمٌ فاضل شريف كسائر علوم الشريعة، بيدَ أنْ مُتَنَاوَلَهُ يلزمه العناية الشديدة احترازًا وحذرًا من أمرين: الضلال العلمي والزيغ السلوكي الأخلاقي.

فالأول: الضلال العلمي في القدر: وهو منقسم لنوعين، ضرب الكتاب ببعضه، ورجم بالغيب، وتفصيلهما كالتالي:

الأول: الإيمان ببعض الكتاب دون بعض، أو الانحراف عن مفهوم الأدلة فيه، ومن ذلك الكلام في القدر بالهوى والرأي المجرد معارضة للدليل. كما أنه ينشأ عن الإيمان ببعض الكتاب دون بعض تنكُّبٌ مُؤدَّى الأدلة الشرعية التي جاءت بالعلم التام والبيان الكامل والحق الكافي صافيًا نقيًا كما هو، فحددت مراتب القدر وفصلتها، وأظهرت أحوال أهل الإيمان بالقضاء والقدر على الإجمال والتفصيل. فَمَنْ قَصَرَ مَشْرَبَهُ عَلَيْهَا سَلِمَ بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ كَدْرِ مَشَارِبِ الْأَهْوَاءِ.



وتأمل كيف ضلّ في هذا الباب القدرية والجبرية ومن لحقهما، فإنهم ضربوا الكتاب ببعضه، فأمنوا ببعض وكذبوا بعضاً، (أَفْتَوْا مَنْ بَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ)، فكل فرقة أخذت بجانب فيه، وقبضت عليه، وكفرت بجانب آخر منه، فكان أن قبضوا على الريح، جزاءً وفاقاً! فكمال الحق في مجموعه لا في تفريقه، والضلال فيه بإنكار جزء منه، (قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا).

فالقدرية أنكرت بعض علم الرب تعالى وكتابتها وعموم مشيئته وعموم خلقه، على اختلاف بينهم كثير، فمنهم من أشبه الدهرية، ومنهم الغلاة، ومنهم ما دون ذلك بأن أقر ببعض المراتب كالعلم والكتابة دون بعض. أما الجبرية فأمنوا بقدر الله تعالى إيماناً مشوّهاً بأن نفوا مشيئة الإنسان التي ذكرها الله في محكم القرآن، وإن أسماها بعضهم بالكسب ونحو ذلك، وهذا من ختل الفكر وخطل العلم لأنها آيلة لإنكار ما جاء صريحاً في القرآن العظيم وبداهة العقول من إعطاء الله تعالى عبده إرادة يحاسبه عليها، فهو ميسر لما خلق له، والله الأمر من قبل ومن بعد (وهديناه النجدين)، (منكم من يرد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة)، (لمن شاء منكم أن يستقيم . وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين).

ومن أسباب ضلالهم في باب القدر تسويتهم بين مشيئة الله تعالى ومحبتة، وعدم تفريقهم بين الإرادة الشرعية والإرادة الكونية، ومما تفرّع عن ذلك الضلال العلمي الرضا بالمعاصي، وهذه ضلالة للدين فاقرة، وأمثلتها في المنسلخين من الأمر تطول، (ومن يضلل الله فما له من هاد).

ولاحظ أن هذا الضلال العلمي ناشئ عن الزيغ المسلكي كما قال الله تعالى: (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم)، وأن الذنب سبب لتسلط العدو الرجيم، قال الله جل شأنه: (إنَّ



الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا). فلو أنهم تأدّبوا مع كتاب الله تعالى وأجلّوه وعظّموه، وآمنوا بالكتاب كله بالفعل والتطبيق لا بمجرد التلفظ والدعوى؛ لهداهم سبلهم، قال ابن عباس رضي الله عنهما: "تكفل الله لمن قرأ القرآن، وعمل بما فيه ألا يضلّ في الدنيا ولا يشقى في الآخرة. ثم قرأ هذه الآية: (فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى)" (٣) وعلى قدر الإعراض يكون الضلال. وقال سبحانه مبيّنًا أن الهدى - كل الهدى - في كتابه العظيم: (أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا)، وقال تعالى: (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ)، وقال سبحانه: (أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا)، فأقفال القلوب تفتح بالتدبر المخلص الصادق المتبع. قال ابن أبي العزّ الحنفي رحمه الله تعالى: "وينبغي أن يُعرف أنّ عامة من ضلّ في هذا الباب، أو عجز فيه عن معرفة الحق؛ فإنها هو لتفريطه في اتباع ما جاء به الرسول، وترك النظر والاستدلال الموصل إلى معرفته، فلما أعرضوا عن كتاب الله ضلّوا". (٤)

النوع الثاني من الضلال العلمي: الكلام في باب القدر بلا علم، والرجم فيه بالغيب، وذلك بأن يتناول بذهنه إلى ما ليس له، ولم يؤذن له فيه، لأن بعض علوم القدر مطوية عنّا، إما بطي الخبر الغيبي أو بالعجز عن إدراكه، فهي من الغيب الذي استأثر الله تعالى به أو بمن أذن له، (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مَنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ)، (عالم الغيب والشهادة)، (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدًا إلا من ارتضى من رسول).



ويلحق بهذا النوع ما زاد من العلوم عن حده المقدر لنا أن نطلع عليه، فمن ذلك علاقة القدر المعلق بالقدر المبرم، ومن أمثلته ما صحح في السنة من دفع البلاء بالدعاء، وإطالة العمر بالبر والصلة ونحو ذلك مما استفاضت به الأحاديث، فالله تعالى قد قدر الأقدار، وجعل منها قدرًا محكمًا مقضيًا مبرمًا لا يدخله تغيير البتة، وهو ما كتبه في اللوح المحفوظ فهو قضاء مبرم، وكل الأقدار راجعة إليه في النهاية.

وجعل هناك أقدارًا معلقةً بأسبابها لحكمة بالغة، فهذه يدخلها التغيير بأمر الله تعالى، كالتقدير العمري عند نفخ الروح في الجنين، والتقدير السنوي عند ليلة القدر، والتقدير اليومي، ونحو ذلك مما في صحف الملائكة، فهي أقدارٌ تتغير مع وجود أسبابها كالدعاء والبر، وهذه الأقدار المعلقة تجري مجرى الحياة العامة وكدح الناس وأعمال برهم وفجورهم، وتعلقها بمصائرهم، فالله تعالى قد جعل الإيمان والعمل الصالح سببًا لرضوانه والجنة، وجعل الكفر سببًا لسخطه والنار، فالخلق يسعون ويعملون، وكلٌ ميسر لما خلق له، فكما أن العمل الصالح سبب فكذلك الدعاء سبب والصلة سبب، وإن كان للدعاء والبر مزيدٌ خصيصة اهتمام لتخصيص ذكرهما في هذا الباب، لكنهما كسائر الأسباب المعلقة بها أقدار الله تعالى، فإن وجدت أسبابها وقعت مسبباتها بإذن الله، وإن تخلفت لم تقع بإذن الله، والذي سيكون هو المطابق أولاً لما سطر من القدر المبرم في اللوح المحفوظ.

فهناك أقدار ماضية مبرمة لا تتغير، وهناك أقدارٌ معلقة بأسباب مرتبة عليها. فالأعمال الحسنة والأفعال السيئة لهما أثرٌ بإذن الله تعالى في الأقدار المعلقة، ولعل هذا من حكم التكليف الشرعية والابتلاء الرباني لبني الإنسان بأن أعطاه قدرةً حقيقية، وإرادةً حرّة،



واختيارًا واضحًا، يستحق بحسبه الجزء يوم المعاد، ومهما كان ذلك الخيار فهو داخل في دائرة القدر المبرم المحتوم، يُساق إليه عن طريق التيسير، فهو مُيسَّر لما خلق له. وهذا من آيات الله تعالى الباهرة، وقدرته الهائلة، ومشيبته النافذة، وحكمته الكاملة، وغناه التام، وعدله المبين، ورحمته التي وسعت كل شيء، وخلقه المحكم، وقدره المتسق، ودينه الشافي الكافي. ومن اتضح له ذلك انكشفت له المسألة بإذن الله تعالى. فإلى هنا ينتهي علمنا بهذا القدر من القدر، أمّا ما وراءه فهي أسرار ربّانية في القدر قد طوى الله علمها عن أنامه، وتعبدتهم بالتسليم له بها، والإقرار بشمول علمه وعموم مشيئته وعظيم حكمته وعدله ولطفه وبرّه ورحمته. والمقصود؛ أن العلم بكيفية وتفصيل رجوع القدر المعلق للمبرم، وأنه وإن أمرنا بالسعي فيه لأن له أثرًا لا نحيط به، ومع هذا فهو لا يختلف عما في اللوح في النهاية، فهو وإن كان من جهة التيسير ابتداءً فنهاياته وغاياته مما لم نحط به خبرًا، فهو مما استأثر الله تعالى بعلمه، فمن ظلم النفس إقحامها فيما ورأيتها، فالغيوب يبقى علمها لعلّامها تبارك وتعالى، فما لنا فيها إذن ولا علم، والله المستعان.

وإن من القدر الغيبي علم الله تعالى بالأمور الغيبية في الأزل والحاضر والمستقبل، وهذا غيب محض، فالخوض في أمور القدر بلا آثار من الوحي قول بالظن، ورجم بالغيب، وخيبة للرجاء، واتباع لسنن الأمم الضالة، (فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا).

ومن توابع ذلك الضلال العلمي قياس أفعال الله تعالى بأفعال المخلوقين، فيحسنون ويُقبحون بأرائهم، وهذا من أكبر أسباب الضلال. ومن فروع الأثيمة القدح في حكمة الله تعالى، وهذا ضلال وزيف وسوء أدب مع جناب من لا يأتي الخير إلا منه، (وما قدرُوا



الله حق قدره)، (وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة)، (وما بكم من نعمة فمن الله)، (ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيراً).

ومن الضلال العلمي تطبيق مقاييس البشر القاصرة ومفاهيمهم الناقصة على قضاء الله وقدره الرباني الإلهي، وهذا من أكبر ضلال من ضل في هذا الباب، وهو من أسباب اعتراض المخدولين على الأقدار والأرزاق ونحوها، ولهذا قال الزهري رحمه الله تعالى: "القدر رياض الزندقة؛ فمن دخل فيه هملج" (٥)، (يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم).
الثاني: الزيغ المسلكي قي باب القضاء والقدر: وهو كثير في الناس وأنواعه طويلة الذبول مختلفة المسارب، ويجمعها عدم التسليم لله تعالى.

ومن ذلك أن يعتقد الأمر ثم يبحث عن دليل يلوي عنقه إليه، أو أن يتنازع فيه نزاع المراء والعلو في الأرض لا التواضع للحق، ومن ذلك تناول مسائل القدر بالجدل المفضي إلى إثارة الشبهة دون إقامة الحجة، وكذلك الخوض في مسائل لا يزيد العلم بها ولا يضرب الجهل بها، بل قد يصل الأمر بالخائض فيها بلا بصيرة لانتكاس إيماني وارتكاس علمي وحيرة فكرية، فالإيمان بالقدر مبني على علم يقيني راسخ، لا على شك وارتياب ونفاق، فالأيمان يقين والنفاق ريب. وقد يُخذل من دخل باباً لم يؤمر به ولم يؤذن له به فتعلق بقلبه شبهات تُزعزع يقينه وتقوض ثباته فيلقى الله شاكاً في بعض أمره عياداً بالله تعالى، (فإمّا يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى) (١٢٣) ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى (١٢٤) قال رب لم حشرتني أعمى وقد



كُنْتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَتْهَا كَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى (١٢٦) وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى (١٢٧).

والجدل الباطل علامة خذلان فعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "ما ضلَّ قومٌ بعدَ هُدًى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل"، ثم تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ (٦). ولكن الجدل بالهدى والحق لإقامة الحق محمود مشكور من الله الحق، كما قال تعالى: (وجادلهم بالتي هي أحسن)، وقال سبحانه: (ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن). ولا يدخل في التنازع المذموم منازعة ومجاهدة الفرق الضالة من المشركين وأهل القبلة ومجادلتهم بالحق؛ بل هو من الجهاد العالی وهو جهاد اللسان والبيان، وهو جهاد المرسلين، والله تعالى قد أمرنا به، (وجاهدكم به جهادًا كبيرًا)، (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ).

ومن الزيغ السلوكي في هذا الباب أيضًا أسئلة التعنت في القدر، والله تعالى يقول: (لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون)، (وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال). ومنه أيضًا الاحتجاج بالقدر على المعصية كقولهم: (لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا). ومن الزيغ السلوكي في باب القدر أيضًا الاعتراض على القضاء والقدر واللدد والمخاصمة والمهارة كفعل المشركين، (وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) [الزخرف: ٣١-٣٢]. وأول من خاصم ربه في القدر إبليس أعادنا الله منه، فإنه قال: ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾، فمن خاصم في



القدر فشيخه أبو مِرَّةَ الرَجِيمِ، (كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَاهُمْ حَسْرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ).

هذا؛ وإنَّ من المخالفات المسلكية في هذا الباب الأغلوطات، ولقد كان السلف يزجرون عن الأغلوطات ومعناها: السؤال عن عُضَلِ المسائل والمشكلات على وجه التعجيز لا الاستهداء، فيُغَالَطُ بها العلماء لِيَزِلُّوا فيها، وكذلك المسائل التي لم تقع بعُدِّ، كذلك ما لا يُحْتَاجُ إليه من كيف وكيف. فجامع الأغلوطات: السؤال على غير نيَّةِ الهداية، والله المستعان (٧).

قال الأوزاعي رحمه الله تعالى: "إنَّ الله إذا أراد أن يَحْرِمَ عبدهُ بركةَ العِلْمِ؛ ألقى على لسانه المَغَالِيطَ، فلقد رأيتهم أقلَّ الناسِ عِلْمًا" (٨). ولما سأل رجلُ أبي بن كعب رضي الله عنه عن مسألة فيها غموض، قال له: "هل كان هذا بعد؟"، قال: لا، قال: "أمهلني إلى أن يكون" (٩). وعن أمير المؤمنين عليٍّ رضي الله عنه أنه قال: "سَلُونِي"، فسأله ابن الكواء، فقال: "ويلك سَلْ تَفْقُهْهَا، وَلَا تَسَلْ تَعْتَبُهَا"، وفي موضع آخر قال له: "إنك لَذَهَابٌ فِي التِّيهِ، سَلْ عَمَّا يَنْفَعُكَ أَوْ يَعْزِيكَ" (١٠). وعن الحسن البصري رحمه الله تعالى قال: "شِرَارُ عِبَادِ اللَّهِ يَنْتَقُونَ شِرَارَ الْمَسَائِلِ يُعَمُّونَ بِهَا عِبَادَ اللَّهِ" (١١). وإذا تأملت غلُوطَاتِ النَّاسِ تجد أن سوادها التعتت في القدر لغموض بعض مسائله واتصالها بحياة العامة.

وبالجمله؛ فالعلم بالقَدَرِ ضروري للإيمان وركن فيه، إذ هو من أصول الإيمان التي يجب تعلّمها، فمن مسائل القَدَرِ ما يكون العلم والإيمان به ركنًا للإيمان، ومنها ما يكون العلم والإيمان به كمالًا للإيمان لتعلّقه بعلم الشريعة وأفعال الرحمن، ومنه مسائل لا فائدة



علمية ولا عبادة عملية ولا تركية إيمانية تُرجى من خوضها وبحثها؛ فالأصل عدم الدخول فيها إلا للحاجة كردّ شبهة ونحو ذلك.

أما القدر المنهني عنه في مسائل القدر فهو على نوعين: أولاهما: غيب لا يعلمه الا الله تعالى، فالخوض في ذلك رجم بالغيب وتكلف ما لا علم لنا به، والثاني: التنازع والمراء وضرب النصوص ببعضها. فمتى سلّم المرء من تناول هذين المحذورين؛ شرع له بحث مسائل القضاء والقدر، وساغ له الكلام فيه بإيمان وعلم وأدب.

هذا؛ وإن مراعاة هذين الأمرين وإن كانت مضطردة في سائر مسائل الشريعة إلا أنها في باب القضاء والقدر أشدّ حضوراً لتعلقها المباشر بحياة وفكر ومصائب ورغائب ومصائر الناس من جهة، وارتباطها الوثيق بأموال الدين كلها من جهة أخرى، فبذلك تمّ ربط الدنيا بالآخرة، والعلم بالعمل، والتكليف بالمصير، والابتلاء بالديانة، وحرث العبد بامر الرب؛ فمن هنا كان نزاع الناس فيها كثيراً، واضطرابهم حيالها عظيماً، لذلك جاء التشديد في الخوض والتنازع والمخاصمة فيها ما لم يأت في غيرها، والله أعلم.

هذا؛ وقد يكون بحث بعض نوازل مسائل القدر الحادثة فرضاً على بعض الأعيان إذا قام سبب ذلك. وقلنا بمشروعيته في عويص مسائل القدر الحادثة لمن كان من أهل العلم حين وجود سببه؛ لأنه من جهاد الدفع العلمي الكفائي عبر توضيح الحدود الشرعية الحقيقية للمسألة بأدلتها وشواهداها، وصدّ شبهات الضلالة، وردّ إيرادات العماية، ودفع الصيال العادية، من الشبهات الخاطفة والأهواء الضالة والنوازل الحاضرة عن الأمة.



واعلم - رحمني الله وإياك - أنّ طريقة دفع عامّة الشُّبه في تلك المسائل الحادثة في باب القدر وغيرها إنما يكون بتوضيح حقيقتها وإزالة ما التبس من تمويهها، فالحق يبقى حقاً، والدين ليس في حاجة لعلم جديد مستأنف، فهو كامل تامّ مرّضي لا يشادّه أحدٌ إلا غلبه، فالمقصود - وهذا مهم جداً - هو أنّ بيان ضلال المسائل في هذا الباب عبر بحث المسائل ليس لتثوير علمٍ جديدٍ فيها، فلا جديد في علم الشرع؛ إنما الغرض منه إفراد الدخيل عن الأصيل، وتمييز الحقّ المكين من الباطل المدّعى، فمتى رُدَّت المسألة النازلة لأصلها الشرعي وحدودها وحقيقتها معناها وكشف أغلاطِ مناطاتها فإنها تسقط تلقائياً، فالحق في الكتب واضح بحمد الله تعالى، (الحقُّ من ربِّك فلا تكن من المُمترين).

فالحقُّ شمسٌ والعيونُ نواظرٌ... لكنّها تخفى على العميانِ

ولتقريب المعنى؛ فلو أنّ مسألة ما قد بُنيت على حديث باطل؛ فإنّ بيان بطلان سنده كافٍ عن بحث متعلّقات المسألة في معناه، لأن ما بُني على باطل فهو باطل. وكذلك لو أنّها بُنيت على نصٍّ صحيح لكنها فسّرت على فهمٍ مغلوّطٍ لا يحتمله النص؛ فإنّ إثبات عدم احتمال المعنى المُحدَث لذلك النص كافٍ في إسقاطها. وكذلك لو كانت الشبهة مبنية على أغلوطة فكرية أو مظنونة عقلية ثم سيقت للناس على أنّها قطعية عقلية، فيسوّق الوهم بصورة يقين، وأشياء أقلّ ما يقال فيها أنّها ظنية لا قطعية؛ فدفع ذلك يكون عبر تمييز الحدود الفاصلة القطعية لليقينيّة العقلية عنها، فإذا ظهرت الحقيقة اليقينية واتّضحت سقط ما ألصق فيها من أوهام واضمحلال ما خالطها من خاطئ الإرادات وغالط الأفهام، وانماغ شمع الزيف عبر نار تحقيق المناط وتحريره وتنقيحه، وانقشع بحمد الله غيب الهوى بشمس الهدى، (فما ذا بعد الحق إلا الضلال). وهذا ما يسمّى عند الأصوليين بتنقيح المناط، أي:



تنقية الأمر المعين وتخليصه من غيره، فيُنزَع عنه ما ليس منه، وذلك بأن ينص الشارع على حكمٍ عقيب أوصافٍ معينة، فتُلغى الأوصاف غير المؤثرة في الحكم، ثم يعلق الحكم على ما بقي مما هو معتبر لها، وهذا مرادنا هنا، لأن الباطل يسقط بنفسه حين كشف حقيقته، فيذوب حينها ثلج الضلال ويستبين فوقه مَرَجُ الحقِّ، فيأريده مردودًا بالبراهين الشرعية يهتك ستار تدليسه ويكشف قناع تلبيسه عن وجه الحقيقة الأبلج الناصع المبين. والشبهة إذا زالت فإن الإيمان يدفع ما بعدها بإذن الله تعالى. فإن ساعد على ذلك صلاحُ ذي الأمر وقوته اجتمع خيرهما بإذن الله تعالى، كما قال أبو تمام:

فَمَا هُوَ إِلَّا الْوَحْيُ أَوْ حَدُّ مُرْهَفٍ ... تُمِيلُ ظُبَاهُ أَخْدَعِي كُلَّ مَائِلٍ

فهذا دواءُ الداءِ من كُلِّ عالمٍ ... وهذا دواءُ الداءِ من كُلِّ جاهلٍ (١٢)

والحاصل؛ أن بحث هذه المسائل الشائكة إنما يكون في الغالب بهذه الطريقة، وهي كما ترى مفتقرة إلى معرفة الحدود الشرعية للمسألة الواحدة بفهمها السليم أوّلاً حتى لا يُدخل فيها ما ليس منها أو يُنفي عنها ما كان منها، ثم استيعاب أدلتها وربط معانيها بها واحترازاتها، ثم يلي ذلك دفع إيراداتها وإبطال توهماتِها. فبتحرير محلّ المخالفة فيها عبر بيان الحقِّ المذهبِ لما يُظنُّ من ضلالةٍ شيبَ بها حقُّ، فيميز الحق حينها من الباطل، حتى يبقى الباطل عارياً واضح الضلال، فيسقط من عيون الخلق وتنفره قلوبهم، وبهذا يسقط أساسُ الباطل وينهار بناؤه بفضل الله تعالى، فالباطل مهما تلون وانتشر فهو ضعيف في نفسه ينهار تحت معاول الحق، لذلك فلم يُصب من منع من ذلك بإطلاق، أو فتح بحثه بإطلاق، فليس في الأمر مع التحرز والحذر والتؤدة إبطالُ حقٍّ أو تمريرُ لباطلٍ أو تضييعُ لفاضل، والمؤمن كَيِّسٌ فطن، وكلُّ ميسرٍ لما خُلِقَ له.



وإذا علمت بأنه متفاضل... فاشغل فؤادك بالذي هو أفضل

وكم من نجاسة فكرية رُوِّجت على العقول حتى ألفتها، وضلالة كُرِّرت على النفوس حتى صدقت بها، وفتنة علمٍ تساهل بها صاحبها حتى أوبقته، ولو أنها كشفت ابتداءً لسقطت كالسقط التالف.

ومن فروع ذلك؛ بيان أن الضلالة الفتانة لا تكون ضلالاً محضاً وإلا لم تُغر مؤمناً، لكنها تتزين ببعض الحقِّ تسويقاً لباطلٍ خلفه. فمكمنُ خطر الضلالة وسبب انتشارها هو أنها ضلالة بُنيت على شيء من حقٍّ، ثم غيّرت وجهته واسترسل في لوازم ليست له، وأُحيل معناه الجميل الصحيح لباطل قبيح. ولو كان الباطل خالصاً لم يرج في سوق أفكار البشر، ولكنه كالسارق الذي يلبس ثوب صاحب المنزل، وكمن يبيع العنب لمن يعصره خمراً، (وإنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُودُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ).

ولو تأملت مذاهب أهل الأهواء قاطبة لوجدتها لا تخلو من حق يقل أو يكثر. وكلما كان حيز الحق والهدى أكثر كلما راجت شبهتهم واشتد كلبها في الناس، فالخير في الناس يسوقهم لطلب الهدى حيث كان. لذا كان من شريف الجهاد العلمي دحر هؤلاء عن حياض العلوم نصحاً للأمة من غشش القول وغيايات البدع، (وما يفعلوا من خيرٍ فلن يُكفروه والله عليمٌ بالمتقين).

ومن هذا الباب فإن بحث مسائل القدر التي شاع بين الناس الكلام فيها بفهم على غير حقيقتها، وفقه على غير هداها، حتى زلزلت قلوب بعض المتقين، وغبشت بصائر قومٍ



مؤمنين، وكدرت صفاء آخرين، وخيف من ضلالهم فيها أن تستريب قلوبهم وتتشكك أفئدتهم ويتزعزع بالله تعالى يقينهم؛ فحينئذ يكون فتح ذرائع بحثها مشروعا لا ممنوعا، ولكن على قدر الحاجة بلا مزيد خوض فيما لا طائل منه، فالقلوب ضعيفة والشبه خطافة، والعمل كثير والعمر قصير، والسلامة مطلبٌ والعافية لا يعدلها شيء.

وعليه؛ فمن خاف على دينه من شبهةٍ ففرضه الإعراض عنها، أو سؤال أهل العلم عما أشكل عليه من فهمها، أما إغناقه في حباتها وخوضه في مشتبهاتها ففصولا وحب استطلاع؛ فهو مغامرة بالدين واقتحام للمهلكة ورحلة للعطب، كساع إلى الهيجا بغير سلاح. ولكن من كان من أهل العلم والتخصص، وأخلص الوجه لله تعالى، واعتصم بالوحي؛ فلن تزل بإذن الله قدمه، وسيشكر بإذن ربه سعيه، ولكل حال لبوس، ولكل مقام مقال، ولكل لواء أهله. ومن طرق الأمور من أبوابها أو شك أن يفتح له، ومن عزم في الجواد وصل.

إذا لم يكن إلا الأسنّة مركبا ... فما حيلة المضطرّ إلا ركوبها

وعليه؛ فقد يكون بحث أحادٍ بعض المسائل النازلة فرضا على بعض الأعيان، كما قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى: "لو أن الناس كلما استصعبوا أمرا تركوه ما قام للناس دين ولا دنيا" (١٣). وحراسة ثغور العلم والإيمان أولى من حراسة ثغور الأرض والبلدان، وكلما جدّد أعداء الله بدعة أقام الله لهم من يهدمها بأمره، ولا يزال في الأمة قائمين لله بالحجة والبرهان وبالسيف والسنان.



فلم يزل الله تعالى بحمده وفضله ومنتته يستغرس في الأمة من يقوم له بالحجة تبيانا للمحجة، منافحا عن قواعد الملة، حارسا لحياضها، مجاهدا لله فيها، (ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض). ومن هذا الباب الحارس الحامي بإذن الله تعالى تكلم الأئمة في مسائل أحدثت في زمانهم، فتأمل ما كتبه الإمام أحمد وطبقته ومن سبقهم في مسائل لم تك فيمن قبلهم، ثم استجدت نوازل لمن بعدهم من أئمة الأمة، وكان شيخ الإسلام يكتب ويذكر أنه لو لم تكن الحاجة لمثل هذا وأن أهل الباطل نازعوا فيه ما كتب فيه، ونحو ذلك.

وبالجملة؛ فمسائل القدر سهلة يسيرة وواضحة مبيّنة في الجملة، وهي كافية للإيمان، ومن آمن بها أغنته وكففته وصحح بها معتقده، وهي مبثوثة في ثنايا القرآن والسنة، مُعززة بالعقل والفطرة. وهي نزرة قليلة تامة كافية شافية لولا تشويق الناس لمسائل أبعدها فيها عن نجعة السلامة والهدى، بيد أن بعض أبواب القدر - وهي زائدة عما ذكرنا - شائكة عسيرة، ولها حدود وأطراف في الغاية من العمق والدقة، وتشتبه على كثير من الناس، وإنما يفهمها الراسخون الذين ينزلون علمها منزلته اللائقة ومكانه الصحيح. ثم من بعدها أطراف من علم القدر لا يعلمها بشر، لأنها فوق استيعابهم وإدراكهم وأفهامهم، وأوسع جدا من أن تحيطها علومهم، فالإقدام عليها عطب للعقل، وضياع للدين، واستفراغ لجهد كان الواجب أن يبذل فيما سواه، فلم يأذن الله تعالى بأن تكون معلومة لنا في هذه الدار رحمة وحكمة وابتلاء، وحتى يميز الله المؤمن الموقن المسلم من المتهوِّك المرتاب المكذب، فهي مسائل تُخيِّرُ العقول ولا تُحيلُها، فالعقول تقبلها وتقول بإمكانها ولكن لا تفهم أطرافها على التفصيل، بل أحيانا حتى على الإجمال، لأنه بعد مرَمَى إدراكها وفوق إطاقه قوتها.



وكل هذا راجعٌ لحكمة الله تعالى وربوبيته وأسرار خلقه ورحمته ولطفه وابتلائه لعباده، لذلك كان حتمًا على المؤمن الوقوف دون أسوارها، وعدم الاقتراب بفكره من أرباضها، والنزوع عن التلصص بوهمه في مسارها وأنقابها، حتى لا يزيغ فهمه، ولا يضل علمه، ولا يخب سعيه، (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ۚ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ۗ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ).

وعليه فاعلم - رحمني الله وإياك - أن مسائل القدر على أربعة أضرب:

الأول: مسائل جاءت الشريعة بها وبأدلتها على الإجمال والتفصيل، وهذا الضرب فيه علوم لا يقوم الإيمان إلا بها، كالإيمان بعلم الله تعالى، وكتابته، وعموم مشيئته لكل شيء حتى طاعة المطيع ومعصية العاصي، وخلقها للأشياء كلها ومنها أفعال العباد. وحكمته ورحمته وعدله وإرادته وابتلائه ونحو ذلك من المسائل، وهي العلوم الضرورية في باب القضاء والقدر.

الثاني: علوم جاءت بها الشريعة في باب القضاء والقدر على وجه التكميل، فهي قدر زائد عن العلوم التي لا يقوم الدين إلا بالعلم بها واعتقادها، وهي أشبه ما تكون بتفصيل ما أجمل في الضرب الأول، والعلم بها شرف مندوب مستحب محمود، وحالها كحال بقية مباحث علوم الشريعة الأخرى التي يعلو عند الله تعالى من كان بها أعلم: (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات)، (قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا



يعلمون) وهذا هو باب المسابقة إلى الله تعالى عن طريق طلب العلم من أبوابه التي أشرعتها الشريعة، (فاستبقوا الخيرات).

الثالث: علوم نهي الشرع عن بحثها، وزجر عن الخوض فيها، وهي سياقات بحوث القدر التي ليس تحتها عمل، ولا تنتهي لعلم متعلق بدليل، بل هي افتراضات وتحكمات متعلقة بعلم الغيب، فلا تُدرك إلا بالخبر من الله تعالى، وإذ لم يوجد الخبر، فمعناه أن هذا العلم مغلق عنّا، وهذا نابع عن إيماننا التام بكمال الشرع، وعدم نقصه بأيّ وجه من الوجوه، كما قال تعالى: (ما فرطنا في الكتاب من شيء)، وقال سبحانه: (اليوم أكملت لكم دينكم)، وقال صلى الله عليه وسلم: "تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ لَيْلَهَا كَنَهَارِهَا لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ" (١٤)، وقال صلى الله عليه وسلم: "مَا تَرَكْتُ شَيْئًا يُقَرِّبُكُمْ إِلَى الْجَنَّةِ إِلَّا وَقَدْ حَدَّثْتُكُمْ بِهِ، وَلَا شَيْئًا يُبْعِدُكُمْ مِنَ النَّارِ إِلَّا وَقَدْ حَدَّثْتُكُمْ بِهِ". (١٥) فلما كان الشرع كاملاً أولاً، ثم لم يورد الشرع هذه المسألة بعينها ثانياً؛ دلّ هذا على أن هذه المسألة هي خارج سياق الشرع والدين.

وإذا كانت كذلك فلا خير في بحثها، ولا حاجة لنا بها، لأنها لو كانت مغنماً لأبداها الشرع لنا، كما أن معرفتها على التحقيق مُحَالَةٌ علينا، لأن طريق العلم اليقيني بها محصورٌ بخبر الشرع لا غير. ومن ذلك علم سرّ القدر، ومعرفة العلل الغائية له على التفصيل والتحقيق، ولماذا خلق الله تعالى كذا وكذا، وعلام أفقر فلاناً وأغنى فلاناً، وأصحّ هذا دون ذلك، وأمات هذا وأحيا ذاك، وأضلّ وهدى، وشاء واختار.. ونحو ذلك، (وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخَيْرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٨) وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (٦٩) وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ



ولهُ الحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٧٠)، لذلك فالإقرار بالجهل بسرّ القدر يقطع وارد النزاع والشقاق والاحتجاج بالقدر على المعاصي، ويورث العقل الراحة من مُشاغبة الأفكار الغيبية في الأمور الغيبية، ويحقن في القلب التسليم لله تعالى في الشأن كله، (وأمرنا لنسلم لرب العالمين).

وثمة أمور من القدر فيها دقة وعمق لا يفقهها ولا يستوعبها كل أحد، وإن كانت واضحة لأهل العلم، ولا يحسن إيرادها خشية الإلباس، وثمة أمور قدرية غير مكشوفة للخلق أصلاً ولا تدركها عقولهم ولا تطيقها أفهامهم، قد حُجِبَتْ عنهم لحِكم ربانية لا نعلمها والله يعلمها، ومع ذلك نؤمن أنّ الله تعالى لا يظلم الناس شيئاً، وأنهم بين فضله وعدله، وأنه حكيم في أفعاله، وأن رحمته سبقت غضبه، وعفوه سبق مؤاخذته، وأنه محمودٌ حمداً كاملاً على كل أقداره وأوصافه وأفعاله، وأنه قد وسع كل شيء رحمةً وحكمةً وعلماً.

وبعد؛ فأنعم النظر، وأطل التدبر، واستنطق القلب، واستحلب الفكر، واستنرح المعاني العجيبة من قول الله تعالى في هذا الباب الهائل الغامض المدهش: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَاٰمِنُوْا بِاللّٰهِ وَرُسُلِهِ وَاِنْ تُؤْمِنُوْا وَتَتَّقُوْا فَلَكُمْ اَجْرٌ عَظِيْمٌ﴾.

وإذا كانت مدارك الناس تختلف بحسب علومهم وأفهامهم؛ فكيف بعلم الله تعالى؟! (ولله المثل الأعلى). قال ابن الوزير رحمه الله تعالى: "العادة قد استمرت على وجوب الاختلاف في الأحكام عند التفاضل في العلم والحكمة، وذلك يُوجب استقباح الجاهل



لبعض أفعال الأعم على قدر ما بينهما من التفاوت، فأولى وأحرى أن يُوجب استقبح الجاهل لبعض أفعال الأعم.

ولما كان التفاوت بين علم المخلوقين وعلم خالقهم سبحانه لا يُقدَّر بمقدار ولا يتوهم بقياس؛ وجب أن يكون بينهم في التحسين والتقيح لتفاصيل الأحكام أعظم الاختلاف وجوباً عادياً يستحيل خلافه... فلما جاء السمع بالمشابه عليهم على القاعدة المألوفة والعادة المعروفة في أن الأعم إذا تميز شيئاً قليلاً عن أجناسه وأشباهه لم يكن بُدُّ من أن يأتي بما لا يعرفون ويفعل ما لا يقولون ويستحسن بعض ما يستقبحون، حتى قيلت في هذا الأشعار وضربت فيه الأمثال، وحتى قيل: إن الاجتماع في الخفيات محال مثلما أن الاختلاف في الجليات محال. وقد أجاد في هذا المعنى من قال:

تسلَّ عن الوفاق فرُبنا قد ... حكى بين الملائكة الخصاماً

كذا الخضر المكرم والوجيه ... المكلم إذ ألمَّ به لماً

تكدَّر صنفو جمعها مراراً ... وعجل صاحب السرِّ الصراماً

ففارقة الكليم كليم قلب ... وقد ثنى على الخضر الملاماً

فدلَّ على اتساع الأمر فيما ... الكرام فيه خالفت الكراماً

وما سبب الخلاف سوى اختلاف ... العلوم هناك بعضاً أو تماماً

فكان من اللوازم أن يكون ... الإله مخالفاً فيها الأناماً

فلو لم نجعل الأسرار عنها ... بلغنا مثله فيها المراماً



فَصَارَ تَشَابَهُ الْأَحْكَامِ مِنْهُ ... عَلَيْهِ شَاهِدًا وَلَنَا لِرِزَامًا

فَلَا تَجْهَلْ لَهَا قَدْرًا وَخُذْهَا ... شُكُورًا لِلَّذِي يُجِيئُ الْعِظَامَا (١٦)

ويُلحق بهذا النوع من المسائل في القدر المنهي عن الخوض فيها: التنازع والخصام والمراء والمجادلة بالباطل فيه، وكذلك ضرب الكتاب ببعض بالتعنت اللدود، والتشقيق الرديء، والتنقير الجهول، وحمله على أهواء المبتدعة، ونقص اليقين بأنه حقٌّ مطلقٌ ونحو ذلك. وعلى هذا يُحمل الأمر الوارد بالإمساك عن القدر، والعزمة النبوية الشريفة بعدم التنازع فيه، (فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ).

هذا؛ وإن من جدير التنبيه حول مسألة أسرار الأقدار، أن الطُّرُقِيَّةَ وأهل الخرافة كثيرًا ما يدورون على لفظ السرّ، ويُحَوِّرون دلالاته لتماشى مع اعتقاداتهم الباطلة في شيوخهم ومُقدِّميههم بأن لهم أسرارًا وكشفًا وعِلْمًا لِدُنْيَا خَاصًّا، ووصولًا للحقيقة واليقين بطريق غير شريعة الرسول صلى الله عليه وسلم، لهذا نرى بعض المتصوفة كثيرًا ما يردّدون مصطلح السرّ؛ لأنه يدعم أقولاً لهم بلا برهان. ونقول: إن القدر سرُّ الله في خلقه، فهو خاصٌّ بالله سبحانه، وقد أخبرنا ربُّنا جلَّ جلاله أن الدين المرْتضى الوحيد للسعادة والفلاح والفوز عنده هو الإسلام الذي ابتعث به نبيّه محمدًا صلى الله عليه وسلم، فقال سبحانه حاسمًا كلَّ نزاعٍ وقاطعًا كلَّ جدلٍ ومُبطِلًا كلَّ خطّةٍ: (وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ)، والإسلام هو الشريعة المحمدية لا السبل الأخرى المدّعاة، (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)، (صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ).



وعليه؛ فمن ادعى علماً بالله تعالى من غير جهة الرسول صلى الله عليه وسلم فعلمه جهلٌ، وأمره إلى تبابٍ، فلا علم على التحقيق إلا ما جاء من مشكاة الوحي، كما قال تعالى: (وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ)، وقال صلى الله عليه وسلم: "وقد تركتُ فيكم ما لن تضلُّوا بعده إن اعتصمتم به؛ كتاب الله" (١٧). ومن توابع الضلال في مسألة كشف الأسرار الربانية لأحدٍ بطريق غير طريق الشريعة قول بعضهم: "حدّثني قلبي عن ربي". أي: أنه ليس بحاجة للكتاب والسنة اكتفاء بالكشف اللدني بزعمه. وكذلك قول الآخر في قوله تعالى: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾، فيزعم أن معناها: "اعبد ربك حتى يحصل لك العلم والمعرفة، فإذا حصل ذلك سقطت عنك العبادة". فهذا ضلال محض وكفر مبین. وكذلك قول الآخر بلوثة جبرية: "من نظر إلى الخلق بعين الشريعة مَقْتَهُمْ، ومن نظر لهم بعين الحقيقة عَذَرَهُمْ، فالعارف مستبصر بسرّ الله في خلقه". فهذا باطل وضلال، لأن فيه إبطال للشرع والتماس العذر للمنحلين من الدين، فليس للعباد عُدْرٌ بالمعاصي بعد البلاغ، ولا حُجَّةٌ لأحد بعد الرُّسل، (لأنذركم به ومن بلغ)، (بلاغ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون). وكل ما سقتُ لك من أمثلة فأخية الضلال فيها قوهُمُ بحصول كشفٍ لخاصّتهم من الأسرار الربانية دون الوحي الإلهي للرسول صلى الله عليه وسلم، (ومن يضلل الله فما له من هاد). والمقصود؛ أن من القدر أسرار ربانية لم يأذن الله تعالى بكشفها لا شرعاً ولا كوناً لحكمة ربانية لا ندرك أطرافها، (لا يسأل عما يفعل وهم يسألون).

الرابع: مسائل في القدر فهمها بعض الناس على غير حقيقتها التي جاء بها الشرع، فحرّفوا معناها فضلوا وأضلّوا، وفي ظني أن أكثر الانحراف في الأمة من قديم فبابه



الانحراف عن المفهوم الصحيح للقدر، فكشفت باطل هؤلاء فرض على الكفاية على من وهبه الله قدرة عليه، فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالمٌ اتَّخذ الناس رؤوساً (١٨) جهالاً، فسئلوا فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا" (١٩).

فهذا الضرب من المسائل وأشباهها هو محلُّ بركة البحث والاحتساب والجهاد بالبيان فيها، وقمن بإذن الله أن يفتح فيها لمن بحثها رجاء الهدى له وللناس لا إرادة العلو في الأرض، ويثاب ويؤجر لأنه لم يرم حوص بحثها ابتداءً، إنما ساقه الواجب، وأجأه إليها من خوف حلمه من طلاب الشبه ومثيري فتن العلم والجهل، (فلا تطع الكافرين وجاهدوهم به جهاداً كبيراً)، فالعلماء كالنجوم في الظلماء زينة للعالم طراً، وعلامات يهتدى بها في التيه براً وجواً وبحراً، ورجوماً للمبطلين احتساباً للدين وبراً.

تناثر العلم شهداً من ثغورهم ... أكرم به منبعاً للدين ينسكب

ولقد حذر السلف من الكلام في الدين بالباطل، أو بلا علم، كما كرهوا الجدل والمراء فيه، وحثوا على الحمية للحق احتساباً، قال ابن عبد البر معلقاً على كلام الإمام مالك رحمه الله تعالى حين قال: "الكلام في الدين أكرهه، ولم يزل أهل بلدنا يكرهونه وينهون عنه؛ نحو الكلام في رأي جهم والقدر، وكل ما أشبه ذلك، ولا أحب الكلام إلا فيما تحته عمل، فأما الكلام في دين الله، وفي الله عز وجل، فالسكوت أحب إلي؛ لأنني رأيت أهل بلدنا ينهون عن الكلام في الدين إلا فيما تحته عمل"، قال أبو عمر ابن عبد البر رحمه الله تعالى: "قد بين مالك رحمه الله أن الكلام فيما تحته عمل هو المباح عنده وعند أهل بلده؛ يعني



العلماء منهم رضي الله عنهم، وأخبر أن الكلام في الدين نحو القول في صفات الله وأسمائه، وضرب مثلاً فقال نحو قول جهم والقدر، والذي قاله مالك رحمه الله عليه جماعة الفقهاء والعلماء قديماً وحديثاً من أهل الحديث والفتوى، وإنما خالف ذلك أهل البدع: المعتزلة وسائر الفرق، وأما الجماعة، فعلى ما قال مالك رحمه الله إلا أن يضطرَّ أحدٌ إلى الكلام فلا يسعه السكوت إذا طمع بردُّ الباطل، وصرف صاحبه عن مذهبه، أو خشي ضلالاً عامّةً، أو نحو هذا" (٢٠).

ولما كانت هذه المسائل من الغموض والصعوبة والاشتباه بمكان؛ كان كثير من العلماء يجتنبون بحثها ديانةً وورعاً وخوفاً أن تزيغ بهم عن سواء السبيل، ولكن كان الواحد بعد الواحد منهم من يأخذ الله تعالى بقلبه ويهديه للبحث فيها جهاداً بعلمه، وغزواً للشيطان بمداذه، فيستفرغ وسعه ويقوي عزمه ويجدد إخلاصه ويجرد توكله على ربه فيفتح له فيه، حتى يُوقفَ الناس على حدود الشبهة وحقيقتها، ويهتك سترها، ويكشف بإذن الله تعالى لهم ضلالها، ويبين حدَّ الشرع فيها، وحقيقة العلم الصحيح بها، فيمتاز الحق فيها من الضلال، (لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)، ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾. ويقوم ذلك المبارك حياها بفرض الكفاية عن الأمة. وهذا أصل في الشرع محفوظ.

والناس ألف منهم كواحد... وواحد كالألف إن أمرنا

واعتبر ذلك بمباحث وجود الشرِّ في الخلق ومسألة التعليل ومسألة التحسين والتقييح العقلي للإمام القيم ابن القيم رحمه الله تعالى، فهي مسائل واضحة في الأصل، غير محتاجة



لخوض بعض تفاصيلها، ولكن لما تنازعتها أقلام أهل الأهواء واعتورتها منابر أهل الضلالة؛ استعان رحمه الله بربه فسَلَّ يَرَاعَةَ العلمِ المبينِ لنسفِ شُبُههِ المبتدعين، فأثمرت تلك المقامات السَّنيَّة السُّنيَّة حروفًا في الغاية من الشرف والمتانة والعمق والنفاسة، فإذا قرأها العامي فضلًا عن طالب العلم ازداد في الحقِّ بصيرة وإيمانًا، فلم يزد ابن القيم فيها علمًا من لدُّنه، إنما كشف حقيقة المسائل، وَحَدَّ أبعادها، وأقامَ تصوّرَ بنائها، وأزال الباطل الملتبس بها عن الحق الأصيل فيها، وردّ مشتبهاتها لمحكماتها، فاستقامت جادة حروفه فيها على مهيع الهدى والسنة بحمد الله تعالى، وعلى هذا فقسُّ هذا الأمر واعتبر بذلك الأثر.

فمن للقوافي بعد حسن ابنه ... ومن للمثاني بعد زيد بن ثابت

ومن هذا الباب كانت أكثر مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى كالاستقامة ونقض التأسيس ونقد المنطق والعقل والنقل ومنهاج السنة وشرح الأصفهانية وغير ذلك، قال العلامة البزار عن شيخه ابن تيمية رحمه الله تعالى ومؤلفاته النافعة في هذا الباب وغيره: "ولقد وجب على كل من وقف عليها وفهم ما لديها أن يحمد الله تعالى على حسن توفيقه هذا الإمام لنصر الحق بالبراهين الواضحة العظام.

حدثني غير واحد من العلماء الفضلاء النبلاء الممعنين بالخوض في أقاويل المتكلمين لإصابة الثواب وتمييز القشر من اللباب أن كلاً منهم لم يزل حائرًا في تجاذب أقوال الأصوليين (٢١) ومعقولاتهم وأنه لم يستقرّ في قلبه منها قول، ولم يبين له من مضمونها حق، بل رآها كلها موقعة في الحيرة والتضليل، وجُلُّها معن بتكلف الأدلة والتعليل، وأنه كان خائفًا على نفسه من الوقوع بسببها في التشكيك والتعطيل، حتّى من الله تعالى عليه بمطالعتة مؤلفات هذا الإمام أحمد بن تيمية شيخ الإسلام، وما أورده من النقلات



والعقليات في هذا النظام، فما هو إلا أن وقف عليها وفهمها فرآها موافقة للعقل السليم، وعلمها حتى انجلى ما كان قد غشيه من أقوال المتكلمين من الظلام، وزال عنه ما خاف أن يقع فيه من الشك وظفر بالمرام.

ولقد أكثر رحمه الله من التصنيف في الأصول فضلاً عن غيره من بقیة العلوم، فسألته عن سبب ذلك، والتمست منه تأليف نص في الفقه يجمع اختياراته وترجيحاته ليكون عمدة في الإفتاء فقال لي ما معناه:

الفرع أمرها قريب، ومتى قلد المسلم فيها أحد العلماء المقلدين جاز له العمل بقوله ما لم يتيقن خطأه، وأما الأصول (٢٢) فإنني رأيت أهل البدع والضلالات والأهواء كالمفلسفة والباطنية والملاحدة والقائلين بوحدة الوجود والدهرية والقدرية والنصيرية والجهمية والحلولية والمعطلة والمجسمة والمشبهة والراوندية والكلابية والسلمية وغيرهم من أهل البدع قد تجاذبوا فيها بأزمة الضلال، وبأن لي أن كثيراً منهم إنما قصد إبطال الشريعة المقدسة المحمدية الظاهرة العلية على كل دين، وأن جمهورهم أوقع الناس في التشكيك في أصول دينهم، ولهذا قل أن سمعت أو رأيت معرضاً عن الكتاب والسنة مُقبلاً على مقالاتهم إلا وقد تزندق أو صار على غير يقين في دينه واعتقاده.

فلما رأيت الأمر على ذلك؛ بان لي أنه يجب على كل من يقدر على دفع شبههم وأباطيلهم وقطع حججهم وأضاليلهم أن يبذل جهده ليكشف رذائلهم، ويزيف (٢٣) دلائلهم ذباً عن الملة الحنيفية والسنة الصحيحة الجلية.



ولا والله ما رأيت فيهم أحداً ممن صنف في هذا الشأن وادّعى علو المقام؛ إلا وقد ساعد بمضمون كلامه في هدم قواعد دين الإسلام! وسبب ذلك إعراضه عن الحق الواضح، وعن ما جاءت به الرسل الكرام عن رب العالمين، واتباعه طرق الفلسفة في الاصطلاحات التي سمّوها بزعمهم حُكُميات وعقليات، وإنما هي جهالات وضلالات، وكونه التزمها معرضاً عن غيرها أصلاً ورأساً، فغلبت عليه حتى غطت على عقله السليم، فتخبّط حتى خبط فيها خبط عشواء، ولم يفرّق بين الحق والباطل، وإلا فالله أعظم لطفاً بعباده من ألا يجعل لهم عقلاً يقبل الحق ويثبتته، ويبطل الباطل وينفيه. ولكن عدم التوفيق وغلبة الهوى أوقع من أوقع في الضلال.

وقد جعل الله تعالى العقل السليم من الشوائب ميزاناً يزن به العبد الواردات، فيفرق به بين ما هو من قبيل الحق، وما هو من قبيل الباطل. ولم يبعث الله الرسل إلا إلى ذوي العقل، ولم يقع التكليف إلا مع وجوده، فكيف يقال: إنه مخالف لبعض ما جاءت به الرسل الكرام عن الله تعالى؟! هذا باطل قطعاً يشهد له كل عقل سليم، لكن ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾. فهذا ونحوه هو الذي أوجب أنّي صرفت جُلّ همي إلى الأصول، وألزمي أن أوردت مقالاتهم، وأجبت عنها بما أنعم الله تعالى به من الأجوبة العقلية والنقلية" (٢٤).

وهكذا يفعل الأبطال إن غضبوا ... وهكذا يعصّف التوحيد بالوثن

والمقصود؛ أن دراسة بعض نوازل المسائل المحدثّة للقدر لمن آتاه الله علماً وعقلاً واحترافاً مما يُحترز فيه ومنه، من بعض عويص مباحثه ومتشابه مسائله ومجهولات علومه، مشروعة من جهة قصد دفع الشبه القائمة، وليس رغبة استكشاف المباحث غير المطروقة



فيه، فهي لا تُبحث ابتداءً إنما يُجرى إليها أهلها على النُدرة دفعًا لجهالة، وردًا لشبهة، وكفًا لعادية، فهي من جملة جهاد الدفع العلمي، فأبواب القدر التي لم يأت فيها علم من الشرع هي مغلقةٌ بأمر الشرع، فالواجب أن تبقى موصدةً أتباعًا لأمر الرسول صلى الله عليه وسلم، نصحًا للأمة من أمورٍ لا تطيقها أفهامهم، وعلومٍ لم يتعبدوا بطلبها، فيبقى بابُ الفكر فيها مُغلقًا دون مهاوي مسائل تفتح على الناس أفكارًا كانوا سالمين من حتوفها، ومعاطب من مزلق فكرية يزينها الشيطان في عقولٍ لم تنضج بعلوم الوحي السالم من كل خطأ، الحافظ بإذن الله لمن اعتصم به من كل زيغ. وعلى ذلك؛ فما في تثير هذه المسائل من خير يُرجى، ولو كان كذلك لم يتركه أئمة الأمة على مر العصور، وقد روى الآجري رحمه الله تعالى أن ابن عمر رضي الله عنهما سُئل عن القدر، فقال: "شيءٌ أراد الله عز وجل ألا يُطلعكم عليه، فلا تُريدوا من الله عز وجل ما أبى عليكم" (٢٥).

ولا يعني ذلك إغلاق باب التعلم في مسائل القضاء والقدر، ليس الأمر كذلك، فالإيمان بالقدر من أصول الملة، والإيمان بالقضاء والقدر فرعٌ عن العلم به، فلا إيمان إلا بعد علم، والله تعالى قد بين ذلك في محكم تنزيله، فمن ذلك قوله سبحانه: (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)، وقوله تعالى: (وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا)، وقوله سبحانه: (مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ)، وقوله تعالى: (مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * لِكَيْ لَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ). وبلغ صلى الله عليه وسلم عن ربه أمور القدر لنعلمها ونعتقدها ونؤمن بها، فمن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: "لا يؤمن عبدٌ حتى يؤمن بالقدر خيره وشره من الله، حتى يعلم أن ما أصابه



لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه" (٢٦). وقال صلى الله عليه وسلم: "لا يؤمن عبد حتى يؤمن بأربع: يشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله بعثني بالحق، ويؤمن بالمت، وبالبعث، ويؤمن بالقدر" (٢٧)، وقال صلى الله عليه وسلم: "كلُّ شيء بقدر؛ حتى العجز والكيس" (٢٨).

كما كان الصحابة يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القدر استرشادًا وتعلمًا لا اعتراضًا وخصومة، فمن ذلك أن سراقه بن مالك رضي الله عنه أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، بين لنا ديننا كأننا خلقنا الآن، فيم العمل اليوم؛ أفيما جفت به الأقدام، وجرت به المقادير، أم فيما يستقبل؟ قال: "لا، بل فيما جفت به الأقدام، وجرت به المقادير". قال: ففيم العمل؟ فقال: "اعملوا فكلُّ ميسر"، وفي رواية: "كلُّ عاملٍ ميسرٌ لعمله" (٢٩)، وعن عمران بن حصين رضي الله عنهما قال: قيل: يا رسول الله، أيعرف أهل الجنة من أهل النار؟ قال: "نعم". قال: فلم يعمل العاملون؟ قال: "كلُّ ميسرٍ لما خلق له" (٣٠). وكان الصحابة يعلمون من جاء بعدهم مسائل القدر، ويمتحنون فهم حذاقهم لها، فهن أبي الأسود الدبيلي، قال: قال لي عمران بن الحصين، أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه (٣١)، أشيءٌ قضي عليهم ومضى عليهم من قدر ما سبق؟ أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبيهم، وثبتت الحجة عليهم؟ فقلت: بل شيء قضي عليهم، ومضى عليهم، قال: فقال: أفلا يكون ظلمًا؟ قال: ففرعت من ذلك فرعًا شديدًا، وقلت: كلُّ شيء خلق الله وملك يده، فلا يسأل عما يفعل وهم يسألون، فقال لي: يرحمك الله، إنني لم أرد بما سألتك إلا لأحزر عقلك. (٣٢) إن رجلين من مزيعة أتيا رسول الله ﷺ فقالا: يا رسول الله؛ أرأيت ما يعمل الناس اليوم، ويكدحون فيه، أشيءٌ قضي عليهم ومضى فيهم من قدر قد



سَبَقَ، أو فيما يُسْتَقْبَلُونَ بِهِ مِمَّا أَتَاهُمْ بِهِ نَبِيَّهُمْ، وَثَبَّتِ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ؟ فقال: "لا، بل شيءٌ قُضِيَ عَلَيْهِمْ وَمَضَى فِيهِمْ. وَتَصْدِيقُ ذَلِكَ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى: (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)" (٣٣). قال د. محمد العلي: "ومما يؤكد أهمية تعلم مسائل القضاء والقدر: ارتباط هذا الركن العظيم بالكون كله؛ فحين ننظر إلى هذا الكون ونشأته وخلق الكائنات فيه نجد أن كل ذلك مرتبط بالإيمان بالقدر؛ قال صلى الله عليه وسلم: "أول ما خلق الله القلم قال له: اكتب، قال: رب وماذا أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة" (٣٤). ولو غفل الناس عن تعلم مسائل القدر، مع الحاجة الشديدة إليه؛ لجهلوه، وتخبّطوا في دياجير الظلام؛ إذ تعجز العقول عن معرفة ذلك إلا بالاهتداء بكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وبتلك الغفلة عن تعلّمه يفتح الباب لأهل الأهواء والبدع لينصروا مذاهبهم ويشوّشوا على المسلمين عقيدتهم" (٣٥).

فعلى المؤمن أن يتعلم من أمور دينه ما يدفع جهله ويرفع قدره عند ربه تعالى، مع التأدّب بأدب العلم، ومنه التسليم التام لله تعالى امتثالاً لأمره وتصديقاً لخبره، وترك الخصومات والنزاع والمراء، والحذر من ضرب الكتاب ببعضه، ويشتد الأمر إن كانت بخصوص القدر، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نتنازع في القدر (٣٦)، فغضب حتى احمرّ وجهه، حتى كأننا فُقي في وجنتيه الرّمان (٣٧)، فقال: "أبهذا أمرتم، أم بهذا أرسلت إليكم؟ إنما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا في هذا الأمر، عزمتُ عليكم ألا تنازعوا فيه" (٣٨). أي: أوجبْتُ عليكم وأكّدتُ عليكم ألا تنازعوا في القدر، لأن الشيطان قد استجرّ من قبلكم للتنازع فيه حتى هلكوا، وهذا من شفقتة صلى الله عليه وسلم بأتمته كما قال الله تعالى: (لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ



أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ، وهذا النهي إنما هو في المنازعة والمخاصمة والمهارة، أما النقاش العلمي المؤدب لتعلم مسائل القدر وكيفية الإيوان الصحيح به؛ والتصنيف فيه كما فعل أئمة السلف رحمهم الله فليس داخلًا في هذا النهي، بل هو من العلم المأمور بتعلمه وتعليمه، فهو من أصول الدين وأركان الإيوان، وقد علمه الرسولان الكريمان رسول الله صلى الله عليه وسلم وجبريل عليه السلام الأمة عن طريق السؤال والجواب كما هو مشهور معلوم في حديث من أعظم أحاديث الإسلام (٣٩). فالجدال والمنازعة بغير علم باب ضلالة وحفرة نارٍ ودهليز خذلان وحمولة خيبة، قال تبارك وتعالى: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ * كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ)، وقال سبحانه: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ * ثَانِي عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنَذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ). ولا بد للمؤمن من أطرٍ لنفسه على الجد والعمل والتفاؤل والإيجابية، دون الهزل والكسل والسوداوية والسلبية، وإشغالها بما يعينها من كريم الأمر، ففيه ملءٌ لوقتها لو عقلت، فيحسن إسلامها ويزكو دينها، أما الخصومات والمراء فليست بسبيلٍ لمؤمن، والانتهاض لمجرد الاعتراض من سيء الأمراض. وكم من متساهلٍ في بوادٍ المراء وهبّات الخصام، حتى ربضت في قلبه الفتنة، وانسحب واعظُ الله من قلبه، وقحطت عيناه، فكان من الغافلين.

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضي الله عنه قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصحابه وهم يختصمون في القدر، فكأننا يُفقدُ في وجهه حبُّ الرُّمان من الغضب، فقال: "بهذا أمرتُم؟! أو لهذا خلقتُم؟! تضربون القرآن بعرضه ببعض، بهذا



هَلَكَتِ الْأُمَّةُ قَبْلَكُمْ". قال: فقال عبد الله بن عمرو: "ما غبَطت نفسي بمجلس تخلَّفتُ فيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما غبَطت نفسي بذلك المجلس وتخلَّفتُ عنه" (٤٠).

وعلى المؤمن أن يحذر من أن يستجريه الشيطان بحبائل الشبه الفكرية وما أكثرها في هذا الزمان خاصة مع تسهيل تواصل الأفكار بين الأمم والطوائف والملل، والشيطان لا يملّ من خديعة ابن آدم، ولا يكلُّ من محاولات إضلاله حتى لو أتاه بصورة شيخ ناصح، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "يَأْتِي الشَّيْطَانُ أَحَدَكُمْ فَيَقُولُ: مَنْ خَلَقَ كَذَا؟ مَنْ خَلَقَ كَذَا؟ حَتَّى يَقُولَ: مَنْ خَلَقَ رَبَّكَ؟ فَإِذَا بَلَغَهُ فَلَيْسَتْ عِذُّ بِاللَّهِ وَلَيْتَنَّهُ" (٤١)، وقال صلى الله عليه وسلم: "إِنَّ الشَّيْطَانَ يَأْتِي أَحَدَكُمْ، فَيَقُولُ: مَنْ خَلَقَ السَّمَاءَ؟ فَيَقُولُ: اللَّهُ، فَيَقُولُ: مَنْ خَلَقَ الْأَرْضَ؟ فَيَقُولُ: اللَّهُ، فَيَقُولُ: مَنْ خَلَقَ اللَّهَ؟ فَإِذَا أَحَسَّ أَحَدُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، فَلْيَقُلْ: آمَنْتُ بِاللَّهِ وَبِرُسُلِهِ" (٤٢)، وقال صلى الله عليه وسلم: "مَنْ خَلَقَ اللَّهَ؟ فَإِذَا أَحَسَّ مِنْبَهًا الْأُمَّةَ إِلَى أَنَّ لِلشَّيْطَانِ طُرُقًا خَفِيَّةً وَحِيلًا خَادِعَةً لِفَتْنَتِهِمْ فَقَالَ: "قُولُوا بِقَوْلِكُمْ، أَوْ بَعْضِ قَوْلِكُمْ، وَلَا يَسْتَجْرِيَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ" (٤٣). أي: يتخذكم جرياً له يعني: مطايا، يركبكم ويؤزركم إلى ما يريد منكم ويأمركم به (٤٤). فعلى المؤمن الحذر الشديد من كل ما كان من طرق الشيطان، كما قال تعالى: (وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ).

ولا جرم، فقد أقسم الرجيم لأبويننا كذباً وزوراً ومكراً وخديعة، فكان من أمرهما ما كان، والله الأمر من قبل ومن بعد: (وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين (٢١) فدلاهما بغرورٍ فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطبقا يخرصان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما ألم أنهما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين (٢٢) قالوا ربنا ظلمنا أنفسنا



وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين (٢٣) قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين (٢٤).

واعلم بأنك عبد لا فكاك له ... والعبد ليس على مولاه يعترض

قال الإمام الطحاوي رحمه الله: "وأصل القدر سرُّ الله تعالى في خلقه، لم يطلع على ذلك ملك مقرب، ولا نبي مرسل" (٤٥). وقال ابن عبد البر رحمه الله تعالى: "وجملة القدر أنه سرُّ الله لا يُدرك بجدال، ولا نظر، ولا تشفي منه خصومة، ولا احتجاج، وحسب المؤمن من القدر أن يعلم أن الله لا يكون شيء دون إرادته، ولا يكون شيء إلا بمشيئته، (لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ)، لا شريك له، نظام ذلك قوله: (وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ)، وقوله: (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ). وحسب المؤمن من القدر أن يعلم أن الله لا يظلم مثقال ذرة، ولا يكلف نفساً إلا وسعها، وهو الرحمن الرحيم، وقد تظاهرت الآثار في التسليم بالقدر، والنهي عن الجدل فيه، والاستسلام له، والإقرار بخيره وشره، والعلم بعدل مُقَدَّرِهِ وحكمته" (٤٦).

وجملة ما ذكرنا من محاذير المتكلمة في القدر هي ما قصد إليها السلف بمنعهم من الخوض فيه، قال أبو محمد البرهاري رحمه الله تعالى: "والكلام والجدل والخصومة في القدر خاصة منهي عنه عند جميع الفرق؛ لأن القدر سرُّ الله، ونهى الرب جل اسمه الأنبياء عن الكلام في القدر، ونهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الخصومة في القدر، وكرهه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعون، وكرهه العلماء وأهل الورع، ونهوا عن الجدل في القدر، فعليك التسليم والإقرار والإيمان، واعتقاد ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في جملة الأشياء، واسكت عما سوى ذلك" (٤٧). وقال الإمام ابن باز رحمه



الله تعالى في مسألة الخوض في القضاء والقدر: "هذا باب خاضه الأولون وغلط فيه من غلط، والواجب الحذر، فعلى كل مؤمن وكل مؤمنة التسليم لله، والإيمان بقدره سبحانه، والحرص على الأخذ بالأسباب النافعة الطيبة، والبعد عن الأسباب الضارة كما علم الله عباده، وكما جعل لهم قدرة على ذلك بما أعطاهم من العقول والأدوات التي يستعينون بها على طاعته وترك معصيته. وينبغي عدم الخوض في هذا الباب، والإيمان بأن الله قدّر الأشياء وعلمها وأحصاها، وأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه الخلاق العظيم القادر على كل شيء، وأن جميع الموجودات بخلقه وتقديره سبحانه، وأن الله أعطى للعبد عقلاً وأسباباً وقدرة على الخير والشر كما يأكل ويشرب ويلبس وينكح ويسافر ويقيم وينام ويقوم إلى غير ذلك يطيع ويعصي.. وعلى كل مسلم أن يؤمن بالقدر، وأن يحذر الخوض في ذلك بغير علم كما خاض المبتدعة فضلوا، وإنما الواجب على كل مسلم أن يؤمن بالقدر، وأن يُسلم لله بذلك، ويعلم بأن الله قدّر الأشياء وعلمها وأحصاها، وأن العبد له إرادة وله مشيئة وله اختيار، لكنه لا يخرج بذلك عما قدره الله تعالى" (٤٨). وباللّٰه التّوْفِيق.

اللّٰهُمَّ رَبَّ جِبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتَلَفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤٩). سبحانه اللهم وبحمدك، أشهد ألا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، وصلى الله وسلم وبارك على محمد وآله أجمعين.

.....

١. اللالكائي في شرح اعتقاد أهل السنة والجماعة ٢/٦٨٩ (١١١٢، ١٢٢٤)، وعبد الله ابن أحمد في كتاب

السنة ٢/٤٢٢ (٩٢٥، ٩٢٨)، والآجري في الشريعة ص: (٢١٥).



٢. قال العلامة العثيمين رحمه الله تعالى في الفرق بين القضاء والقدر: "هاتان الكلمتان مترادفتان إن تفرقتا، ومتباينتان إن اجتمعتا. فإذا قيل: القضاء بدون أن يقترن به القدر كان شاملاً للقضاء والقدر، وإذا قيل: القدر دون أن يقترن به القضاء كان شاملاً للقضاء والقدر أيضاً. وهذا كثير في اللغة العربية: أن تكون الكلمة لها معنى عام عند الانفراد، ومعنى خاص عند الاقتران. فإذا قيل: القضاء والقدر جميعاً صار القضاء: ما يقضي به الله تعالى من أفعاله أو أفعال الخلق، والقدر: ما قدر الله تعالى في الأزل وكتبه في اللوح المحفوظ، وذلك لأن المقدور سبقه تقدير في الأزل، أي: كتابة بأنه سيقع، وقضاء من الله تعالى بوقوعه فعلاً. وإن شئت فقل: الكتابة قدرٌ والمشية قضاء، والله تعالى يكتب الشيء، بل كتب الشيء في اللوح المحفوظ، ثم يشاؤه سبحانه وتعالى في الوقت الذي تقتضي فيه حكمته وجوده فيه، الثاني قضاء والأول قدر. فصارت هاتان الكلمتان إن انفردت إحداها عن الأخرى شملت معنى الأخرى، وإن اجتمعتا صار لكل واحدة منهما معنى". فتاوى نور على الدرب للعثيمين (٢/٤).

٣. الحاكم في المستدرک (٣٨١/٢)، وصححه، ووافقه الذهبي.

٤. شرح العقيدة الطحاوية (١١).

٥. شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٧٨٤/٢) والهملجة: السير في سرعة وبختره، ويقال: شاة هملاج أي: لا مُخَّ فيها. انظر: لسان العرب (٨٣١/٣).

٦. المسند (٢٥٦/٥) والترمذي (٣٢٥٣) وابن ماجه (٤٨) وتفسير الطبري (٥٣/٢٥) وحسنه الألباني.

٧. وقد روى أحمد (٢٣٦٨٨) وأبو داود (٣٠٦٦) عن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم: "نهي عن الغلوطات" وضعفه الألباني والأرناؤوط. لجهالة عبد الله بن سعد الصنابحي. وقال الساجي: ضعّفه أهل الشام. والغلوطاتُ: بفتح الغين: غلوط، كشاة حلوب، وناقة ركوب، ثم يجعل اسماً بزيادة التاء، فيقال: غلوطه، وهي المسألة التي يُغلطُ بها العالم، فيستزلُّ بها، وقيل: الصواب بضم الغين، والأصل فيها الأغلوطات، فطرحت الهمزة وألقت حركتها على الغين. ومن رواها الأغلوطات فهو الأصل.

قال أبو عبيد المروئي: "الغلوطات الأصل فيه الأغلوطات، ثم تركت الهمزة. كما تقول: جاء الأحمر وجاء الحمُرُ بِطَرَحِ الهمزة". وفي نسخة: "جاء حَمْرٌ". الغريين في القرآن والحديث ١٣٨٢/٤. والنهاية في غريب الحديث والأثر ٣٧٨/٣. قلت: ولا تزال لغة إسقاط الهمزة في بعض السياقات معمولاً بها في نجد، فيقولون: أحمر وحمر، وأخضر وخضر.



٨. الفقيه والمتفقه للخطيب (٢/ ٢٠، ٣٠٣)، والشريعة للأجري (١/ ٤٨٦).
٩. معالم السنن (٤/ ١٧٢).
١٠. جامع بيان العلم (٧٢٦).
١١. جامع بيان العلم (٢٠٨٤).
١٢. الوحي: أي القرآن المجيد، وبيان الرسول ﷺ. حَدُّ مُرْهَفٍ: أي: حَدُّ سَيْفٍ مُرْهَفٍ. والمرهف المسنون ذو الشفرة الرقيقة. طُباهُ: الطُّبَةُ حَدُّ السيفِ والسِّنَانِ والخنجرِ ونحوها وجمعها طُبابٌ وطُبابَةٌ وطُبوْنٌ. أخذَ عَيَّ كُلُّ مائلٍ: الأخذُ أحدَ عرقينِ في جانبي العنقِ، وهما الأخداغان. وانظر: المثل السائر ٢/ ٢٩٥ وروي:
- فهذا شفاءٌ للقلوبِ من العمى ... وهذا شفاءُ العيِّ من كلِّ جاهلٍ
- والمقصود؛ أن من الناس من يكون ضلالة لشبهة انقدحت له فكشفها يكون بالوحي قرآناً وسنةً، ومنهم من يكون متكبراً على الحق راغباً فيما سواه فيرد إليه راغماً بالسيف، فالأول أتى من جهله والثاني من جهالته، وإن الله ليزعُ بالسلطان ما لا يزع بالقرآن، كما قاله عثمان رضي الله عنه.
١٣. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ٤/ ٨٨.
١٤. أحمد (١٧١٤٢) وابن ماجه (٤٣) وصححه الألباني والأرنؤوط.
١٥. الحاكم (٥/ ٢) وابن أبي شيبة (٧/ ٧٩)، وابن راهويه كما في إتحاف الخيرة (٢٧٢٢)، وهناد في الزهد (٤٩٤)، والبيهقي في الشعب (٧/ ٢٩٩)، والبغوي في شرح السنة (٤١١١، ٤١١٣)، وغيرهم. وصححه ابن تيمية في مجموع الفتاوى (١١/ ٦٢٢) والألباني في الصحيحة (١٨٠٣).
١٦. إيثار الحق على الخلق، لابن الوزير محمد بن إبراهيم البيهقي (١/ ١٩٩) ويعني بالخصام بين الملائكة ما جاء في قصة آدم وفي حديث اختصاص الملائكة الأعلى وغير ذلك. وقوله: "الوجيه المكلّم" هو موسى عليه السلام. وقوله: "تكدر صفو جمعها مراراً" أي: باعتراضات موسى عليه السلام الثلاث المذكورة في سورة الكهف. فلما لم يف موسى عليه السلام بالشرط بينهما عجل صاحب السر وهو الخضر. ويعني بالسر: مقاصد أفعاله المستغربة لأن وراءها أسراراً معللة ذكرها في آخر الخبر. والصّرام هو الفراق من الصّرم أي: القطع. ففارقة الكليم عليه السلام وقد "ثنى" أي: كرّر الاعتراض. وقوله: "وما سبب الخلاف سوى اختلاف العلوم" أي: من نظر إلى الأمر من جهة



واحدة لا يرى غيرها فسيختلف مع من يراه من جميع جهاته، فليسلم من جهل شيئاً لمن علمه، والله المثل الأعلى. وهذا البيت هو مقصود المنظومة، أي: أن الله تعالى علماً وحكمة في الأقدار التي لا نرى إلا طرفاً صغيراً من غايتها. وعليه؛ فمن لوازم الربوبية أن تكون أقدار الإله سبحانه وتعالى غير مُحاطة بعلم المخلوقين وأنها أحياناً تكون مخالفة لما اعتادوه، فهذا من براهين الربوبية للإله الحق المبين سبحانه، الذي وسع كل شيء حكمة وعلماً.

١٧. مسلم (١٢١٨).

١٨. رؤوس: جمع رأس، وفيه التحذير من اتخاذ الجهال رؤساء. شرح النووي على صحيح مسلم، (٤٦٥ / ١٦).

١٩. البخاري (١٠٠، ٧٣٠٧) ومسلم (١٣، ٢٦٧٣). قال المناوي رحمه الله تعالى في فيض القدير (٢٧٣/٢): قوله صلى الله عليه وسلم: "إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه أي محوًا من الصدور. "ولكن يقبض العلم بقبض العلماء" أي: بموتهم فيقبض العلم بتضييع التعلّم، فلا يوجد فيمن بقي من يخلف من مضى. "حتى إذا لم يبق عالمٌ، عبّر بـ"إذا" دون "إن" إيهاء إلى أنه كائنٌ لا محالة بالتدرّج. "اتخذ الناس رؤوساً جهالاً" جهلاً بسيطاً أو مركباً، "فستلوا فأفتوا بغير علم"، وفي رواية: "برأيهم" أي: استكباراً وأنفةً عن أن يقولوا لا نعلم، "فضلوا" في أنفسهم، "وأصلوا" من أفتوه. وهذا تحذير من ترئيس الجهلة، وأن الفتوى هي الرئاسة الحقيقية، وذم من يُقدم عليها بلا علم. وأن قبض العلم موت حملته لا محوه منهم.

٢٠. جامع بيان العلم وفضله (٩٥/٢) ولابن تيمية كلام في هذا الباب نفيس انظره في: درء تعارض العقل والنقل (٤٦/١ - ٤٨).

٢١. أي: المتكلمة في أصول الدين والمعتقد والعلميات، لا أصول الفقه التي تُعنى بالعملية.

٢٢. أي: أصول المعتقد من الإيانيات.

٢٣. أي: يكشف الزيف، فإذا كشفه صار زائفاً.

٢٤. الأعلام العلية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية، للبخاري (٣٥-٣٦).

٢٥. الشريعة (٢٣٥).

٢٦. الترمذي (٢١٤٤)، وصححه الألباني.



٢٧. الترمذي (٢١٤٥)، وابن ماجه (٨١) وصححه الألباني.
٢٨. مسلم، (٢٦٥٥). قال القاضي عياض رحمه الله تعالى: "الكيس ضد العجز، وهو النشاط، والحذق بالأمور، ومعناه: أن العاجز قد قدر عجزه، والكيس قد قدر كيسه". إكمال المعلم (٨/١٤٣).
٢٩. أحمد (٣/٢٩٢)، ومسلم (٢٦٤٨) (٨).
٣٠. البخاري (٦٥٩٦) ومسلم (٢٦٤).
٣١. الكدح: هو السعي في العمل سواء أكان للأخرة أم للدنيا، وفي التنزيل: (يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحًا فملاقيه).
٣٢. أي: لأختبر عقلك وأمتحن فهمك ومعرفتك، وأتأكد أنك تفهم القضية فهماً صحيحاً.
٣٣. مسلم (٢٦٥٠).
٣٤. أبو داود (٤٧٠٠) وصححه الألباني.
٣٥. ضرورة تعلم مسائل القدر والنهي عن الخوض فيه. د. العلي (٢٧).
٣٦. أي: نتحدث في أمر القضاء والقدر ونختلف فيه على وجه المنازعة.
٣٧. أي: أنه غضب حتى ظهرت علامات الغضب في وجه الشريف صلى الله عليه وسلم، حتى كأنما فقع ونثر في أعلى خديه حب الرمان الأحمر، وهي كناية عن احمرار وجهه من شدة الغضب شفقة على أمته صلى الله عليه وسلم من أن يتنازعا في القدر فيهلكوا كما هلك من قبلهم.
٣٨. الترمذي (٢١٣٣) وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٢/٢٢٣).
٣٩. وهو حديث جبريل المشهور رواه مسلم ٢٨/١ (٨).
٤٠. ابن ماجه (٨٥) وقال الألباني: حسن صحيح.
٤١. البخاري (٣٢٧٦) ومسلم (١٣٤، ٢١٤).
٤٢. أحمد (٨٣٧٦) وصححه الألباني.



٤٣. أبو داود (٤٨٠٦)، وأحمد (٢٥/٤) بهذا اللفظ وأيضًا بلفظ: "لا يستهوينكم". وصححه الألباني.
٤٤. وقال الخطابي رحمه الله تعالى في غريب الحديث (٢٦٤/٣): معناه: لا يتخذنكم الشيطان جريًا، والجريُّ: الأجير أو الوكيل، ويروى أيضًا: "لا يستَجِرَنَّكُمْ".
٤٥. شرح الطحاوية (٢٤٩/١).
٤٦. التمهيد (١٤٠/٣).
٤٧. شرح السنة. ص: (٣٦).
٤٨. مجموع فتاوى ومقالات الشيخ ابن باز ٢٨/٣٧٣.
٤٩. روت هذا الدعاء العظيم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم م المؤمنین عائشة رضي الله عنها. وقد خرَّجه الإمام مسلم (١/٥٣٤) (٧٧٠).



من السلامة ترهق التعمق في بحث تفاصيل القدر

إنّ مسائل القدر العميقة شديدة الوعورة، كثيرة الاشتباه، خطيرة الفهم على غير هدى من الله، أما ابتدائياته وأصوله ومحكماته فيسيرة واضحة، وهي كافية شافية لكل مؤمن، فيكفي المؤمن حسن التصوّر لمراتب القدر الأربع: العلم والكتابة والمشية والخلق، وأن الله تعالى يخلق كل شيء لحكمة بديعة تتقاصر وتعجز عن إدراكها عقول البشر مهما بلغت حدّتها وصفت قريحتها، وأن الله تعالى قد وسع كل شيء رحمة وعلماً، وأن رحمة الله قد سبقت غضبه، وأنه يجب أوليائه ويشيهم، ويبغض أعداءه ومعاصيهم ويتوعدهم، وأنه على كل شيء قدير، ونحو ذلك من الأصول المعروفة التي اهتم بتفصيلها أئمة أهل السنة. وأما ما زاد عن ذلك من مسائل لم يرد في الشرع بياتها، إنما وقع في التعمق فيها بعض المتهوكة والخياري والجهلة - مهما أوتوا من ظاهر علم - من المبتدعة القدرية والجبرية ومن تأثر بهم؛ فضرّبوا كتاب الله بعضه ببعض، وأساءوا الأدب معه تبارك وتعالى، وانتهى بعضهم للشك وبعضهم للإلحاد المطلق! فعلى المؤمن الإمساك عنها حفظاً لإيمانه وبقينه، فلم يشرع الله تعالى سلوك ذلك الطريق والتعمق في بحثه على غير هدى من الله.

ويُدعى خصومُ الله يوم معادِهِم ... إلى النار طُرّاً معشرَ القدريةِ

وروي عن علي رضي الله عنه أنه قال لمن نازعه في القدر: "القدر سرُّ الله فلا تكشفه".
 (١) أي لا تبحث عنه ولا تحاول كشفه، فلا يعلمه غير الله. فالقدر مبني على علم الله وحكمته ومشيتته وربوبيته، والعبد - مهما كان حاله - عاجز عن إدراك ذلك، وتأمل قصة



موسى والخضر عليهما السلام ففيها ثلاث مسارات للقدر في قصة واحدة، وكلها خير ورحمة، فَقَدَرُ قد يُظَنُّ لأول وهلة أنه شرّ، ثم لا تلبث خيريته أن تنكشف في ثاني الحال، كما في قصة أصحاب السفينة، وَقَدَرُ تبقى طوال عمرك لا تعلم حقيقة تفاصيل خيريته وهو خير ورحمة من الله، وينجلي هذا في خبر قتل الغلام، فأفراط المسلمين في الجنة، ولو بقي الغلام إلى سنّ التكليف لأرهب حياة والديه بطغيانه وكفره، ثم صار في المآل من أصحاب الجحيم، لذا كان قتله خيراً له أوّلاً ليكون فرطاً، وخيراً لوالديه ليشفع لهما، وليكون سبباً لأجرهما، وليُبدلها ربهما خيراً منه إيماناً وأوصل رحماً، مع هذا كله فلعلها قضيًا عمرهما حزنًا على الفقيد الذي كان فقده خيراً للجميع! فهذا المسار الثاني العجيب لقدر الله الحكيم العليم البر الرحيم، أما الثالث وهو العجب العجاب فهو مسار قدر الخير الذي لا ولن تعلم عنه شيئاً ما حييت، ولم ولن تتبه لوجوده أصلاً، وهو محيط بك من جميع جوانبك عن طريق صرف الأمور السيئة عنك وسوق الأشياء الجميلة إليك سوقاً رقيقاً رقيقاً لطيفاً جميلاً خفياً بدون علمك، وهذا من معاني اسم الله اللطيف، ويُمثل هذا القدر المدهش خبر جدار اليتيمين، فلم يعلما تدبير اللطيف سبحانه بذلك الجدار، والله الحكمة البالغة وهو اللطيف الخبير.

فَقَدَرُ الله تعالى صادر عن علمه وحكمته وقدرته سبحانه، وحكمته صفة من صفات جلاله وجماله، فكيف للعبد أن يدرك إلا ما أذن الله تعالى له به. وعليه أن يتدبر قول الحكيم العليم الرحيم: (وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وانتم لا تعلمون). فعلى المؤمن - الناصح لنفسه - أن ينكمش على علمه الذي



أذن الله له بمعرفته، وأن يقنع به ولا يحاول تجاوزه حتى لا يكله الله تعالى إلى نفسه العاجزة الجاهلة القاصرة، فيضل ويعطب ويهلك.

ولقد نصحننا ورفق بنا ورحمنا من نهانا عن ذلك صلى الله عليه وسلم، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نتنازع في القدر، فغضب حتى احمرَّ وجهه، حتى كأننا فُقئ في وجنتيه الرمان، فقال: "أبهذا أمرتم، أم بهذا أرسلت إليكم؟ إنما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا في هذا الأمر، عزمت عليكم ألا تنازعوا فيه". (٢)

فللعقل حدُّه ومنتهاه الذي لا يسمح له شرعاً ولا قدرًا بتعديه مهما كابر وظن أنه كذلك. قال الإمام أحمد رحمه الله تعالى: "من السنة اللازمة: الإيمان بالقدر خيره وشره، والتصديق بالأحاديث فيه، والإيمان بها، لا يقال: لم؟ ولا كيف؟ إنما هو التصديق بها والإيمان بها. ومن لم يعرف تفسير الحديث، ولم يبلغه عقله، فقد كُفي ذلك، وأحكم له، فعليه الإيمان به، والتسليم له، مثل حديث الصادق المصدوق، (٣) وما كان مثله في القدر". (٤)

وقال أبو المظفر السمعاني: "سبيل المعرفة في هذا الباب التوقيف من الكتاب والسنة، دون محض القياس والعقل، فمن عدل عن التوقيف فيه ضلَّ وتاه في بحار الحيرة، ولم يبلغ شفاء العين، ولا ما يطمئن به القلب، لأن القدر سرٌّ من أسرار الله تعالى، اختص العليم الخبير به، وضرب دونه الأستار، وحجبه عن عقول الخلق ومعارفهم لما علمه من الحكمة، فلم يعلمه نبي مرسل ولا ملك مقرب". (٥) وقال الآجروني رحمه الله في كتابه العظيم "الشريعة": "لا يحسن بالمسلمين التنقيح والبحث في القدر، لأن القدر سر من أسرار الله



عز وجل، بل الإيمان بما جرت به المقادير من خير أو شر واجب على العباد أن يؤمنوا به، ثم لا يأمن العبد أن يبحث عن القدر فيكذب بمقادير الله الجارية على العباد، فيضل عن طريق الحق". (٦)

وقال الطحاوي رحمه الله تعالى في عقيدته المشهورة: "وأصل القدر سر الله تعالى في خلقه، لم يُطلع على ذلك ملك مقرب، ولا نبي مرسل، والتعمق في ذلك ذريعة الخذلان، وسلّم الحرمان، ودرجة الطغيان، فالحذر الحذر من ذلك نظراً وفكراً ووسوسة، فإن الله طوى علم القدر عن أنامه، ونهاهم عن مرامه، كما قال تعالى: (لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون) [الأنبياء : ٢٣]". (٧) ولقد تناول العلماء عقيدة الطحاوي رحمه الله بالشرح والتعليق والتعقب، لما فيها من مهمات المعتقد ومحكماته.

قال الشيخ صالح آل الشيخ على كلام الطحاوي رحمه الله: "وَأَصْلُ الْقَدْرِ سِرُّ اللَّهِ تَعَالَى فِي خَلْقِهِ..": "هذه الجمل من كلام العلامة الطحاوي رحمه الله فيها إشارة إلى القدر مع عدم ذكر معتقد أهل السنة والجماعة على وجه التفصيل فيه.

ويعني بقوله: "أَصْلُ الْقَدْرِ سِرُّ" أَنَّ الْقَدْرَ مِنَ الْأَسْرَارِ فِي كِمَالِ دَرَجَاتِهِ وَمَرَاتِبِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَمْ يَكْشِفْ قَدْرَهُ عَلَى وَجْهِ التَّفْصِيلِ لِأَحَدٍ؛ بَلْ هَذَا عِلْمُهُ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. لِهَذَا قَالَ بَعْدَهَا "لَمْ يَطَّلِعْ عَلَى ذَلِكَ مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ" وَإِذَا كَانَ مَلَائِكَةُ اللَّهِ الْمُقَرَّبُونَ لَمْ يَطَّلِعُوا عَلَى الْقَدْرِ عَلَى وَجْهِ التَّفْصِيلِ، وَكَذَلِكَ الْأَنْبِيَاءُ الْمُرْسَلُونَ الَّذِينَ هُمْ صَفْوَةُ عِبَادِ اللَّهِ لَمْ يَطَّلِعُوا عَلَى ذَلِكَ عَلَى وَجْهِ التَّفْصِيلِ؛ فَإِنَّ التَّعَمُّقَ وَالنَّظَرَ فِي ذَلِكَ ذَرِيْعَةٌ لِلْخِذْلَانِ.



وذريعة الخذلان يعني وسيلة من وسائل سلب التوفيق؛ لأن الله منع العباد عن ذلك ولم يأمرهم بالبحث في هذا ولا بالتعمق فيه. وإذا كان الصفة لم يُطلَعُوا على ذلك ولم يُطلَعُوا عليه فإذا الباب مغلق، وإذا لا تحاول كشفًا للقدر. ومعنى كشف القدر ما ذكره في جملته بأن يحذر المسلم من التفكير في تقدير الله عز وجل للأشياء نظرًا في العلة وفكرًا في الحكمة ووسوسة في لم فعل ذلك؟ ولم حصل؟ ولم قدر كذا؟ ولم وفق هذا، ولم خذل ذلك؟ ولم حصل كيت وكيت؟ فإن الله سبحانه طوى علم القدر عن أنامه، ولذلك نهاهم عن تطلبه قال: {لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ} [الأنبياء: ٢٣].

فإذا إذا تبين ذلك؛ فإيماننا بقدر الله عز وجل إيمان بما جاء في النصوص من تفصيل ما يجب علينا أن نؤمن به. ثم إيمان إجمالي وهو ركن الإيمان؛ لأن كل شيء فإنه بتقدير الله عز وجل، لأن من أركان الإيمان، الإيمان بالقدر خيره وشره. يعني أن نؤمن بأن ما حصل من الخير والشر بالنسبة إلينا فإنه بتقدير الله عز وجل.

يعني لم تحصل الأشياء ابتداءً دون تقدير من الله وعلم وكتابة ومشية وخلق لله عز وجل، بل الله الذي علمها وكتبها وقدرها وشاءها، فلم يحصل شيء ولا يحصل شيء إلا بتقدير الله عز وجل وإذنه الكوني.

إذا تبين ذلك؛ فإن الإيمان الإجمالي لما ذكرت هذا ركن الإيمان، ما يصح إيمان أحد حتى يؤمن بهذا القدر، وهو أن كل شيء بقدر، وأن الأشياء يُقدرها الله عز وجل فيما سبق. ثم الإيمان التفصيلي بما علم تفصيلاً من نصوص الكتاب والسنة بما يدخل في بحث القدر. فإذا جاء الدليل أن من القدر علم الله السابق فإنه يؤمن بذلك، وإذا جاء الدليل



أن الله خالق كل شيء فيؤمن بهذا العموم؛ عموم خَلَقَ اللهُ عز وجل للأشياء بما في ذلك طاعة المطيع ومعصية العاصي، إذا عَلِمَ عموم مشيئة الله عز وجل وأنَّ مشيئة العبد لا تستقل بإحداث الأشياء، بل لا بد من مشيئة الله عز وجل آمن بذلك على وجه التفصيل، فيكون ذلك من الإيـان الواجب لأنه عَلِمَ الدليل الذي يجب عليه الإيقان به". (٨)

قال د. الحوالي: "المطلوب من العبد أن يؤمن بالغيب، وأن يؤمن بكل ما أخبر الله به، وأن يسلم، وأن يقوي ذلك الإيـان بكل ما يستطيع أن يقويه به من الأدلة وبالْحجج القرآنية وآثارها، ونعني بها الحجج الكونية العقلية النفسية، وأن ينظر بتدبر في ملكوت السموات والأرض، ويتفكر في أحوال النَّاس، وفي تدبير الله سبحانه له وتصريفه لهذا الكون وتديره للخلق، فيزداد إيماناً ويقيناً، ويدفع عن نفسه الشبهات إذا وردت، لأن دفع الشبهات يكون بالاعتصام بالله والاستعاذة من الشيطان الرجيم، والإعراض عن الشبهة، فإن تمكنت في قلبه فليدفعها بسؤال أهل العلم لتكشف عنه تلك الشبهة ويندفع عنه البلاء.

وأمر هذا الدين مبني على الاستسلام، وإنما يثبت الإسلام على قدم الاستسلام لما أخبر به الله ورسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لكن من قُدِّر له أن أعطاه اللهُ سُبحانَهُ وتعالى العلم، ومكَّنه من الرسوخ فيه، ومقاومة الشبهات، والذب عن هذا الدين، فهذا كطبيب يتعمق في معرفة الأمراض لا حرصاً منه على معرفه المرض، ولكن لكي يعالج النَّاس، أو يتعمق في معرفة الأدوية ليداوي نفسه ويداوي غيره.

وكل إنسان يأخذ من هذا الدين ومن أمر اليقين بقدر ما يوفقه اللهُ ويؤهله سُبحانَهُ وتعالى، ولو أراد أحد أن يتجاوز قدره لسقط وهلك، فالتعمق والنظر في أمور القدر الخفية



الدقيقة من إنسان لا يعرف الأدلة، ولا يعرف كلام أهل العلم ولا يستطيع أن يفقه في المسألة هذا ذريعة الخذلان.

وينبغي علينا أن نكفّ العوام عن الخوض في القدر، فإن كَانَ ولا بد إذا وجدنا من أحدهم شبهة راسخة كشفناها بالدليل، ولكن لا يعني ذلك أن نعرض تعاريف القدر على العامة، أو نرضى أن يخوض العامة في تفصيلات القدر وغير ذلك من أمور الإيثار؛ لأن الخوض في ذلك مَزلة الأقدام، فهو بحر لا يستطيعون أن يبحروا فيه، لكن من كَانَ لديه استعداد للفهم من الكتاب والسنة وكلام العلماء فينبغي له أن يزداد علمًا، لأنه بذلك يزداد إيمانًا ويزداد فهمًا، وعندما ترد عليه شبهة سرعان ما يدفعها لما لديه من علم؛ وينبغي أن يقيد بهذا كلام الطحاوي رَحِمَهُ اللهُ، وأن نعرف المقصود من كلامه، ولهذا قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: "والمعنى أن المبالغة في طلب القدر والغوص في الكلام فيه ذريعة الخذلان". فهذا هو الذي يجب أن يُفهم.

وفي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: جَاءَ ناس من أصحاب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فسألوه: "إننا نجد في أنفسنا ما يتعاضم أحدنا أن يتكلم به". فشكوا ذلك إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شكوى مجملية، فَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أو قد وجدتموه؟" وجواب النبي هذا يدل على أنه كان منتظرًا منهم هذا السؤال، وهذه بشرى لحديثي العهد بالتمسك، (٩) وفي رواية أخرى قالوا: "لأن يصبح أحدنا حُمَّة محترقة"، كيف يكون حال هذا الإنسان الذي يود لو أصبح فحمة محترقة ولم يتكلم بهذه الشكوك والخواطر، هذا قوي الإيمان، فلهذا يقول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "ذلك صريح الإيمان". (١٠) وفي رواية ابن مسعود: "ذلك محض الإيمان (١١)". (١٢) ومعنى حديث



أبي هريرة وسوسة النفس أو مدافعتها، أي أن الحديثين هما في الحقيقة وردا في موضع واحد أنه سئل عن الوسوسة. فيقول المصنف: "فإن وسوسة النفس أو مدافعة وسواسها بمنزلة المحادثة الكائنة بين الاثني، فمدافعة الوسوسة الشيطانية واستعظامها صريح الإيمان ومحض الإيمان"، ويمكن أن يحمل الحديث على أحد الأمرين:

الأمر الأول: أن يكون المشار إليه بأنه الموصوف "محض الإيمان" هو المدافعة، أي أنكم ما دمتم تدافعونها فهذا دليل على قوة إيمانكم، فلا تيأسوا. وهذه بشرى وخير لكم وليس شرًا كما تظنون، والمدافعة والمجاهدة هذه هي محض الإيمان لأنها مترتبة عليه وناشئة عنه.

الأمر الثاني: أن يكون محض الإيمان هو وجود الوسوسة، لأنك في حالة قبل الاهتداء لم تكن تجد شيئًا فلما اهتديت وجدت، فوجودها دليل على وجود الإيمان، وإذا وجد الإيمان أورد الشيطان أن يبارزه في الشكوك، إذا أنت في هذه الحالة والحمد لله على خير، وهذا يدل على أن الإيمان قد نما في قلبك عندما تجد تلك الوسواس، ولذلك يقول الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "ذلك محض الإيمان" أو "ذلك صريح الإيمان". (١٣)

ومن فروع ذلك؛ ألا يذيع علمًا عند من لا يفقهه كي لا يحمله على غير وجهه، فلربما افتتن الناس بعلم لم يفهموه وبكلام لم يتبينوه وبمعنى لم يقصد إليه، لذا فمن المتحتم اللازم عدم إلقاء جوهر العلم الدقيق إلا لمطيقه من أهل جودة الأفهام وقوة القرائح وزكاء الأنفس، ومن ذلك بعض مسائل القدر المحيرة لبعض الأذهان التي لم تستوعب كامل معانيه، ولم تتبين حدود مراميها ونهايات مسموحات معلوماته، ولم تتضح لها تفاصيله، ولا يعني هذا أن من الناس من تكشف له أمور من علوم الشرع على غير هدي من الوحي



المنزل كخرافات بعض المتصوفة والباطنية الذين يتوهمون أن لهم أسراراً وعلومًا استقوها من غير مشكاة النبوة لا يطلع عليها غيرهم، فجرّهم الشيطان بوساوسه إلى مباءات ضلال ومراقد فتن حتى دفنهم في أتون جهلها ووحول خبيتها. إنما المقصود أنّ من العلوم غوامض لا يفقهها كل أحد، ولا يحسن عرضها لكل أحد حتى لا يحملها على غير وجهها، فهي من باب: "حدّثوا الناس بما يعرفون.."، وقد مر التنبيه لذلك، وقد قال الغزالي في ذلك -وهي تحتمل المعنيين، وقد أشار في إحيائه إلى معانٍ لها باطلة، ولكن نحسن في الشيخ أبي حامد الظن-:

تَرَكْتُ هَوَى سَعْدَى وَكَلِيلى بِمَعزِلٍ ... وَعُدْتُ إِلَى مَصْحُوبِ أَوَّلِ مَنزِلِ

غَزَلْتُ لَهُمْ غَزْلاً رَقِيقًا فَلَمْ أَجِدْ ... لِعِزْلِي نَسَاجًا فَكَسَّرْتُ مِعْزِلِي

قال الشيخ صالح آل الشيخ: "العلم لا يوضع إلا في مواضعه، فإذا خيف من إلقاء المسائل على بعض الناس محذور أكبر، فإنهم تكتم عنهم بعض المسائل من أجل الشفقة بهم، ورحمتهم من الوقوع في المحذور، فإن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بكتمان هذا النوع من العلم عن عامة الناس، وأخبر به معاذًا، (١٤) لأن معاذًا من الجهابذة، ومن خواص العلماء، فدلّ على أنه يجوز كتمان العلم للمصلحة، إذا كان يترتب على إيضاح بعض المسائل للناس محذور: بأن يفهموا خطأً، أو يتكلموا على ما سمعوا، فإنهم لا يُخبرون بذلك، وإنما تلقى هذه المسائل على خواص العلماء الذين لا يُخشى منهم الوقوع في المحذور، (١٥) فأخذ العلماء من هذا الحديث جواز كتمان العلم للمصلحة.



وإنما أخبر معاذ رضي الله عنه بهذا الحديث عند وفاته، خشية أن يموت وعنده شيء من الأحاديث لم يبلغه للناس، كما في حديث علي رضي الله عنه: "حدثوا الناس بما يعرفون، أتريدون أن يكذب الله ورسوله"، يعني: لا يُلقى على كل الناس بعض المسائل التي فيها أمور يخفى عليهم معناها، أو تشوّش عليهم، وإنما يُلقى على الناس ما يفهمونه، ويستفيدون منه، أما نوادير المسائل، وخواص المسائل، فهذه تلقى على طلبة العلم، والمتفقيين المتمكّنين، وهذا من الحكمة ووضع الشيء في موضعه، لما تكون أمام عصاة يشربون الخمر، ويزنون، ويسرقون، وتقول: الله غفور رحيم، الله قريب مجيب، الله سبحانه وتعالى يغفر ويسمح، فيزيدون في الشرور، لكن حين تقول لهم: اتقوا الله، الله سبحانه وتعالى توعدّ الزناة بالعذاب وتوعدّ على السرقة وعلى المعاصي بالعذاب الشديد، فتذكر لهم نصوص الوعيد، من أجل التوبة، ولو أتيت عند متمسكين وطيبين فذكرت لهم آيات الوعيد، فهذا ربما يزيدهم وسواسًا، أو تشدّدًا، فأنت تذكر لهم آيات التيسير، وأحاديث التيسير، والتسهيل، والرحمة، الفرج، إلى غير ذلك، من أجل أن لا يزيدوا ويشتدوا ويغلوا، فكل مقام له مقال، وتوضع الأمور في مواضعها، هذا هو الميزان الصحيح. والناس ليسوا على حد سواء، كل يخاطب بما يستفيد منه ولا يتضرر به، فلا تأتي بآيات الوعد والرجاء عند المتساهلين، ولا تأتي بآيات الوعيد عند المتشدّدين، بل تكون كالطبيب تضع الدواء في موضعه المناسب، هكذا يكون طالب العلم.

إذا كانت هناك أمور غامضة، لا يعرفها العوام، ولا تتسع لها عقولهم، من المسائل العلمية، فلا تُلقى على العوام، وإنما تُلقى على طلبة العلم، وعلى الناس الذين يستوعبونها، ولهذا يقول ابن مسعود: "ما أنت بمحدث قومًا بحديث لا تبلغه عقولهم إلاّ كان لبعضهم



فتنة" وقال علي رضي الله عنه: "حدّثوا الناس بما يعرفون أتريدون أن يُكذّب الله ورسوله".

فالحاصل؛ أن طالب العلم والواعظ والمعلم يجب عليه أن يراعي أحوال الحاضرين وأحوال الناس، ويعطيهم ما يحتاجون إليه من المسائل، ولا يُلقى عليهم المسائل الغريبة التي لم يتوصلوا إليها، فلو أتيت عند طلبة علم مبتدئين، فلا تلق عليهم غرائب المسائل التي لا يعرفها إلاّ الراسخون في العلم، بل تعلمهم مبادئ مبسطة سهلة يتدرّجون بها شيئاً فشيئاً، لا تطلب من طالب مبتدئ أن يقرأ في صحيح البخاري، لأنه لم يصل إلى هذا الحد لكن لَقَّنه الأربعين النووية، والأحاديث القرية، وشروط الصلاة، وأحكام الطهارة، إلى آخره، وإنسان مبتدئ بعلم العربية، لا تأمره بقراءة كتاب سيبويه، لكن تأمره بقراءة الآجروميّة، ومسائل مبسطة، يدخل بها على اللغة العربية والنحو، شيئاً فشيئاً، ولذلك ألف العلماء المختصرات والمتوسّطات والمطوّلات، من أجل إن طالب العلم يمشي مراحل، شيئاً فشيئاً، الحاصل: أن كل شيء له شيء، وكل مقام له مقال". (١٦)

فَالْعَيْشُ نَوْمٌ وَالْمَنِيَّةُ يَقْظَةٌ ... وَالْمَرْءُ بَيْنَهُمَا خِيَالٍ سَارِي

وَالنَّفْسُ إِن رَضِيَتْ بِذَلِكَ أَوْ أَبَتْ ... مُنْقَادَةٌ بِأَزْمَةِ الْأَقْدَارِ

فَاقْضُوا مَا رَبِّكُمْ عَجَالًا إِنَّمَا ... أَعْمَارُكُمْ سِنْفَرٌ مِنَ الْأَسْفَارِ

.....

١. الطحاوية (٩٣)

٢. الترمذي (٢١٣٣) وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٢٢٣/٢)



٣. يعني حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق: "إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل الملك، فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد. فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب؛ فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب؛ فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها". رواه البخاري ١٦٥/٩ (٧٤٥٤) ومسلم ٤٤/٨ (٢٦٤٣) قال النووي رحمه الله تعالى في المنهاج (١٦/١٩٢) معلقاً على هذا الحديث الجليل بكلام مبشر مفرح: "هذا قد يقع في نادر من الناس، لا أنه غالب فيهم، وذلك من لطف الله وسعة رحمته، فإن انقلاب الناس من الشر إلى الخير كثير، وأما انقلابهم من الخير إلى الشر ففي غاية الندور، والله الحمد والمنة على ذلك". أهـ. فالله شكور سميع الدعاء ورحمته سبقت غضبه، والعفو أحب إليه من العقوبة تبارك وتعالى.

٤. شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي (١٥٧)

٥. نقله عنه الحافظ ابن حجر في فتح الباري (١١/٤٧٧)

٦. الشريعة للأجري (١٤٩)

٧. الطحاوية (٩٢)

٨. شرح العقيدة الطحاوية، صالح آل الشيخ (١/٢٣٧)

٩. لأن الغالب أن أكثر تسلط الوسوس إنما هي على حديث العهد بالاستقامة والجدية في التدين، أو حديث العهد بالإسلام. وتزول مع الوقت مع الاستعاذة بالله من الشيطان وحسن الظن بالرحمن وعدم الالتفات لها.

١٠. مسلم (١٣٢) (٢١٠) أحمد (٩١٤٥)

١١. أي أن صريح الإيمان ومحضه هو الذي يمنعكم من قبول ما يلقيه الشيطان في أنفسكم من الوسوس، فلا تتمكن في قلوبكم. وليس معناه: أن الوسوسة نفسها صريح الإيمان، لأنها من فعل الشيطان ونفته.

١٢. مسلم (٨٣/١) وأحمد (٩٦٩٤)

١٣. شرح العقيدة الطحاوية للحوالي (١/١٥٦٢ - ١٥٦٤) باختصار.



١٤. يعني حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه، قال: كنت ردف النبي صلى الله عليه وسلم على حمار، فقال: "يا معاذ، هل تدري ما حق الله على عباده؟ وما حق العباد على الله؟" قلت: الله ورسوله أعلم. قال: "فإن حق الله على العباد أن يعبدوه، ولا يشركوا به شيئاً، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً" فقلت: يا رسول الله، أفلا أبشر الناس؟ قال: "لا تبشروهم فيتكلوا". رواه البخاري ٣٥/٤ (٢٨٥٦) ومسلم ٤٣/١ (٣٠) (٤٩)

١٥. ومن هؤلاء المبشرون بالجنة، فقد أخبرهم لعظيم إيمانهم الذي لن تزيده هذه البشارة إلى إيماناً بالله تعالى وإقبالاً على طاعته وزهداً في الدنيا، والله أعلم.

١٦. إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد (٥٠ - ٥٣)



القَدَرُ وَالشَّرْعُ

القدر هو تقدير الله تعالى للأشياء، والشرع هو دينه الذي ارتضاه. فمن أطاع الله تعالى وعبده فقد اجتمع في حقه الأمران القدر والشرع، وهو مستحق للأجر والثوبة. ومن عصاه فقد تحقق فيه القدر دون الشرع، وهو مستحق للسخط والعقوبة. وقد ضل بعض الناس في هذا الباب إذ ظنوا أن القدر ملازم للشرع على الدوام، وهذا باطل، فإن الكفر داخل في جملة مقادير الله تعالى، وقد قال في كتابه: (ولا يرضى لعباده الكفر)، وسرُّ المسألة؛ أن الله تعالى حكماً عظيمة جليلة في الابتلاء الذي لا يكون إلا بوجود الصراع والدفع بين الخير والشر، والحق والباطل، والهدى والضلال، فلو لم يوجد شرٌّ في المخلوقات لم تظهر خيريّة الخير، وتعطلت كثير من الأمور التي يجبها الله تعالى كالتناهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله والقيام لله تعالى في شديديات الأمور ونحو ذلك، فالضدّ يظهر حسنه الضد، قال سبحانه: (وَلَوْ لَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ) ﴿٢١٧﴾.

والشرّ ليس إلى الله تعالى، بل هو راجع إلى نقص المخلوق وخذلان الله له من جهة قطع إمداد الخير عنه. قال صلى الله عليه وسلم: "والشرُّ ليس إليك". (١) فأفعال الله تعالى لا توصف أبداً بالشرّ؛ لأنها عدل أو إحسان، وكلاهما خير، وأفعال الله كلّ غاياتها طيبة محمودة؛ أما ما يُصافُ للعبد فإنه قد يكون شرّاً بالنسبة له؛ أما بالنسبة لقدر الله فهو خير. قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: "عنوان التوحيد لا إله إلا الله، والإله: الذي يأله القلب بكمال الحب والإجلال. وهذه العبادة متعلقة بإلهيته تعالى، ولهذا كان عنوان التوحيد لا إله



ألا الله، بخلاف من يقرّ بربوبيته ولا يعبدّه، أو يعبد معه إلهًا آخر. فالإله الذي يأله القلب بكمال الحب والتعظيم والاحلال والإكرام والخوف والرجاء ونحو ذلك. وهذه العبادة هي التي يحبها الله ويرضاها، وبها وصف المصطفين من عباده، وبها بعث رسله. وأما العبد بمعنى المعبّد سواء أقرّ بذلك أو أنكره؛ فتلك يشترك فيها المؤمن والكافر.

وبالفرق بين هذين النوعين يعرف الفرق بين الحقائق الدينية الداخلة في عبادة الله ودينه وأمره الشرعي، التي يحبها ويرضاها، ويوالى أهلها ويكرمهم بحسبها، وبين الحقائق الكونية التي يشترك فيها المؤمن والكافر والبرّ والفاجر، فالذي اكتفى بها ولم يتبع الحقائق الدينية كان من أتباع إبليس اللعين والكافرين برب العالمين، ومن اكتفى بها في بعض الأمور دون بعض أو في مقام أو حال نقص في إيمانه وولايته لله بحسب ما نقص من الحقائق الدينية.

وهذا مقام عظيم فيه غلط الغالطون، وكثر فيه الاشتباه على السالكين، حتى زلق فيه من أكابر الشيوخ المنتسبين إلى التحقيق والتوحيد والعرفان ما لا يحصيهم إلا الله الذي يعلم السرّ والإعلان. وإلى هذا أشار الشيخ عبد القادر رحمه الله فيما ذكر عنه: "بأن كثيرًا من الرجال إذا وصلوا إلى القضاء والقدر أمسكوا، إلا أنا فإني انفتحت لي فيه رَوْزَنَة (٢) فَنَازَعْتُ أَقْدَارَ الْحَقِّ بِالْحَقِّ لِلْحَقِّ". (٣) والرجل من يكون منازعًا (٤) لا من يكون موافقًا للقدر.

والذي ذكره الشيخ رحمه الله هو الذي أمر الله به ورسوله، لكن كثيرًا من الرجال غلطوا، فإنهم قد يشهدون ما يقدر على أحدهم من المعاصي والذنوب، أو ما يقدر على الناس من ذلك، بل من الكفر، ويشهدون أن هذا جار بمشيئة الله وقضائه وقدره داخل



في حكم ربوبيته ومقتضى مشيئته، فيظنون أن الاستسلام لذلك وموافقته والرضا به ونحو ذلك ديناً وطريقاً وعبادة، فيضاهون المشركين الذين قالوا: { لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء }، وقالوا: { أنطعم من لو يشاء الله أطعمه }، وقالوا: { لو شاء الرحمن ما عبدناهم }. ولو هُذوا لعلموا أن القدر أمرنا أن نرضى به، ونصبر على موجبيه إنما هو في المصائب التي تصيبنا كالفقر والمرض والخوف، قال تعالى: { ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه }، قال بعض السلف: هو الرجل تصيبه فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم. وقال تعالى: { ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير * لكي لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم }.

وأما الذنوب فليس للعبد أن يذنب، وإذا أذنب فعليه أن يستغفر الله ويتوب من صنوف المعاييب، ويصبر على المصائب، قال تعالى: { فاصبر إن وعد الله حق واستغفر لذنبك }، وقال: { وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً }، وقال تعالى: { وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور } وقال يوسف: { إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين }.

وكذلك ذنوب العباد يجب على العبد فيها أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر بحسب قدرته، ويجاهد في سبيل الله الكفار والمنافقين، ويوالي أولياء الله ويعادى أعداء الله، ويجب في الله ويبغض في الله، تعالى كما قال تعالى: { يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم { إلى قوله: { قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم



ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده}، وقال تعالى: { لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيثار وأيدهم بروح منه }، وقال تعالى: { أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار }، وقال تعالى: { أفنجعل المسلمين كالمجرمين }، وقال تعالى: { أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون }، وقال تعالى: { وما يستوي الأعمى والبصير * ولا الظلمات ولا النور * ولا الظل ولا الحرور * وما يستوي الأحياء ولا الأموات }، وقال تعالى: { لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون }". (٥) والله تعالى له الخلق والأمر، قال سبحانه: (ألا له الخلق والأمر) "ومن المعلوم أنه يجب الايمان بخلق الله وأمره، بقضائه وشرعه.

وأهل الضلال الخائضون في القدر انقسموا إلى ثلاث فرق: مجوسية، ومشركية وإبليسية.

فالمجوسية: هم الذين كذبوا بقدر الله وإن آمنوا بأمره ونهيه، فغلاتهم أنكروا العلم والكتابة، (٦) ومقتصدوهم أنكروا عموم مشيئته وخلقته وقدرته، وهؤلاء هم المعتزلة ومن وافقهم.

والفرقة الثانية: المشركية: وهم الذين أقرّوا بالقضاء والقدر، وأنكروا الأمر والنهي، قال تعالى: (وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمانا من شيء)،



فمن احتج على تعطيل الأمر والنهي بالقدر فهو من هؤلاء. وهذا قد كثر فيمن يدعي الحقيقة من المتصوفة.

والفرقة الثالثة: الابليسية: وهم الذين أقرّوا بالأمرين، لكن جعلوا هذا متناقضاً من الرب سبحانه وتعالى، وطعنوا في حكمته وعدله، كما يذكر ذلك عن إبليس مُقدمهم، كما نقله أهل المقالات ونقل عن أهل الكتاب. (٧)

والمقصود؛ أن هذا مما يقوله أهل الضلال، وأما أهل الهدى والفلاح فيؤمنون بهذا وهذا، ويؤمنون بأن الله خالق كل شيء وربّه ومليكه، وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وهو على كل شيء قدير، وأحاط بكل شيء علماً، وكل شيء أحصاه في إمام مبین. ويتضمن هذا الأصل من إثبات علم الله وقدرته ومشیئته ووحدانيته وربوبيته، وأنه خالق كل شيء وربّه ومليكه ما هو من أصول الإيمان.

ومع هذا فلا ينكرون ما خلقه الله من الأسباب التي يخلق بها المسببات، كما قال تعالى: (حتى إذا أقلت سحاباً ثقالاً سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات)، وقال تعالى: (يهدى به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام)، وقال تعالى: (يضل به كثيراً ويهدى به كثيراً)، فأخبر أنه يفعل بالأسباب.

والمقصود؛ أنه لا بد من الإيمان بالقدر، فإن الإيمان بالقدر من تمام التوحيد، كما قال ابن عباس: "هو نظام التوحيد"، فمن وحد الله وآمن بالقدر تم توحيده، ومن وحد الله وكذب بالقدر نقض توحيده.



ولا بد من الإيمان بالشرع، وهو الإيمان بالأمر والنهي والوعد والوعيد، كما بعث الله بذلك رسله وأنزل كتبه. والإنسان مضطر إلى شرع في حياته الدنيا، فإنه لا بد له من حركة يجلب بها منفعته، وحركة يدفع بها مضرتة، والشرع هو الذي يميّز بين الأفعال التي تنفعه والأفعال التي تضره، وهو عدلُ الله في خلقه، ونوره بين عباده، فلا يمكن الآدميين أن يعيشوا بلا شرع يميّزون به بين ما يفعلونه ويتركونه.

وليس المراد بالشرع مجرد العدل بين الناس في معاملاتهم، بل الإنسان المنفرد لا بد له من فعل وترك، فإن الإنسان همام حارث، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "أصدق الأسماء حارثٌ وهمام". (٨) وهو معنى قولهم: متحرّك بالإرادات. فإذا كان له إرادة فهو متحرّك بها، ولا بد أن يعرف ما يريد هل هو نافع له أو ضار، وهل يصلحه أو يفسده. وهذا قد يعرف بعضه الناس بفطرتهم كما يعرفون انتفاعهم بالأكل والشرب، وكما يعرفون ما يعرفون من العلوم الضرورية بفطرتهم، وبعضهم يعرفونه بالاستدلال الذي يهتدون به بعقولهم، وبعضه لا يعرفونه إلا بتعريف الرسل وبياناتهم لهم وهدايتهم لهم. (٩)

وفي هذا المقام تكلم الناس في أن الأفعال هل يُعرف حسنها وقبحها بالعقل؟ أم ليس لها حسن ولا قبح يعرف بالعقل؟ وقد اتفقوا على أن كون الفعل يلائم الفاعل أو ينافره يعلم بالعقل، وهو أن يكون الفعل سبباً لما يحبه الفاعل ويلتذّ به، وسبباً لما يبغضه ويؤذيه. وهذا القدر يُعلم بالعقل تارة، وبالشرع أخرى، وبها جميعاً أخرى. لكن معرفة ذلك على وجه التفصيل ومعرفة الغاية التي تكون عاقبة الأفعال من السعادة والشقاوة في الدار الآخرة لا تعرف إلا بالشرع. فما أخبرت به الرسل من تفاصيل اليوم الآخر وأمرت به من تفاصيل الشرائع لا يعلمه الناس بعقولهم، كما أن ما أخبرت به الرسل من تفاصيل أسماء



الله وصفاته لا يعلمه الناس بعقولهم، وإن كانوا قد يعلمون بعقولهم جمل ذلك. (١٠)
وهذا التفصيل الذي يحصل به الإيمان وجاء به الكتاب، وهو ما دل عليه قوله تعالى:
(وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه
نورا نهدى به من نشاء من عبادنا)، وقوله تعالى: (قل ان ضللت فإنما أضل على نفسي وان
أهتديت فيها يوحى الى ربي انه سميع قريب)، وقوله تعالى: (قل انها أنذركم بالوحى)".
(١١)

هذا، والعبد الموفق هو من آمن بالشرع والقدر، وعقد قلبه عليهما، ولم يبلغ شرعاً ولم
يُطل قدرًا، ويدفع ما يخافه من الأقدار بما يلائمه منها على وفق شرع الله رب العالمين،
ويفوض كل أمره إلى الله عز وجل، قال ابن القيم رحمننا الله وإياه: "إذا وقف العبد على
حسن تدبير الله تعالى، واستغنى القلب به؛ لم يتم له الاستغناء بمجرد هذا الوقوف إن لم
ينضم إليه المسألة للحكم، وهو الانقياد له، فإن المنازعة للحكم إلى حكم آخر دليل على
وجود رعونة الاختيار، وذلك دال على فقر صاحب الاختيار إلى ذلك الشيء المختار، ومن
كان فقيرًا إلى شيء لم يردده الله؛ لم يطلق عليه اسم الغني بتدبير الله، فلا يتم الغنى بتدبير الله
سبحانه لعبده إلا بالمسألة لحكمه بعد الوقوف على حسن تدبيره.

ثم يبقى عليه الخلاص من معنى آخر وهو مخاصمة الخلق بعد الخلاص من منازعة
الرب سبحانه، فإن منازعة الخلق دليل على فقره إلى الأمر الذي وقعت فيه الخصومة من
الحظوظ العاجلة، ومن كان فقيرًا إلى حظ من الحظوظ يسخط لفوته ويخاصم الخلق عليه؛
لا يطلق عليه اسم الغني حتى يسلم الخلق من خصومته بكمال تفويضه إلى وليه وقبومه
ومتولي تدبيره.



فمتى سلم العبد من علة فقره إلى السبب، ومن علة منازعته لأحكام الله سبحانه، ومن علة مخاصمته للخلق على حظوظه؛ استحق أن يكون غنياً بتدبير مولاه، مفوضاً إليه، لا يفتقر قلبه إلى غيره، ولا يسخط شيئاً من أحكامه، ولا يخاصم عباده إلا في حقوق ربه. فتكون مخاصمته لله وبالله، ومحاكمته إلى الله، كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في استفتاح صلاة الليل: "اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاکمت". (١٢) فتكون مخاصمة هذا العبد لله لا لهواه وحظه، ومحاكمته خصمه إلى أمر الله وشرعه لا إلى شيء سواه، (١٣) فمن خاصم لنفسه فهو ممن اتبع هواه وانتصر لنفسه، وقد قالت عائشة رضي الله عنها: "ما انتقم رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه قط". (١٤) فهذا صبر الرسول صلى الله عليه وسلم على ما يؤذي، وهذا غيرته وانتقامه لمحارم الله، وهذا لتكميل عبوديته.

ومن حاكم خصمه إلى غير الله ورسوله فقد حاكم إلى الطاغوت، وقد أمر أن يكفر به. ولا يكفر العبد بالطاغوت حتى يجعل الحكم لله وحده كما هو كذلك في نفس الأمر. والحكم نوعان: حكم كوني قدري، وحكم أمري ديني، بل الأحكام ثلاثة (١٥): حكم شرعي ديني، فهذا حقه أن يتلقى بالمسألة والتسليم وترك المنازعة، بل بالانقياد المحض، وهذا تسليم العبودية المحض، فلا يعارض بذوق ولا وجد ولا سياسة ولا قياس ولا تقليد، ولا يرى إلى خلافه سبيلاً البتة، وإنما هو الانقياد المحض والتسليم والإذعان والقبول.

فإذا تلقى بهذا التسليم والمسألة إقراراً وتصديقاً بقي هناك انقياد آخر وتسليم آخر له، إرادةً وتنفيذاً وعملاً، فلا تكون له شهوة تنازع مراد الله من تنفيذ حكمه، كما لم تكن



له شبهة تعارض إيمانه وإقراره، وهذا حقيقة القلب السليم الذي سلم من شبهة تعارض الحق وشهوة تعارض الأمر، فلا استمتع بخلاقه (١٦) كما استمتع به الذين يتبعون الشهوات، ولا خاض في الباطل خوض الذين يتبعون الشبهات، بل اندرج خلاقه تحت الأمر، واضمحل خوضه في معرفته بالحق، فاطمأن إلى الله معرفةً به ومحبةً له وعلماً بأمره وإرادة لمرضاته، فهذا حق الحكم الديني.

الحكم الثاني: الحكم الكوني القدري الذي للعبد فيه كسب واختيار وإرادة، والذي إذا حكم به يسخطه ويغضه ويذمّ عليه، فهذا حقه أن يُنازع ويدافع بكل ممكن، ولا يسالم البتة، بل ينازع بالحكم الكوني أيضاً، فينازع حكم الحق بالحق للحق، فيدافع به وله، كما قال شيخ العارفين في وقته عبدالقادر الجيلي (١٧): "الناس إذا دخلوا إلى القضاء والقدر أمسكوا، وأنا انفتحت لي رُوْزَنَةٌ، فنازعت أقدار الحق بالحق للحق. والعارف من يكون منازعاً للقدر، لا واقفاً مع القدر". فإن ضاق ذرعك عن هذا الكلام وفهمه؛ فتأمل قول عمر بن الخطاب وقد عوتب على فراره من الطاعون فقيل له: أتفرّ من قدر الله؟ فقال "نفرّ من قدر الله إلى قدره".

ثم كيف ينكر هذا الكلام من لا بقاء له في هذا العالم إلا به، ولا تتم له مصلحة إلا بموجبه، فإنه إذا جاءه قدر من الجوع والعطش أو البرد نازعه وترك الانقياد له ومسالته، ودفعه بقدر آخر من الأكل والشرب واللباس، فقد دفع قدر الله بقدره، وهكذا إذا وقع الحريق في داره فهو بقدر الله، فما باله لا يستسلم له ويسالمه ويتلقاه بالإذعان، بل ينازعه ويدافعه بالماء والتراب وغيره حتى يطفى قدر الله بقدر الله، وما خرج في ذلك عن قدر



الله، وهكذا إذا أصابه مرض بقدر الله دافع هذا القدر ونازعه بقدر آخر يستعمل فيه الأدوية الدافعة للمرض.

فحقُّ هذا الحكم الكوني أن يحرص العبد على مدافعتة ومنازعتة بكل ما يمكنه، فإن غلبه وقهره حرص على دفع آثاره وموجباته بالأسباب التي نصبها الله لذلك، فيكون قد دفع القدر بالقدر، ونازع الحكم بالحكم. وبهذا أمر، بل هذا حقيقة الشرع والقدر، ومن لم يستبصر في هذه المسألة ويعطها حقها لزمه التعطيل للقدر أو الشرع شاء أو أبى، فما للعبد ينازع أقدار الرب بأقداره في حظوظه وأسباب معاشه ومصالحه الدنيوية؛ ولا ينازع أقداره في حق مولاه وأوامره ودينه؟! وهل هذا إلا خروج عن العبودية ونقص في العلم بالله وصفاته وأحكامه.

ولو أن عدوًّا للإسلام قصده لكان هذا بقدر الله، ويجب على كل مسلم دفع هذا القدر بقدر يحبه الله وهو الجهاد باليد أو المال أو القلب دفعًا لقدر الله بقدره. فما للاستسلام والمسألة هنا مدخل في العبودية، اللهم إلا إذا بذل العبد جهده في المدافعة والمنازعة وخرج الأمر عن يده؛ فحينئذ يبقى من أهل الحكم الثالث: وهو الحكم القدري الكوني الذي يجري على العبد بغير اختياره، ولا طاقة له بدفعه، ولا حيلة له في منازعته. فهذا حقُّه أن يُتلقى بالاستسلام والمسألة وترك المخاصمة، وأن يكون فيه كالميت بين يدي الغاسل، وكمن انكسر به المركب في لجة البحر، وعجز عن السباحة وعن سبب يدينه من النجاة؛ فهنا يحسن الاستسلام والمسألة، مع أن عليه في هذا الحكم عبوديات آخر سوى التسليم والمسألة، وهي أن يشهد عزة الحاكم في حكمه، وعدله في قضائه، وحكمته في جريانه عليه، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وإن الكتاب الأول سبق



بذلك قبل بدء الخليقة، فقد جفَّ القلم بما يلقاه كل عبد، فمن رضي فله الرضا ومن سخط فله السخط، ويشهد أن القدر ما أصابه إلا لحكمة اقتضاها اسم الحكيم جل جلاله وصفته الحكمة، وأن القدر قد أصاب مواقعته وحلَّ في المحل الذي ينبغي له أن ينزل به، وأن ذلك أوجبه عدلُ الله وحكمته وعزَّته وعلمه وملكه العادل، فهو مُوجِبُ أسائه الحسنی وصفاته العلی، (١٨) فله عليه أكملُ حمد وأتمُّه، كما له الحمد على جميع أفعاله وأوامره.

وإن كان حظ العبد من هذا القدر الذم؛ فحق الرب تعالى منه الحمد والمدح؛ (١٩) لأنه موجب كماله وأسمائه الحسنی وصفاته العلی، وهو مُوجِبُ نقص العبد وجهله وظلمه وتفريطه، فاقتسم الرب والعبد الحظين في هذا القدر، وكان للرب سبحانه فيه الحمد والنعمة والفضل والثناء الحسن، والعبد حظه الذم واللوم والإساءة واستحقاق العقوبة.

استأثر الله بالمحامد والفضل ... وولى الملامة الرُّجلا

ويتبين هذا المقام في أربع آيات: إحداهما: قوله تعالى: (ما أصابك من حسنة فمن الله ومن أصابك من سيئة فمن نفسك)، والثانية: قوله: (أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم إن الله على كل شيء قدير)، والثالثة: قوله تعالى: (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير)، والرابعة: قوله تعالى: (وإننا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور).

فمن نزل هذه الآيات على هذا الحكم علماً ومعرفة، وقام بموجبها إرادة وعزماً وتوبة واستغفاراً؛ فقد أدى عبودية الله في هذا الحكم، وهذا قدرٌ زائد على مجرد التسليم والمسالمة.



والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله". (٢٠) وقال رحمه الله: "إنّ ورثة الرسل وخلفاءهم لكمال ميراثهم لنبيهم آمنوا بالقضاء والقدر والحكم والغايات المحمودة في أفعال الرب وأوامره، وقاموا مع ذلك بالأمر والنهي، وصدّقوا بالوعد والوعيد.

فآمنوا بالخلق الذي من تمام الإيثار به إثبات القدر والحكمة، وبالأمر الذي من تمام الإيثار به الإيثار بالوعد والوعيد وحشر الأجساد والثواب والعقاب. فصدّقوا بالخلق والأمر ولم ينفوهما بنفي لوازمهما، كما فعلت القدرية المجوسية والقدرية المعارضة للأمر بالقدر. وكانوا أسعد الناس وأقربهم عصابة في هذا الميراث النبوي، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

واعلم أن الإيثار بحقيقة القدر والشرع والحكمة لا يجتمع إلا في قلوب خواص الخلق ولُبِّ العالم، وليس الشأن في الإيثار بألفاظ هذه المسميات ووجد حقائقها، كما يفعل كثير من طوائف الضلال.

والمقصود؛ أنه لم يؤمن بالقضاء والقدر والحكمة والأمر والنهي والوعد والوعيد حقيقة الإيثار إلا أتباع الرسل وورثتهم. والقضاء والقدر منشؤه عن علم الرب وقدرته، ولهذا قال الإمام أحمد رحمه الله: "القدرُ قُدْرَةُ اللهِ". واستحسن ابن عقيل هذا الكلام من أحمد غاية الاستحسان، وقال: "إنه شفى بهذه الكلمة، وأفصح بها عن حقيقة القدر".

فارتباط الخلق بقدرته التامة يقتضي أن لا يخرج موجود عن قدرته، وارتباطه بعلمه التام يقتضي إحاطته به وتقدّمه عليه، وارتباطه بحكمته يقتضي وقوعه على أكمل الوجوه



وأحسنها، واشتماله على الغاية المحمودة المطلوبة للرب سبحانه، وكذلك أمره بعلمه وحكمته وعزته، فهو عليم بخلقه وأمره، ولهذا كان الحكيم من أسمائه الحسنی، والحكمة من صفاته العلی.

والشريعة الصادرة عن أمره مبناها على الحكمة، والرسول المبعوث بها مبعوث بالكتاب والحكمة. والحكمة: هي سنة الرسول صلى الله عليه وسلم، وهي تتضمن العلم بالحق والعلم به والخبر عنه والأمر به، فكل هذا يسمى حكمة. وفي الأثر: "الحكمة ضالة المؤمن" (٢١) وفي الحديث: "إن من الشعر حكمة" (٢٢) فكما لا يخرج مقدور عن علمه وقدرته ومشيتته؛ فهكذا لا يخرج عن حكمته وحمده، وهو محمود على جميع ما في الكون من خير وشرّ حمداً استحقه لذاته، وصدر عنه خلقه وأمره، فمصدر ذلك كله عن الحكمة، فإنكار الحكمة إنكار لحمده في الحقيقة. والله أعلم" (٢٣) "فإن قيل: فكيف تصنعون بما يُشاهد من أنواع الابتلاء والامتحان والآلام للأطفال والحيوانات، ومن هو خارج عن التكليف، ومن لا ثواب ولا عقاب عليه؟ وما تقولون في الأسماء الدالة على ذلك من المنتقم والقابض والخافض ونحوها؟

قيل: قد علمت أن جميع أسماء الرب سبحانه حسنى، وصفاته كمال، وأفعاله حكمة ومصالحة، وله كل ثناء وكل حمد ومدحة. وكل خير فمنه وله ويده، والشرّ ليس إليه بوجه من الوجوه لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله ولا في أسمائه، وإن كان في مفعولاته فهو خير بإضافته إليه، وشرّ بإضافته إلى من صدر عنه ووقع به. فتمسك بهذا الأصل ولا تفارقه في كل دقيق وجليل، وحكمه على كل ما يرد عليك، وحاكم إليه، واجعله آخيتك (٢٤) التي ترجع إليها، وتعتمد عليها.



واعلم أن الله خصائص في خلقه ورحمة وفضلاً يختص به من يشاء، وذلك مُوجِبُ ربوبيته وإلهيته وحمده وحكمته، فإياك ثم إياك أن تصغي إلى وسوسة شياطين الإنس والجن والنفس الجاهلة الظالمة: إنه هلاً سوى بين عباده في تلك الخصائص، وقسمها بينهم على السواء؟ فإن هذا عين الجهل والسفه من المعترض به، وقد بينا فيما تقدم أن حكمته تأبى ذلك وتمنع منه. ولكن اعلم أن الأمر قسمةً بين فضله وعدله، فيختص برحمته من يشاء، ويقصد بعذابه من يشاء، وهو المحمود على هذا.

فالطيون من خلقه مخصوصون بفضله ورحمته، والخبيثون مقصودون بعذابه، ولكل واحد قسطه من الحكمة والابتلاء والامتحان، وكلُّ مستعملٍ فيما هو له مُهيئاً وله مخلوق، وكل ذلك خير ونفع ورحمة للمؤمنين، فإنه تعالى خلقهم للخيرات فهم لها عاملون، واستعملهم فيها فلم يدركوا ذلك إلا به، ولا استحقوه إلا بما سبق لهم من مشيئته وقسمته؛ فكذا لا تضرهم الأدوية ولا السموم، بل متى وسوس لهم العدو واغتا لهم بشيء من كيده أو مسهم بشيء من طيفه تذكروا فإذا هم مبصرون، وإخوانهم يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون.

وإذا وقعوا في معصية صغيرة أو كبيرة عاد ذلك عليهم رحمةً، (٢٥) وانقلب في حقهم دواء، وبُدِّلَ حَسَنَةٌ بالتوبة النصوح والحسنات الماحية، لأنه سبحانه عرفهم بنفسه وبفضله، وبأن قلوبهم بيده، وعصمتهم إليه، حيث نقض عزماتهم وقد عزموا ألا يعصوه، وأراهم عزته في قضائه، وبرّه وإحسانه في عفوه ومغفرته، وأشهدهم نفوسهم وما فيها من النقص والظلم والجهل، وأشهدهم حاجتهم إليه وافتقارهم وذلمهم، وأنه إن لم يعف عنهم ويغفر لهم فليس لهم سبيل إلى النجاة أبداً، فإنهم لما أعطوا من أنفسهم العزم ألا يعصوه،



وعقدوا عليه قلوبهم، ثم عصوه بمشيئته وقدرته؛ عرفوا بذلك عظيم اقتداره، وجميل ستره إياهم، وكريم حلمه عنهم، وسعة مغفرتهم لهم، وبرّد عفوه وحنانه وعطفه ورأفته، وأنه حلِيم ذو أناة، ورحيم سبقت رحمته غضبه، وأنهم متى رجعوا إليه بالتوبة وجدوه غفوراً رحيمًا حلِيمًا كريمًا، يغفر لهم السيئات، ويقيلهم العثرات، ويودّهم بعد التوبة ويحبهم. فتضرّعوا إليه حينئذ بالدعاء، وتوسّلوا إليه بحسن إجابته وجميل عطفه وحسن امتنانه في أن ألهمهم دعاءه، ويسرهم للتوبة والإنابة، وأقبلوا بقلوبهم إليه بعد إعراضها عنه، ولم تمنعه معاصيهم وجنایاتهم من عطفه عليهم وبرّه لهم وإحسانه إليهم، فتاب عليهم قبل أن يتوبوا إليه، وأعطاهم قبل أن يسألوه.

فلما تابوا إليه واستغفروه وأنابوا إليه؛ تعرّف إليهم تعرّفًا آخر فعرفّهم رحمته وحسن عائدته وسعة مغفرتهم وكريم عفوه وجميل صفحه وبرّه وامتنانه وكرمه وشرعه، ومبادرته قبولهم بعد أن كان منهم ما كان من طول الشرور وشدة النفور والإيضاع (٢٦) في طرق معاصيه، وأشهدهم مع ذلك حمده العظيم وبره العميم وكرمه في أن خلّى بينهم وبين المعصية فنالوها بنعمه (٢٧) وإعانتته، ثم لم يُجَلِّ بينهم وبين ما توجهه من الهلاك والفساد الذي لا يرجي معه فلاح، بل تداركهم بالدواء الثاني الشافي، فاستخرج منهم داءً لو استمر معهم لأفضى إلى الهلاك.

ثم تداركهم برّوح الرجاء فقفذه في قلوبهم، وأخبر أنه عند ظنونهم به، ولو أشهدهم عظم الجنایة وقبح المعصية وغضبه ومقتته على من عصاه فقط؛ لأورثهم ذلك المرض القاتل والداء العضال من اليأس من رَوْحه والقنوط من رحمته، وكان ذلك عين هلاكهم،



ولكن رحمهم قبل البلاء، وجعل تلك الآثار التي تُوجِبُها المعصية من المحن والبلاء والشدائد رحمةً لهم وسبباً إلى علو درجاتهم ونيل الزلفى والكرامة عنده.

فأشهدهم بالجناية عزّة الربوبية وذلّ العبودية، ورقّاهم بآثارها إلى منازل قُربه ونيل كرامته، فهم على كل حال يربحون عليه، ويتقلّبون في كرمه وإحسانه. وكل قضاء يقضيه للمؤمن فهو خير، به يسوقه إلى كرامته وثوابه، وكذلك عطاياه الدنيوية نِعْمٌ منه عليهم، فإذا استرجعها أيضاً وسلبهم إياها انقلبت من عطايا الآخرة، كما قيل: "إن الله ينعم على عباده بالعطايا الفاخرة، فإذا استرجعها كانت عطايا الآخرة".

والرب سبحانه قد تجلّى لقلوب المؤمنين العارفين، وظهر لها بقدرته وجلاله وكبريائه ومضيّ مشيئته وعظيم سلطانه وعلو شأنه وكرمه وبرّه وإحسانه وسعة مغفرته ورحمته، وما ألقاه في قلوبهم من الإيمان بأسمائه وصفاته إلى حيث احتملته القوى البشرية، ووراءه مما لم تحتمله قواهم ولا يخطر ببال ولا يدخل في خلد (٢٨) مما لا نسبة لما عرفوه إليه!

فاعلم أن الذين كان قسّمهم أنواع المعاصي والفجور وفنون الكفر والشرك والتقلّب في غضبه وسخطه، وقلوبهم وأرواحهم شاهدة عليهم بالمعاصي والكفر، مقرّة بأن له الحجة عليهم، وأنّ حقّه قبلهم، ولا يذكر أحد منهم النار إلا وهو شاهد بذلك مقرّ به معترف اعتراف طائع لا مكره مضطهد، فهذه شهادتهم على أنفسهم وشهادة أوليائه عليهم، والمؤمنون يشهدون فيهم بشهادة أخرى لا يشهد بها أعداؤه، ولو شهدوا بها وباؤوا بها لكانت رحمته أقرب إليهم من عقوبته، فيشهدون أنهم عبيده وملكه، وأنه أوجدهم ليظهر بهم مجده، ويُنفذ فيهم حكمه، ويُضي فيهم عدله، ويُحقّ عليهم كلمته،



ويُصدقُ فيهم وعيده، ويُبين فيهم سابق علمه، ويُعمر بهم ديارهم ومساكنهم التي هي محل عدله وحكمته.

وشهد أولياؤه عظيم ملكه، وعزّ سلطانه، وصدق رسله، وكمال حكمته، وتما نعمة عليهم، وقدر ما اختصهم به، ومن أيّ شيء حماهم وصانهم، وأيّ شيء صرف عنهم، وأنه لم يكن لهم إليه وسيلة قبل وجودهم يتوسلون بها إليه ألا يجعلهم من أصحاب الشمال وأن يجعلهم من أصحاب اليمين، وشهدوا له سبحانه بأن ما كان منه إليهم وفيهم مما يقتضيه إتمام كلماته من الصدق والعدل والقول وتحقق مقتضى أسمائه فهو محض حقه، وكل ذلك منه حسن جميل، له عليه أتمّ حمد وأكمّله وأفضله، وهو حُكمٌ عدل وقضاءٌ فصل، وأنه المحمود على ذلك كله، فلا يلحقه منه ظلم ولا جور ولا عبث، بل ذلك عين الحكمة ومحض الحمد، وكمال أظهره في حقه، وعزّ أبداه، ومُلك أعلنه، ومراد له أنفذه، كما فعل بالبُدنِ وضروب الأنعام أتمّ بها مناسك أوليائه وقرابين عبادته، وإن كان ذلك بالنسبة إلى الأنعام هلاكًا وإتلافًا، فأعداؤه الكفار المشركون به الجاحدون أولى أن تكون دماؤهم قرابين أوليائه وضحايا المجاهدين في سبيله، (٢٩) كما قال حسان بن ثابت:

يتطهرون يرونه قربانهم (٣٠) ... بدماء من علقوا من الكفار

وكذلك لما ضحى خالد بن عبدالله القسري (٣١) بشيخ المعطلة الفرعونية جعد بن درهم، فإنه خطبهم في يوم أضحى، فلما أكمل خطبته قال: "أيها الناس، ضحوا تقبل الله ضحاياكم فإني مضح بالجعد بن درهم، (٣٢) إنه زعم أن الله لم يكلم موسى تكليمًا، ولم يتخذ إبراهيم خليلًا، تعالى عما يقول الجعد علواً كبيرًا". ثم نزل فذبحه، فكان ضحيته.



وذكر ذلك البخاري في كتاب "خلق الأفعال". فهذا شهود أوليائه من شأن أعدائه، ولكن أعداءه في غفلة عن هذا لا يشهدونه ولا يُقرّون به. ولو شهدوه وأقرّوا به لأدركهم حنانه ورحمته، ولكن لما حُجّبوا عن معرفته ومحبته وتوحيده وإثبات أسماؤه الحسنی وصفاته العليا ووصفه بما يليق به وتنزيهه عما لا يليق به؛ صاروا أسوأ حالاً من الأنعام، وضربوا بالحجاب، وأبعدوا عنه بأقصى البعد، وأخرجوا من نوره إلى الظلمات، وغُيِّب قلوبهم في الجهل به وبكَماله وجلاله وعظمته في غيابات، ليتّم عليهم أمره، وينفذ فيهم حكمه، والله عليم حكيم". (٣٣)

ومن لطف الله تعال بعباده أنه يزعجهم عن رغبة القرار في الدنيا ليرغبوا إلى الآخرة ويعملون لها عملها، فجعل الدنيا مستمتع مسافر، وزاد راكب، وميدان امتحان، وتكليف تشریف، فلم يكتب لها الخلد ولم يجعل لها السلامة من الآفات، فحلالها منغص فكيف بحرامها، فإن غفل وليّه بحلالها وقسى قلبه بالانغماس فيها لسع الحكيم قلبه بحرمان أو آفة أو مرض أو خوف أو مصيبة تفرع قلبه الغافل لينتبه من غفلته لعقله، ويثب من سقطته لصفوة عزمه، ويقوم من رقدته لفلاح آخرته، فيسعى للدرجات العلى من الجنة والرضوان المقيم. هذا في شأن المنغمس في المباح، أما العاصي فيزعج قلبه بسوط أشد، فيفسد عليه ما عصى به ربّه، لعلّه يفهم الرسالة، ويتدارك الفوات، ويلحق بركب التوابين، فإن لم يفعل فسد قلبه وعلاه الرّان، ولا إله إلا الله، والله المستعان. وقد ذكر ابن القيم رحمه الله قاعدة مطردة في ذلك فقال: «وهذه القاعدة مطردة في كل شيء عصى الربُّ به، فإنه يُفسد على صاحبه، فمن عصاه بهاله أفسده عليه، ومن عصاه بجاهه أفسده عليه، ومن عصاه بلسانه أو قلبه أو عضو من أعضائه أفسده عليه وإن لم يشعر بفساده.



فأيّ فساد أعظم من فساد قلب خرب من محبة الله وخوفه ورجائه والتوكل عليه والإجابة إليه والطمأنينة بذكره والأنس به والفرح بالإقبال عليه، وهل هذا القلب إلا قلبٌ قد استحکم فساده والمصاب لا يشعر، وأيّ فساد أعظم من فساد لسان تعطل عن ذكره وما جاء به وتلاوة كلامه ونصيحة عباده وإرشادهم ودعوتهم إلى الله، وأيّ فساد أعظم من فساد جوارح عطّلت عن عبودية فاطرها وخالقها وخدمته والمبادرة إلى مرضاته. وبالجملة؛ فما عصي الله بشيء إلا أفسده على صاحبه.

ومن أعظم معصية العقل إعراضه عن كتابه ووحيه الذي هدى به رسوله وأتباعه والمعارضة بينه وبين كلام غيره، فأيّ فساد أعظم من فساد هذا العقل؟! وقد أرى الله سبحانه أتباع رسوله من فساد عقل هؤلاء ما هو من أقوى أسباب زيادة إيمانهم بالرسول وبما جاء به، وموجباً لشدة تمسكهم به". (٣٤)

والمؤمن يعلم أن لعقله مدى ينتهي إليه فلا يزيغ بعُجب، ولا يطغى بكبر. وقد أحسن المعلمي رحمه الله في توصيفه عجز العقل، وأن له حافةً ينتهي إليها مهما بلغت حدّته ونبوغه: "وليعلم العاقل أن عقله قوّة من قواه المخلوقة له، كالسمع والبصر والشّم والذوق وغيرها. فكما أن كلّ قوّة من هذه لها حدٌّ لا تتجاوزه، فكذلك العقل. وكما أن للحواسّ أغلاطاً معروفةً كرؤية الواحد اثنين والصغير كبيراً وعكسه، وتوهم بعض الناس أنه يسمع كلاماً في حال أن الذين بجنبه لا يسمعون شيئاً، واستطابة الروائح الكريهة في بعض الأمراض، وطعم الماء العذب مرّاً في بعضها وطعمه كأنها مُزج بالسكر بعد تناول بعض الأدوية المرّة؛ فكذلك للعقل أغلاطٌ أدقُّ وأخفى. وقد روي عن الإمام الشافعيّ



رحمه الله تعالى أنه قال: إن للعقل حدًا ينتهي إليه كما أن للبصر حدًا ينتهي إليه". (٣٥)
(٣٦)

وقد كان الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله يقول: "العقل مع نصف العلم، خير من نصف العقل مع العلم". وهذا فقه عظيم من هذا الإمام، لأن آلة الإدراك هي العقل، فقليل العلم ينتفع به العقل لأنه يُحسن الاعتناء به، لمعرفة حدود العلم والفهم، ومهارته في استخراج كنوز المعارف من جواهر العلوم، واقتباس أنوار الهدى من مشكاة العلم الصحيح، فهو يميز ويقارن وقيس ويمزج ويحلل، فيأخذ زبدة العلم بصفائه وحدته. ولكن إن ضعف العقل فقد تكون علومه ضارة، لأنه سيضعها في غير محلها، ويفهمها على غير وجهها، فينقلب العلم جهلاً، وخير له لو لم يعلم، فإذا انضاف لذلك عجب وكبر فهي الفاقة! والله الحافظ العاصم الموفق. ويشهد لذلك ما ذكره أبو حيان التوحيدي (٣٧)
قال: "قال أبو العباس: الناس في العلم على ثلاث درجات، فواحد يُلهم فيعلم فيصير مبدأ، والآخر يتعلم ولا يلهم فهو يؤدي ما قد حفظ، والآخر يُجمع له بين أن يلهم وأن يتعلم. فيكون بقليل ما يتعلم أكثرًا بقوة ما يلهم.. وقال سولون (٣٨): العلم صغير في الكمية، كبير في الكيفية. قال أبو سليمان: يعني أن القليل منه إذا استعملته على وجهه كان له إتاءً ونفعٌ فائض، ودرّ سائح، وغاية محمودة، وأثرٌ باق. وهذه كلها كميّات من تلك الكميّة".

ولشيخ الإسلام رحمه الله تعالى وصية نافعة في التعامل مع الشبهات فقال: "لا تجعل قلبك للإيرادات والشبهات مثل السفنجة فيتشربها، فلا ينضح إلا بها، ولكن اجعله كالزجاجة المصمتة، تمرّ الشبهات بظاهرها ولا تستقرّ فيها، فيراها بصفائه، ويدفعها



بصلايته. وإلا فإذا أشربت قلبك كل شبهة تمرّ عليك؛ صار مقرّاً للشبهات" وقال ابن القيم رحمه الله تعالى معلّقاً على ذلك: "فما أعلم أني انتفعت بوصية في دفع الشبهات كانتفاعي بذلك". (٣٩).

وقال الغزالي رحمه الله تعالى مبيناً أن الرضا بالله تعالى إنما هو الرضا بمحابه سبحانه دون مكروهاته، وأنه لا يجوز الرضا بالمعاصي، وأن الدعاء وإنكار المنكرات غير مناقض للرضا: "اعلم أن الرضا ثمرة من ثمار المحبة، وهو من أعلى مقامات المقربين، وحقيقته غامضة على الأكثرين، وما يدخل عليه من التشابه والإبهام غير منكشف إلا لمن علّمه الله تعالى التأويل وفهمه وفقهه في الدين، فقد أنكر منكرون تصوّر الرضا بما يخالف الهوى، ثم قالوا: إن أمكن الرضا بكل شيء لأنه فعلُ الله فينبغي أن يرضى بالكفر والمعاصي! وانخدع بذلك قوم فرأوا الرضا بالفجور والفسوق وترك الاعتراض والإنكار من باب التسليم لقضاء الله تعالى.

واعلم أن من قال: ليس فيما يخالف الهوى وأنواع البلاء إلا الصبر، فأما الرضا فلا يتصور؟ فإنما أتى من ناحية إنكار المحبة. فأما إذا ثبت تصور الحب لله تعالى واستغراقهم به؛ فلا يخفى أن الحب يورث الرضا بأفعال الحبيب، ويكون ذلك من وجهين:

أحدهما: أن يبطل الإحساس بالألم حتى يجري عليه المؤلم ولا يحس، وتصيبه جراحة ولا يدرك ألمها، ومثاله: الرجل المحارب فإنه حال غضبه أو في حال خوفه قد تصيبه جراحة وهو لا يحس بألم ذلك لشغل قلبه. بل الذي يَحِجُّمُ رأسه بحديدة كآلة يتألم به، فإن كان مشغول القلب بمهمٍّ من مهماته فرغ الحجام وهو لا يشعر به. وكل ذلك لأن القلب إذا صار مستغرقاً بأمر من الأمور مستوفى به لم يدرك ما عداه، فكذلك العاشق المستغرق



الهمّ بمشاهدة معشوقه أو بحبّه قد يصيبه ما كان يتألم به أو يغتم له لولا عشقه، ثم لا يدرك غمّه وألمه لفرط استيلاء الحب على قلبه. هذا إذا أصابه من غير حبيبه، فكيف إذا أصابه من حبيبه؟! من حبيبه!

وشُغْلُ القلب بالحب من أعظم الشواغل، وإذا تصور هذا في ألم يسير بسبب حب خفيف؛ تُصَوِّرَ في الألم العظيم بالحب العظيم، فإن الحب أيضًا يُتصَوَّرُ تضاعفه في القوة كما يتصوّر تضاعف الألم، وكما يقوى حب الصور الجميلة المدركة بحاسة البصر فكذا يقوى حب الصور الجميلة الباطنة المدركة بنور البصيرة.

وجمال حضرة الربوبية وجلالها لا يقاس به جمال ولا جلال، فمن ينكشف له شيء منه؛ فقد يبهره بحيث يدهش فلا يحس بما يجري عليه. وكان سهل رحمه الله تعالى به عِلَّةً يعالج غيره منها ولا يعالج نفسه، فقليل له في ذلك فقال: يا دوست، (٤٠) ضَرْبُ الحبيب لا يُوجع.

وأما الوجه الثاني: فهو أن يحسّ به ويدرك ألمه، ولكن يكون راضياً به، بل راغباً فيه، مريدًا له - أعني بعقله - وإن كان كارهاً بطبعه، كالذي يلتمس من الفصاد الفصد والحجامة، فإنه يدرك ألم ذلك إلا أنه راضٍ به، وراغب فيه، ومتقلّد من الفصّاد به منّةً بفعله، فهذا حال الراضي بما يجري عليه من الألم. وكذلك المسافر في طلب الربح؛ يدرك مشقّة السفر، ولكن حبه لثمرة سفره طيّبَ عنده مشقّة السفر، وجعله راضياً بها. ومهما أصابته بليّة من الله تعالى وكان له يقين بأن ثوابه الذي ادخر له فوق ما فاتته؛ رضي به ورغب فيه وأحبه وشكر الله عليه. (٤١) هذا إن كان يلاحظ الثواب والإحسان الذي يجازى به



عليه، ويجوز أن يغلب الحب بحيث يكون حظ المحب في مراد محبوبه ورضاه لا لمعنى آخر وراءه، فيكون مراد حبيبه ورضاه محبوباً عنده ومطلوباً.

وكل ذلك موجود في المشاهدات في حب الخلق، وقد تَوَاصَفَهَا الْمُتَوَاصِفُونَ فِي نَظْمِهِمْ ونثرهم، ولا معنى له إلا ملاحظة جمال الصورة الظاهرة بالبصر، فإن نظر إلى الجمال فما هو إلا جلد ولحم ودم مشحون بالأقدار والأخبار، بدايته من نطفة مذرة، ونهايته جيفة قدرة، وهو فيما بين ذلك يحمل العذرة، وإن نظر إلى المدرك للجمال فهي العين الخسيصة التي تغلط فيما ترى كثيراً، فترى الصغير كبيراً والكبير صغيراً، والبعيد قريباً والقبيح جميلاً! فإذا تصور استيلاء هذا الحب؛ فمن أين يستحيل ذلك في حب الجمال الأزلي الأبدي الذي لا ينتهى لكماله، المدرك بعين البصيرة التي لا يعترها الغلط، (٤٢) ولا يدور بها الموت، بل تبقى بعد الموت؟ حية عند الله، فرحة برزق الله تعالى، مستفيدة بالموت.

فهذا أمر واضح من حيث النظر بعين الاعتبار، ويشهد لذلك الوجود وحكايات أحوال المحبين وأقوالهم.

وقال يحيى بن معاذ الرازي رحمه الله تعالى: "إذا نظر أهل الجنة إلى الله تعالى ذهبت عيونهم في قلوبهم من لذة النظر إلى الله تعالى لا ترجع إليهم، فما ظنك بقلوب وقعت بين جماله وجلاله؟ إذا لاحظت جلاله هابت، وإذا لاحظت جماله تاهت!"

وقال مسروق: كان رجل بالبادية له كلب وحمار وديك، فالديك يوقظهم للصلاة، والحمار ينقلون عليه الماء ويحمل لهم خبأهم، والكلب يحرسهم، قال: فجاء الثعلب فأخذ الديك، فحزنوا له وكان الرجل صالحاً فقال: عسى أن يكون خيراً، ثم جاء ذئب فخرق



بطن الحمار فقتله، فحزنوا عليه فقال الرجل: عسى أن يكون خيراً، ثم أصيب الكلب بعد ذلك فقال: عسى أن يكون خيراً، ثم أصبحوا ذات يوم فنظروا فإذا قد سُبي من حولهم وبقوا هم. قال: وإنما أخذوا أولئك لما كان عندهم من أصوات الكلاب والحمير والديكة، فكانت الخيرة لهؤلاء في هلاك هذه الحيوانات كما قدّره الله تعالى. (٤٣) فإذا من عرف خفي لطف الله تعالى رضي بفعله على كل حال.

وقطع عروة بن الزبير رحمه الله رجله من ركبته، من أكلةٍ خرجت بها، ثم قال: "الحمد لله الذي أخذ مني واحدة. وإيّمك (٤٤) لئن كنت أخذت لقد أبقيت، ولئن كنت ابتليت فقد عافيت"، ثم لم يدع ورده تلك الليلة.

وكان ابن مسعود رضي الله عنه يقول: "الفقر والغنى مطيّتان ما أبالي أيتهما ركبت، إن كان الفقر فإن فيه الصبر، وإن كان الغنى فإن فيه البذل".

وقد كان عمران بن الحصين رضي الله عنهما قد استسقى بطنه، فبقي ملقى على ظهره ثلاثين سنة، لا يقوم ولا يقعد - قد نُقب له في سرير من جريد كان عليه موضع لقضاء حاجته - فدخل عليه مطرّف وأخوه العلاء فجعل يبكي لما يراه من حاله، فقال: لم تبكي؟ قال: لأنني أراك على هذه الحالة العظيمة! قال: "لا تبك فإن أحبّه إلى الله تعالى أحبّه إلي".

ولما قدم سعد بن أبي وقاص إلى مكة - وقد كان كُفَّ بصره - جاءه الناس يُهرعون إليه، كل واحد يسأله أن يدعو له، فيدعوا لهذا ولهذا - وكان مجاب الدعوة - قاله عبد الله بن السائب: فأتيته وأن غلام فتعرّفتُ عليه فعرفني وقال: أنت قارئ أهل مكة؟ قلت: نعم، فذكر قصة قال في آخرها: فقلت له: يا عمّ أنت تدعو للناس فلو دعوت لنفسك فرد



الله عليك بصرك. فتبسم وقال: "يا بني، قضاء الله سبحانه عندي أحسن من بصري".
وقال بعض السلف: "لو قُرِّضَ جسمي بالمقاريض لكان أحب إلي من أن أقول لشيء قضاء
الله تعالى سبحانه: ليته لم يقضه".

فإذا تأملت هذه الحكايات عرفت - قطعاً - أن الرضا بما يخالف الهوى ليس مستحيلاً،
بل هو مقام عظيم من مقامات أهل الدين. ومهما كان ذلك ممكناً في حب الخلق
وحظوظهم؛ كان ممكناً في حق حب الله تعالى وحظوظ الآخرة قطعاً.

وإمكانه من وجهين: أحدهما: الرضا بالألم لما يتوقع من الثواب الموجود، كالرضا
بالفصد والحجامة وشرب الدواء انتظاراً للشفاء. والثاني: الرضا به لا لحظٍّ وراءه، بل
لكونه مراد المحبوب ورضاً له، فقد يغلب الحب بحيث ينغمر مراد الحب في مراد
المحبوب، فيكون ألدَّ الأشياء عنده رضا محبوبه ونفوذ إرادته ولو في هلاك روحه. كما قيل:
فما جرح إذا أرضاكم ألم.

وهذا ممكن مع الإحساس بالألم، وقد يستولي الحب بحيث يُدهش عن إدراك الألم،
فالقياس والتجربة والمشاهدة دالة على وجوده، فلا ينبغي أن ينكره من فقدته من نفسه،
لأنه إنما فقدته لفقد سببه وهو فرط حبه، ومن لم يذق طعم الحب لم يعرف عجائبه،
فللمحبين عجائب أعظم مما وصفناه. وحكي عن محمد بن عبد الله البغدادي قال: رأيت
بالبصرة شاباً على سطح مرتفع، وقد أشرف على الناس وهو يقول:

من مات عشقاً فليمت هكذا... لا خير في عشق بلا موت



ثم رمى بنفسه الأرض، فحملوه ميتاً. (٤٥) فهذا وأمثاله قد يصدق به في حب المخلوق، والتصديق به في حب الخالق أولى، لأن البصيرة الباطنة أصدق من البصر الظاهر، وجمال الحضرة الربانية أوفى من كل جمال، بل كل جمال في العالم فهو حسنة من حسنات ذلك الجمال. نعم، الذي فقد البصر ينكر جمال الصور، والذي فقد السمع ينكر لذة الألحان والنعيمات الموزونة، فالذي فقد القلب لا بد وأن ينكر أيضاً هذه اللذات التي لا مظنة لها سوى القلب! (٤٦)

واعلم أن الدعاء غير مناقض للرضا، ولا يخرج صاحبه عن مقام الرضا، وكذلك كراهة المعاصي ومقت أهلها ومقت أسبابها والسعي في إزالتها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يناقضه أيضاً. وقد غلط في ذلك بعض البطالين المغترين، وزعم أن المعاصي والفجور والكفر من قضاء الله وقدره عز وجل فيجب الرضا به، وهذا جهل بالتأويل وغفلة عن أسرار الشرع.

فأما الدعاء؛ فقد تعبدنا به، وكثرت دعوات رسول الله صلى الله عليه وسلم وسائر الأنبياء عليهم السلام - على ما نقلناه في كتاب الدعوات - تدل عليه. ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في أعلى المقامات من الرضا. وقد أثنى الله تعالى على بعض عباده بقوله: (ويدعوننا رغبا ورهبا).

وأما إنكار المعاصي وكراهتها وعدم الرضا بها؛ فقد تعبد الله به عباده وذمهم على الرضا به فقال: (ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها)، وقال تعالى: (رضوا بأن يكونوا مع الخوالم وطبع على قلوبهم). وعن ابن مسعود رضي الله عنه: "إن العبد ليغيب عن المنكر ويكون عليه مثل وزر صاحبه! قيل: وكيف ذلك؟ قال: يبلغه فيرضى به".



وقد أمر الله تعالى بالمنافسة في الخيرات وتوقي الشرور فقال تعالى: (وفي ذلك فليتنافس المتنافسون). وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «لا حسد إلا في اثنتين؛ رجل آتاه الله القرآن فهو يتلوه آناء الليل والآناء النهار، فسمعه جار له، فقال: ليتني أوتيتُ مثل ما أوتي فلان فعملت مثل ما يعمل، ورجل آتاه الله مالاً فهو ينفقه في حقّه، فقال رجل: ليتني أوتيتُ مثل ما أوتي فلان، فعملت مثل ما يعمل». (٤٧)

وأما بغض الكفار والإنكار عليهم ومقتهم فما ورد فيه من شواهد القرآن والأخبار لا يحصى مثل قوله تعالى: (لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين)، وقال تعالى: (يا أيها الذي آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء)، وقال تعالى: (وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً). وقال صلى الله عليه وسلم: "المرء مع من أحب". (٤٨)

فإن قلت: فقد وردت الآيات والأخبار بالرضا بقضاء الله تعالى، فإن كانت المعاصي بغير قضاء الله تعالى فهو مُحالٌ وهو قاذح في التوحيد، وإن كانت بقضاء الله تعالى فكراهتها ومقتها كراهة لقضاء الله تعالى، وكيف السبيل إلى الجمع وهو متناقض على هذا الوجه، وكيف يمكن الجمع بين الرضا والكراهة في شيء واحد؟

فاعلم أن هذا مما يلتبس على الضعفاء القاصرين عن الوقوف على أسرار العلوم، وقد التبس على قوم حتى رأوا السكوت عن المنكر مقاماً من مقامات الرضا، وسمّوه حُسن الخُلُق، وهو جهل محض.

بل نقول: الرضا والكراهة يتضادان إذا تواردا على شيء واحد من جهة واحدة على وجه واحد، فليس من التضاد في شيء واحد أن يكرهه من وجه ويرضى به من وجه؛ إذ



قد يموت عدوك الذي هو أيضًا عدوَّ بعض أعدائك وساعٍ في إهلاكه، فتكره موته من حيث إنه مات عدوَّ عدوك، وترضاه من حيث إنه مات عدوك. وكذلك المعصية لها وجهان: وجهٌ إلى الله تعالى من حيث إنه اختياره وإرادته، فيرضى به من هذا الوجه تسليماً لذلك المُلْك إلى مالك الملك، ورضاً بما يفعله فيه، ووجهٌ إلى العبد من حيث إنه كسبه ووصفه، وعلامة كونه ممقوتاً عند الله وبغيضاً عنده حيث سلَّط عليه أسباب البعد والمقت، فهو من هذا الوجه منكر ومذموم. ولا ينكشف هذا لك إلا بمثال:

فلنترض محبباً من الخلق قال بين يدي محبيه: إني أريد أن أميّز بين من يحبني ويبغضني، وأنصب فيه معياراً صادقاً وميزاناً ناطقاً، وهو أني أقصد إلى فلان فأؤذيه وأضربه ضرباً يضطره ذلك إلى الشتم لي. حتى إذا شتمني أبغضته واتخذته عدوًّا لي، فكل من أحبه أعلم أيضًا أنه عدوي، وكل من أبغضه أعلم أنه صديقي ومحبي. ثم فعل ذلك وحصل مراده من الشتم الذي هو سبب البغض، وحصل البغض الذي هو سبب العداوة. فحقَّ على كل من هو صادق في محبته وعالم بشروط المحبة أن يقول: أما تدبيرك في إيذاء هذا الشخص وضربه وإبعاده وتعريضك إياه للبغض والعداوة - فأنا محب له وراض به فإنه رأيك وتدبيرك وفعلك وإرادتك، وأما شتمه إياك فإنه عدوان من جهته إذ كان حقه أن يصبر ولا يشتم، ولكنه كان مرادك منه؛ فإنك قصدت بضربه استنطاقه بالشتم الموجب للمقت، فهو من حيث إنه حصل على وفق مرادك وتدبيرك الذي دبّرتَه فأنا راض به، ولو لم يحصل لكان ذلك نقصاناً في تدبيرك وتعويقاً في مرادك، وأنا كاره لفوات مرادك، ولكنه من حيث إنه وُصف لهذا الشخص وكسب له وعدوان وتهجّم منه عليك على خلاف ما يقتضيه



جمالك - إذ كان ذلك يقتضي أن يحتمل منك الضرب ولا يقابل بالشتم - فأنا كاره له من حيث نسبته إليه، ومن حيث هو وصف له، لا من حيث هو مرادك ومقتضى تدبيرك.

وأما بغضك له بسبب شتمك فأنا راض به ومحب له لأنه مرادك، وأنا على موافقتك أيضاً مبغض له، لأن شرط المحب أن يكون لحبيب المحبوب حبيياً ولعدوه عدواً.

وأما بغضه لك فإني أراضه من حيث إنك أردت أن يبغضك إذ أبعده عن نفسك وسلطت عليه دواعي البغض، ولكنني أبغضه من حيث إنه وصف ذلك المبغض وكسبه وفعله وأمقته لذلك، فهو ممقوت عندي لمقته إياك، وبغضه ومقته لك أيضاً عندي مكروه من حيث إنه وصفه، وكل ذلك من حيث إنه مرادك فهو مرضي.

وإنما التناقض أن يقول: هو من حيث إنه مرادك مرضي، ومن حيث إنه مرادك مكروه، وأما إذا كان مكروهاً لا من حيث إنه فعله ومراده، بل من حيث إنه وصف غيره وكسبه؛ فهذا لا تناقض فيه، ويشهد لذلك كل ما يُكره من وجه ويُرضى به من وجه، ونظائر ذلك لا تحصى، (ولله المثل الأعلى).

فواجب على كل عبد محب لله أن يبغض من أبغضه الله، ويمقت من مقته الله، ويعادي من أبعده الله عن حضرته، فإنه بعيد مطرود ملعون عن الحضرة.

وبهذا يُعرف أيضاً أن الدعاء بالمغفرة والعصمة من المعاصي وسائر الأسباب المعينة على الدين غير مناقض للرضا بقضاء الله تعالى، فإن الله تعبد العباد بالدعاء ليستخرج الدعاء منهم صفاء الذكر وخشوع القلب ورقة التضرع، ويكون ذلك جلاء للقلب وسبباً لتواتر مزايا اللطف". (٤٩) ومن جميل كلام ابن الجوزي رحمه الله تعالى: "إذا رأيت سربال



الدُّنيا قد تقلَّص عنك؛ فاعلم أنه قد لُطفَ بك؛ لأنَّ المنعم لم يقلِّصه عليك بخلاً أن يتمزَّق، لكنَّ رفقا بالماشي أن يتعثَّر، أحرم عن الحرام بنزع مخيط الهوى لعلَّ جذب التوفيق يقارن ضعف كسبك". (٥٠)

وبما أن الدعاء الخالص هو أعظم الأسباب في تحصيل الخير ودفع الشرِّ فينبغي على الداعي أن يراعي جهة العبوديَّة بدعائه، وأنَّه يتقرَّب إلى ربه بعبادة يحبها الله تعالى، قال السعدي رحمه الله تعالى: "وينبغي لمن دعا ربه في حصول مطلوب، أو دفع مرهوب، أن لا يقتصر في قصده ونيته في حصول مطلوبه الذي دعا لأجله، بل يقصد بدعائه التقرب إلى الله بالدعاء وعبادته التي هي أعلى الغايات، فيكون على يقين من نفع دعائه، وأن الدعاء مخَّ العبادة وخلصتها، فإنه يجذب القلب إلى الله، وتلجئه حاجته للخضوع والتضرع لله الذي هو المقصود الأعظم في العبادة، ومن كان قصده في دعائه التقرب إلى الله بالدعاء، وحصول مطلوبه، فهو أكمل بكثير ممن لا يقصد إلا حصول مطلوبه فقط، كحال أكثر الناس، فإن هذا نقص وحرمان لهذا الفضل العظيم، ولمثل هذا فليتنافس المتنافسون. وهذا من ثمرات العلم النافع، فإن الجهل منع الخلق الكثير من مقاصد جليلة ووسائل جميلة لو عرفوها لقصدها، ولو شعروا بها لتوسلوا إليها، والله الموفق". (٥١)

من يسأل الناس يحرموه... وسائل الله لا يخيبُ

.....

١. أحمد في المسند (٨٠٣) ومسلم (٢١٥ / ١)

٢. الرُّوزنة: الكوة والنافذة، سواء كانت في الجدار أو في السقف، والثاني أكثر استعمالاً.



٣. الحق: هو الله تعالى. بالحق: أي بالصواب المبني على دلائل الوحي. للحق: أي مخلصاً في ذلك لله تعالى. ومنه قول ابن القيم في نونيته:

فلواحد كُنَّ واحداً في واحدٍ ... أعني طريقَ الحقِّ والإيمانِ

فلواحد: أي أخلص عملك للواحد وهو الله تعالى. واحداً: أي لا يضررك قلة السالكين لسبيل الرسل ولو كنت وحدك كما قال تعالى " (إن إبراهيم كان أمة). في واحد: هو الصراط المستقيم خلافاً لطرائق الضلال وسبل الزيغ.

٤. ولا يقصد بالنزاع اللفظ الموحش بالمحاربة، بل قصد رحمه الله مدافعة القدر الذي لا يوافق الشرع بقدر موافق للشرع، كما قال تعالى: (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين)، فيدفع الله تعالى بأهل الصلاح والاستقامة أهل الفساد والزيغ والاعوجاج. ومثاله في النفس: لو أن معصية عرضت له واشتهتها نفسه؛ فهذا قدرٌ مقبل عليه - وإن كان لا يعلم غايته، فقد يكون أو لا يكون - فيدفع هذا القدر المظنون بالقدر الذي يرضي الله تعالى، فيردع نفسه عن الحرام، فإن وفق لذلك فقد وافق قدره شرعاً ربه، وإن خذل عن بلوغه فقد تخلفت نفسه عن وارد الشرع فعصت واستحقت عقوبة المذنبين، والله المستعان، (إنا كل شيء خلقناه بقدر).

وقد قصد الشيخ عبد القادر بهذا الرد على الذين قالوا: لا نردّ القدر بل نهائيه ونركب ما اتفق لنا منه طاعة كانت أو معصية جريئاً معه وشهوذاً له! فردّهم إلى وجوب التفريق بينهما، وأن كلّ بقدر الله، وأن المعصية إذا لم يفعلها الإنسان فهي غير مقدّرة عليه أصلاً لأنها لم تقع، فكيف يحتجون بأمر لم يقع بعد، فإن وقع الذنب فلا حجة في القدر معه؛ لأن العبد قد علم من نفسه القدرة التي حباه الله تعالى بها لمدافعته ابتداء لو أراد، فوقوعه في الذنب دليل على تخلف الإرادة منه لأنه مكلف، والله لا يكلفه سوى طاقته ووسعه، قال سبحانه: (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها).

٥. العبودية (٨ - ١٣) باختصار.

٦. وهم القدرية الأولى الذين تبرأ منهم ابن عمر وابن عباس رضي الله عنهم.

٧. كما ذكروا عن أبي العلاء المعري أنه قال متأبلاً مُعْتَرِضاً على قطع يد السارق مع كون ديتها نصف دية

إنسان:



يدٌ بخمس مئتين عسجدٍ وُدَيْتُ ... ما بالها قُطعت في ربع دينار

تناقضٌ ما لنا إلا السكوت له ... ونستعيدُ بمولانا من النار

وما التناقض إلا في عقله وقلبه، وقد ردّ عليه الشيخ عبد الوهاب المالكي رحمه الله تعالى بقوله:

قل للمعرّي عارٌ أيّما عارٍ ... جهلُ الفتى وهو عن ثوب التقي عاري

عزُّ الأمانة أغلاها، وأرخصها ... ذلُّ الخيانة فافهم حكمة الباري

لا تقدحَنَّ بنودَ الشرع عن شُبّهه ... شرائعُ الدين لم تُقدح بأشعارِ

٨. أبو داود (١٠٥٤) وصححه الألباني.

٩. فمصادر العلوم ثلاثة: فطريٌّ غريزيٌّ، وتجريبيٌّ كسبيٌّ، وموقوفٌ على الوحي الإلهي.

١٠. أي يعرفون بفطريهم وعقولهم أن للكون ربًّا خالقًا مالكًا مدبرًا قديرًا مألوهًا مستحقًا للعبادة

دون سواه. أما تفاصيل أسمائه وصفاته وأفعاله فموقوفة على السمع.

١١. مجموع الفتاوى (٣/ ١١١-١١٥) مختصرًا.

١٢. البخاري ٦٠/٢ (١١٢٠)، ومسلم ١٨٤/٢ (٧٦٩) (١٩٩) وتاممه: ".. فاغفر لي ما قدّمت،

وما أخّرت، وما أسررت، وما أعلنت، أنت المُقدّم، وأنت المؤخّر، لا إله إلا أنت".

١٣. كما ذكر عن عليّ رضي الله عنه أنه صرع رجلاً من المشركين وطرحه وبرك عليه ليقتله، فبصق

الرجل عليه فقام عنه وتركه، ولمّا سئل عن ذلك قال: "إنّه لما بصق في وجهي اغتظت منه فخفت إن قتلته أن يكون

للغضب والغیظ نصيب في قتله، وما كنت أن أقتله إلا خالصًا لوجه الله تعالى". وانظر: الفخري في الآداب

السلطانية والدول الإسلامية لابن الطقطقي (٤٩/١).

١٤. البخاري (٦٨٥٣) ومسلم (٢٣٢٧) بلفظ: "ما انتقم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَطُّ

لنفسه، إلا أن تُنتهك محارمُ الله، فإذا انتهكت محارمُ الله لم يقم لغضبه شيء حتى ينتقم لله".

١٥. قصد بذلك تقسيم الحكم القدري الكوني إلى قسمين: الأول: ما كان باختيار العبد، والثاني ما

كان بغير اختياره، فهما راجعان إلى القسم الأول.



١٦. الخلاق: النصيب. ومراده: أنه لم يصرف نعم الله في معاصيه. قال تعالى: (فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم وخضتم كالذي خاضوا).
١٧. ويقال كذلك: الجيلاني، والكيلاني، وكلها صحيحة.
١٨. أي أن كمال أسماء الله تعالى وصفاته يقتضي حدوث آثارها، ومن ذلك اسم الحكيم وصفته الحكمة، فمن آثار الحكمة تقدير ذلك الأمر المعين على عبده، فهذا المقدور هو موجب حكمة الله تعالى التي نزلت منزلتها اللاتقة بها فيه.
١٩. بين المدح والحمد قدرٌ مشترك، فيجمعها الثناء. وقد يكونان بمعنى واحد على الدوام، وأن الفرق مجرد تقديم حرف على حرف، ومن أمثال ذلك قولهم: صاعقة وصاعقة، وأطيب وأيطب ونحو ذلك. والله تعالى أهل أن يُمدح ويُحمد، وعند مسلم (٦٠٧٤) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس أحد أحب إليه المدح من الله، من أجل ذلك مدح نفسه».
- ولبعض أهل العلم رأي آخر في التفريق بينهما، فمن ذلك ما نقله الطيبي في حاشيته على الكشاف (٧١٧/١) قال: "المدح أعم من الحمد؛ لأن المدح يحصل للعاقل وغيره، والحمد لا يحصل إلا للفاعل المختار على ما يصدر منه من الإحسان والفضائل". وقال الراغب في المفردات (١٣١): "كل شكر حمد، وليس كل حمد شكراً، وكل حمد مدح، وليس كل مدح حمداً". أه. وعليه؛ فالحمد: أخص من المدح وأعم من الشكر؛ فإن المدح يقال فيما يكون من الإنسان باختياره، ومما يكون منه وفيه بالتسخير. فقد يمدح الإنسان بطول قامته وصباحة وجهه: كما يمدح ببذل ماله وسخائه وعلمه، والمدح يكون في الثاني دون الأول، والشكر لا يقال إلا في مقابلة نعمة: فكل شكر حمد وليس كل حمد شكراً، وكل حمد مدح وليس كل مدح حمداً. وانظر: نضرة النعيم (١٧٥٤/٥). وزاد ابن القيم اشتراط محبة المثني عليه ليكون حمداً فقال في بدائع الفوائد (٩٣/٢): «الفرق بين الحمد والمدح أن يُقال: الإخبار عن محاسن الغير إما أن يكون إخباراً مجرداً من حب وإرادة أو مقروناً بحبه وإرادته، فإن كان الأول فهو المدح، وإن كان الثاني فهو الحمد، فالحمد إخبارٌ عن محاسن الممدوح مع حبه وإجلاله وتعظيمه». والله أعلم.
٢٠. طريق المهجرتين (٦٣/١ - ٧٠) مختصراً.
٢١. روي مرفوعاً ولا يصح. فهو عند الترمذي (٥١ / ٥) (٢٦٨٧) وضعفه الألباني.
٢٢. البخاري (٣٤ / ٨) (٦١٤٥).



٢٣. طريق المهجرتين (١/ ٨٨-٩٣) مختصرًا.
٢٤. الآخية: عمود ينصب وتربط فيه الدابة، فمهما اتَّجَهْتُ فَعَوْدُهَا إِلَيْهِ ودورانها عليه. ولشيخ الإسلام عبارة مشهورة في ذلك وهي قوله: "التورق آخية الربا". وهي من المسائل التي خالفه فيها تلميذه ابن القيم عليها رحمة الله.
٢٥. وهذا الكلام التالي للإمام ابن القيم معدود من أنفس ما سطره أهل العلم بإطلاق، وحقيق أن يسجد لله شكرًا من وقَّه الله للوقوف عليه وفهمه وصبَّ سلسيله على نياط قلبه القريح من خوف العاقبة، ففيه من مفاتيح أبواب الرجاء للتائبين ما لا يُحاط به، فرحمة الله وسلامه ورضوانه على ابن القيم ووالديه وأحبابه وشيوخه والمسلمين جزاء ما قام لله تعالى بتلك المقامات العلمية السننية الشريفة.
٢٦. الإيضاع: الإسراع.
٢٧. فالجوارح من نعمه، وكذلك القدرة، والإرادة، وهجوم الخواطر الصالحة والمحابِّ المستحسنة، وتهيئة الأسباب، وردِّ الموانع ونحو ذلك، فهي بحدِّ ذاتها نِعَمٌ، ولكن العبد الجاهل يعصي ربَّه بنعم ربه! فما أوسع حلم الله، وما أرحمه وأبرّه وألطفه وأجمله!
٢٨. حَلَّد مفرد، ومعناه: بال ونفس وقلب. وجمعه أخلاذ. أما الحُلْد فهو طول الإقامة. وانظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، لأحمد مختار عمر (١/ ٦٧٦)
٢٩. كما قيل:
- لئن قَرَّبَ العِبَادُ اللهُ أنعمًا ... وضحَّوا لمولاهم بغيرًا فما ليا
فيا ربِّ فاقبلها قرايين راحتي ... فثامًا من الكفار أضحت بواليا
٣٠. وفي رواية مشهورة: يتطهَّرون كأنه نُسُكٌ لهم.
٣١. الأمير الصالح خالد بن عبدالله القسري، والي الكوفة، ونائب الخليفة هشام بن عبدالملك فيها. وكان يُلقَّب: قصاب الزنادقة. والزنادقة: هي النفاق. وما أكثر زنادقة اليوم المحتاجة رقابهم لقصب، نسأل الله تعالى أن يعزِّز دينه وأن يُعلي كلمته وأن ينصر عباده المؤمنين، وأن يبرم لهذه الأمة أمرًا رشداً.



٣٢. الجعد بن درهم، قال ابن كثير في البداية والنهاية (١٣/ ١٤٨): "هو أول من قال بخلق القرآن، سكن دمشق، وكان من أهل خرسان من ترمذ، وكان صاحب خصومات. ضال مبتدع.. وكان يتردد على وهب بن منبه رحمه الله تعالى.. وكان يكثر المسائل في الصفات، فنهاه وهب وقال له: «ويلك يا جعد أقصر المسألة، إنني لأضنك من الهالكين. لو لم يخبرنا الله في كتابه أن له يدًا ما قلنا ذلك، وأن له عينًا ما قلنا ذلك».. تطلبه بنو أمية، فهرب منهم فسكن الكوفة، فلقبه الجهم بن صفون، فتقلد هذا القول. - قلت يعني القول بخلق القرآن -، ثم قتلته خالد بن عبدالله القسري يوم عيد الأضحى، بالكوفة، وذلك أن خالدًا خطب الناس فقال في خطبته تلك: "أيها الناس، ضحوا تقبل الله ضحاياكم فإني مضح بالجعد بن درهم؛ إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلًا، ولم يكلم موسى تكليمًا، تعالى الله عما يقول الجعد علوًا كبيرًا". ثم نزل فذبحه في أصل المنبر بيده. أثابه الله تعالى، وذلك في أيام هشام بن عبد الملك، وقد كان هشام طلبه بدمشق حين أظهر ما أظهر، ثم إنه هرب بعد ذلك، فكتب إلى نائبه خالد بن عبدالله القسري أن يقتله فقتله". أه. وقد شكره ابن القيم في نونيته بقوله:

شَكَرَ الصَّحِيَّةَ كُلَّ صَاحِبِ سَنَةٍ ... لَهِ دَرَكٌ مِنْ أَخِي قِرْبَانٍ

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى في الصواعق المرسله (٣/ ١٠٧١): «إنما نفق أمره عند الناس بعض الشيء لأنه كان مُعلِّم مروان بن محمد وشيخه، ولهذا كان يسمى مروان الجعدي». أه. ومروان بن محمد هذا آخر خلفاء بني أمية، ويلقب بمروان الحمار لقوة جلده وصبره في حروبه. وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه: "إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن".

وما هو إلا الوحي أو حدُّ مُرهفٍ ... تُزِيلُ ضُبَاهُ أَخْدَعِي كُلَّ مَائِلِ

فهذا شفاءٌ للقلوب من العمى ... وهذا شفاءٌ العيِّ من كل جاهلٍ

٣٣. طريق الهجرتين (١/ ١٣٥ - ١٤٠) باختصار.

٣٤. الصواعق المرسله (١/ ٥٢٥)

٣٥. توالي التأسيس في معالي ابن إدريس ص: (٧٢) وانظر: مناقب الشافعي للبيهقي (٢/ ١٨٧)

٣٦. آثار الشيخ العلامة عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني (٢/ ٣٠٧) وقال رحمه الله تعالى في

رسالة في حقيقة التأويل (١/ ٧٤-٧٦): "وقد جربنا أن من كلف بصره إدراك ما لا يستطيع إدراكه يُخيل إليه أنه يدرك ذلك، فكم مرة تراءى الناس الهلال فترأىته معهم، فإذا حدقت وأمعنت في النظر يُخيل إلي أي قد رأيت، ولكنها



خطفة لا تثبت، ثم أيأس من ذلك الموضوع، فأنظر إلى موضع آخر، فيخيل إلي مثل ذلك؛ فعلمت أن تلك الخطفة هي صورة خيالية لما أتخيله تبرز إلى العيان؛ لقوة التخيل وكدّ البصر.

فكثيراً ما يعرض للعقل مثل هذا إذا كُلف إدراك ما لا يدرك، والفرق أنّ خطأ البصر ينتبه له العقل، ولا يكاد ينتبه لخطأ نفسه.

لو بغير الماء حلقي شَرِق ... كنت كالغصان بالماء اعتصاري

وكثيراً ما يدرك العقل خطأ ما تصوره ولكنه لا ييأس، فلا يزال في أخذٍ وردٍّ إلى أن يكُلّ ويملّ؛ يسمع بذهاب تبعه سدى فيقنع بالشبهة التي وقف عندها، ومثله مثل مسافر يأبى أن ينزل ليستريح إلا في موضع حسن جميل، وليس أمامه موضع كذلك، فلا يزال كلما أتى على موضع لم يره على الشرط حتى يعقله التعب والإعياء؛ فينزل ويسلّي نفسه ويغالطها، يزعم أن ذلك الموضع حسن وجميل.

وأنت إذا كنت قد وقفت على بعض الكتب المطولة في الفلسفة وتدبرتها تحققت هذا المعنى، ولا تكاد تجد شبهة عقلية قد قررها أحدهم على أنها برهان قاطع إلا وجدت غيره قد نقضها، ثم يجيء ثالث فيدفع هذا النقض، فيجيء رابع فيرد ذلك الدفع، وهكذا.

حججٌ تهافت كالزجاج تحالها ... حقاً وكلُّ كاسرٍ مكسورٌ

٣٧. الإمتاع والمؤانسة، للتوحيدي (١٨٦/١)

٣٨. سولون أو صولون (Solon) ٦٤٠ - ٥٦٠ ق.م. تقريباً)، مفكّر وسياسي ومشرّع وشاعر ورجل قانون يوناني، له حكمٌ ذائعة. قام بسنّ مجموعة من القوانين الإصلاحية التي تعارضت مع نظام الدولة المتبع آنذاك. وقد عُرف سولون بلقب مؤسس الديمقراطية. وقد انتُخب رئيساً للقضاة في أثينا، ثم حاكماً على أثينا. وقد قام بعد توليه الحكم بوضع أحكام عرفت باسم "قانون صولون"، وكان الهدف منها أن تكون دستوراً يحكم به البلاد.

٣٩. مفتاح دار السعادة (٤٤٣/١)

٤٠. الدوست: الحبيب، بلسان فارس.



٤١. شُكِرُ الله تعالى وحمدُه على المصائب غايةً المقرِّبين السابقين، وهي فوق الصبر والرضا، ولا تُنال إلا بعدهما.
٤٢. لأنها بصيرة العلم المعصمة بالوحي الذي لا يأتيه الباطل من بين ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.
٤٣. ويشبه هذا ما حكى لنا من أن نفرًا مسافرين، وكان بصحبتهم رجل صالح لا يترك قول: "لعل في الأمر خيرًا"، كلما نابه أمر فيه كراهة له أو لهم. ثم إنهم اتَّفَقوا على أن يُخْفُوا راحلته في شعب من الشعاب لما كانوا يستريحون من عناء الطريق. فلما فعلوا أتاه بعضهم ليوهمه بفقدها لوحدها عن سائر رواحل أصحابه؛ فقال بثقة المؤمن بربه: "لعل في الأمر خيرًا من الله". فكان كما قال؛ إذ هجم عليهم قوم فاجتاحوا رواحلهم ولم يتركوا لهم سوى بعض زاد يحملونه فوق ظهورهم، فعزَّفوا صاحبهم بفعلهم وأنه كان اختبارًا منهم له، فعاد تأديبًا من الله لهم وإظهارًا للكرامة من توكل عليه ووثق به، وهالتهم خيرة الله لصاحبهم، فحملوا متاعهم على راحلة ذلك الواثق بربه، والله المستعان.
٤٤. أي قَسَمًا بك يا الله.
٤٥. نعوذ بالله تعالى من مصارع السوء، وسيئات الخواتيم. والحب الحقيقي النافع هو حبُّ الله تعالى وحبُّ دينه ورسله وأوليائه، وركنا العبادة هما الحب والتذلل، قال ابن القيم رحمه الله في نونته العظيمة:
- وعبادة الرحمن غايةُ حبه ... مع ذلِّ عابده هما قطبانِ
وعليهما فلَّكُ العبادة دائرٌ ... ما دار حتى دارت القطبانِ
ومداره بالأمر أمر رسوله ... لا بالهوى والنفس والشيطانِ
٤٦. وهذه حروف عزيزة وجليلة جدًا.
٤٧. البخاري (٢٣٦/٦)
٤٨. البخاري (٤٨/٨) ومسلم (٤٣/٨)
٤٩. إحياء علوم الدين (٣/ ٤٣٥ - ٤٤٥) بانتقاء واختصار وتصرف.



٥٠. المدهش (٤٥٣/١) بتصرف يسير.
٥١. مجموعُ الفوائدِ واقتناص الأوابد، عبد الرحمن بن ناصر بن سعدي رحمه الله تعالى (ص: ٧٤).



القَدْرُ وَالْعَقْلُ

لقد جعل الحكيم القدير سبحانه للعقل البشري سُورَه الذي يحمي له سلامته، و حَدَّهُ الذي يستحيل عليه اجتيازه، وسقفه الذي يعجز مها قويت حدته وَذَكَتْ قريحته من اختراقه، (قد جعل الله لكل شيء قدرًا). فالمُدْرَكَاتُ أكثر وأعظم وأخفى وأوسع من أن يحيط بها ذِيَاكُ العقل الإنساني، (وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً)، رحمةً من الله تعالى لذلك العقل العظيم إن هو آمن بربه وأتبع هديه ولم يكن من الكافرين الذين سخفت عقولهم وصغرت أحلامهم وانقلب إدراكهم فأهوى بهم للدركات. ومع ذلك فلا يزال غرور كثير من الناس يكابر في ذلك، (يا أيها الإنسان ما غرَّك بربك الكريم . الذي خلقك فسواك فعدلك).

فأعظم ما في الإنسان عقله وقلبه، فالعقلُ جوهرةٌ في الغاية من النفاسة، والنهائية في الإعجاز، والقلب سيّدٌ مُخْتَارٌ، يتلقى من عقله ما يُعينه على مراده، بهما عَلِمَ المرءُ وكَلَّفَ وَعَمَلَ وحرث وجرى في دار ابتلائه بما جرَّتْ به مقاديره. وَهَبَهُ رَبُّهُ عقلًا يُمَيِّزُ به الطريقتين، وقلبا يُخْتَارُ به أيّ السبيلين، وقدراً يُحَوِّطُ به في الدارين، قد نُسِجَتْ حياته على منواله، وَخُبِّتْ قَابِلُ أعماله تحت ستار غيبه، إرادته في خِيَارِيه تامّة، ومشيئته في طريقيه مكتوبة، وهو بكل ذلك تحت مظلة قدره، يُيسِّرُ لإدراكه، ويعملُ مُخْتَارًا بموجبه، (صنع الله الذي أتقن كل شيء إنه خبير بما تفعلون). و"كُلُّ مُيسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ". (١) ﴿فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنِيسِرُهُ لِيُيسِرَ * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى *



فَسَيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ﴿١﴾. فقدّر الله تعالى سابق، وعمل عبده لاحق، وحجّته على عبده قائمة، فلا يعذب أحداً إلا بعمله لا بمجرد قدره، (وما ربك بظلام للعبيد).

إن دراسة مباحث علم القضاء والقدر لا بد فيها من مزيد حذر وتحفظ وتحرز واحتراس، فهو مزلة أقدام لأقوام لم يتأدبوا بأدب التواضع لجهلهم الطبيعي بمساربه وغموضه وحدوده التي لا يُرام ما وراءها، ولا تنكشف أطرانها إلا على نور الشرع لا غير. لأن القدر سرُّ الله تعالى، وقد أذن لنا سبحانه بأن يبين لنا قدر ما نحتاجه من هذا العلم المقدس الشريف، وقلنا بشرفه وقدسيتّه لتعلقه بأسماء الله تعالى وصفاته وأفعاله كالعلم والخلق والحكمة والمشية والإحاطة والرحمة والعدل واللطف والبر والرزق وغيرها، بل قد جعله الله تعالى ركناً سادساً للإيمان لا ينعقد دين المرء ولا يصح إسلامه إلا بالإيمان به.

فمن رحمة الله تعالى بنا أن يبين لنا قدر ما نحتاجه من هذا العلم دون ما لا حاجة لنا به في هذه الدار، ويكفيها فيه: معرفته، وحسن التصوّر لمراتبه الأربع العلم والكتابة والمشية والخلق، وما يستتبع ذلك من مباحث كتلمّس بعض الحكم الربانية في المقادير، وقضية عدم وجود الشر المطلق في العالم، ورحمة الله السابقة غضبه، وعدله المطلق، وملكه التام، وخلق كل شيء، ونحو تلك المباحث والحواشي دون التعمّق الممنوع في أنفاق علوم لم يأذن سبحانه لنا بها، مع ما يتبع مخالفاً ذلك من عقابيل عقلية ومهالك فكرية ومزالق إيمانية، فالله تعالى أرحم بنا من أنفسنا الأمارة.

وإذا أغلق الله تعالى عنا باباً فليس مردّ ذلك حرماننا من شيء يقربنا إليه، بل حقيقته حشو كرامة ربانية علمها وقضى بها من خلقنا وحدد مداركنا وقوانا، فحرسنا بذلك



وحفظنا من مزالِق لا تقوى على الثبات فيها عقولنا ولا أفئدتنا. ولقد روي عن علي رضي الله عنه أنه قال لمن نازعه في القدر: "القدر سرُّ الله فلا تكشفه". (٢) أي لا تبحث عنه ولا تحاول كشفه، فلا يعلمه غير الله. فالقدر مبني على علم الله وحكمته ومشيئته وربوبيته، والعبد - مهما كان حاله - عاجز عن إدراك ذلك، والله الحكمة البالغة وهو اللطيف الخبير.

فقدّر الله تعالى صادر عن علمه وحكمته وقدرته سبحانه، وحكمته صفة من صفات جلاله وجماله، فكيف للعبد أن يدرك إلا ما أذن الله تعالى له به. وعليه أن يتدبر قول الحكيم العليم الرحيم: (وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وانتم لا تعلمون). فعلى المؤمن - الناصح لنفسه - أن ينكمش على علمه الذي أذن الله له بمعرفته، وأن يقنع به ولا يحاول تجاوزه حتى لا يكله الله تعالى إلى نفسه العاجزة الجاهلة القاصرة، فيضل ويعطب ويهلك.

ولقد نصحناء ورفق بنا ورحمنا من نهانا عن ذلك صلى الله عليه وسلم، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نتنازع في القدر، فغضب حتى احمرَّ وجهه، حتى كأنها فُقئ في وجنتيه الرمان، فقال: "أبهذا أمرتم، أم بهذا أرسلت إليكم؟ إنما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا في هذا الأمر، عزمت عليكم ألا تنازعوا فيه". (٣) فللعقل حدُّه ومنتهاه الذي لا يسمح له شرعاً ولا قدرًا بتعديه مهما كابر وظن أنه كذلك.

وقال أبو المظفر السمعاني: "سبيل المعرفة في هذا الباب التوقيف من الكتاب والسنة، دون محض القياس والعقل، فمن عدل عن التوقيف فيه ضلَّ وتاه في بحار الحيرة، ولم يبلغ



شفاء العين، ولا ما يطمئن به القلب، لأن القدر سرٌّ من أسرار الله تعالى، اختص العليم الخبير به، وضرب دونه الأستار، وحجبه عن عقول الخلق ومعارفهم لما علمه من الحكمة، فلم يعلمه نبي مرسل ولا ملك مقرب". (٤) وقال الآجُرِّي رحمه الله في كتابه العظيم "الشريعة": "لا يحسن بالمسلمين التنقيح والبحث في القدر، لأن القدر سرٌّ من أسرار الله عز وجل، بل الإيمان بما جرت به المقادير من خير أو شر واجب على العباد أن يؤمنوا به، ثم لا يأمن العبد أن يبحث عن القدر فيكذب بمقادير الله الجارية على العباد، فيضل عن طريق الحق". (٥)

وليست علوم القدر بمعزل عن غيرها من علوم كثيرة يستحيل على العقل البشري احتمالها؛ إما لأنها تفوق قدرة مدارك العقل الإنساني، أو أنها متعلقة بعالم غير عالمنا وإن تعلق بعضها بعالمنا ونحو ذلك. واعتبر ذلك بما هو أشرف من هذا كله ألا وهو احتجاب الله تعالى عنا في الدنيا لعدم قدرتنا على احتمال رؤية وجهه تبارك وتعالى في الحياة الدنيا حتى لا تحرقنا سُبحاتُ وجهه الجميل الجليل تبارك وتعالى وجلّ وتقدّس، ﴿قال ربّ أرني أنظر إليك قال لن تراني ولكن أنظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلّى ربه للجبل جعله دكاً وخرّ موسى صعقاً فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين﴾، وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: «قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمس كلمات، فقال: "إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يُخفّض القسطَ ويرفعه، يُرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سُبحاتُ وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه". (٦) وعن قتادة عن عبد الله بن شقيق قال: قلت لأبي ذر: لو رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم لسألته.



فقال: عن أي شيء كنت تسأله؟ قال: كنت أسأله: هل رأيت ربك؟ قال أبو ذر: قد سألتُ فقال: "رأيتُ نورًا". (٧) أي نور الحجاب. أما في الآخرة فإن أعظم نعيم الجنة هو التمتع والتلذذ برؤية الله تبارك وتعالى، فعن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال: كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم، فنظر إلى القمر ليلة البدر فقال: "إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر، لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاةٍ قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا". (٨) وعن صهيب رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إذا دخل أهل الجنة الجنة؛ يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة، وتنجنا من النار؟ فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم". (٩) نسأل الله الكريم من فضله.

ومن فروع هذا الباب الشريف معرفة أن فهمه يكون بأداة التفكير فيه وهي العقل الذكي المتحفظ الملتزم بحدوده التي بينها له الوحي فلا يقول فيها بهوى، ولا يخوض فيها بغيٍّ؛ فيزيغ عنها فيهلك، لأن موارد العقل اثنان لا غير:

الأول: المكنة والجوهر والآلة الإدراكية المميزة لحدود التصورات، وإحسان المقارنات، وهضم المعلومات، وكشف المجهولات، بالعلم بحقائقها وحدودها ونحو ذلك.

الثاني: حقيقة الأمر كما فهو، وحقائق الأمور سواء أكانت معنوية أم مادية لا تكون متيقنة إلا ما أذن الشرع بإدراكها بالحواس إما على سبيل التجربة والتأمل والاختبار والاستمرار، أو عن طريق الإخبار الشرعي ابتداءً. فمهما علا كعب العقل واشتد في حدته وتاه في غروره واتسع في مداركه فهو يظل في كثير من الأمور - ولا بد - طفولياً ساذجاً



جاهلاً بتفاصيل ومآلات الحقائق المادية المعنوية الدنيوية، بله الحقائق الغيبية والأخروية،
(وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً).

ويُلحق بذلك معرفة العقل الذي توزن به الأمور في الشرع، فهل هو عقل فلان أو عقل فلان، أم هو العقل المنتظم لدى العقلاء الذي لا يختلفون على تقريراته، ولا يتنازعون في أحكامه؟

هو الثاني بلا ريب، لأن عقل الإنسان الواحد يعتريه الضعف، ويلحقه النقص، ويدركه العجز، ويعترض له الوهم، ويمكر به الهوى، ويغطيّه النسيان، وغير ذلك من نواقصه ونواقضه! بل يعتريه تبدل الآراء في ثاني الحال، فيجد أن ما قرره اليوم هو عين ما نفاه غداً، وما ظنّه يوماً واجب التصديق بوزن المناطقة - البعيد عن عصمة الوحي المنزل - إذ به يرى خللاً فيه ينزله عن رتبة الواجب للجائز، وقد ينزل بأخرة للمستحيل! (يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً)، ﴿وَلَا تَمْسِرُ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾.

لله في الآفاق آياتٌ لعلّ ... أقلها هو ما إليه هداك

والكون مشحونٌ بأسرارٍ إذا ... حاولتَ تفسيراً لها أعيالك

ربي لك الحمدُ العظيم لذاتك ... حمداً لك، ليس لواحدٍ إلاك

إن لم تكن عيني تراك فإنني ... في كلِّ شيءٍ استبينُ علاك

يا أيها الإنسان مهلاً ما الذي ... بالله جل جلاله أغراك



إنَّ مشكلةَ العقلِ الكبريِّ ومعضلته العظمى أنه كائنٌ معنوي لا حسيّ، فالحاسّة مادة تُحسّ وتدرك بأمثالها ومتقابلاتها من الحواس، ولئن كان ميزان الحسيّات مادياً فإن الاتفاق على حدوده سهل يسير، لذا فقد جعل البشر مكايل وموازن وأطوال ومقادير حسيّة لكل مادة بحسبها منها الثقيل كالصخر والحديد والرمل، ومنه الخفيف كالمعادن النفيسة والجواهر الغالية ونحوها، فصار لكل مادة محسوسة إجمالاً ميزاناً واضحاً متفقاً عليه في الجملة.

ولكن الأمر ليس كذلك في المعنويات، فميزانها ليس بوضوح موازين الحسّ لصعوبة ضبط حدودها، لأنها مجرد معنى في الذهن لا في خارجه من الحسّ المادّي، لذلك تقاس المعنويات بأمثالها أو أشباهها من المعنويات، فالصبر والاحتمال والحب والبغض والتوكل والإيمان والفرح والذكاء والرأي والحفظ والأمل والذكرى والألم واللذة والطموح والكسل والرغبة والجوع والحنين والخوف والغبطة والرحمة والأسى ونحو ذلك مما لا يكاد يتناهى تنوعاً واختلافاً وتباعداً واقتراباً، فلا ضابط محدد يضمن اتحاد ذهنين فأكثر على تقدير معنى ما، لأنها غير منضبطة حسّاً ولدخول الخيال والوهم فيها.

مع التنبيه إلى أن الإحكام في حسن التصور في الفطريات وما يتبعها كالإيمان بالله وربوبيته ووحدانيته أوضح وأحكم وأتمّ من موازين الحسّ طراً، لأن الوهم والخيال والتداخل والخطأ والخداع والنسيان والاشتباه والخداع ونحو ذلك يدخل فيها ما لا يدخل في هذه الإيمانيات اليقينية القاطعة، ما لم تُشَبَّ بخلل عقدي يتنكّب بها عن سابلة الحق وطريق الهدى ونهج السعادة والفلاح، والله المستعان.



إذا تقرّر ذلك؛ فما هو العقل أو القواعد أو الحدود أو الميزان الذي يصح أن يكون ميزاناً يُتّحَاكم إليه عند اختلاف العقول؟

والجواب: أن العقل بمفهومه العام منقسم إلى عقليين:

فالعقل الأول: هو العقل الخاص بالفرد الواحد، وهو العقل الذي عليه مناط التكليف الشرعي، فيقال: فلان عاقل وفلان غير عاقل.

والعقل الثاني: هو الأحكام العقلية التي اجتمع عليها جملة العقلاء. فالعقل الذي يرجع إليه العقلاء عند اجتماعهم أو اختلافهم، ويشيرون إليه بالأمر التي يقبلها ويقرّها العقل الصحيح أو يردّها ويحيلها ونحو ذلك: فهو العقل المنتظم لمجمل آراء العقلاء، وهو القانون الذي انتظم عقولهم إجمالاً أو أغلبياً ساحقاً، فهو كالقواعد والموازن والحدود والقوانين التي اجتمعت عليها عقول عامّة العقلاء، أو سوادهم الأعظم في بعض الأمور، فإن خالفها أحدٌ يوماً قالوا: قد خالف العقل وشذّ بالرأي. وبهذا سار الناموس الرباني على بني الإنسان، فلم يتركهم هملاً ولم يخلقهم سُدى، ولم يجعلهم أفراداً منعزلين لكل منهم نظامه وقانونه ومزاجه وطيشه وبهيميته وشهوته في كل شيء، بل قد جمع قرائحهم وألّف عقولهم على جملة من الأمور التي تنتظم أمورهم الكبار التي لا يقوم معاشهم إلا بها، فاصطلحوا وتواطؤوا وتوافقوا - عفويّاً - بأمر ربهم الكوني وتقديره الإلهي ورحمته الأزليّة السرمديّة على حدودٍ عقليّة ومدارك معرفيّة بها يفقهون الحد الأدنى من الأمور الحياتية والمعاشية والمصيرية. ولعل هذا من أسباب مراعاة الشريعة العرف السليم غير المتعدّي حدود الشرع، فهو من هذا الباب ولو من وجه.



واعلم أن من ثبت منهم على حدّ العقل الصحيح فلم ينفلت عقال عقله؛ فإنه ولا بد سينتظم له أمور حياته الأبدية الأخروية أيضًا، لذا كرّر الله تعالى توبيخ من لا يعمل عقله فيما ينفعه في آخرته بقوله: (أفلا تعقلون)، وإنما يكون العقل وسيلة هدى لصاحبه إن عامل عقله بإنصاف فلم يتبع عنه هواه، ويتضح ذلك بأمرين:

أولاهما: أنها تدله ضرورة على أمور الفطرة الأولى التي لم تنحرف بسيول ضلالات الآخرين. فلا زال في باطن كل عقلٍ علمٌ كامنٌ يقتضي اعترافه وإيمانه بربوبية وإلهية الله تعالى ما لم ينحرف بمؤثر خارجي يُنجس علمه ويعكّر فهمه ويُظلم معرفته.

إضافة إلى أن ذلك الحد الأدنى من الحاجة المعرفية من الكلام والعلم والحياة والتدين والحرث والانتفاع بخير الأرض والسماء بإذن الله تعالى للاستخلاف الآدمي في الأرض هو موجود معهم من حينهم، لأن الله تعالى قد علم آدم أسماء كل شيء، ويسر له أسباب المعاش في الأرض له ولذريته، فتعاقب نسله على قبول أحكام ما اجتمعت بداهتهم عليه ومما أثروه عن سبقهم من آبائهم.

وعليه؛ فهذا التوافق والتواطؤ العقلي والحضاري على كبريات ومحتّمات ومسلمات أمور الحياة الدنيا والأخرى لم يبدأ صدفة، بل ابتداء بتعليم الله تعالى لآدم الذي نقلها لخلفه فسارت في الأجيال حافظة لهم أسباب اجتماعهم وتفاهمهم وتعاونهم، ثم نُسي بعضها وبقي بعضها، وتراكت خبراتهم وتجاربهم في كل جهة من جهات الحس والمعنى مما يطبقون. والمقصود ان العقل الصحيح إن سلم من مؤثر من خارج فهو يرجع بصاحبه إلى الفطرة الصحيحة والعقيدة النقية الأولى، (فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ).



وثانيتها: أنها تلزمه الاكتفاء بنبع الهدى الوحيد المتمثل بما جاء به المرسلون. وهذا جليّ ظاهر لا يتردد فيه إلا جاهل أو مكابر، برهان ذلك: أن العاقل كلما قوي عقله واتسعت مداركه أيقن أن ما يجمله أكثر مما يعلمه، وأن وراء هذا الكون المشهود والخلق البديع والجمال الباهر والتناسق المعجز والدقة العجيبة والعظمة الهائلة أن وراء ذلك كله ربّاً قديراً وإلها يستحق توحيدَه بالتأله والعبادة، وأن العبد مهما وصل من قوة أو إرادة أو علم فهو فقير بكليته لعون وتربية وحفظ وهداية سيده ومولاه، مهما شطّبت به ظعائن الهوى، وندّت منه كبائر الجحود، وهجمت عليه خواطر الشيطان، فإذا تدبر حاله ذلك علم أن محدودية عقله مهما بلغت حدّته وسعته فإنها تُلزمه الاكتفاء بما جاء من المصدر الوحيد الموثوق، الذي لا تنتهي أطرافه في هذه الدار الدنيا من علوم الشرع المنزل، وهو العلم المحكم الكامل الفاذاً الجامع المانع، فإن بَحَثَ بجدٍّ وإخلاص للحقيقة وَجَدَ أن الإسلام هو الدين الوحيد اللائق بعهد الله تعالى للبشر، لما فيه من براهين عقلية ودلالات فطرية ولوازم معرفية تقوده للإيمان بالرسول محمد صلى الله عليه وسلم الذي جاء بالهدى من الله تعالى، فإذا كان كذلك سلّم معاقد التسليم وأزمنة الانقياد للشرع الإلهي الحنيف.

واعلم - رحماني الله وإياك - أن المعيار الضابط لهذا العقل العام هو الشرع المطهر المصون، فما قرّره الشرع صريحاً صحيحاً علمنا أن العقل العام للعقلاء يقبله، وما نفاه الشرع أو منع منعه ونحو ذلك فحينها نعلم يقيناً أنه مخالف للعقل الصحيح، ومحصلة هذا أمران:

الأول: أنه لا تعارض البتة بين النص الصحيح الصريح وبين العقل الصحيح، فإن ظهر تعارض فالأمر عائد إما لعدم صحة النص (الكتاب والسنة) وإما لعدم صراحته،



وبالتالي الخطأ في فهمه، وإما لخطأ التقرير العقلي أصلاً، فإن كان النص صحيحاً صريحاً كنصوص الإيمان والصفات واليوم الآخر والقدر والنبوات ونحو ذلك؛ فحينها يكون الخلل في التصور العقلي للشخص الذي ظن وجود تعارض، إذ لا تعارض البتة بين ما قاله الله تعالى وبين ما خلقه، فالعقلُ خلقه والشرعُ أمره، (ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين).

الثاني: أن معيار العقل السليم ومسبار الإدراك العميق هو الشرع الصحيح، ومن زعم التعارض بين دلائل الشرع وموارد العقل فعليه أن يراجع ميزان دلائل وتصورات عقله مع ذلك العقل المنتظم للعقلاء، وهو ما تبينه الشريعة الغراء، فإن هذا العقل الصحيح يستحيل أن يخالف الشرع، (صنع الله اذي أتقن كل شيء)، (ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت).

وبالجملّة؛ فالعقل العاقل هو ذلك العقل المستضيء بالعلم المعصوم من الزيغ، أما العقل المنفلت من عقاله فهو ما نقص إدراكه بجهل، أو تعكّر تصوّره بكبر، أو تساقطت قوّته بفساد قصد، أو انحرفت معرفته بتنكّب الوحي لما سواه، ففساد الماء من الميَّاح، وفساد الجدول من تلوث ينبوعه، وفساد القصد ملوث للبصيرة، فكما أن صلاح القلب له تأثير مباشر على سلامة التصوّر وذكاء القرية فالضدُّ بالضدِّ، فالزكاء مورد الذكاء، وتدبر راشداً مُسَدِّداً مهدياً قول الله عز وجل: (وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون). وباللّٰه التوفيق، وصلى الله وسلم وبارك على محمد وآله.

.....



١. مسلم (٦٨٣٠)
 ٢. الطحاوية (٩٣)
 ٣. الترمذي (٢١٣٣) وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٢٢٣/٢)
 ٤. نقله عنه الحافظ ابن حجر في فتح الباري (٤٧٧/١١)
 ٥. الشريعة للأجري (١٤٩)
 ٦. مسلم (١١١/١)
 ٧. مسلم (١٧٨/١) وقال ابن القيم رحمه الله تعالى في الزاد (٣/٣٦ - ٣٨): "واختلف الصحابة هل رأى ربه تلك الليلة أم لا؟ فصح عن ابن عباس أنه رأى ربه، وصح عنه أنه قال: رآه بفؤاده. وصح عن عائشة وابن مسعود إنكار ذلك، وقالوا: إن قوله: ﴿وَلَقَدْ رَأَهُ نَزَلَةً أُخْرَى﴾ (١٣) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ﴿[النجم ١٣، ١٤]﴾ إنما هو جبريل. وصح عن أبي ذر أنه سأل: هل رأيت ربك؟ فقال: «نور أتى أراه»، أي: حال بيني وبين رؤيته نور، كما قال في لفظ آخر: «رأيت نورًا». وقد حكى عثمان بن سعيد الدارمي اتفاق الصحابة على أنه لم يره.
- قال شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه: وليس قول ابن عباس: «إنه رآه» مناقضًا لهذا، ولا قوله: «رآه بفؤاده»، وقد صح عنه أنه قال: «رأيت ربي تبارك وتعالى»، ولكن لم يكن هذا في الإسراء، ولكن كان في المدينة لما احتبس عنهم في صلاة الصبح، ثم أخبرهم عن رؤية ربه تبارك وتعالى تلك الليلة في منامه، وعلى هذا بنى الإمام أحمد رمه الله تعالى وقال: نعم رآه حقًا؛ فإن رؤيا الأنبياء حق ولا بد. ولكن لم يقل أحمد رحمه الله تعالى: إنه رآه بعيني رأسه يقظة. ومن حكى عنه ذلك فقد وهم عليه، ولكن قال مرة: رآه، ومرة قال: رآه بفؤاده. فحكيت عنه روايتان، وحكيت عنه الثالثة من تصرف بعض أصحابه: أنه رآه بعيني رأسه. وهذه نصوص أحمد موجودة ليس فيها ذلك. وأما قول ابن عباس: إنه رآه بفؤاده مرتين، فإن كان استناده إلى قوله تعالى: ﴿مَا كَذَّبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ [النجم ١١]، ثم قال: ﴿وَلَقَدْ رَأَهُ نَزَلَةً أُخْرَى﴾ [النجم ١٣] والظاهر أنه مستنده، فقد صح عنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن هذا المرئي جبريل، رآه مرتين في صورته التي خلقت عليها، وقول ابن عباس هذا هو مستند الإمام أحمد في قوله: رآه بفؤاده، والله أعلم".

٨. البخاري ١٤٥/١ (٥٥٤)، ومسلم ١١٣/٢ (٦٣٣) (٢١١)

٩. مسلم ١١٢/١ (١٨١) (٢٩٧)



"فحج آدم موسى"

إن الراضي بالله تعالى لا يتردد في قبول ماء الوحي الطهور، فيغسل به قلبه، ويشرح به صدره، ويستضيء بنوره، ويسترشد بهداه، ويحكم بعقله. وقد يُبتلى المؤمن بطائف من وسواس شيطاني فيعكر عليه شيئاً من صفائه، ويشوش عليه بعضاً من جمعيّة قلبه على ربه، ومن بركات الوحي أن يذهب هذا الوسواس، فما إن يقترب من حمى الصدر حتى يضمحلّ ويتبخّر دون أسوار العلم المبنية بالدلائل المرفوعة بالبراهين المحروسة بتوفيق مَنْ وَعَدَ - ووعد الحق -: (فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى)، لا يضل هنا ولا يشقى هناك، فله الحمد كما ينبغي له.

ومن ذلك ما قد يختلج في قلوب بعض الأخيار من ترددٍ في فهم المحاجة الشهيرة بين النبيين الكريمين آدم وموسى عليهما السلام، مع أنها واضحة كالشمس لمن سلم من لوثات أهل البدع ابتداءً. قال شيخ الإسلام رحمه الله في تعليقه على تلك القصة من احتجاج آدم وموسى عليهما السلام، الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لقي آدم موسى، فقال: أنت آدم الذي خلقك الله بيده، وأسكنك جنته، وأسجد لك ملائكته، ثم صنعت ما صنعت! فقال آدم لموسى: أنت الذي كلّمك الله، وأنزل عليك التوراة؟ قال: نعم، قال: فهل تجده مكتوباً عليّ قبل أن أُخلق؟ قال: نعم، قال: فحج آدم موسى، عليهما السلام". (١): "ولكن وجه الحديث أن موسى عليه السلام لم يلم أباه إلا لأجل المصيبة التي لحقتهم من أجل أكله من الشجرة، فقال له: لم أخرجتنا ونفسك من الجنة؟ لم يلمه لمجرد كونه أذنب ذنباً وتاب منه، فإن موسى يعلم



أن التائب من الذنب لا يُلام وقد تاب منه أيضًا، ولو كان آدم يعتقد رفع الملام عنه لأجل القدر لم يقل: {ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين}. والمؤمن مأمور عند المصائب أن يصبر ويسلّم، وعند الذنوب أن يستغفر ويتوب؛ قال الله تعالى: {فاصبر إن وعد الله حق واستغفر لذنبك}، فأمره بالصبر على المصائب، والاستغفار من المعائب.

وقال تعالى: {ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه}، قال ابن مسعود: هو الرجل تصيبه المصيبة يعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلّم. (٢) فالمؤمنون إذا أصابتهم مصيبة مثل المرض والفقر والذل؛ صبروا لحكم الله وإن كان ذلك بسبب ذنب غيرهم، كمن أنفق أبوه ماله في المعاصي؛ فافتقر أولاده لذلك، فعليهم أن يصبروا لما أصابهم، وإذا لاموا الأب لحظوظهم؛ ذكّر لهم القدر". (٣)

ومقصده رحمه الله: أنه يحقّ لوالدهم أن يحتج بالقدر على مصيبة الفقر وليس له أن يحتج بالقدر على ذنبه، بناء على قصة احتجاج النبيين الكريمين عليهما السلام، كما أن ولد هذا الفقير إن لاموه وقد تاب فإنه لا يُشرع لهم لومه على ذنب قد تاب منه وظهرت أمارات صدق توبته، ولكن قد يكون لهم بعض ملام على المصيبة التي تسبب بها باختياره وإضاعته وهي الفقر، وإن كان الأفضل لهم ترك ذلك الملام لأنه القدر، وقدر الله ماضٍ، وقضاؤه نافذ، ومن الضياع مدافعة قدر قد مضى وانقضى. ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يلوم على الأقدار، وقال عنه خادمه أنس رضي الله عنه -بعد ذكر خدمته له-: "فما قال لي لشيء فعلته: لم فعلت كذا وكذا، وما قال لي لشيء لم أفعله: ألا فعلت كذا وكذا". (٤)



وإنما تُشرع مدافعة القدر في المستقبل - وإن كان هذا لا يغيّر ما في اللوح المحفوظ ولكن مما دونه كصحف الملائكة ونحوها، والذي يقع آخرًا هو ما دوّن في اللوح المحفوظ -، فدفعُ القدر بالقدر شريعة ماضية وجادة رسولية، فمن قدر الأقدار هو من شرع لنا دفعها بأقدار مقابلة، وقد شرع لنا مدافعتها وفق شرعه، فتبطشُ الجوارحُ بالأسباب المانعة والرافعة والجالبة بإذن مسببها تبارك وتعالى، ويتعلّق القلب بالله تعالى وحده ويتوكّل عليه ويرضا به وبأقداره حيثما توجّهت به، وأحاطت به، ونزلت عليه، فإن وفق لدرك مقصوده حمد الله وشكر وصبر على أداء حق شكره قدر طاقته، وإن كانت الأخرى صبر ورضي وحمد وشكر كذلك، لأن الله لا يختار لعبده الصادق إلا ما فيه خيرته وصلاحه في عاقبته، وكل قضاء الله تعالى لعبده خير. فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "عجبًا للمؤمن لا يقضي الله له شيئًا إلا كان خيرًا له". (٥) وعن صهيب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن. إن أصابته سراءٌ شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراءٌ صبر فكان خيرًا له». (٦) وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "ما أبالي على أي حال أصحبت، على ما أحب، أو على ما أكره، لأني لا أدري الخير فيما أحبُّ أو فيما أكره". (٧) وعن ابن عمر رضي الله عنهما - وتأمّل هذا الحرف - قال: "إن الرجل ليستخير الله فيختار له، فيتسخطُّ على ربه، فلا يلبث أن ينظر في العاقبة، فإذا هو خير له". (٨) وكلُّ قدر يكرهه العبد ولا يُلائمه لا يخلو من أمرين: إما أن يكون عقوبة على الذنب، فهو دواء لمرض لولا تدارك الحكيم إياه بالدواء لترامى به المرض إلى الهلاك. وإما أن يكون



سبباً لنعمة لا تُنال إلا بذلك المكروه. (٩) والرضا يُفرِّغ قلب العبد، ويُقلل همّه وغمّه، فيتفرَّغ لعبادة ربه بقلب خفيف من أثقال الدنيا وهمومها وغمومها. (١٠)

ومن أمثلة مدافعة القدر بالقدر قصة عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع أبي عبيدة والصحابة رضي الله عنهم مع طاعون عمواس في الشام وهم على مشارفِه، وقد اختلفوا هل يعودون للمدينة أم يدخلوا الشام، فنادى عمر في الناس بعد المشاورة: إني مُصبحٌ على ظهر، فأصبحوا عليه، فقال أبو عبيدة بن الجراح: أفراراً من قدر الله؟ فقال عمر: لو غيرك قالها أبو عبيدة! - وكان عمر يكره خلافه - نعم نَفَرُّ من قدر الله إلى قدر الله، أرأيت لو كانت لك إبل، فهبطت وادياً له عدوتان (١١): إحداهما خصبة، والأخرى جدبة، أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله، وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله؟ قال: فجاء عبد الرحمن بن عوف - وكان متغيباً في بعض حاجاته - فقال: إن عندي من هذا علماً، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إذا سمعتم به بأرض؛ فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها؛ فلا تخرجوا فراراً"، قال: فحمد الله عمر بن الخطاب، ثم انصرف". (١٢) كذلك ما ورد في شأن فضل الدعاء، وأنه لا يردُّ القضاء إلا الدعاء، وأن البلاء والدعاء يعتلجان بين السماء والأرض، وكذلك ما ورد في فضل صلة الرحم من زيادة الرزق والأجل وغير ذلك، والله أعلم.

وقال شيخ الإسلام أيضاً في قصة المحاجة بين آدم وموسى عليه السلام: "الصواب في قصة آدم وموسى أن موسى لم يلم آدم إلا من جهة المصيبة التي أصابته وذريته بما فعل، لا لأجل أن تارك الأمر مذنب عاص، ولهذا قال: "لماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة؟" ولم يقل: لماذا خالفت الأمر، ولماذا عصيت؟



والناس مأمورون عند المصائب التي تصيبهم بأفعال الناس أو بغير أفعالهم بالتسليم للقدر وشهود الربوبية، كما قال تعالى: (ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله و من يؤمن بالله يهد قلبه).. فليس للعباد أنفع من طاعة الله ورسوله وأمره إذا أصابته مصيبة مقدرة أن لا ينظر إلى القدر، ولا يتحسّر بتقدير لا يفيد، ويقول: قدر الله وما شاء فعل. ولا يقول: لو أني فعلت لكان كذا، فيقدر ما لم يقع يتمنى أن لو كان وقع! فإن ذلك إنما يورث حسرة وحرزاً لا يفيد. والتسليم للقدر هو الذي ينفعه، (١٣) كما قال بعضهم: الأمر أمران: أمر فيه حيلة فلا تعجز عنه، وأمر لا حيلة فيه فلا تجزع منه. وما زال أئمة الهدى من الشيوخ وغيرهم يوصون الإنسان بأن يفعل المأمور ويترك المحذور ويصبر على المقدور، وإن كانت تلك المصيبة بسبب فعل آدمي.

وموسى كان أعلم من أن يلومه لحقّ الله على ذنب قد علم أنه تاب منه، فموسى أيضاً قد تاب من ذنب عمله، وقد قال موسى: (أنت و لينا فاغفر لنا و ارحمنا و أنت خير الغافرين)، وآدم أعلم من أن يحتج بالقدر على أن المذنب لا ملام عليه، فكيف وقد علم أن إبليس قد لعنه الله بسبب ذنبه، وهو أيضاً كان مقدراً عليه، وآدم قد تاب من الذنب واستغفر، فلو كان الاحتجاج بالقدر نافعا له عند ربه لاحتج ولم يتب ويستغفر.

وأيضاً فلو كان الاحتجاج بالقدر نافعا له؛ فلماذا أخرج من الجنة وأهبط إلى الأرض؟ فإن قيل: هو قد تاب، فلماذا بعد التوبة أهبط إلى الأرض؟ قيل: التوبة قد يكون من تمامها عملٌ صالح يعمله فيبتلى بعد التوبة لينظر دوام طاعته، قال الله تعالى: (إلا الذين تابوا من بعد ذلك و أصلحوا فإن الله غفور رحيم)، في التائب من الردة، وقال في كاتم العلم: (إلا الذين تابوا و أصلحوا و بينوا فأولئك أتوب عليهم و أنا التواب الرحيم) وقال: (أنه من



عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده و أصلح فإنه غفور رحيم) وقال في القذف: (إلا الذين تابوا من بعد ذلك و أصلحوا فإن الله غفور رحيم). ولما تاب كعب بن مالك وصاحبه أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين بهجرهم حتى نسائهم ثمانين ليلة، وقال النبي صلى الله عليه وسلم في الغامدية لما رجها: "لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له، وهل وَجَدْتُ أفضل من أن جادت بنفسها لله". (١٤) وقد أخبر الله عن توبته على بني إسرائيل حيث قال لهم موسى: (يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى ربائكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم).

وإذا كان الله تعالى قد يتلى العبد من الحسنات والسيئات والسرّاء والضراء بما يحصل معه شكره وصبره، أم كفره وجزعه، وطاعته أم معصيته؛ فالتائب أحق بالابتلاء. فأدم أهبط إلى الأرض ابتلاء له، ووقفه الله في هبوطه لطاعته، فكان حاله بعد الهبوط خيراً من حاله قبل الهبوط، وهذا بخلاف ما لو كان الاحتجاج بالقدر نافعا له، فإنه لا يكون عليه ملام البتّة، ولا هناك توبة تقتضي أن يُبتلى صاحبها ببلاء.

وأيضاً؛ فإن الله قد أخبر في كتابه بعقوبات الكفار مثل قوم نوح وهود وصالح وقوم لوط وأصحاب مدين وفرعون وقومه ما يعرف بكل واحدة من هذه الوقائع ألا حُجّة لأحد في القدر. وأيضاً؛ فقد شرع الله من عقوبة المحاربين من الكفار وأهل القبلة وقتل المرتد وعقوبة الزاني والسارق والشارب ما فصل.

فقد تبين أن آدم حجّ موسى لما قصد موسى أن يلوم من كان سبباً في مصيبتهم. وبهذا جاء الكتاب والسنة، قال الله تعالى: (ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله و من يؤمن بالله يهد قلبه)، وقال تعالى: (ما أصاب من مصيبة في الأرض و لا في أنفسكم إلا في كتاب من



قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير). وسواء في ذلك المصائب السائية والمصائب التي تحصل بأفعال الأدميين، قال تعالى: (و اصبر على ما يقولون و أهجرهم هجرا جميلا)، (و لقد أرسلنا رسلا من قبلك فصبروا على ما كذبوا و أوذوا حتى أتاهم نصرنا)، وقال في سورة الطور بعد قوله: (فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن و لا مجنون أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون قل تربصوا فإنى معكم من المتربصين)، إلى قوله: (واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا وسبح بحمد ربك حين تقوم)، وقال تعالى في سورة (ن): (أم تسألهم أجرا فهم من مغرم مثقلون أم عندهم الغيب فهم يكتبون فاصبر لحكم ربك). وقد قيل في معناه: اصبر لما يُحْكَمُ به عليك، وقيل: أصبر على أذاهم لقضاء ربك الذي هو آت، والأول أصح.

وحكم الله نوعان: خلق وأمر: فالأول: ما يقدره من المصائب، والثاني: ما يأمر به وينهى عنه. والعبد مأمور بالصبر على هذا وعلى هذا، فعليه أن يصبر لما أمر به ولما نُهي عنه، فيفعل المأمور ويترك المحذور، وعليه أن يصبر لما قدره الله عليه". (١٥)

والعبد لا يخلو من ابتلاء وفتنة تُظهر خبيثته وتجلو إيمانه، والسعيد هو من عافاه الله وسلمه وحفظه، ولم يخذله بأن يكله لنفسه أو خلقه، فقد روى أبو داود (١٦) عن المقداد بن الأسود رضي الله عنه قال: وأيم الله لقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إنَّ السعيدَ لمنْ جُنَّبَ الفتن، إنَّ السعيدَ لمنْ جُنَّبَ الفتن، و لمنْ ابْتُلِيَ فصبر فواها». وتأمل هذا الكلام المخيف لشيخ الإسلام وأن على المؤمن ألا يأمن مكر الله تعالى وأن يسأله الهدى والعافية والحفظ والعافية، وألا يكله إلى نفسه طرفة عين، قال: "عامَّة الناس إذا أسلموا بعد كفر أو ولدوا على الإسلام والتزموا شرائعه وكانوا من



أهل الطاعة لله ورسوله فهم مسلمون، ومعهم إيمان مجمل. ولكن دخول حقيقة الإيمان إلى قلوبهم إنما يحصل شيئاً فشيئاً إن أعطاهم الله ذلك، وإلا فكثير من الناس لا يصلون لا إلى اليقين، ولا إلى الجهاد، ولو شككوا لشكوا! ولو أمرُوا بالجهاد لما جاهدوا! وليسوا كفاراً ولا منافقين، بل ليس عندهم من علم القلب ومعرفته ويقينه ما يدرأ الريب، ولا عندهم من قوة الحب لله ولرسوله ما يقدمونه على الأهل والمال.

وهؤلاء إن عوفوا من المحنة وماتوا دخلوا الجنة. وإن ابتلوا بمن يورد عليهم شبهات توجب ريهم؛ فإن لم ينعم الله عليهم بما يزيل الريب؛ وإلا صاروا مرتابين، وانتقلوا إلى نوع من النفاق. وكذلك إذا تعين عليهم الجهاد ولم يجاهدوا كانوا من أهل الوعيد. ولهذا لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة أسلم عامة أهلها، فلما جاءت المحنة والابتلاء نافق من نافق. فلو مات هؤلاء قبل الامتحان لماتوا على الإسلام ودخلوا الجنة، ولم يكونوا من المؤمنين حقاً الذين ابتلوا فظهر صدقهم، قال تعالى: ﴿الم﴾ ﴿أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمناً وهم لا يفتنون. ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾ وقال تعالى: ﴿ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب﴾ وقال: ﴿ومن الناس من يعبد الله على حرفٍ فإن أصابه خيرٌ اطمأن به وإن أصابته فتنةٌ انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين﴾ (١٧)

لحاجة قلب ما يفتق غرورها ... وحاجة نفس ليس يقضى سيرها

وعين إلى الأطلال تزجي سحابها ... إذا لوعة الأحشاء هب زفيرها

أكلفها هطلاً على كل منزل ... فلو أنها أرض لغارت بحورها



وما تجمع العينُ التوسّمَ والبكا ... فهل تعرفانِ مقلّةً أستعيرُها
 وقفنا صفوفًا في الديار كأنها ... صحائفٌ ملقاةٌ ونحن سطورُها
 اللهم اجعلنا جميعا من الصابرين الراضين الشاكرين الحامدين، إله الحق آمين.

.....

- ١- البخاري ١٢٠/٦ (٤٧٣٦) ومسلم ٥١/٨ (٦٨٤١)
- ٢- وروي هذا الحرف عن علقمة وهو من خاصة ابن مسعود، وفيما يظهر أنه أخذه منه.
- ٣- أولياء الرحمن وأولياء الشيطان (١ / ٧٨)
- ٤- أحمد (١٢٧٨٤) والبخاري ١٧/٨ (٦٠٣٨) ومسلم ٧٣/٧ (٦٠٧٧)
- ٥- أحمد في مسنده (٥ / ٢٤) وجوّد سنده شعيب الأرنؤوط رحمه الله تعالى.
- ٦- مسلم (٢٩٩٩)
- ٧- موسوعة ابن أبي الدنيا (١ / ٤١٤)
- ٨- موسوعة ابن أبي الدنيا (١ / ٤٣٢). وفي رواية: "فإذا هو قد خار له". أي: اختار له ما يصلحه.
- ٩- وانظر: حياة السلف، للطيار (١ / ٤٥٧)
- ١٠- مدارج السالكين (٢ / ٥٠٧ - ٥١١) بتصرّف.
- ١١- العُدوة: جانب الوادي.
- ١٢- البخاري ٢١٢/٤ (٣٤٧٣)، ومسلم ٢٦/٧ (٢٢١٨) (٩٢)
- ١٣- قال الإمام إبراهيم الحربي رحمه الله تعالى: "أجمع عقلاء كل أمة أنّ من لم يجر مع القدر لم يتهنّ بعيشه". البداية والنهاية لابن كثير (١١ / ٧٩)
- ١٤- مسلم (١٦٩٦)



- ١٥- مجموع الفتاوى (٨ / ٣٠٣ - ٣٢٥) بانتقاء واختصار.
- ١٦- السنن (٤ / ١٦٤) (٤٢٦٥) وصححه الألباني.
- ١٧- الإيمان لابن تيمية (١ / ٢١٣)



"جهنم القلم بما هو كائن"

من المعلوم أن الركن السادس من أركان الإيمان هو الإيمان بالقضاء والقدر، وهو أصل عظيم به افترق المؤمنون عن الكفار، ومن جمال الإيمان بالقدر أن الكفار المؤمنين بالقدر - مع شركهم وكفرهم وتشويش مفهوم القدر في قلوبهم - هم أطيب عيشًا وأهنأ حياة وأجلد صبرًا من غير المؤمنين به، فالإيمان بالقدر سلوان للنفوس وعزاء للقلوب وريحان للأرواح، بل إنه مورث للشجاعة موقدًا للإقدام. حتى إن مُنظري فكرهم ينادون بأهمية ذلك الإيمان حتى وأن لم يكن تحته حقيقة - تعالى الله عما يقولون - وذلك لرؤيتهم أثره في الحياة، من احتمال الرزايا واقتحام الشدائد، قال المفكر الفرنسي الشهير فولتير: "إذا لم يكن في صدور الناس دين؛ فلا بد أن نصنعه لهم، فلا غناء لهم عنه"، ولديورانت في قصة الحضارة كلام كثير في نفع هذا لهم. (١)

فإذا كان هذا أثره الطيب في حياتهم؛ فكيف يكون مع أهل الإسلام والإيمان والإحسان والملة المحمدية المهدية، فبالإيمان بقضاء وقدر الله اتسعت صدورهم وقرت عيونهم وانقطعت عنهم واردات آلام فوائت الرغائب وغموم حلول المصائب، وأقدموا على الكريهات والمخوفات إقدام الكماة البواسل، لا يخشون إلا الله ولا يرجون سواه ولا يتوكلون إلا عليه، ويعلمون أنه المدبر القاضي للأمور: (ألا إلى الله تصير الأمور)، (وإلى الله ترجع الأمور)، (وأن إلى ربك المنتهى)، وذلك لعقد قلوبهم على الإيمان بأن ما قضاه الله كان وما لم يقضه لن يكون، قال تعالى: (إنا كل شيء خلقناه بقدر)، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كنت رديف رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: "يا غلام، ألا



أعلمك كلمات ينفعك الله بهن؟" فقلت: بلى. فقال: "احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، تعرّف إليه في الرخاء يعرفك في الشدة، وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، قد جفّ القلم بما هو كائن، فلو أن الخلق كلهم جميعاً أرادوا أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يقدرُوا عليه، وإن أرادوا أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يقدرُوا عليه، واعلم أنّ في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً، وأن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسراً". (٢)

عَسَى فَرَجٌ يَأْتِي بِهِ اللَّهُ إِنَّهُ ... لَهُ كُلُّ يَوْمٍ فِي خَلِيقَتِهِ أَمْرٌ

قال الإمام الطحاوي رحمه الله: "ونؤمن باللوح والقلم، وبجميع ما فيه قد رقم، فلو اجتمع الخلق كلهم على شيء كتبه الله تعالى فيه أنه كائن؛ ليجعلوه غير كائن لم يقدرُوا عليه، ولو اجتمعوا كلهم على شيء لم يكتبه الله تعالى فيه؛ ليجعلوه كائناً لم يقدرُوا عليه، جفّ القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة، وما أخطأ العبد لم يكن ليصيبه، وما أصابه لم يكن ليخطئه".

وعلى العبد أن يعلم أنّ الله قد سبق علمه في كل كائن من خلقه، فقدّر ذلك تقديراً محكماً مبرماً، ليس فيه ناقص ولا معقّب، ولا مزيل ولا مغير، ولا ناقص ولا زائد من خلقه في سماواته وأرضه، وذلك من عقْد الإيمان، وأصول المعرفة، والاعتراف بتوحيد الله تعالى وبربوبيته، كما قال تعالى في كتابه: (وخلق كل شيء فقدره تقديراً) وقال تعالى: (وكان أمر الله قدراً مقدوراً). فويل لمن صار لله تعالى في القدر خصيماً، وأحضر للنظر فيه قلباً سقيماً". (٣)



فكل شيء قضاه الله في أزلٍ ... طرّاً وفي لوحه المحفوظ قد سُطرًا

قال شيخنا العلامة صالح آل الشيخ حفظه الله: "هذه الجُمْل من كلام الطحاوي بسَطَ فيها جُملاً من آداب الإيمان بقَدْرِ الله، والقدر سرُّ الله تعالى وغيبه الذي لم يُطْلَع عليه مَلَكٌ مقرب ولا نبي مرسل. ولهذا أمر نبيُّنا صلى الله عليه وسلم بأنه إذا ذُكِرَ القَدْرُ أمسكنا، فقال صلى الله عليه وسلم: "وإذا ذكر القَدْرُ فأمسكوا". (٤)

قال الطحاوي: "فَعِلْمُ القَدْرِ نوعان: علم في الخلق موجود، وعلم في الخلق مفقود".
أراد أن العلم بالقَدْرِ على نوعين:

علم في الخلق موجود: وهو ما عَلَّمَنَا اللهُ تعالى إياه في كتابه وما علمنا رسوله صلى الله عليه وسلم، وهذا كما قال: "فَإِنْكَارُ العِلْمِ المَوْجُودِ كُفْرٌ"، إذا تبين أنَّه من عند الله تعالى وليس ثمَّ شبهة ولا تأويل؛ فإنَّ إنكار العلم الموجود كفر؛ لأنه تكذيب لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم. والعلم الموجود في القَدْرِ كما رأيت مما جاء في الكتاب والسنة يَعْلَمُهُ الراسخون في العلم، وأما من ليس بذِي رُسُوخٍ في العلم فإنه في مسائل القَدْرِ لا يزال على اشتباه وعلى عدم وضوح.

فالواجب على من لم يكن من الراسخين في العلم من عامة أهل الإيمان أن يقول: (آمَنَّا بِهِ كُلُّ مَنْ عِنْدَ رَبِّنَا)، كما وصف الله تعالى الراسخين، مع علمهم أنهم قالوا ذلك لِيَقْتَدِيَ بهم الناس فيما لم يعلموا، قال سبحانه: (وَالرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلُّ مَنْ عِنْدَ رَبِّنَا)، يعني آمنا بالمُحْكَمِ وآمنا بالمتشابه كلٌّ من عند الله تعالى لا نفرق بين كلام الله. (وَالرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ)، هم أهل الثُبُوتِ والقوة في العلم الموروث عن النبي صلى الله



عليه وسلم، لأنَّ الرسوخ هو الثبات والاستقرار والقوة والتمكّن. فهؤلاء يعلمون لأنَّ وصفهم بكونهم راسخين يقتضي أنهم يعلمون؛ لأنَّ الذي لا يعلم لا يُوصف بالرسوخ في العلم، وهم متميزون عن غيرهم بالعلم والإيمان. والرُّسوخُ في العلم هو الرُّسوخُ في أنواع العلم الثلاثة: العلم بالتوحيد، والعلم بالفقه، والعلم باليوم الآخر والغيبات. (٥)

فهؤلاء هم الراسخون في العلم، وقد يكون الرُّسوخُ في العلم يتنوع أيضًا، ولكن من لم يصحَّ علمه بالتوحيد فإنه ليس بذي رسوخ في العلم مهما كان، لأنَّ أصل الأصول هو الاعتقاد، أصل الأصول هو التوحيد الذي معه يصحُّ الفقه، يصحُّ العمل، تصحُّ العبادة، يصحُّ الحكم والإفتاء إلى آخره. فإذا أهل الرسوخ في العلم يعلمون أنَّ العلم -مما في القدر- علمان: علم في الخلق موجود، يعني جعله الله موجودًا في الخلق بما أنزل في كتابه أو على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم، وشيء كثير من مسائل القدر حجبها الله تعالى. لهذا فإنَّ أهل الرسوخ في العلم يبسطون من مسائل القدر بما جاء في الأدلة، ويطوون من مسائل القدر ما لم يأت في الأدلة.

ولذلك كل ما لم يكن مبسوطًا عند أهل العلم الراسخين من أهل الحديث والسنة والجماعة، فإنَّ هذا العلم -يعني الذي تكلم فيه الآخرون- ينبغي ألا يتكلم فيه كل أحد. لأنَّ ما طوى الله تعالى عنا علمه فإنَّ الخير في ألا نبحت فيه، لهذا قال المصنف: "وَالتَّعَمُّقُ وَالنَّظْرُ فِي ذَلِكَ" يعني في النوع الذي هو من العلم المفقود "ذريعة الخذلان، وسلم الحُرمان، ودرجة الطغيان، فالحدَرُ كُلُّ الحَدَرِ مِنْ ذَلِكَ نَظْرًا وَفِكْرًا وَوَسْوَسَةً، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى طَوَى عِلْمَ القَدْرِ عَنْ أَنَامِهِ، وَنَهَاهُمْ عَنْ مَرَامِهِ".



وقوله: "وَادْعَاءُ الْعِلْمِ الْمَفْقُودِ كُفْرٌ"، لأنه غيبي، ومن ادّعى الغيب الذي اختصّ الله به فإنه كافر، وذلك لقوله تعالى: (عَالِمِ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا) (٢٦) إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا) (٢٧) لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا)، وقال سبحانه: (وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ)، وقال: (إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ) (٨) وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ).
فهذه الخمس اختصّ الله تعالى بها.

لهذا علم القدر من علم الغيب، وعلم الغيب عام يشمل القدر ويشمل غيره. لهذا قال: "وَلَا يَثْبُتُ الْإِيمَانُ إِلَّا بِقَبُولِ الْعِلْمِ الْمَوْجُودِ، وَتَرْكِ طَلَبِ الْعِلْمِ الْمَفْقُودِ". وقال: "وَنُومِنُ بِاللُّوحِ وَالْقَلَمِ، وَبِجَمِيعِ مَا فِيهِ قَدْ رُقِمَ". اللوح والقلم تعلّق بالقدر من جهة أنّ القدر من مراتب الإيمان به الكتابة. والكتابة كانت بالقلم في اللوح، ولهذا لا يتم الإيمان بالكتابة إلا بالإيمان باللوح والقلم. والله تعالى أقسم بالقلم فقال سبحانه: (ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ). هذا هو القلم الذي كُتِبَ به القضاء، كُتِبَ به القدر في أحد وجهي التفسير. واللوح ذكره الله تعالى في كتابه في غير ما آية كقوله تعالى: (بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ) (٢١) فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ). وسماه سبحانه كتابًا مكنونًا فقال تعالى: (فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ) (٧٨) لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ). وسماه أم الكتاب فقال سبحانه: (يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ). وسُمِّيَ لوحًا لما فيه من البهاء والنور والإضاءة لأنه يُلَوِّحُ بمعنى أنه يظهر ويبين لما فيه من النور. فالإيمان باللوح والقلم من الإيمان بكتابة الله تعالى. إذا تبين هذا ففي مسألة اللوح والقلم عدة مسائل:



المسألة الأولى: أن اللوح جاء ووصفه في حديث حسنه طائفة من أهل العلم ويحتاج في بحث إسناده إلى مزيد نظر فيه، وقد جاء في الحديث: "خلق الله اللوح من دُرَّة بيضاء". (٦) ووصفه بأن حافتيه الدرّ والياقوت؛ يعني غطاء هذا اللوح أو دفئا هذا اللوح من دُرّ وياقوت، وصفحات هذا اللوح حمراء. جعل الله تعالى هذا اللوح كما وصفه بعض السلف على يمين العرش، وهو بين جبين إسرافيل لا ينظر فيه. وجاء أيضا: أن الله خلق القلم وجعله من نور، وأن طوله ما بين السماء والأرض، وأن اللوح المحفوظ طوله ما بين السماء والأرض، وعرضه كما بين المشرق والمغرب. (٧)

وهذا كما ذكرت لك يحتاج إلى مزيد بحث، لكن يذكره العلماء من أهل السنة وتتبعوا عليه في حديث رواه -يعني في أصل وصف اللوح والقلم- رواه الطبراني وغيره وحسن إسناده كما ذكرت لك، وقد ساقه أو ذكر الحديث شارح الطحاوية وغيره.

المسألة الثانية: أن القلم الذي كتب الله تعالى به القدر كتب به ما يتعلق بهذا العالم. يعني كتب به القدر إلى قيام الساعة، كما جاء في الحديث الصحيح حديث عبد الله بن عمرو أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "قدر الله مقادير الخلائق (٨) قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء". (٩) فالقلم متعلقة كتابته في اللوح المحفوظ بما هو كائن إلى قيام الساعة.

المسألة الثالثة: أن القلم لما خلقه الله تعالى أمره أن يكتب، فجرى بما هو كائن إلى قيام الساعة، كما جاء ذلك في حديث عبادة بن الصامت الذي رواه أبو داود والترمذي والإمام أحمد وجماعة بألفاظ متقاربة، وفيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: أكتب، فجرى بما هو كائن إلى قيام الساعة". وهذا لفظ أبو داود



(١٠) وغيره. وجاء أيضا بلفظ: "أول ما خلق الله القلم قال له: أكتب. فجرى بما هو كائن إلى قيام الساعة". (١١) ولهذا اختلف العلماء هنا في هل هذا الحديث على ظاهره في أن أول المخلوقات القلم؟ أو أن هذا الحديث له معنى آخر؟ وجعلوا هذا الحديث وحديث عبد الله بن عمرو من الأحاديث التي ينبغي الجمع بينها، وهذا هو المسألة الرابعة وهو الجمع ما بين الحديثين.

المسألة الرابعة: تلحظ أن حديث عبد الله بن عمرو فيه قال: "قدر الله مقادير الخلائق". ولما قدر -يعني كتب- كان عرشه على الماء. وفي حديث عبادة قال: "إن الله أول ما خلق الله القلم، فقال له: أكتب"، فيقتضي حديث عبادة أن الأمر بالكتابة كان مرتباً على ابتداء خلق القلم. وتقدير القدر كان قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، والعرش على الماء.

فدل حديث عبد الله بن عمرو على وجود تقدير، وعلى وجود العرش -خلق العرش- وعلى خلق الماء. ودل حديث عبادة على أن خلق القلم تبعه قول الله تعالى للقلم: "اكتب، فجرى بما هو كائن إلى قيام الساعة". وهذا الترتيب جاء في حرف الفاء الذي يدل في مثل هذا السياق على أن هذا بعد هذا دون تراخ زمني.

ولهذا اختلف العلماء في هذه المسألة في الجمع بين هذين الحديثين هل القلم هو أول المخلوقات؟ أم العرش (١٢) خلق قبله؟ على قولين للسلف فمن بعدهم:

القول الأول: إن العرش قبل القلم، وكذلك الماء قبل القلم. وهذا قول جمهور السلف، كما نسب ذلك إليهم شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره.



القول الثاني: أن القلم هو أول المخلوقات، والعرش والماء بعد ذلك، وهو قول طائفة من أهل العلم.

والترجيح ما بين هذين القولين: هو أن الأحاديث يجب الجمع بينها وعدم تعارضها. وحديث عبادة بن الصامت في قوله صلى الله عليه وسلم: "إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: أكتب"، يقتضي أن الكتابة كانت بعد خلقه. وحديث عبد الله بن عمرو يقتضي تقدّم وجود العرش والماء على حصول الكتابة. فدلّ هذان الحديثان على أن العرش والماء موجودان قبل، وأن خلق القلم تبعته الكتابة.

ولهذا نسبه شيخ الإسلام إلى جمهور السلف بأن القلم موجود بعد العرش والماء. وهذا تدل عليه رواية "أول ما خلق الله القلم قال له أكتب"، يعني حين. ف"أول" هنا بمعنى حين. أي حين خلقه قال له: أكتب. وهذا هو معنى "إن أول ما خلقه الله القلم، فقال له: أكتب"، (١٣) لأن الجمع بين الروايات أولى من تعارضها.

وخلاصة البحث هو ما ذكرت لك من التقدير، فإن قوله: "إن أول ما خلق الله القلم"، هنا برفع القلم يكون خبر (إن). يعني: إن أول الذي خلق الله، إن أول المخلوقات القلم، فقال له: اكتب. وإذا كان أول المخلوقات؛ فكيف يُفسَّر مع حديث: "وكان عرشه على الماء"؟ فقوله: إن أول المخلوقات، أو أول ما خلق الله أو أول الذي خلقه الله، يفهم على أن القلم جرى بما هو كائن إلى قيام الساعة قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة. فالقلم متعلق بما كُتِبَ في اللوح المحفوظ، مُتَعَلِّقًا بما يحدث في هذا العالم المخصوص، لا في مطلق الأشياء، ولهذا علّق بأنه إلى قيام الساعة.



فإذا يفهم لما كان تعلق الكتابة بهذا العالم الذي جرى التقدير عليه إلى قيام الساعة، يفهم أن القلم لما تعلق بهذا العالم كتابةً لتقديره ولقدره ولآجاله إلى آخره؛ فإنه من هذا العالم؛ لأن العوالم أجناس والله تعالى جعل لمخلوقاته أقدارًا وأجناسًا. (١٤) فإذا يفهم قوله: "إن أول ما خلق الله القلم"، يعني من هذا العالم.

فالقلم قبل السموات وقبل الأرض وقبل الدخان المتعلق الذي خلق منه السموات والأرض وكل ما يتصل بهذا العالم المرئي المشاهد، فالقلم هو أول المخلوقات، أما العرش والماء فليسا متعلقين بهذا العالم. (١٥)

فإذا إعمال الحديثين مع ما يتفق مع عقيدة أهل السنة والجماعة واضح لا إشكال فيه، فيكون ذلك هو تقرير هذه المسألة. وقد لخص ابن القيم المسألة في نونيته وبحثها مفصلاً في كتابه التبيان في أقسام القرآن، وفي غيره فقال في النونية:

والناس مختلفون في القلم الذي ... كتبت القضاء به من الديان

هل كان قبل العرش أو هو بعده ... قولان عند أبي العلامداني

والحق أن العرش قبل لأنه ... عند الكتابة كان ذا أركان

وهذا القول كما ترى من تقريره مع دليله هو الصحيح، وهو الموافق لفقه النص وفقه خلق العالم وآثار فعل الله تعالى في ملكوته، ومتفق مع القول بأن الله تعالى فعّال لما يريد، وأن قبل هذا العالم ثم عوالم أخرى، والله تعالى يخلق ما يشاء ويختار، وأنه ثم أشياء أخرى بعد قيام الساعة، والقلم متقيد بما خلقه الله تعالى له، والله سبحانه له الأمر كله يقضي ما يشاء ويحكم ما يريد.



المسألة الخامسة: جاء في حديث أنس الذي رواه البخاري وغيره في قصة الإسراء أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكّر عروجه إلى الله تعالى ليلة المعراج، ثم قال في وصف ارتفاعه: "ثم إنني رفعت لمستوى أسمع فيه صريف (١٦) الأقلام". (١٧) وهذه الأقلام غير القلم الذي كتبت به القدر، فإن ذلك القلم من نور كتبت به القدر في اللوح المحفوظ. وأما هذه الأقلام فهي التي بأيدي الملائكة، وهي أقلام يكتب بها وحي الله تبارك وتعالى إلى ملائكته مما يوكلون به من الأشياء. فهم يكتبون أمر الله تعالى، وله سبحانه وتعالى كلمات لا تنقضي كما قال سبحانه: (وَلَوْ أَنَّ فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ) فالله تعالى كلماته الكونية لا تنفذ، يأمر وينهى في ملكوته والملائكة تكتب، فهذه الأقلام نوع آخر. ولك أن تقول: هذا هو النوع الثاني، وهي أقلام الوحي التي بأيدي الملائكة يكتبون ما يوحي الله به في سمائه.

قال بعد ذلك: "فَلَوْ اجْتَمَعَ الْخَلْقُ كُلُّهُمْ عَلَى شَيْءٍ كَتَبَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ -يعني في اللوح- أَنَّهُ كَائِنٌ؛ لِيَجْعَلُوهُ غَيْرَ كَائِنٍ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا كُلُّهُمْ عَلَى شَيْءٍ لَمْ يَكْتُبَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ؛ لِيَجْعَلُوهُ كَائِنًا لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ، جَفَّ الْقَلَمُ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَا أَخْطَأَ الْعَبْدَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ، وَمَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ". وهذه العقيدة هي حقيقة الإيثار بالقضاء والقدر. هي أن يعلم العبد أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه، وأنه لو فعل ما فعل فإنه لن يجنب قضاء الله تعالى وقدره، لأنه لا يمكن أن يفعل خلاف ما قدر الله، لهذا وجب التسليم لله تعالى في أمره، ووجب في أمر المصائب التي لا اختيار للعبد فيها أن يسلم لله تعالى ذلك، وأن يؤمن بقضاء الله تعالى الذي يقضيه.



قال: "وَعَلَى الْعَبْدِ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ سَبَقَ عِلْمُهُ فِي كُلِّ كَائِنٍ مِنْ خَلْقِهِ، فَقَدَّرَ ذَلِكَ تَقْدِيرًا مُحْكَمًا مُبْرَمًا، لَيْسَ فِيهِ نَاقِضٌ وَلَا مُعَقَّبٌ"، يعني ليس له ناقض ولا معقب. "وَلَا مُزِيلٌ وَلَا مُغَيِّرٌ، وَلَا نَاقِضٌ وَلَا زَائِدٌ مِنْ خَلْقِهِ فِي سَمَاوَاتِهِ وَأَرْضِهِ، وَذَلِكَ مِنْ عَقْدِ الْإِيمَانِ"، يعني مما يجب أن يُعقَدَ عليه القلب إيمانًا به، وقال: "عَقْدِ الْإِيمَانِ"، يعني مما يجب في الإيمان يكون عقيدة يُؤْمَنُ به. "وَالِاعْتِرَافِ بِتَوْحِيدِ اللَّهِ تَعَالَى وَرُبُوبِيَّتِهِ"، يريد بتوحيد الله تعالى في هذا الموطن توحيد الله تعالى في تَصَرُّفِهِ فِي مُلْكِهِ وَفِي عِبَادَتِهِ، فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَتَصَرِّفُ فِي مُلْكِهِ، وَأَنَّهُ مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، وَأَنَّهُ هُوَ الْمُدَبِّرُ وَهُوَ الرَّبُّ فَإِنَّهُ يُوحِّدُ اللَّهَ فِي قَدَرِهِ، وَيُوحِّدُ اللَّهَ تَعَالَى فِي أَعْمَالِهِ كَمَا يُوحِّدُ اللَّهَ تَعَالَى فِي رَبُوبِيَّتِهِ بِعَامَةٍ.

ففي الحقيقة من تأمل توحيد الربوبية وآمنَ حَقًّا برُبوبية الله تعالى فإنه يؤمن بالقدر؛ لأنَّ الإيمان بالقدر من ثمرات الإيمان التام برُبوبية الله تعالى، فَإِنَّ الْمُؤْمِنَ بِالرُّبُوبِيَّةِ، بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الرَّبُّ الْمَتَصَرِّفُ فِي مُلْكِهِ، هُوَ السَّيِّدُ الْمَطَاعُ، هُوَ الَّذِي لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ وَلَا رَادًّا لِأَمْرِهِ، هُوَ الَّذِي مَا شَاءَ كَانَ، هُوَ الَّذِي لَا يُغَالَبُ فِي مُلْكِهِ، هُوَ الَّذِي يُعْطِي وَيَمْنَعُ وَيَخْلُقُ وَيَرْزُقُ وَيَمِيتُ وَيَحْيِي، مِنْ آمَنَ بِالرُّبُوبِيَّةِ عَلَى تَفَاصِيلِهَا؛ فَإِنَّهُ لَنْ يَجَادَلَ فِي الْقَدْرِ؛ لِأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّهُ مَرْبُوبٌ مُسْتَسَلِمٌ لِلَّهِ تَعَالَى. (١٨)

ولا شكَّ أَنَّ الْإِيمَانَ بِالْعَرْشِ وَالْكَرْسِيِّ حَقٌّ عَلَى مَا جَاءَ فِي ظَاهِرِ الْأَدَلَّةِ. وَمَعْتَقِدُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ أَنَّ الْعَرْشَ غَيْرَ الْكَرْسِيِّ، فَالْعَرْشُ شَيْءٌ وَالْكَرْسِيُّ شَيْءٌ آخَرُ، وَكِلَاهُمَا حَقٌّ. فَالْعَرْشُ حَقٌّ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذَكَرَهُ فِي كِتَابِهِ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ فَقَالَ تَعَالَى: (إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ) وَوَصَفَ الْعَرْشَ بِأَنَّهُ عَظِيمٌ، فَقَالَ: (رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ) وَوَصَفَ عَرْشَهُ بِأَنَّهُ مُجِيدٌ، وَبِأَنَّهُ يُحْمَلُ فَقَالَ سُبْحَانَهُ:



(الذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ)، ووصف عرشه أيضًا بأنه يستوي عليه، وأنَّ عرشه موصوف بصفات العظمة التي فاق بها سائر العروش. وجاء في السنة مزيد في وصفه بأنَّ العرش له قوائم تحمله الملائكة، كما قال عليه الصلاة والسلام "يُصَعَّقُ النَّاسَ فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ، فَإِذَا بِمُوسَى بَاطِشٌ - أَوْ قَالَ آخِذٌ - بِقَائِمَةٍ مِنْ قَوَائِمِ الْعَرْشِ". (١٩)

فالعرش إذا مخلوق من مخلوقات الله تعالى العظيمة، ومن عِظَمِهِ أنه قال فيه: "مثل السماوات السبع للعرش كمثل حلقة ألقيت في فلاة، ومثل الكرسي للعرش كذلك". (٢٠) يعني كحلقة ألقيت في فلاة، وهذا الحديث صححه وقواه جمع من أهل العلم، وروى من طرق كما ذكر الإمام ابن تيمية، والبحث يقتضي ذلك.

وَصُفُّ الْعَرْشِ فِي النَّصِّ جَاءَ بِأَنَّهُ مُجِيدٌ؛ يَعْنِي أَنَّهُ ذُو سَعَةٍ، وَأَنَّهُ ذُو جَمَالٍ، وَجَاءَ بِأَنَّهُ عَظِيمٌ؛ يَعْنِي أَنَّهُ أَعْظَمُ مِنْ غَيْرِهِ، وَجَاءَ فِي وَصْفِ الْعَرْشِ أَنَّهُ كَرِيمٌ؛ يَعْنِي أَنَّهُ فَاقَ جِنْسَ الْعُرُوشِ وَالْمَخْلُوقَاتِ فِي الْبَهَاءِ وَالْحُسْنِ وَالْعِظَمَةِ؛ لِأَنَّ لَفْظَ كَرِيمٍ فِي اللُّغَةِ تَعْنِي أَنَّهُ فَاقَ غَيْرِهِ فِي الْأَوْصَافِ الَّتِي يُحْمَدُ فِيهَا، فَقَوْلُ الْعَرَبِ لِلإِنْسَانِ الْجَوَادِ الَّذِي يَبْذُلُ النَّدَى وَيَبْذُلُ الطَّعَامَ لِلْأَضْيَافِ أَنَّهُ كَرِيمٌ دَاخِلٌ فِي قَاعِدَةٍ كَبِيرَةٍ فِي مَعْنَى كَلِمَةِ كَرِيمٍ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ. وَهَذَا مِنْ فَاقَ غَيْرِهِ فِي الْأَوْصَافِ فَإِنَّهُ كَرِيمٌ، وَمِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى الْكَرِيمِ الَّذِي بَلَغَ الْمُنْتَهَى فِي عُلُوِّ صِفَاتِهِ وَحُسْنِ أَسْمَائِهِ بِحَيْثُ لَا يَشَابَهُهُ وَلَا يَمِثَلُهُ شَيْءٌ فِيهَا وَوُصِفَ بِهِ.

فهذا عرش الرحمن، ووصف في الأدلة في الكتاب والسنة بهذه الأوصاف، وأنَّ العرش يُحْمَلُ، وأنَّ له قوائم، وأنه يُدَارُ (٢١) حوله من الملائكة، وأنه مُقَبَّبٌ كَالْقَبَّةِ فَوْقَ السَّمَاوَاتِ، كما جاء في الحديث الذي في السنن واعتمد ما دلَّ عليه في جهة العرش أهل العلم لما جاء



عن الصحابة في تقوية ذلك بأن "عرشه على سماواته هكذا" وأشار بيديه مثل القبة. (٢٢)
(٢٣)

فقال أهل العلم إن العرش مُقَبَّبٌ. وكونه مُقَبَّبٌ لا يعني أنه أصغر كما يدل عليه النظر العقلي، مثل تقبيب سطح الأرض على مستوى النصف فيها فإنه مُقَبَّبٌ عليها وهو أعظم منها فكيف بالعرش. (٢٤)

وللايمان بالعرش والكرسي أثر عظيم، فالمؤمن إذا آمن بأن عرش الله تعالى حق، وأن هذه التي ذكرت هي صفة العرش، وأن عرش الله عظيم جداً، وأنه مجيد وأنه كريم، وأن النبي صلى الله عليه وسلم حَدَّثَ عن أحد حملة العرش بأن مسيرة ما بين عاتقه إلى شحمة أذنه مسيرة خمسمئة عام، (٢٥) وأن السموات بالنسبة للكرسي كحلقة ملقاة في فلاة من الأرض، وأن الكرسي بالنسبة إلى العرش كذلك، وأن الكرسي موضع قدمي الرحمن، فلا شك أن هذا يؤولُ بالمؤمن الحق إلى اعتقاد عظمة الله تعالى، وإلى أن الله سبحانه تتناهى المخلوقات عنده في الصغر، وأنه سبحانه كما وصف نفسه بقوله: (وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)، وجاء في الأثر في تفسير ذلك أنه يرمي بها يوم القيامة كما يرمي الصغير بالكرة فيقول: "أنا الله الواحد أنا الملك.. إلى آخره". (٢٦)

فمعرفة صفة الكرسي وصفة العرش، وابتداء المرء من نفسه التي يُعَظِّمُهَا، وكيف هو على هذه الأرض العظيمة جداً وهو صغير جداً جداً، هذه الأرض، حتى إن المدن الكبار إذا سعدت بالطائرة تراها صغيرة جداً وهي تحوي ملايين الناس، فكيف بالفرد؟! والأرض هذه بالنسبة للسموات صغيرة، والسموات السبع على سعتها وعِظَم ما فيها من الأفلاك والنجوم والسيارات بالنسبة للكرسي صغيرة كحلقة ملقاة في فلاة من الأرض،



والكرسي بالنسبة إلى العرش كذلك، والله تعالى فوق العرش مستغن عن العرش، وكل شيء محتاج إليه، والله سبحانه محيط بكل شيء إحاطة سعة وقدرة وذات وشمول، جلّت صفاته وتقدّست أسماؤه، فإنّ المرء ولا شك يصيبه بل يحصل له في قلبه نوعٌ عظيم من الذل لله تعالى، ونوع عظيم من احتقار النفس ومعرفة قدر الإنسان كيف هو، وأنه شرف أعظم تشريف أن جعله الله تعالى عبداً له سبحانه، ولهذا ينظر المرء إلى عظم المخلوقات هذه ويؤمن بها فيعظم الله تعالى.

حقيقة الإيمان بأسماء الله تعالى وصفاته يُثمر ثمراتٍ عملية في القلب من وجَلِ القلوب، من إجلال الله تعالى، وحبّ القلوب لجمال الله تعالى، وأنواع ما يحدث في القلب من الإيمان، ومدارج الإيمان التي تتصل بالإيمان بالأسماء والصفات، كذلك الإيمان باللجنة والنار، كذلك الإيمان بالعرش والكرسي لمن تأمله فإنه يجعل القلب خاضعاً لربنا ويجعل القلب مُحِبّاً مُنِيباً لله تعالى، فإن غفلَ جاءه تعظيمه وإيمانه وعقيدته بالإنابة السريعة بالاستغفار الحقّ.

إذا حين نبحت هذه المباحث في العقيدة ليست كما يبحثها أهل الكلام المذموم في كونها أشياء لا ثمرة لها على الإيمان والعمل الصالح وتعبّد المرء لله تعالى، فإن كل شيء وصفه الله تعالى لنا من الأمور الغيبية لم يُقصد إيماننا به واعتقادنا له من جهة الوجود دون جهة الإيمان وما يُثمر منه؛ بل قُصد الإيمان به -يعني بوجوده وأثر الإيمان الذي يُحدثه في النفس- لأن المقصود إصلاح القلوب بالله.

وهذا يجعل المرء على الحقيقة يتصور كيف هذه المخلوقات جميعاً، والأرض هذه الكبيرة وما فيها، ثمّ السماوات، ثم الكرسي بعد ذلك، ثم العرش، ثم الملائكة الحافين من



حول العرش؛ لا شك يُجَدِّثُ له أنواع من الإيمان والوجل والخوف وحب الله تعالى وتعظيمه والإنابة إليه، وهذا لا شك كله من المقاصد الشرعية.

فإذًا؛ الإيمان بهذه يحتاج منك إلى تأمل وتدبر في أن تُعْمَلَ في قلبك هذه الأشياء وتذكر عظمة الله تعالى". (٢٧)

إن الحديث عن عظمة الله تبارك وتعالى من خلال بيان عظمة مخلوقاته يُصَبُّ في القلب المهابة والإجلال وتمام الرضا بالله ربًّا خالقًا مالكًا مدبرًا وإلهًا مفردًا بالعبادة، فإذا انعقد القلب على ذلك امتلأ بالتعظيم والإجلال والمهابة والحياء والزهد فيما سوى الله والدار الآخرة، حينها لا تسل عن رضاه التام وراحته الكبرى وسعادته السابغة بتدبير مولاه الحق مهما نهنت نفسه ببعض لوازم ضعفها الإنساني، ومهما تعثرت في حياته بالمشاق وطُرِحَتْ في دربه العقبات فمسيره لربه ثابت ساكن مطمئن بالإيمان، ذلك أنه يُجَدِّثُ قلبه على الدوام أن هذه الدنيا بأسرها محض ابتلاء وتمحيص، فما دامت المصائب قد تخطت دينه فإنه لا يعدّها مصائب، بل رحمت وألطف، فهي بين درجة ترفعه وخطيئة تكفرها وحسنة صبر يُحْصِلُهَا، ويعلم أن الجنة هي ميعاد المحبين المؤمنين.

قال الشنقيطي حفظه الله: "وقد كان بعض الصحابة رضوان الله عليهم، وبعض السلف لما مرض بالطاعون يقول: "اطعني فوعزتك وجلالك إني لأتلذذ بها يصيبني منك"، وهذه هي منزلة الرضا عن الله عز وجل". (٢٨) وقال الحافظ ابن رجب رحمه الله على حديث أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن لكل شيء حقيقة، وما بلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه". (٢٩): "إن العبد إذا علم أنه لن يُصِيبَهُ إلا ما كتب الله له من خير وشر،



ونفعٍ وضرٍّ، وأنَّ اجتهادَ الخلق كلِّهم على خلاف المقدور غير مفيد البتة، علم حينئذٍ أنَّ الله وحده هو الضَّارُّ النَّافعُ، المعطي المانع، فأوجبَ ذلك للعبد توحيدَ ربِّه عز وجل، وإفراذه بالطاعة، وحفظَ حدوده، فإنَّ المعبود إنَّما يُقصد بعبادته جلبَ المنافع ودفع المضار، ولهذا ذمَّ الله من يعبدُ من لا ينفعُ ولا يضرُّ، ولا يُغني عن عبده شيئاً، فمن علم أنَّه لا ينفعُ ولا يضرُّ، ولا يُعطي ولا يمنع غيرُ الله، أوجبَ له ذلك إفراذه بالخوف والرجاء والمحبة والسؤال والتضرُّع والدعاء، وتقديم طاعته على طاعة الخلق جميعاً، وأنَّ يتقي سخطه، ولو كان فيه سخطُ الخلق جميعاً، وإفراذه بالاستعانة به، والسؤال له، وإخلاص الدعاء له في حال الشدَّة وحال الرِّخاء، بخلاف ما كان المشركون عليه من إخلاص الدعاء له عند الشدائد، ونسيانه في الرِّخاء، ودعاء من يرجون نفعه من دونه، قال الله عز وجل: { قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ }.

وقوله صلى الله عليه وسلم: "واعلم أنَّ في الصَّبر على ما تكره خيراً كثيراً"، يعني: أنَّ ما أصاب العبدَ من المصائب المؤلمة المكتوبة عليه إذا صبر عليها، كان له في الصبر خيراً كثيراً. وفي رواية عمر مولى عُفرة وغيره عن ابن عباس زيادة أخرى قبل هذا الكلام، وهي: "فإن استطعت أن تعمل لله بالرِّضا في اليقين فافعل، وإن لم تستطع، فإنَّ في الصَّبر على ما تكره خيراً كثيراً". (٣٠) ومعنى هذا أنَّ حصول اليقين للقلب بالقضاء السابق والتقدير الماضي يُعين العبد على أن ترضى نفسه بما أصابه، فمن استطاع أن يعمل في اليقين بالقضاء والقدر على الرِّضا بالمقدور فليفعل، فإن لم يستطع الرِّضا، فإنَّ في الصَّبر على المكروه خيراً كثيراً. فهاتان درجتان للمؤمن بالقضاء والقدر في المصائب:



إحداهما: أن يرضى بذلك، وهذه درجةٌ عاليةٌ رفيعةٌ جدًّا، قال الله عز وجل: { مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ } . قال علقمة: "هي المصيبة تصيبُ الرَّجُلَ، فيعلم أنَّها من عند الله، فيسلمُ لها ويرضى".

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإنَّ الله تعالى إذا أحبَّ قومًا ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط". (٣١) وكان النبيُّ صلى الله عليه وسلم يقول في دعائه: "أسألك الرِّضا بعد القضاء". (٣٢)

ومَّا يدعو المؤمن إلى الرِّضا بالقضاء تحقيقُ إيمانه بمعنى قول النبيِّ صلى الله عليه وسلم: "لا يقضي الله للمؤمن قضاءً إلا كان خيرًا له؛ إن أصابته سرًّا شكر كان خيرًا له، وإن أصابته ضرًّا صبر كان خيرًا له، وليس ذلك إلا للمؤمن". (٣٣) وجاء رجلٌ إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم، فسأله أن يُوصيه وصيَّةً جامعةً موجزةً، فقال: "لا تتَّهم الله في قضائه". (٣٤)

قال أبو الدرداء رضي الله عنه: "إنَّ الله إذا قضى قضاءً أحبَّ أن يُرضى به"، وقال ابن مسعود رضي الله عنه: "إنَّ الله بقسطه وعدله جعلَ الرُّوحَ والفرحَ في اليقين والرضا، وجعلَ الهمَّ والحزنَ في الشكِّ والسخط"، كذا رُوِيَ عَنْ عمر وابن مسعود وغيرهما. (٣٥) وقال عمر بن عبد العزيز: "أصبحت ومالي سرورٌ إلا في مواضع القضاء والقدر". فمن وصل إلى هذه الدرجة، كان عيشه كلُّه في نعيمٍ وسرورٍ، قال الله تعالى: { مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّه حَيَاةً طَيِّبَةً } . قال بعض السلف: "الحياة الطيبة: هي الرضا والقناعة". (٣٦) وقال عبد الواحد بن زيد: "الرضا باب الله الأعظم، وجنة الدنيا، ومُستراح العابدين". (٣٧)



وأهل الرضا تارةً يلاحظون حكمة المُبتَلِي وخيرته لعبده في البلاء، وأنه غير متَّهم في قضائه، وتارةً يُلاحظون ثواب الرضا بالقضاء، فيُنسيهم ألم المقتضي به، وتارةً يُلاحظون عظمة المُبتَلِي وجلاله وكَماله، فيستغرقون في مشاهدة ذلك، حتى لا يشعرون بالألم، وهذا يصلُّ إليه خواصُّ أهل المعرفة والمحبة، حتى ربَّما تلذذوا بما أصابهم لملاحظتهم صدوره عن حبيبهم، كما قال بعضهم: "أوجدتهم في عذابه عذوبة". وسئل بعض التابعين عن حاله في مرضه، فقال: "أحبه إليه أحبه إليّ". (٣٨) وسئل السري: هل يجد المحبُّ ألم البلاء؟ فقال: لا. وقال بعضهم:

عذابه فيك عذبٌ ... وبُعده فيك قُرْبٌ

وأنتَ عندي كروحي ... بل أنتَ منها أحبُّ

حسبي من الحبِّ أني... لما تُحبُّ أحبُّ

والدرجة الثانية: أن يصبرَ على البلاء، وهذه لمن لم يستطع الرضا بالقضاء، فالرضا فضلٌ مندوبٌ إليه مستحب، والصبرُ واجبٌ على المؤمن حتمً، وفي الصبر خيرٌ كثيرٌ، فإنَّ الله أمر به، ووعدَ عليه جزيلاً الأجر. قال الله عز وجل: { إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ } وقال: { وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ } أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ }. قال الحسن: "الرضا عزيزٌ، ولكن الصبر معوَّلُ المؤمن". (٣٩)

ثم تأمل - رحماني الله وإياك - عاقبة تسخط نعم الله تعالى في قصة سبأ، ذلك أنهم كانوا في نعيم رغيد وأمن سابلة وتقارب بلاد وإدراار أرزاق وعيشة رخيَّة؛ فبدَّلوا رضاهم سخطاً



وشكرهم كفراً؛ فأبدل الله حالهم، وقلب عليهم زمانهم، وجزاهم بكفر نعمته عذاباً، قال تبارك وتعالى: (لقد كان لسبياً في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور (١٥) فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل حنط وأثل وشيء من سدر قليل (١٦) ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلا الكفور. وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالي وأياماً آمنين (١٨) فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور). والله المسؤول أن يعصمنا من مضلات الفتن ومصارع السوء وخواتيم الهلاك، إله الحق أمين.

وَلَكُرِّبْ نِعْمَةً فِي ثَوْبٍ مَحْنَةٍ، وَكَمْ مِنْ كِرَامَةٍ فِي شَكْلِ بَلَاءٍ، وَلَطْفٍ خَفِيِّ عَنِ النَّاطِرِينَ، وَلَكِنْ أَيْنَ الْمَوْفِقُونَ الْمُبْصِرُونَ بِنُورِ قُلُوبِهِمْ مَوَاطِنَ قَطْرِ النَّعْمِ! وَلِمَحْمُودِ الْوَرَاقِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:

تَعْصِي الْإِلَٰهَ وَأَنْتَ تُظْهِرُ حُبَّهُ ... هَذَا مُحَالٌ فِي الْقِيَاسِ بَدِيعُ
 لَوْ كَانَ حُبُّكَ صَادِقًا لِأَطْعَمْتَهُ ... إِنَّ الْمَحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعُ
 فِي كُلِّ يَوْمٍ يَبْتَلِيكَ بِنِعْمَةٍ ... مِنْهُ وَأَنْتَ لِشُكْرِ ذَاكَ مُضِيعُ

١. انظر: نافذة على قصة الحضارة (١٦) للمؤلف.

٢. أحمد (٢٨٠٣) وصححه محققوه. وصححه الألباني في السلسلة (١٠٧٦)

٣. العقيدة الطحاوية، مع تخريج الألباني (٥٣/١)



٤. الطبراني في معجمه الكبير (١٤٢٧) عن ثوبان عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إذا ذكر أصحابي فأمسكوا، وإذا ذكرت النجوم فأمسكوا، وإذا ذكر القدر فأمسكوا". قال الألباني في تخريج الطحاوية (١ / ٥٠): "وهو حديث صحيح، روي عن جمع من الصحابة، وقد خرجته في الصحيحة (٣٤) يعني: أمسكوا عن الخوض فيه بما لم تُوقَفُوا فيه على علم".

٥. قال ابن القيم في النونية:

والجهل داءٌ قاتلٌ وشفاءُه ... أمران في التركيب متفقان
نصٌّ من القرآن أو من سنةٍ ... وطبيبٌ ذاك العالم الرباني
والعلم أقسامٌ ثلاثٌ ما لها ... من رابعٍ والحق ذو تبيان
علمٌ بأوصاف الإله وفعليه ... وكذلك الأسماء للرحمن
والأمر والنهي الذي هو دينه ... وجزاؤه يوم المعاد الثاني
والكلُّ في القرآن والسنن التي ... جاءت عن المبعوث بالفرقان
والله ما قال امرؤٌ متحدِّثٌ ... بسواهما إلا من الهديان

٦. يعني حديث ابن عباس رضي الله عنهما موقوفاً، قال: "إن الله خلق لوحاً محفوظاً من درة بيضاء، دفتاه من ياقوتة حمراء، قلمه نور، وكتابه نور، عرضه ما بين السماء والأرض، ينظر فيه كل يوم ثلاثمئة وستين نظرة، ففي كل نظرة منها يخلق ويرزق ويحيي ويميت ويعز ويزل ويفعل ما يشاء، فذلك قوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾. رواه الحاكم في المستدرک (٣٧٧١) والطبراني في المعجم الكبير (١٠٦٠٥) وأبو نعيم في حلية الأولياء (١/٣٢٥). وقال الشيخ محمد أبو شهبه رحمه الله تعالى في كتابه "دفاع عن السنة ورد شبه المستشرقين" (١/٢٠٦) في ذلك: "لم يصح عن النبي ﷺ في تفصيل ذلك حديث مرفوع، وإنما هي آثار عن بعض الصحابة والتابعين، والواجب أن نؤمن بوجود اللوح المحفوظ، وأن الله دَوَّنَ فيه كل ما كان وما يكون. أما ما وراء ذلك مما ورد في وصفه وكيفيته والقلم الذي كتب به فلا، والأقرب فيما ورد عن ابن عباس وغيره في هذا أنه من الإسرائيليات التي أخذت عن أهل الكتاب، ورُويت لغرابتها، ولا سيما وأنه ليس في القرآن ما يصدقها ولا ما يكذبها، فبقيت روايتها على أصل الإباحة". وقال ابن القيم رحمه الله تعالى لما ذكر هذه الأحاديث وما في معناها: "فهذا تقديرٌ يوميٌّ، والذي قبله تقدير



حوالي، والذي قبله تقدير عمري عند تعلق النفس به، والذي قبله كذلك عند أول تخليقه وكونه مضغة، والذي قبله تقدير سابق على وجوده لكن بعد خلق السماوات والأرض، والذي قبله تقدير سابق على خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وكل واحد من هذه التقادير كالتفصيل من التقدير السابق.

وفي ذلك دليل على كمال علم الرب وقدرته وحكمته، وزيادة تعريفه الملائكة وعباده المؤمنين بنفسه وأسمائه".
أه. شفاء العليل (١ / ٦١ - ٧٤)

٧. مثل هذا التفاصيل التي لم عليها دليل تُعرف من باب العلم بأنها قيلت، ولكن لا يُعقد الإيـان بها في القلب إلا بعد ثبوتها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

٨. أي: كتب أقدار الخلائق.

٩. مسلم (٢٦٥٣)

١٠. أبو داود (٤٧٠٠) وبنحوه عند الترمذي (٣٣١٩) وصححه الألباني.

١١. المسند (٢٢٧٥٩) وصححه محققوه، مصنف ابن أبي شيبة (٣٥٩٢٢)

١٢. قال الضحاك، عن ابن عباس: "إنما سُمي عرشاً لارتفاعه". تفسير ابن كثير (٥ / ٤٨٩)

١٣. فحملوا هذه الرواية على التي قبلها وفسروها بها، فصار معناها: حين خلق الله القلم قال له..

ف"أول" هنا بمعنى الحينية وليست بمعنى الأولية، وهذا شائع في كلامهم فتقول لصاحبك: أول ما رأيتك تذكرت فلاناً، بمعنى حينما رأيتك تذكرته.

والراجع هو قول الجمهور، وبه تجتمع الأدلة، وإن مما يساعد على تصوّر هذه المسألة والترجيح فيها العلم بأن الله خلّاق، كما قال تعالى: (بلى وهو الخلاق العليم)، والخلاق مبالغة من الخلق وأنه يخلق ما يشاء، فهو قادر على خلق شيء بعد شيء سبحانه وتعالى، وأسماء الحسنى تقتضي آثارها، وتستلزمها استلزام المقتضى الموجب لموجبه ومقتضاه، فلا بد أن تظهر آثارها في الوجود، والله تعالى (فعال لما يريد)، ففيه صفة المبالغة بالفعل بعد الفعل، وهكذا.

والشرع لم يمنع أن يكون لله تعالى مخلوقات قبل السماوات والأرض وما فيهن، ولم يمنع أن يخلق الله مخلوقات أخرى وعوالم أخرى بعد نهاية الدنيا واستقرار أهل الآخرة في دورهم الخالدة، والله على كل شيء قدير، ولم يمنع أن



يكون هذا الكون المشهود الذي انتهى إليه علمنا إنما هو جزء يسير جدًا من مخلوقات الله تعالى، قد سبقه مخلوقات لله تعالى لا تتصور عقول البشر ولا تستوعب كثرتها وعددها وبعد زمنها وتفصيل أخبارها، ولم يمنع أن يلحق هذا الكون مخلوقات لله تعالى ومخلوقات لا يعلمها إلا الله تعالى.

وإن هذه السماوات والأرض وما بينهما وما فيهن ليست بشيء عند عظمة وحجم العرش العظيم الكريم المجيد الذي هو أكبر مخلوقات الله المشهودة لدينا، فنسبتها إليه كنسبة حلقة ألقيت في فلاة!

والمقصود؛ أن كتابة القلم لها بداية، كما أن لها أمدً ينتهي بقيام الساعة، ولا يعني هذا نهاية مخلوقات الله تعالى التي لا نعلم عنها شيئاً. وباللغة التوفيق.

١٤. أي على تقدير صحة القول بأولية القلم على سائر المخلوقات؛ يكون المعنى حينها: أن لله تعالى عوالم مخلوقة متعددة، وأن منها عالمنا هذا المشهود بما فيه من السماوات والأرض، وأن أول مخلوقات عالمنا هذا القلم. أما العرش والماء فهي من عالم آخر غير عالمنا هذا.

١٥. ظنّ بعض الفضلاء أن القول بأولية العرش أو القلم يهدم قول أهل السنة في إثبات حوادث لا أول لها - وهي مسألة التسلسل المشهورة -، وهذا ليس بصواب، لأن أهل السنة قالوا: إن أولية المخلوقات في هذه الأحاديث إنما يراد بها مخلوقات هذا العالم المشهود، أي المخلوقات المعلومة المخصوصة التي علمناها وحدّثنا الوحي عنها، وإلا فليس في الأحاديث أنها أول مخلوقات الله مطلقاً. وانظر: الصفدية (١ / ١٧) (٢ / ٢٢٤) والرسالة العرشية (١ / ٨) ومجموع الفتاوى (١٨ / ٢١٠ - ٢٤٣).

ثم تدبر قوله تعالى في سورة المؤمنون: (قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٨٥) قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٨٧) قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ). فإنه تعالى لما ذكر الأرض ثم السماوات ثم العرش، وهي المخلوقات المشهودة مع الجنة والنار، ثم ذكر أن بيده ملكوت كل شيء وهي الملكة المطلقة لكل شيء، فإما أنه أراد الجنة والنار، أو أنه قصد التأكيد للملكية ما سبق مما ذكر، أو أنه أوماً لمخلوقاته الأخرى غير المعلومة لدينا وأنها ملكه، سواء قبل خلق هذا العالم أو بعد دخول أهل الجنة والنار منازلهم، فقد ذكرها تعالى بترتيب أولوي من الأقل للأكثر، وهو الخلاق العظيم سبحانه وبحمده. والله أعلم.

١٦. الصريف في اللغة: هو صوت احتكاك أسلّة القلم بالورقة حين الكتابة. ويقال صرير أيضاً.



١٧. البخاري (٣٤٩) مسلم (١٦٣)

١٨. فشجرة الإيمان في قلب المؤمن تثمر اليقين بالقدر، وتنفي حرج النفس عند ثوران الوسوس، وتدفع وحر الصدر عند نزول أقضية الرب تعالى شرعية كانت أو كونية، ولا يزال من يقين إلى يقين حتى يلقي ربه حق اليقين، قال قتادة رحمه الله تعالى: "المؤمنون هم العجاجون بالليل والنهار، والله ما زالوا يقولون: ربنا ربنا؛ حتى استجيب لهم".

١٩. البخاري (١٨٧/٤، ١٦٧/٩، ١٥٤)

٢٠. ابن حبان (٣٦١) وصححه الألباني في الصحيحة (١٠٩) بلفظ: قال أبو ذر: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهري فلاة من الأرض". ورواه المستدرک (٢٨٢ / ٢) موقوفاً، وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي. وقال شيخنا الجبرين رحمه الله في شرح العقيدة الطحاوية (١٧٩ / ٢): "قال الشارح رحمه الله: "وأما الكرسي فقال تعالى: (وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ) وقد قيل: هو العرش، والصحيح أنه غيره، نقل ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره، روى ابن أبي شيبه في كتابه صفة العرش والحاكم في مستدرکه وقال: إنه على شرط الشيخين ولم يخرجاه، عن سعيد بن جبیر عن ابن عباس في قوله تعالى: (وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ) أنه قال: "الكرسي موضع القدمين، والعرش لا يقدر قدره إلا الله تعالى"، وقد روي مرفوعاً، والصواب أنه موقوف على ابن عباس. وقال السدي: "السموات والأرض في جوف الكرسي، والكرسي بين يدي العرش". وقال ابن جرير: قال أبو ذر رضي الله عنه: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهري فلاة من الأرض". وقيل: كرسيه علمه، وينسب إلى ابن عباس، والمحفوظ عنه ما رواه ابن أبي شيبه كما تقدم، ومن قال غير ذلك فليس له دليل إلا مجرد الظن، والظاهر أنه من جراب الكلام المذموم، كما قيل في العرش.

وإنما هو كما قال غير واحد من السلف: "بين يدي العرش كالمِرْقاة إليه". هذا الكلام على الكرسي الذي ذكر الله أنه وسع السماوات والأرض، وهو كالمِرْقاة بين يدي العرش، أو أن الكرسي موضع القدمين، وبكل حال فهو مخلوق، وقد ذكر الله أنه وسع السماوات بأكملها: (وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ [البقرة: ٢٥٥])، فإذا كان الكرسي قد وسع السماوات والأرض؛ فكيف بالعرش؟ هذا هو القول الصحيح: وهو أن الكرسي مخلوق، وأنه غير العرش. وهناك قول بأن الكرسي هو العرش، والصحيح أنه غيره؛ هذا هو المشهور، فالكرسي مقدمة العرش أو مِرْقاة بين يديه. وهناك قول ثالث ولكنه ضعيف: وهو أن الكرسي هو العلم، (وسع كرسيه) أي: علمه، وهذا القول



- وإن روي عن ابن عباس - فإنه لا يثبت عنه، والصحيح القول الأول عنه، ولعل هذا من أقوال بعض المبتدعة الذين يريدون أن يأولوا الأشياء بغير ظواهرها، فلما أولوا العرش بأنه الملك، أولوا الكرسي بأنه العلم؛ حتى يطلوا الصفات التي وردت في النصوص، والتي تتعلق بالعرش والكرسي، والتي الإيذان بها من الإيذان بالغيب".

٢١. أي: يطاف حوله كالكعبة.

٢٢. أبو داود (٤٧٢٦) عن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال: «أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم أعرابي فقال: يا رسول الله، جهدت الأنفس، وضاعت العيال، ونهكت الأموال، وهلكت الأنعام، فاستسقى الله لنا، فإننا نستشفع بك على الله، ونستشفع بالله عليك، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ويحك، أتدري ما تقول؟" وسبح رسول الله صلى الله عليه وسلم، فما زال يسبح، حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه، ثم قال: "إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه، شأن الله أعظم من ذلك، ويحك، أتدري ما الله؟ إن عرشه على سماواته هكذا"، وقال بأصبعه مثل القبة عليه "وإنه ليئط أطيط الرحل بالراكب". وضعفه الألباني في تخريج الطحاوية (٣١٠) من جهة تدليس ابن إسحاق، وقد عنعن.

ولكن وإن ضعف هذا الحديث فيغني عنه حديث أبي هريرة رضي الله عنه في صحيح البخاري (٧٤٢٣) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "فإذا سألتم الله فسلوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفجر أنهار الجنة". قال شيخ الإسلام مبيّنًا ذلك: "والأوسط لا يكون الأعلى إلا في المستدير... وقال إياس بن معاوية: السماء على الأرض مثل القبة". الرسالة العرشية لابن تيمية (١ / ١٣) وانظرها في مجموع الفتاوى (٥٥٦ / ٦)

٢٣. نقل الدكتور محمد عمارة عن الشيخ محمد عبده أنه قال عن ابن تيمية: إنه أعلم الناس بالسنة، وأشدّهم غيرة على الدين. وأنه هو الذي أشار بطبع كتابه درء التعارض ومنهاج السنة.

وختم د. محمد عمارة مقالته بقوله: "إبداعاته هي لباب الشريعة الإسلامية، ولقد عاش شاهداً ومات شهيداً، وكان نجمًا ساطعًا وشمسًا مشرقة في سماء الإسلام".

د. محمد عمارة: لماذا الهجوم على شيخ الإسلام؟ مقالة في صحيفة هوية بريس ١١ نوفمبر ٢٠١٦



٢٤. قال العلامة أحمد شاكر في شرح العقيدة الطحاوية (١ / ١٨١): "وفي صحيح البخاري (٢٨/٤) عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن». يروى "وفوقه" بالنصب على الظرفية، وبالرفع على الابتداء، أي: وسقفه.

وذهب طائفة من أهل الكلام إلى أن العرش فلك مستدير من جميع جوانبه محيط بالعالم من كل جهة، وربما سمّوه: الفلك الأطلس، والفلك التاسع! وهذا ليس بصحيح؛ لأنه قد ثبت في الشرع أن له قوائم تحمله الملائكة، كما قال صلى الله عليه وسلم: «إن الناس يصعقون، فأكون أول من يفيق، فإذا أنا بموسى أخذ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور». البخاري (٤/١٨٧) (٣٢١٧)

والعرش في اللغة: عبارة عن السرير الذي للملك، كما قال تعالى عن بلقيس: {وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ}، وليس هو فلكًا، ولا تفهم منه العرب ذلك، والقرآن إنما نزل بلغة العرب، فهو: سرير ذو قوائم تحمله الملائكة، وهو كالقبة على العالم، وهو سقف المخلوقات. فمن شعر أمية بن أبي الصلت:

مجدُّوا الله فهو للمجد أهل... ربنا في السماء أمسى كبيرًا

بالبناء العالي الذي بهر النا... س وسوى فوق السماء سريرًا

شَرَّجَعًا لا يناله بصرُ الع... ين ترى حوله الملائك صورًا

والصور هنا: جمع "أصور"، وهو: المائل العنق لنظره إلى العلو. والشرح: هو العالي المنيف. والسرير: هو العرش في اللغة. ومن شعر عبد الله بن رواحة رضي الله عنه، الذي عرّض به عن القراءة لامرأته حين اتهمته بجاريته:

شهدتُ بأنَّ وعد الله حقٌّ... وأنَّ النار مثوى الكافرينا

وأنَّ العرش فوق الماء طافٍ... وفوق العرش ربُّ العالمينا

وتحمّله ملائكة شدادٌ... ملائكةُ الإله مُسوِّمينا

٢٥. الذي في السنن سبع مئة عام، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أُذِنَ لي أن أُحدِّث عن ملك من ملائكة الله من حملة العرش، إنَّ ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة



سبعمئة عام». رواه أبو داود (٤٧٢٧) وسكت عنه. وصححه سننه الذهبي في العلو (٩٧) وقال الحافظ في الفتح (٨ / ٦٦٥): إسناده على شرط الصحيح، وصححه الألباني.

٢٦. قال شيخ الإسلام: يجب أن يُعلم أن العالم العلوي والسفلي بالنسبة إلى الخالق تعالى في غاية الصغر، كما قال تعالى: { وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون }. وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "يقبض الله تبارك وتعالى الأرض يوم القيامة، ويطوي السماء بيمينه، ثم يقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض؟". وفي الصحيحين واللفظ لمسلم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يقبض الله تبارك وتعالى الأرض يوم القيامة، ويطوي السماء بيمينه ثم يقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض؟". وفي الصحيحين واللفظ لمسلم عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يطوي الله السموات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنى ثم يقول: أنا الملك؛ أين الجبارون؛ أين المتكبرون؟ ثم يطوي الأرضين بشماله ثم يقول: أنا الملك؛ أين الجبارون؛ أين المتكبرون؟". وفي لفظ في الصحيح عن عبد الله بن مقسم أنه نظر إلى عبد الله بن عمر كيف يحكي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "يأخذ الله سماواته وأرضه بيده، ويقول: أنا الملك"، ويقبض أصابعه ويسطها: "أنا الملك"، حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفل شيء منه حتى إنني أقول: أساقط هو برسول الله صلى الله عليه وسلم؟ وفي لفظ قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر وهو يقول: "يأخذ الجبار سماواته وأرضه". وقبض بيده وجعل يقبضها ويسطها ويقول: "أنا الرحمن، أنا الملك، أنا القدوس، أنا السلام، أنا المؤمن، أنا المهيمن، أنا العزيز، أنا الجبار، أنا المتكبر، أنا الذي بدأت الدنيا ولم تكن شيئاً، أنا الذي أعدتها. أين المتكبرون؟ أين الجبارون؟". وفي لفظ: "أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟"، ويميل رسول الله صلى الله عليه وسلم على يمينه وعلى شماله حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفل شيء منه، حتى إنني لأقول: أساقط هو برسول الله صلى الله عليه وسلم؟ والحديث مروى في الصحيح والمسند وغيرهما بألفاظ يصدق بعضها بعضاً. وفي بعض ألفاظه قال: قرأ على المنبر: { والأرض جميعا قبضته يوم القيامة } الآية، قال: "مطوية في كفه يرمي بها كما يرمي الغلام بالكرة" وفي لفظ: "يأخذ الجبار سماواته وأرضه بيده، فيجعلها في كفه، ثم يقول بهما هكذا كما تقول الصبيان بالكرة: أنا الله الواحد". وقال ابن عباس: "يقبض الله عليهما فما ترى طرفاهما بيده" وفي لفظ عنه: "ما السماوات السبع والأرضون السبع وما فيهن وما بينهن في يد الرحمن إلا كخردلة في يد أحدكم". وهذه الآثار معروفة في كتب الحديث.



وفي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: أتى النبي صلى الله عليه وسلم رجل من اليهود فقال: يا محمد؛ إن الله يجعل السموات على إصبع، والأرضين على إصبع، والجبال على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع، فيهزهنّ، فيقول: أنا الملك، أنا الملك، قال: فضحك النبي صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه تصديقاً لقول الخبر، ثم قرأ: { وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه } الآية.

ففي هذه الآية والأحاديث الصحيحة المفسرة لها المستفيضة التي اتفق أهل العلم على صحتها وتلقيها بالقبول ما يبيّن أن السموات والأرض وما بينهما بالنسبة إلى عظمة الله تعالى أصغر من أن تكون مع قبضه لها إلا كالشيء الصغير في يد أحدنا حتى يدحوها كما تُدحَى الكُرَّة". مجموع الفتاوى (٦ / ٥٥٩ - ٥٦٠)

٢٧. شرح العقيدة الطحاوية، صالح آل الشيخ (١ / ٢٥٧ - ٢٦٤ مختصراً).
٢٨. شرح زاد المستقنع (١١ / ٣٤٨)
٢٩. أحمد (٦ / ٤٤١) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢١٥٠)
٣٠. أحمد (٢٨٠٣) وصححه محققوه. وصححه الألباني في السلسلة (١٠٧٦)
٣١. البخاري ١٠٩/٧ (٥٤٧٠)، ومسلم ١٧٤/٦ (٢١٤٤) (٢٣)
٣٢. ابن أبي شيبة (٢٩٤٦) وابن أبي عاصم في السنة (١٢٨) (٣٧٨) والبخاري في البحر الزخار (١٣٩٢) والطبراني في الدعاء (٦٢٥) والحاكم (١/٥٢٤-٥٢٥) وصححه الحويني في الفتاوى (١ / ٢٦٢)
٣٣. مسلم (٢٩٩٩)
٣٤. خلق أفعال العباد (١٦٣)، والجهاد لابن أبي عاصم (٢٥) وضعفه محقق جامع العلوم وبنحوه عند أحمد (٥ / ٣١٨) بسند صححه ابن كثير في جامع المسانيد والسنن.
٣٥. شعب الإيمان (٢٠٧) عن أبي سعيد الخدري به، وزاد في أوله: "إن من ضعف اليقين أن تُرضي الناس بسخط الله، وأن تحمدهم على رزق الله".
٣٦. أُثرت عن علي رضي الله عنه، كما عند الطبري في تفسيره (١٦٥٢٦) كذلك رواهما عن ابن عباس والحسن.



٣٧. الحلية (١٥٦/٦)
٣٨. وهي كلمة شريفة قالها الصحابي عمران بن حصين رضي الله عنهما لما سأله التابعي الجليل مطرف بن عبد الله عن حاله في مرضه. وانظر الطبراني في الكبير (١٨ / ١٩٣)
٣٩. جامع العلوم والحكم (١ / ١٩١ - ١٩٥) مختصرًا.



كيف يريدُ الله تعالى أمراً لا يرضاه؟

بمعرفة إجابة هذا السؤال الكبير تزول أكبر إشكالات هذا الباب، ذلك أن كثيراً من الناس يجعلون أمر الإرادة الشرعية والقدرية أمراً واحداً، فيلتزمون بلازم باطل لهذا الفهم الباطل، -فما بني على باطل فهو باطل- فيقولون: إن كل ما خلقه الله تعالى قد رضيه وأحبه، وهذا ضلال، فالمحبة إنما تتبع الإرادة الشرعية لا المشيئة الكونية، فالله يحب الإيمان والمؤمنين، ويكره الكفر والكافرين، والقائل تبارك وتعالى: (إنا كل شيء خلقناه بقدر) هو ذاته الذي قال: (ولا يرضى لعباده الكفر). وهو حكيم في كل أفعاله، ويستحق عليها تمام الحمد.

فالله تعالى لا يقدرُ أمراً إلا لما فيه من الخير أو لما يفضي به إلى الخير، فالله تعالى لا يخلق شراً محضاً، إذ الشر العدمي معدوم في مخلوقاته، فخلقه إما خير محض، أو خير من بعض الوجوه لحكم في الخلق والأمر والتكليف عظيمة، أو شرٌّ مترتب عليه خير في العاقبة. وعليه؛ فقد يكون الخير متمحّضاً في الشيء، وقد يكون شراً يترتب عليه خير يحبه الله تعالى، ومن هنا انتفت نسبة الشر إلى الله تبارك وتعالى.

وبهاتين الإرادتين - الشرعية والقدرية - قام التكليف واستقام الأمر والنهي واكتمل امتحان القلوب في ميدان الإيمان والكفر، ومجاهدة النفس والخلق في ذات الله تعالى، ونهض سوق الجهاد باللسان والسنان، ودُعي إلى سبيل الله تعالى، وأمر بالمعروف ونُهي عن المنكر، وقام سوق الجنة والنار. قال ابن القيم رحمه الله تعالى: "فإن قلت: كيف يريد



الله سبحانه أمراً لا يرضاه ولا يجبه، وكيف يشاؤه ويكوّنه، وكيف تجتمع إرادة الله له وبغضه وكراهيته؟

قيل: هذا السؤال هو الذي افترق الناس لأجله فرقاً، وتباينت عنده طرقهم وأقوالهم. فاعلم أن المراد نوعان: مراد لنفسه، ومراد لغيره.

فالمراد لنفسه مطلوب محبوب لذاته، ولما فيه من الخير، فهو مرادٌ إرادة الغايات والمقاصد. والمراد لغيره قد لا يكون في نفسه مقصوداً للمريد، ولا فيه مصلحة له بالنظر إلى ذاته، وإن كان وسيلة إلى مقصوده ومراده، فهو مكروه له من حيث نفسه وذاته، مراد له من حيث إفضاؤه وإيصاله إلى مراده، فيجتمع فيه الأمران: بغضه وإرادته، ولا يتنافيان لاختلاف متعلقهما، وهذا كالدواء المتناهي في الكراهة إذا علم متناوله أن فيه شفاءه، وكقطع العضو المتآكل إذا علم أن في قطعه بقاء جسده، وكقطع المسافة الشاقة جداً إذا علم أنها توصله إلى مراده ومحبوبه. بل العاقل يكتفي في إثارة هذا المكروه وإرادته بالظن الغالب وإن خفيت عنه عاقبته وطويت عنه مغبته، فكيف بمن لا تحفى عليه العواقب؟! فهو سبحانه وتعالى يكره الشيء ويبغضه في ذاته، ولا ينافي ذلك إرادته لغيره وكونه سبباً إلى ما هو أحب إليه من فوته.

مثاله: أن الله سبحانه خلق إبليس (١) الذي هو مادةٌ لفساد الأديان والأعمال والاعتقادات والإرادات، وهو سبب شقاوة العبيد وعملهم بما يغضب الرب تبارك وتعالى، وهو الساعي في وقوع خلاف ما يجبه الله ويرضاه بكل طريق وكل حيلة، فهو مبغوض للرب سبحانه وتعالى، مسخوط له، لعنه الله ومقتته وغضب عليه، ومع هذا فهو وسيلة إلى محابٍ كثيرة للرب تعالى ترتبت على خلقه، وجودها أحب إليه من عدمها. (٢)



منها: أن تظهر للعباد قدرة الرب تعالى على خلق المتضادات المتقابلات، فخلق هذه الذات التي هي أخبث الذوات وشرّها، وهي سبب كل شر، في مقابلة ذات جبريل التي هي أشرف الذوات وأطهرها وأزكاها، وهي مادة كل خير، (٣) فتبارك الله خالق هذا وهذا.

كما ظهرت لهم قدرته التامة في خلق الليل والنهار، والضياء والظلام، والداء والدواء، والحياة والموت، والحر والبرد، والحسن والقبيح، والأرض والسماء، والذكر والأنثى، والماء والنار، والخير والشر، وذلك من أدل الدلائل على كمال قدرته وعزته وسلطانه ومملكه، فإنه خلق هذه المتضادات، وقابل بعضها ببعض، وسلط بعضها على بعض، وجعلها محالّ تصرّفه وتدييره وحكمته، فخلوّ الوجود عن بعضها بالكلية تعطيل لحكمته وكمال تصرّفه وتدييره ومملكته.

ومنها: ظهور آثار أسمائه القهرية مثل القهار والمنتقم والعدل والضار (٤) وشديد العقاب وسريع الحساب وذي البطش الشديد والخافض والمذل، فإن هذه الأسماء والأفعال كمال، فلا بد من وجود متعلّقها. ولو كان الخلق كلهم على طبيعة الملك لم يظهر أثر هذه الأسماء والأفعال.

ومنها: ظهور آثار أسمائه المتضمّنة لحلمه وعفوه ومغفرته وستره وتجاوزه عن حقه وعتقه لمن شاء من عبّيده، فلولا خلق ما يكره من الأسباب المفضية إلى ظهور آثار هذه الأسماء؛ لتعطلت هذه الحكم والفوائد. وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى هذا بقوله: "لو لم تذبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذبون فيستغفرون الله فيغفر لهم". (٥)



ومنها: ظهور آثار أساء الحكمة والخبرة، فإنه سبحانه الحكيم الخبير الذي يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها اللائقة بها، فلا يضع الشيء في غير موضعه، ولا ينزله غير منزلته التي يقتضيها كمال علمه وحكمته وخبرته، فلا يضع الحرمان والمنع موضع العطاء والفضل، ولا الفضل والعطاء موضع الحرمان والمنع، ولا الثواب موضع العقاب، ولا العقاب موضع الثواب، ولا الخفض موضع الرفع، ولا الرفع موضع الخفض، ولا العز مكان الذل، ولا الذل مكان العز، ولا يأمر بما ينبغي النهي عنه، ولا ينهى عما ينبغي الأمر به. فهو أعلم حيث يجعل رسالته، وأعلم بمن يصلح لقبولها ويشكره على انتهائها إليه ووصولها، وأعلم بمن لا يصلح لذلك ولا يستأهله، وأحكم من أن يمنعها أهلها وأن يضعها عند غير أهلها.

فلو قدر عدم الأسباب المكروهة البغيضة له؛ لتعطلت هذه الآثار، ولم تظهر لخلقه، ولفاتت الحكم والمصالح المترتبة عليها، وفواتها شرٌّ من حصول تلك الأسباب. فلو عطلت تلك الأسباب لما فيها من الشر؛ لتعطل الخير الذي هو أعظم من الشر الذي في تلك الأسباب. وهذا كالشمس والمطر والرياح التي فيها من المصالح ما هو أضعافُ أضعافٍ ما يحصل بها من الشر والضرر، فلو قدر تعطيلها لئلا يحصل منها ذلك الشر الجزئي لتعطل من الخير ما هو أعظم من ذلك الشر بما لا نسبة بينه وبينه.

ومنها: حصول العبودية المتنوعة التي لولا خلق إبليس لما حصلت، ولكان الحاصل بعضها لا كلها. فإن عبودية الجهاد من أحب أنواع العبودية إليه سبحانه، ولو كان الناس كلهم مؤمنين؛ لتعطلت هذه العبودية وتوابعها من الموالاتة فيه سبحانه، والمعاداة فيه،



والحب فيه، والبغض فيه، وبذل النفس له في محاربة عدوه، وعبودية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعبودية الصبر، ومخالفة الهوى، وإيثار محاب الرب على محاب النفس. ومنها: عبودية التوبة والرجوع إليه واستغفاره، فإنه سبحانه يحب التوابين ويحب توبتهم، فلو عطلت الأسباب التي يُتاب منها؛ لتعطلت عبودية التوبة والاستغفار منها. (٦)

ومنها: عبودية مخالفة عدوّه، ومراغمته في الله، وإغاظته فيه، وهي من أحب أنواع العبودية إليه، فإنه سبحانه يحب من وليه أن يغيظ عدوه ويراعمه ويسوءه، وهذه عبودية لا يتفطن لها إلا الأكياس. (٧)

ومنها: أن يتعبد له بالاستعاذة به من عدوه، وسؤاله أن يُجيره منه، ويعصمه من كيدِه وأذاه.

ومنها: أن عبيده يشتد خوفهم وحذرهم إذا رأوا ما حل بعدوه بمخالفته وسقوطه من المرتبة الملكيّة إلى المرتبة الشيطانية، فلا يخلدون إلى غرور الأمل بعد ذلك. ومنها: أنهم ينالون ثواب مخالفته ومعاداته الذي حصوله مشروط بالمعاداة والمخالفة، فأكثر عبادات القلوب والجوارح مرتبة على مخالفته. (٨)

ومنها: أن نفس اتخاذه عدوّاً من أكبر أنواع العبودية وأجلّها، قال الله تعالى: (إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً)، فاتخاذه عدوّاً أنفع شيء للعبد، وهو محبوب للرب.

ومنها: أن الطبيعة البشرية مشتملة على الخير والشر والطيب والخبيث، وذلك كامن فيها كمون النار في الزناد، فخلق الشيطان مستخرجاً لما في طبائع أهل الشر من القوّة إلى



الفعل، وأرسلت الرسل تستخرج ما في طبيعة أهل الخير من القوة إلى الفعل (٩) فاستخرج أحكم الحاكمين ما في قوى هؤلاء من الخير الكامن فيها لترتب عليه آثاره، وما في قوى أولئك من الشر لترتب عليه آثاره، وتظهر حكمته في الفريقين، وينفذ حكمه فيهما، ويظهر ما كان معلوماً له مطابقاً لعلمه السابق. (١٠)

وهذا هو السؤال الذي سألته ملائكته حين قالوا: (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون) فظنت الملائكة أن وجود من يسبح بحمده ويطيعه ويعبده أولى من وجود من يعصيه ويخالفه، فأجابهم سبحانه بأنه يعلم من الحكيم والمصالح والغايات المحمودة في خلق هذا النوع ما لا تعلمه الملائكة.

ومنها: أن ظهور كثير من آياته وعجائب صنعه حصل بسبب وقوع الكفر والشر من النفوس الكافرة الظالمة، كآية الطوفان، وآية الريح، وآية إهلاك ثمود وقوم لوط، وآية انقلاب النار على إبراهيم برداً وسلاماً، والآيات التي أجراها الله تعالى على يد موسى، وغير ذلك من آياته التي يقول سبحانه عقيب ذكر كل آية منها في سورة الشعراء: (إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك هو العزيز الرحيم) فلولا كفر الكافرين وعناد الجاحدين لما ظهرت هذه الآيات الباهرة التي يتحدث بها الناس جيلاً بعد جيل إلى الأبد.

ومنها: أن خلق الأسباب المتقابلة التي يقهر بعضها بعضاً، ويكسر بعضها بعضاً، هو من شأن كمال الربوبية والقدرة النافذة والحكمة التامة والملك الكامل، وإن كان شأن الربوبية كاملاً في نفسه ولو لم تخلق هذه الأسباب، لكن خلقها من لوازم كماله وملكه وقدرته وحكمته، فظهور تأثيرها وأحكامها في عالم الشهادة تحقيقٌ لذلك الكمال وموجب



من موجباته، فتعمير مراتب الغيب والشهادة بأحكام الصفات من آثار الكمال الإلهي المطلق بجميع وجوهه وأقسامه وغاياته.

وبالجملة؛ فالعبودية والآيات والعجائب التي ترتبت على خلق ما لا يحبه ولا يرضاه وتقديره ومشيئته أحب إليه سبحانه وتعالى من فواتها وتعطيلها بتعطيل أسبابها.

فإن قلت: فهل كان يمكن وجود تلك الحكم بدون هذه الأسباب؟

قلت: هذا سؤال باطل، إذ هو فرض وجود الملزوم بدون لازمه، (١١) كفرض وجود الابن بدون الأب، والحركة بدون المتحرك، والتوبة بدون التائب.

فإن قلت: فإذا كانت هذه الأسباب مرادة لما تُقضي إليه من الحكم؛ فهل تكون مرضية محبوبة من هذا الوجه، أم هي مسخوطة من جميع الوجوه؟

قلت: هذا السؤال يورد على وجهين أحدهما: من جهة الرب سبحانه وتعالى، وهل يكون مُحبباً لها من جهة إفضائها إلى محبوبه وإن كان يبغضها لذاتها، والثاني: من جهة العبد، وهو أنه هل يسوغ له الرضا بها من تلك الجهة أيضاً. فهذا سؤال له شأن.

فاعلم أن الشر كله يرجع إلى العدم (١٢)، أعني عدم الخير وأسبابه المفضية إليه، وهو من هذه الجهة شر، وأما من جهة وجوده المحض فلا شر فيه، مثاله: أن النفوس الشريرة وجودها خير من حيث هي موجودة، وإنما حصل لها الشرّ بقطع مادة الخير عنها، فإنها خلقت في الأصل متحركة لا تسكن، فإن أُعينت بالعلم وإلهام الخير (١٣) تحركت، وإن تُركت (١٤) تحركت بطبعها إلى خلافه. وحركتها من حيث هي حركة خير، وإنما تكون شرّاً بالإضافة لا من حيث هي حركة. (١٥)



والشر كله ظلم، وهو وضع الشيء في غير موضعه، فلو وضع في موضعه لم يكن شرًا، فعلم أن جهة الشر فيه نسبة إضافية. ولهذا كانت العقوبات الموضوعات في محالها خيرًا في نفسها وإن كانت شرًا بالنسبة إلى المحل الذي حلت به لما أحدثت فيه من الألم الذي كانت الطبيعة قابلة لضده من اللذة مستعدة له، فصار ذلك الألم شرًا بالنسبة إليها، وهو خير بالنسبة إلى الفاعل حيث وضعه موضعه. فإنه سبحانه لا يخلق شرًا محضًا من جميع الوجوه والاعتبارات، فإن حكمته تأبى ذلك، بل قد يكون ذلك المخلوق شرًا ومفسدة ببعض الاعتبارات، وفي خلقه مصالح وحكم باعتبارات أخر أرجح من اعتبارات مفسده، بل الواقع منحصر في ذلك، فلا يمكن في جناب الحق جل جلاله أن يريد شيئًا يكون فسادًا من كل وجه بكل اعتبار لا مصلحة في خلقه بوجه ما، هذا من أبين المحال، فإنه سبحانه بيده الخير، والشر ليس إليه، بل كل ما إليه فخير، والشر إنما حصل لعدم هذه الإضافة والنسبة إليه، فلو كان إليه لم يكن شرًا، فتأمل. فانقطاع نسبته إليه هو الذي صيره شرًا.

(١٦)

فإن قلت: لم تنقطع نسبته إليه خلقًا ومشية؟

قلت: هو من هذه الجهة ليس بشر، فإن وجوده هو المنسوب إليه، وهو من هذه الجهة ليس بشر، والشر الذي فيه من عدم إمداده بالخير وأسبابه، والعدم ليس بشيء حتى ينسب إلى من بيده الخير.

فإن أردت مزيد إيضاح لذلك فاعلم أن أسباب الخير ثلاثة: الإيجاد والإعداد والإمداد. فهذه هي الخيرات وأسبابها، فإيجاد السبب خير وهو إلى الله، وإعداده خير وهو



إليه أيضًا، وإمداده خير وهو إليه أيضًا. فإذا لم يحدث فيه إمداد ولا إمداد حصل فيه الشرّ (١٧) بسبب هذا العدم الذي ليس إلى الفاعل وإنما إليه ضده.

فإن قلت: فهلاّ أمده إذ أوجده؟

قلت: ما اقتضت الحكمة إيجاده وإمداده فإنه سبحانه يوجد ويمدّه، وما اقتضت الحكمة إيجاده وترك إمداده أوجده بحكمته ولم يمدّه بحكمته. فإيجاده خير، والشر وقع من عدم إمداده.

فإن قلت: فهلاّ أمدّ الموجودات كلها؟

قلت: فهذا سؤال فاسد، يظن مورده أن التسوية بين الموجودات أبلغ في الحكمة، وهذا عين الجهل، بل الحكمة كل الحكمة في هذا التفاوت العظيم الواقع بينها، وليس في خلق كل نوع منها تفاوت، فكل نوع منها ليس في خلقه من تفاوت، (١٨) والتفاوت إنما وقع بأمور عدمية لم يتعلق بها الخلق، وإلا فليس في الخلق من تفاوت. فإن اعتاص ذلك عليك ولم تفهمه حق الفهم فراجع قول القائل:

إذا لم تستطع شيئاً فدعه ... وجاوزه إلى ما تستطيعُ

كما ذكر أن الأصمعي اجتمع بالخليل بن أحمد وحرص على فهم العروض منه فأعياه ذلك، فقال له الخليل يوماً: قطع لي هذا البيت وأنشده: إذا لم تستطع شيئاً.. البيت. ففهم ما أراد، (١٩) فأمسك عنه ولم يشتغل به.



وسرّ المسألة: أن الرضا بالله يستلزم الرضا بصفاته وأفعاله وأسمائه وأحكامه، ولا يستلزم الرضا بمفعولاته كلها. بل حقيقة العبودية: أن يوافق عبده في رضاه وسخطه، فيرضى منها بما يرضى به، ويسخط منها ما سخطه.

فإن قيل: فهو سبحانه يرضى عقوبة من يستحق العقوبة، فكيف يمكن العبد أن يرضى بعقوبته له؟ قيل: لو وافقه في رضاه بعقوبته؛ لانقلبت لذة وسروراً، ولكن لا يقع منه ذلك، فإنه لم يوافق في محبته وطاعته التي هي سرور النفس وقرّة العين وحياة القلب، فكيف يوافق في محبته للعقوبة التي هي أكره شيء إليه وأشق شيء عليه؟! فإنه لما كان كارهاً لما يجب من طاعته وتوحيده فلن يكون راضياً بما يختاره من عقوبته.

فإن قلت: فكيف يجتمع الرضا بالقضاء الذي يكرهه العبد من المرض والفقر والألم مع كراهته؟

قلت: لا تنافي في ذلك، فإنه يرضى به من جهة إفضائه إلى ما يجب، ويكرهه من جهة تألمه به، كالدواء الكريه الذي يعلم أن فيه شفاءه، فإنه يجتمع فيه رضاه به وكراهته له.

فإن قلت: كيف يرضى لعبده شيئاً ولا يعينه عليه؟

قلت: لأن إعانته عليه قد تستلزم فوات محبوب له أعظم من حصول تلك الطاعة التي رضىها له، وقد يكون وقوع تلك الطاعة منه يتضمن مفسدة هي أكره إليه سبحانه من محبته لتلك الطاعة، بحيث يكون وقوعها منه مستلزماً لمفسدة راجحة ومفوتاً لمصلحة راجحة (٢٠).



وقد أشار تعالى إلى ذلك في قوله: (ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين). فأخبر سبحانه أنه كره انبعاثهم مع رسوله للغزو وهو طاعة وقربة وقد أمرهم به، فلما كرهه منهم ثبّطهم عنه، ثم ذكر سبحانه بعض المفاصد التي كانت ستترتب على خروجهم لو خرجوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: (لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا) أي فساداً وشرّاً (ولأوضعوا خلالكم) أي سعوا فيما بينكم بالفساد والشر (يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون) لهم أي قابلون منهم مستجيبون لهم، فيتولد من بين سعي هؤلاء بالفساد وقبول أولئك منهم من الشرّ ما هو أعظم من مصلحة خروجهم؛ فاقتضت الحكمة والرحمة أن منعهم من الخروج وأقعدهم عنه. فاجعل هذا المثال أصلاً لهذا الباب وقس عليه.

فإن قلت: قد يتصور لي هذا في رضا الرب تعالى لبعض ما يخلقه من وجه وكرهته من وجه آخر، فكيف لي بأن يجتمع الأمران في حقي بالنسبة إلى المعاصي والفسوق؟

قلت: وهو متصور ممكن بل واقع، فإن العبد يسخط ذلك ويبغضه ويكرهه من حيث هو فعل له بسببه وواقع بكسبه وإرادته واختياره، ويرضى بعلم الله وكتابته ومشيتته وإذنه الكوني فيه، فيرضى بها من الله ويسخط ما هو منه (٢١)، فهذا مسلك طائفة من أهل العرفان، (٢٢) وطائفة أخرى رأوا كراهة ذلك مطلقاً وعدم الرضا به من كل وجه. وهؤلاء في الحقيقة لا يخالفون أولئك، فإن العبد إذا كرهها مطلقاً؛ فإن الكراهة إنما تقع على الاعتبار المكروه منها، وهؤلاء لم يكرهوا علم الرب وكتابته ومشيتته وإلزامه حكمه



الكوني، وأولئك لم يرضوا بها من الوجه الذي سخطها الرب وأبغضها لأجله. وسرّ المسألة: أن الذي إلى الرب منها غير مكروه، والذي إلى العبد منها هو المكروه والمسخوط.

فإن قلت: ليس إلى العبد شيء منها.

قلت: هذا هو الجبر (٢٣) الباطل الذي لا يمكن صاحبه التخلص من هذا المقام الضيق. والقدري أقرب إلى التخلص منه من الجبري. وأهل السنة المتوسطون بين القدرية والجبرية هم أسعد بالتخلص منه من الفريقين.

فإن قلت: كيف يتأتى الندم والتوبة مع شهود الحكمة في التقدير، ومع شهود القيومية والمشية النافذة؟

قلت: هذا الذي أوقع من عميت بصيرته في شهود الأمر على خلاف ما هو عليه، فرأى تلك الأفعال طاعات لموافقته فيها المشية والقدر، وقال: إن عصيت أمره فقد أطعت إرادته في ذلك! وقيل:

أصبحتُ منفعلاً لما تختاره... مني ففعلي كله طاعات

وهؤلاء أعمى الخلق بصائر، وأجهلهم بالله وأحكامه الدينية والكونية، فإن الطاعة هي موافقة الأمر لا موافقة القدر والمشية، ولو كانت موافقة القدر طاعة لله لكان إبليس من أعظم المطيعين لله، وكان قوم نوح وعاد وشمود وقوم لوط وقوم فرعون كلهم مطيعين له! فيكون قد عذبهم أشدّ العذاب على طاعته، وانتقم منهم لأجلها، وهذا غاية الجهل بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله.

فإن قلت: ومع ذلك فاجمع لي بين الندم والتوبة وبين مشهد القيومية والحكمة.



قلت: العبد إذا شهد عجز نفسه ونفوذ الأقدار فيه وكمال فقره إلى ربه وعدم استغنائه عن عصمته وحفظه طرفة عين؛ كان بالله في هذه الحال لا بنفسه. فوقع الذنب منه لا يتأتى في هذه الحال البتة، فإنّ عليه حصناً حصيناً من: "فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطن، وبي يمشي". (٢٤) فلا يتصور منه الذنب في هذه الحال. فإذا حُجب عن هذا المشهد وسقط إلى وجوده الطبيعي وبقي بنفسه استولى عليه حكم النفس والطبع والهوى، وهذا الوجود الطبيعي قد نصبت فيه الشباك والأشراك وأرسلت عليه الصيادون، فلا بد أن يقع في شبكة من تلك الشباك وشرك من تلك الأشراك، وهذا الوجود هو حجاب بينه وبين ربه، فعند ذلك يقع الحجاب ويقوى المُقتضي ويضعف المانع وتشتد الظلمة وتضعف القوى، فأنت له بالخلاص من تلك الأشراك والشباك. فإذا انقشع ضباب ذلك الوجود الطبيعي وانجاب ظلامه وزال قتامه وصرت بربك ذاهباً عن نفسك وطبعك:

بدالك سرُّ طال عنك اكتتامُهُ ... ولاخ صباح كان منك ظلامُهُ

فإن غبت عنه حلّ فيه وطنبت ... على منكب الكشف المصون خيامُهُ

فأنت حجاب القلب عن سرِّ غيبه ... ولولاك لم يُطبع عليه ختامُهُ

وجاء حديث لا يُملُّ سماعُهُ ... شهِّي إلينا نثرُهُ ونظامُهُ

إذا ذكرتُهُ النفس زال عناؤها ... وزال عن القلب المعنى قتامُهُ (٢٥)

فهناك يحضره الندم والتوبة والإنابة، فإنه كان في المعصية بنفسه محجوباً فيها عن ربه وعن طاعته، فلما فارق ذلك الوجود وصار في وجود آخر بقي بربه لا بنفسه. وإذا عرف



هذا فالتوبة والندم يكونان في هذا الوجود الذي هو فيه بربه، وذلك لا ينافي مشهد الحكمة والقيومية، بل يجامعه ويستمد منه، وبالله التوفيق". (٢٦)

وهذه الأحرف من ابن القيم كافية شافية في هذا الباب الشائك والمعترك الصعب والميدان المزدهم، ومجملها - بحمد الله تعالى - معلوم لمن تدبر القرآن العظيم، وسَلِمَ من شبه المتفلسفة والمتكلمة والمتصوفة، والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

.....

١. وهذا المثال هو أوضح أمثلة مسألة خلق الشرّ.

٢. فوجود الطاعات الإيمانية الناشئة عن المجاهدة أحب إلى الله تعالى من عدم أصل الشرّ إبليس، وبهذا علمنا أن الله تعالى لا يخلق شرًّا محضًا، وأن الشر المحض الذي لا يترتب عليه خير معدوم في الخلائق، ولله الحكمة البالغة تبارك وتعالى.

٣. لعله يقصد أن المادة الملكية هي الطاعة المطلقة بلا عصيان لله تعالى، كما قال تعالى: (لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون) وهذه هي مادة كل خير على الحقيقة. ولو قال "من أشرف الذوات بعد الله تعالى" لكان حسنًا، تعظيمًا لجناب رب العالمين، وحسنًا للأدب معه تبارك وتعالى، كما أنه بذلك يخرج من الخلاف القائم في تشریف جبريل على محمد صلى الله عليه وسلم أو العكس أو تساويهما. والراجح تفضيل رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم على رسولنا الملكي جبرائيل عليه السلام، وهذا مذهب ابن القيم نفسه كما نص عليه. ومن شواهد الترجيح: أنه قد ارتفع وبلغ ليلة المعراج مدى لم يبلغه جبريل عليهما الصلاة والسلام، ورفعة الذات من دلائل تفضيل المعنى، كما أن الله تعالى قد اتخذه خليلاً، وغير ذلك من الفضائل الهائلة الجليلة. قال الناظم:

وأفضلُ الخلق على الإطلاق ... نبينا فمِلْ عن الشَّقاق

قال النووي رحمه الله في المنهاج (٣٧ / ١٥) في شرحه لحديث مسلم (٤٢٢٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أنا سيّد ولد آدم يوم القيامة..". الحديث. قال: "وهذا الحديث دليل



لتفضيله صلى الله عليه وسلم على الخلق كلهم، لأنّ مذهب أهل السنة أن آدميين أفضل من الملائكة، وهو صلى الله عليه وسلم أفضل آدميين وغيرهم". وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في مجموع الفتاوى (١ / ١٤٥): "وقد اتفق المسلمون على أنه صلى الله عليه وسلم أعظم الخلق جاهًا عند الله، لا جاه لمخلوق أعظم من جاهه، ولا شفاعة أعظم من شفاعته". وقد توارد أهل العلم على وصف النبي صلى الله عليه وسلم بأنه أفضل الخلق كالشافعي والنووي وابن تيمية وابن القيم وابن حجر وابن عاشور والسعدي والشنقيطي وابن باز وغيرهم كثير في المتقدمين والمحدثين. وبذلك أفتت اللجنة الدائمة للإفتاء فقالوا في فتاوى اللجنة (٣٥/٢٦): "جاء في نصوص كثيرة من الكتاب والسنة بيان عظم قدر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ورفعته مكانته عند ربه تعالى من خلال الفضائل الجليلة والخصائص الكريمة التي خصه الله بها، مما يدل على أنه أفضل الخلق وأكرمهم على الله وأعظمهم جاهًا عنده سبحانه... فما ذكر وغيره يتبين أن نبينا محمدًا صلى الله عليه وسلم هو أفضل الأنبياء، بل وأفضل الخلق، وأعظمهم منزلة عند الله تعالى، ولكن مع هذه الفضائل والخصائص العظيمة فإنه صلى الله عليه وسلم لا يرقى عن درجة البشرية، فلا يجوز دعاؤه والاستغاثة به من دون الله عز وجل، كما قال تعالى: (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا)، وباللغة التوفيق".

وقد رجح بعض أهل العلم تفضيل جبريل بناء على قولهم بتفضيل جنس الملائكة، والخلاف في المسألة قديم، وتوقف آخرون، ومن توقف العلامة العثيمين رحمه الله كما في لقاءات الباب المفتوح (١١/٥٣) بحجة أنه لم يرد نص أن النبي صلى الله عليه وسلم أفضل الخلق مطلقًا في كل شيء.

ومسألة التفضيل بين جنس الملائكة وصالحى البشر مشهورة، قال ابن القيم رحمه الله في الصواعق (٣ / ١٠٠٢): "إن الله سبحانه يخلق من المادة المفضولة ما هو أفضل من المخلوق من غيرها، وهذا من كمال قدرته سبحانه، ولهذا كان محمد وإبراهيم وموسى وعيسى ونوح والرسول عليهم الصلاة والسلام أفضل من الملائكة، ومذهب أهل السنة أن صالحى البشر أفضل من الملائكة، وإن كانت مادتهم نورًا، ومادة البشر ترابًا"، وقال ابن عثيمين رحمه الله في فتاوى نور على الدرب (٦/٨): "المفاضلة بين الملائكة وبين الصالحين من البشر محل خلاف بين أهل العلم.. والقول الراجح: إن الصالحين من البشر أفضل من الملائكة باعتبار النهاية، فإن الله سبحانه وتعالى يؤدّي لهم من الثواب ما لا يحصل مثله للملائكة فيما نعلم، بل إن الملائكة في مقرهم يدخلون عليهم من كل باب يهتئونهم: (سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار)، أما باعتبار البداية فإن الملائكة أفضل؛ لأنهم خلقوا من نور، وجبلوا على طاعة الله عز وجل والقوة عليها، كما قال الله تعالى في الملائكة ملائكة النار: (عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ



لَا يَعْبُودُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ)، وقال عز وجل: (وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ * يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ) هذا هو القول الفصل في هذه المسألة .

ولقد أحسن ابن أبي العز رحمة الله حينما ذكر ذلك النص بزيادة "من"، في نقله عن ابن القيم رحمه الله في شرحه للطحاوية - وقد شرح أكثر أبوابها من كتب ابن تيمية وابن القيم مع إبهام اسميهما حتى يروج علمهما في وقت كانت كتبهما تحرق وتُحارب، وهذا من فقهه ونصحه رحمه الله - فقال في (١ / ١٦٧): "من أشرف الذوات". ولعلها كانت في الأصل المخطوط لابن القيم فأسقط النسخ "من". والله أعلم. وقال د. الحوالي حفظه الله تعالى في شرحه للطحاوية (١ / ١٤٩٤ - ١٤٩٦): "فجبريل عليه السلام مادة كل خير من جهة أنه رسول الله تبارك وتعالى الملكي إلى رسله من البشر، ولهذا كان التمثيل بجبريل عليه السلام، ولم يكن التمثيل بمحمد صلى الله عليه وسلم؛ لأن جبريل هو الذي بلغ الوحي إلى محمد صلى الله عليه وسلم، وكذلك بلغه إلى موسى وإلى عيسى وإلى من قبله.

حتى إن ورقة بن نوفل لما جاءته خديجة وأخبرته بشأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "هذا هو الناموس الذي كان ينزل على موسى" ولهذا قال اليهود: إن عدوهم هو جبريل، قالوا: يا محمد من الذي ينتزل عليك بالوحي؟ قال: "جبريل عليه السلام" قالوا: ذاك عدونا من الملائكة. (حديث حسن، رواه أحمد (٢٥١٤) والنسائي (٩٠٢٤) وغيرهما.) - عياداً بالله - ولهذا قال الله تعالى فيهم في سورة البقرة: (مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ)، فهذا يدل على أن اليهود من جنس إبليس عياداً بالله، من نفس المادة - مادة الشر - بل الله تبارك وتعالى سمى اليهود شياطين، كما سمى الشيطان شيطاناً، قال تعالى: (وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ)، أي: إذا خلى المنافقون إلى اليهود قالوا: إنا معكم، فهم شياطينهم؛ لأن الشيطان يمد الإنسان بالشهوات والشبهات، واليهود أيضاً يمدون الإنسانية بالشهوات والشبهات، فانتشار القمار، والزنا، والربا في كل مكان وفي كل عصر على أيدي هؤلاء.

فكانوا يأتون إلى المنافقين ويقولون: نبيكم محمد فيه كذا وكذا؛ لأنهم يعتبرون أن عندهم علم من الكتاب وأولئك أميون، فالمنافقون إذا لقوا الذين آمنوا قالوا: آمنا، وإذا خلوا إلى اليهود، أي: (إلى شياطينهم) قالوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ).

فالغرض من ذلك هو دقة تعبير المصنف - رحمه الله تعالى - لما قال: "التي هي من أشرف الذوات" فلم يقل: "جبريل أشرف الذوات"، حتى لا يفهم أنه يقول: إن ذات جبريل أفضل من ذات محمد صلى الله عليه وسلم، لأن العلماء اختلفوا، هل هذا أفضل أو هذا أو هما سواء، وليس هذا مراد المصنف هنا، وإنما مراده أن يخرج من الخلاف.



يقول لك: إن أصل مادة الشر هو إبليس، وأصل مادة كل خير هو جبريل عَلَيْهِ السَّلَام؛ لأن ما جَاءَ إِلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الخير والرسالة هو عن طريق جبريل، وكذلك كل ما أتى جميع الأنبياء هو عن طريق جبريل عَلَيْهِ السَّلَام، قَالَ: "فتبارك خالق هذا وهذا"، فتبارك الله الذي خلق أصل كل شرّ وخلق أصل كل خير سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، هكذا اقتضت حكمة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

ثُمَّ يقول: "كما ظهرت قدرته في خلق الليل والنهار" كيف تكون حياتنا لو جعل الله علينا النهار سرمدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وكيف تكون حياتنا لو جعل الله علينا الليل سرمدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ؟ لا تصلح الحياة، لكن الله جعل الليل وجعل النهار، فاستقامت الحياة والمصالح، وانتظمت أمور العباد، وهذا دليل على حكمته تَبَارَكَ وَتَعَالَى في خلق هذين الضدين الدواء والداء. فلو كانت الدنيا كلها أدواء لما صلحت الحياة، ولو كانت كلها دواء، أو لا مرض فيها ولا داء، فإنها تفوت حكم عظمة، لكن حكمة الله عَزَّ وَجَلَّ أنها أدواء ومعها الدواء، ولذلك انتظمت مصالح ومعاش كثيرة لأناس كثيرين، فمرض هذا نفع لذلك، فإن كَانَ الذي مرض بالداء شريرًا، استراح الخلق من شره. وأما إذا كَانَ المريض طيبًا، فيستفيد الأطباء من ذلك، وأيضًا مساعدة هذا المريض والإحسان إليه يحصل بسبب ذلك الأجر من الله.

وكمثال آخر: أن الله يبتلي بعض عباده بالفقر مع أنه مكروه لذاته - فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يكره أن يفقر عبده الصالح - لكن هناك حكم كثيرة وراء ذلك، فيبتليه ليرفع درجته، وكذلك الإحسان إليه يكون سببًا في تحصيل الأجر من الله.

وهكذا أمور كثيرة نجد أن لها حكمًا عظيمة، يعجز العقل البشري عن حصرها، فتظهر بوجود هذه المتضادات المتقابلات، والله تَعَالَى هو العليم بكل شيء. قوله: "والحياة والموت"، وأيضًا الموت له حكم عظمة، فإما أن يموت شريح فيستريح الخلق من شره، كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مستريحٌ ومستراحٌ منه"، رواه البخاري (٦٥١٣) ومسلم (٩٥٠) فلو كَانَ فرعون وماركس وغيرهما - عيادًا بالله - أحياء لما وجد النَّاس راحة في حياتهم، فيكفي أن الأمم والشعوب عانت من شرهم مدة حياتهم، فلما ماتوا استراح النَّاس من شرهم.

وكذلك موت الأخيار أيضًا فيه حكمة. فأفضل خلق الله مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فله عَزَّ وَجَلَّ حكمة في موت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. ومنها: أنه بشر فلا يُعبد من دون الله ولا يؤلَّهُ، وليقوم النَّاس من بعده بالدين، وليعلموا أن مسؤولية هذا الدين عليهم. ولهذا أعلنتها الصديق رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ فَقَالَ: "من كَانَ يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كَانَ يعبد الله فإن الله حي لا يموت". وارتد من ارتد من العرب، وتبقى الصفوة المختارة



المؤمنة لتردّ النَّاسِ إِلَى الدين، وهذه حكمة عظيمة جدًّا، عرفنا بها أنّ ديننا من مسؤوليتنا وأن نشره يكون على أيدينا، فالله تَعَالَى لو شاء لجعل النَّاسِ أمة واحدة، لكن حكمة الله اقتضت أن نبذل الجهد، فكم خرج من المُسْلِمِينَ، وكم قتل منهم في معارك الفرس والروم، وكم فُتِحَ من البلاد، وأسلم بسبب ذلك أناس كثيرون. فكان في ذلك كثير من الحكم والمصالح، ومع ذلك فإن موته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مصيبة، فأعظم مصيبة حصلت في هذه الأمة فقده صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا تعدلها أي مصيبة على الإطلاق، ومع ذلك فيها حكمة بل حكم مما نعلم وما لا نعلم وهكذا".

أه. وعلى ذكر موت الأخيار فقد روى الذهبي رحمه الله تعالى في تاريخ الإسلام (٨٣١/٢) عن سعيد بن المسيّب رحمه الله تعالى قال: "عَرَضْتُ عائشة على أبيها رؤيا - وكان من أعبّر الناس - قالت: رأيت ثلاثة أقمار وقعن في حجرتي. فقال: إن صدقت رؤياك دُفِنَ في بيتك من خير أهل الأرض ثلاثة. فلما قُبِضَ النبي صلى الله عليه وسلم، قال: يا عائشة، هذا خير أقمارك". صلى الله عليه وآله وسلم.

٤. أسماء الله تعالى توقيفية، فلا يثبت منها شيء إلا بالدليل الصحيح من الكتاب والسنة. علمًا أن باب الإخبار عن الله تعالى أوسع من باب الأسماء والصفات، فإذا لم يثبت الاسم وكان معناه صحيحًا فيجوز حينها الإخبار به عن الله تعالى، وعلى ذلك فلا يُعَبَّدُ بهذا الاسم، فلا يقال: عبد النافع وعبد الضار ونحوهما لأن التسمية بهما لم تثبت، والمنع من التسمية بعبد النافع ونحوه لا لأنه يوهم نقصًا ولكن لأنه لم يثبت بالنصّ أنّه من الأسماء الحسنی، أما التسمي بعبد الضار فلا يجوز بحال، وفيه سوء أدب مع الله تعالى وسوء ظن به عز وجل.

وكذلك؛ فلمّا كان الإخبار عن الله تعالى بأنه الضار فإنه قد يوهم نقصًا، فقد نص أهل العلم على أنه لا يُذكر إلا مقرونًا بالإخبار عنه بأنه النافع، كما هو الحال في القابض الباسط والخافض الرافع والمعز المذل ونحوها.

وقال ابن تيمية رحمه الله تعالى في مجموع الفتاوى (١ / ٩٣) في تعليقه على حديث ابن عباس عند الترمذي (٢٥١٦) مرفوعًا: "واعلم أنّ الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء؛ لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك..."، الحديث. قال: "فهذا يدل على أنه لا ينفع في الحقيقة إلا الله ولا يضرك غيره". وقال شيخنا العلامة عبد الرحمن بن ناصر البراك حفظه الله تعالى: "الضار ليس من أسماء الله تعالى، بل من أسمائه التي ورد ذكرها في بعض الروايات "النافع الضار"، يعني الكلمتان اسم واحد، فهو سبحانه النافع الضار؛ لأنه سبحانه هو خالق كل شيء، خالق الخير والشر". أه. ضمن جواب لسؤال في موقع طريق الإسلام. وقصد بالاسم الواحد الأزواج والتقابل، فاسم الضار يكمله اسم النافع، واسم المانع يكمله اسم



المعطي وهكذا، وهذا في الإخبار عن أفعاله تعالى، ويستقيم كذلك عند من صحّحوا الحديث في سرد الأسماء- .
وبنحوه قال شيخنا العثيمين كذلك في لقاءات الباب المفتوح، اللقاء رقم: (٦).

قلت: والحديث الذي عدّ النافع والضار من أسماء الله الحسنى رواه أبو هريرة رضي الله عنه وأخرجه الترمذي (٣٥٠٧) وضعفه الألباني وآخرون من جهة رفع الأسماء الحسنى المسرودة. وقد ذهب جماعة من الحفاظ كابن كثير وابن حجر إلى أن سرد الأسماء الحسنى فيه مدرج في الحديث.

وقد ذكر ابن القيم رحمه الله تعالى تأصيلاً نافعاً في هذا الباب فقال في بدائع الفوائد (١ / ١٧٧): "أسماء الله تعالى منها ما يطلق عليه مفرداً ومقترناً بغيره، وهو غالب الأسماء، كالقدير والسميع والبصير والعزير والحكيم، وهذا يسوغ أن يُدعى به مفرداً ومقترناً بغيره، فتقول: يا عزيز، يا حليم، يا غفور، يا رحيم. وأن يفرد كل اسم. وكذلك في الثناء عليه والخبر عنه بما يسوغ لك الأفراد والجمع.

ومنها ما لا يطلق عليه بمفرده، بل مقرونًا بمقابله كالمانع والضار والمنتقم، فلا يجوز أن يفرد هذا عن مقابله، فإنه مقرون بالمعطي والنافع والعفو، فهو المعطي المانع الضار النافع المنتقم العفو المذل، لأن الكمال في اقتران كل اسم من هذه بما يقابله؛ لأنه يراد به أنه المنفرد بالربوبية وتدبير الخلق والتصرف فيهم عطاءً ومنعاً ونفعاً وضراً وعفوًا وانتقامًا.

وأما أن يُثنى عليه بمجرد المنع والانتقام والإضرار فلا يسوغ، فهذه الأسماء المزدوجة تجري الأسماء منها مجرى الاسم الواحد الذي يمتنع فصل حروفه عن بعض، فهي وإن تعددت جارية مجرى الاسم الواحد، ولذلك لم تجيء مفردة، ولم تطلق عليه إلا مقترنة، فاعلمه. فلو قلت: يا مذلّ يا ضارّ يا مانع، وأخبرت بذلك؛ لم تكن مثنيًا عليه ولا حامدًا له حتى تذكر مقابلهما".

٥. مسلم ٩٤/٨ (٢٧٤٩) (١١)

٦. لا يخلو مؤمن من الحاجة للاستغفار على الدوام، وسيّدُ المستغفرين صلى الله عليهم وسلم كان دائم الاستغفار، وهو من قد عُفِر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. وفي المسند (٤٧٢٦) بسند على شرط الشيخين عن ابن عمر رضي الله عنهما: "إن كنا لنعدُّ لرسول الله صلى الله عليه وسلم في المجلس يقول: "رب اغفر لي وتب علي، إنك أنت التواب الغفور" مئة مرة. فالاستغفار مرهم للروح، وتنظيف للصحيفة، وحفظ للعهد مع الله تعالى. فلكل مؤمن فاقة وحاجة دائمة للاستغفار والتوبة، لأنه لا يخلو من تقصير في واجب أو زلة لمحرّم.



وكثير من الناس يتحرّز من كبائر ذنوب الجوارح ويغفل عن كبائر ذنوب القلب، كالكبر والحسد ونحو ذلك، والله تعالى يقول: (وذروا ظاهر الإثم وباطنه)، والله المستعان.

٧. الأكياس جمع كيّس، والكيّس: هو العقل والحزم.

٨. أي مخالفة الشيطان لمتابعة رضا الرحمن.

٩. القوّة: أي الغريزة أو الصفة الخلقية، وهي كامنة في معدن المكلف، واستخراجها هو الفعل، فهي لا تكفي للثواب أو المؤاخذة ما لم تخرج إلى الفعل قولاً أو عملاً أو نيّة. فأصل وجودها هو القوّة، وحركتها هو الفعل.

والمقصود؛ أن غريزة الشر كانت موجودة في نفوسهم، فكان الشيطان سبباً لأن تتحرك هذه الغريزة الشريرة فتستيقظ من سباتها وتتحرك من سكونها بمباشرة أسباب شرها فتظهر على القلب واللسان والجوارح بعدما كانت مجرد غريزة كامنة ساكنة، وكذلك الحال في ضد ذلك من الخير ونُقلته من السكون والكمون إلى الحركة من الاعتقاد الحسن والقول الكريم والفعل الجميل.

١٠. فعلم الله شامل للماضي والحاضر والمستقبل، فإذا وقع الأمر في الحاضر صار مُصدّقاً لعلمه

الماضي، كما أن ما أخبر به في الماضي عن المستقبل يصدقه ما يحدث في الحاضر. فعلمه محيط بكل شيء، بما كان وما يكون وما سيكون وما لم يكن لو كان كيف يكون، لا تخفى عليه خافية، تبارك وتعالى وتقدّس، وقد أحسنَ حملة العرش ومن حوله إذ قالوا: (ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً).

١١. الملزوم هو النتيجة، واللازم هو الوسيلة.

١٢. وتأمل هذه الأحرف النفيسة، فإن فيها كشفٌ لكثير من مشكلات العضلات، وثلج يقين

بيدّد تساؤلات النفوس، وضياء علمٍ لظلام حيرتها في قضايا القدر والحكم والتعليل والخير والشرّ، وقد بسط ابن القيم ذلك وشفى وكفى في سفره الماتع "شفاء العليل".

١٣. أي العلم الذي يدفع الجهل، أما إلهام الخير فهو إرادته والعزم الجازم لتحصيله.

١٤. وهذا من الأدب مع الله تعالى، وهذا شأن العلماء الربانيين الراسخين، ومنه قوله تعالى على

لسان الجن: (وأنا لا ندرى أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً)، فأسند الخير إلى الله، وأبهم إرادة الشر، وتدبر فاتحة الكتاب: (صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين)، حيث أسند النعمة إليه



مباشرة بخلاف غيرها، وتأمل الأدب الإبراهيمي مع ربنا سبحانه في قول الله تعالى: (الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ) فنسب الهداية والإطعام لله، ولم ينسب المرض أدباً وإجلالاً وتوقيراً.

١٥. معنى كلام المصنف رحمه الله أن خلق إبليس - وغيره من الكفرة - ليس شرّاً في الأصل، لكن لما قطع عنه المدد الإلهي يلهام الخير تحرك بطبعه للشر، ومن هنا نُسب الشر له ولطبعه الشرير، لأن قطع مادة الخير عنه عدمٌ لا وجود له، والعدم ليس بشيء، وهو غير موجود أصلاً؛ فلا يُنسب للرحمن، مع أن إرادته وفعله وحركته ومعصيته كلها داخله في خلق الله تعالى وكتابته ومشيبته وتقديره وحكمته وعلمه. هذا من جهة شره هو، أما من جهة خلق الله تعالى له وقطع مادة الخير عنه وجعله سبباً للمعاصي فهو خير بالنسبة لفعل الله وحكمته لما أفضى ذلك لحكم كبيرة كثيرة، والله أعلم.

١٦. أي أننا إذا نظرنا للشر المعين كالمعصية مثلاً كشرب الخمر أو قتل النفس المعصومة ونحو ذلك فينبغي أن يكون لنظرنا جهتان: الأولى: من جهة أن هذا الأمر مقدر بقدر الله فهو خير، فالله لا يُقدر إلا للحكمة إلهية ربانية فلله تعالى فيه حكمة، سواء علمناها أو لم نعلمها. والثانية: من جهة أن العبد عصى الله تعالى وانتهك حرمة وخالف أمره فهو شر. وبالجملة فأقدار الله خير، ومعاصي العبيد شر.

١٧. أي حلى الله بينه وبين الشر إذ لم يمدّه بالخير ويوفقه له.

١٨. التفاوت: هو التباين وعدم التناسب. ومقصود المصنف رحمه الله أن الحكمة أنها تكون في تناسب الاختلاف، وليس اتحاد الموجودات على نمط واحد مكرور، فمخلوقات الله تعالى متناسبة متسقة، واختلافها فيما بينها هو عين الحكمة؛ ليحصل التدافع والتمايز والتكامل والانفعال فيما بينها ونحو ذلك، فكل خلق الله تعالى تام كامل لا قصور فيه ولا نقص في أصل الخلقة، وهذا هو الإيجاد، أما تفاوتها فيما بينها ما بين كمال ونقص فهو عائد إلى عدم إمداده بالتوفيق، وهذا العدم عدم، والعدم ليس بشيء، ولا ينسب لأحد، لأنه عدمٌ لا وجود.

١٩. وهذا من لباقة الخليل بن أحمد وحسن خلقه ولطف تأتبه ولودعية قريحته. مع التنبيه إلى أن الأصمعي رحمه الله تعالى إمام في علوم منها اللسان والأدب والشعر، ولكن شأن تيسير بعض العلوم لأنواع العقول مدهش عجيب، وسبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم. وقد ذكروا أن أبا سعيد الضرير قال لأبي تمام: يا أبا تمام، لم لا تقول ما يفهم؟ فقال له: يا أبا سعيد، لم لا تفهم ما يُقال؟ وقد نظم المتنبي نحو هذا المعنى فقال:



وكم من عائبٍ قولاً صحيحاً ... وآفته من الفهم السقيم

ولكن تأخذ الآذان منه ... على قدر القرائح والعلوم

٢٠. ذكر ابن الجوزي رحمه الله أن رجلاً من الصالحين كان يلحّ على الله تعالى زمناً أن يجعله غازياً في سبيله، ولا يرى إجابة! فبات ليلة مهموماً وأتاه آتٍ في منامه وقال له: "أي فلان؛ إنك إن غزوت أُسرت، وإن أُسرت تنصّرت!". أه. صيد الخاطر (١٧١/١) وفي موسوعة ابن أبي الدنيا (٤٣٣ / ١) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: "إنَّ الرجل لِيُشرف على الأمر من التجارة أو الإمارة، حتى يرى أنه قد قَدَرَ عليه، ذكره الله فوق سبع سموات، فيقول للملك: "اذهب فاصرف عن عبدي هذا، فإني إن أُسِرَّه له أدخله جهنم"، فيجيءُ الملك فيعوقه فيُصرف عنه، فيظَلُّ يتطَيَّر بجيرانه إنَّه دهاني فلان، سبقتني فلان، وما صرَفَه عنه إلا الله". وقال الفضيل بن عياض رحمه الله: "استخيرا والله ولا تخيِّروا عليه، فكم من عبد تخيَّر لنفسه أمراً كان هلاكه فيه! أما رأيتموه سأل ربّه طَرَسُوسَ، فأعطِيها فأَسِرَ فصار نَصْرانِيًّا". ذكره في عيون الأخبار (٧٣١ / ٢). وطرَسوس: بلد بين أنطاكية وحلب وبلاد الروم، وكان المجاهدون والزهاد والصالحون يقصدونه للمرابطة في سبيل الله تعالى لأنه من ثغور المسلمين.

ورُبَّ مُلِحِّ على بُغِيَّةٍ ... وفيها مَنِيَّتُهُ لو شَعَرَ

فالله أرحم بعبده وأعلم وأحكم وألطف وأرفق سبحانه وبحمده. وفي مسألة الإجابة ثمّ مسألة غاية في الأهمية: وهي أن إجابة الدعاء غير تحقيق الطلب وتحقيق عين السؤال. فالله وكيل على عبده وليس وكيلاً عنه، وبينهما فرق، فالوكيل عنك هو من يتفد طلبك كما طلبته، أما الوكيل عليك فهو القائم عليك بما يُصلحك، فإن طلبته وسألته نظر لمصلحتك أولاً، قال تعالى: (والله على كل شيء وكيل) وقال تعالى: (والله يعلم وأنتم لا تعلمون). بل تدبر قوله تعالى في المصيبة: (قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا)، فقال: (لنا) ولم يقل: (علينا) لأن مصائب الدنيا في حقيقتها نعم لنا لا علينا لو كنا نعقل، والله المستعان.

٢١. أي من نفس العبد.

٢٢. أي أهل المعرفة ممن اهتموا باستقامة السلوك وشفاء النفوس، واعتنوا كثيراً بأعمال القلوب

حتى عرفوا بذلك.



٢٣. الجبري: هو الذي يزعم أن العبد لا اختيار له البتة في أفعاله وأقواله وإراداته، بل هو كالريشة في مهب الريح، وعلى هذا المذهب الباطل فالعبد عندهم غير مؤاخذ؛ لأنه في النهاية ليس بفعله على الحقيقة. ويقابله القدري: وهو الذي يزعم أن العبد يخلق فعل نفسه، فيضع نفسه خالقاً مع الله - تعالى الله وتقدس - لذلك وُصفوا بأنهم مجوس الأمة؛ لقولهم بالخالقين.

وكلاهما مذهب خبيث باطل، والحق أن الله خالق كل شيء، وأنه لا شيء يخرج عن قدر الله تعالى، وأن الله تعالى قد أعطى العبد قُدرة ومشيئة واختياراً يحسّه من نفسه ويطبقه بقدرته ويفهمه بعقله، وهذا الاختيار الإرادي للعبد كافٍ وافٍ لأن يحاسبه ربه به على أفعاله وأعماله ومقاصده حسنة كانت أو سيئة، وهو لا يخرج بحال عن قدر الله تعالى. قال سبحانه: (لمن شاء منكم أن يستقيم . وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين).

٢٤. حديث الولي: "من عادى لي ولياً.. الحديث. رواه البخاري (٦٥٠٢) أما زيادة: "فبي يسمع.. الحديث. فليست في البخاري، وقد ذكرها الحافظ في الفتح (١١ / ٣٤٤) نقلاً عن الطوفي، ولم يعزها لأحد. وقد ذكر ابن تيمية رحمه الله الحديث بزيادته في الفتاوى (١٨ / ١٢٩ - ١٣١) ولعله وهم في الزيادة أو أنه قد وقف على رواية أخرى، ثم قال: "هذا حديث شريف، وهو أشرف حديث روي في صفة الأولياء".

٢٥. الأبيات لأبي حامد الغزالي رحمه الله، وقيل إنها للحلاج وقيل غيرهما، وقد نسبها العماد الأصبهاني في خريدة القصر وجريدة العصر (٢ / ٤٣٦) للقاضي المرتضى الشهرزوري. ومقصود الأبيات أنه مع العلم النافع الذي يصفّي النفس من كدر الدنيا ومتعلقاتها وشهواتها وشبهاتها؛ تنكشف للقلب معانٍ جميلة من الأنس بالله تعالى والشوق إليه والتعلق به والاكتفاء به عما سواه، وأشرقت في نواحي نفسه وجوانح قلبه تلك المعاني الطاهرة الجميلة النافعة.

٢٦. مدارج السالكين (٢ / ١٩١ - ٢٠٤) باختصار.



هل كل القضاء خير للمؤمن؟

أقضية الله تعالى كلها حكمة، وكلها خير من جهة الله تعالى، والله لا يخلق شرًا محضًا (١)، أما من جهة العبد فكلها خير إلا ما كان معصيةً لله تعالى إلا إن أفضت في ثاني الحال لمصالح في دينه كالتوبة والإنابة والانكسار والاستغفار وكسر العجب وإكثار الحسنات الماحية ونحو ذلك (٢)، وقد وصل الحال ببعضهم إلى دهاليز جهلٍ وضلال لا تخطر على بال موحد، ومن ذلك ما ذكره ابن القيم رحمه الله فقال واصفًا بعض أحوالهم الشنيعة، التي تنبو عنها فطر المؤمنين، وتستقدرها نفوس الشرفاء الحنفاء: "صعد رجل يومًا على سطح دار له فأشرف على غلام له يفجر بجاريتته، فنزل وأخذهما ليعاقبهما، فقال الغلام: إن القضاء والقدر لم يدعانا حتى فعلنا ذلك! فقال: لعلكم بالقضاء والقدر أحب إلي من كل شيء، أنت حر لوجه الله!

ورأى آخر يفجر بامرأته؛ فبادر ليأخذه فهرب، فأقبل يضرب المرأة وهي تقول: القضاء والقدر! فقال: يا عدوة الله؛ أترنين، وتعتذرين بمثل هذا؟ فقالت: أو تركت السنة وأخذت بمذهب ابن عباس؟! فتنبه ورمى بالسوط من يده، واعتذر إليها وقال: لولاك لضللت! ورأى آخر رجلًا آخر يفجر بامرأته، فقال: ما هذا؟ فقالت: هذا قضاء الله وقدره. فقال: الخيرة فيما قضى الله!

وجرى عند بعض هؤلاء ذكر إبليس وإبائه وامتناعه من السجود لآدم، فأخذ الجماعة يلعنونه ويذمونونه، فقال: إلى متى هذا اللوم، ولو خلي لسجد، ولكن منع. وأخذ يقيم عذره.



فقال بعض الحاضرين: تباً لك سائر اليوم؛ أتذب عن الشيطان وتلوم الرحمن؟! قال شيخ الإسلام ابن تيمية في تائيته:

ويُدعى خصوم الله يوم معادهم ... إلى النار طراً معشر القدرية

سواء نفوه، أو سعوا ليخاصموا ... به الله، أو ماروا به للشريعة

وسمعه يقول: القدرية المذمومون في السنة على لسان السلف هم هؤلاء الفرق الثلاث: نقاته، وهم القدرية المجوسية، والمعارضون به للشريعة، الذين قالوا: (لو شاء الله ما أشركنا)، وهم القدرية المشركية، والمخاصمون به الرب سبحانه، وهم أعداء الله وخصومه، وهم القدرية الإبليسية، وشيخهم إبليس، وهو أول من احتج على الله بالقدر، فقال: (بها أغويتني)، ولم يعترف بالذنب ويبوء به كما اعترف به آدم. فمن أقر بالذنب وباء به ونزه ربه فقد أشبه أباه آدم، ومن أشبه أباه فما ظلم، ومن برأ نفسه واحتج على ربه بالقدر فقد أشبه إبليس " (٣).

فالمعصية في ذاتها شرٌّ، ولكن قد يترتب على ارتكابها حسنات أكبر منها، وتأمل حال أبينا آدم عليه السلام فقد كان حاله بعد التوبة من الخطيئة أفضل من حاله قبل الخطيئة وذلك لأن حسنة التوبة وما بعدها قد رجحت على الخطيئة. وكما قال الحسن رحمه الله: "إن العبد ليعمل الحسنة فيدخل بها النار، وإن العبد ليعمل السيئة فيدخل بها الجنة؛ وذلك أنه يعمل الحسنة فتكون نصب عينه ويعجب بها، ويعمل السيئة فتكون نصب عينه فيستغفر الله ويتوب إليه منها".



وعلى ذلك؛ فقضاء الله لعبده كله خير من جهة الله تعالى، وكلها خير من جهة أفضيته الشرعية، وكله خير من جهة أفضيته الكونية القدرية إن أفضى بالعبد إلى خير، أما إن أفضى لشر؛ فشره من ذات العبد لا من جهة فعل ربه، لأنه الله تعالى إنما قطع عنه مدد توفيقه ووكله إلى نفسه الظالمة الجاهلة. والله تعالى محموداً في كل أفضيته وأقداره، فهي من جهته تبارك وتعالى خير موافق لحكمه سبحانه، والشر ليس إلى الله تعالى. أما من جهة العبد؛ فالعاقبة الحسنة هي ميزان الخيرية له. بيان ذلك: أن قضاء الله تعالى قسمين:

الأول: قضاء شرعيٍّ أمرِّي، وهي الأوامر والنواهي التي جاءت بها الشريعة ونطق بها الوحي؛ فهذا خير كله، وأمره واضح.

الثاني: قضاء كونيٍّ قدرِّي، وهي ما تسمى بالأقدار، حسنة كانت أو غير ذلك، فالعبرة في خيريتها ليست في ملذوذ النفوس ومستراح الأرواح منها، بل العبرة بحقيقتها في ذاتها - أوّلاً - من حيث أنها محبوبة لله تعالى، ومن أمثلتها: طاعات العبد لربه، فهي جارية على القدر وموافقة للشرع؛ فهذا خير محض، فهي نعمة في حقيقتها.

ثم العبرة - ثانياً - بما أفضت إليه وآلت، فقد يبارك الله تعالى في النعمة فيثبتها لعبده ويزيدها له ويتقبلها منه فتكون نعمة مفضية إلى نعمة أخرى؛ فهذا خير محض أيضاً. أما إن أفضت لعجب أو كبر أو تعاضم أو تألّ على الله تعالى أو رؤية العمل أو الإضرار بالناس، أو لحقها محبط من محبطات الأعمال، أو كانت عاقبتها ومآلها مكروهة لله تعالى، فهذه ليست بخير غائيٍّ، أي ليست بخير من جهة غايتها وعاقبتها. هذا في جانب الأفضية المسماة بالنعمة الدينية.



أما النعم الدنيوية: كالمال أو المنصب أو القوة في الجسد أو برّ الولد به أو التوفيق لزوج صالحٍ ومسكن واسعٍ ومركب هنيئٍ ونحو ذلك؛ فهذه لا يحكم بخيريتها في ذاتها - وإن كانت نعمة من الله تستحق الشكر له ويستحق عليها الحمد - وإنما يحكم بخيرتها بحسب ما آلت إليه؛ فإن أفضت إلى شكرٍ وأعانت على طاعة فهي خير، أما إن آلت لطغيانٍ ومعصيةٍ وركونٍ للدنيا ونسيانٍ الآخرة واستغناءً عن المغني سبحانه؛ فهي ليست بخير في عاقبتها.

وكذلك الحال في مصائب الدين والدنيا، فإن أفضت مصيبة الدين - كعجز عن القيام بالعبادة كالصيام أو صلاة الجماعة أو تلاوة القرآن ونحو ذلك - إلى طاعة كزيادة في العبادة أو إحسانٍ لما استطاع منها أو عوّض نقصها بذكرٍ ودعاءٍ وانكسارٍ لله وافتقارٍ وتعلقٍ ونحو ذلك فهي خير، أما إن أفضت لجزعٍ وتسخطٍ أو قنوطٍ أو فتورٍ عن الذكر والعبادة ونحو ذلك فهي ليست كذلك - من جهة العبد لا جهة الرب -.

وإن أفضت مصيبة الدنيا؛ كموت حبيبٍ أو جائحة في المال أو مرض في البدن أو ظلم من الناس له ونحو ذلك؛ فإن أفضت لخيرٍ كصبرٍ وتسليمٍ وتفويضٍ وتوكلٍ ورضاً وشكرٍ وحمدٍ ومزيدٍ عبادةٍ وذكرٍ وإنابةٍ وتوبةٍ فهي خير، والله تعالى يقول: { وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون }.

قَدْ يُنْعِمُ اللَّهُ بِالْبَلَوَى وَإِنْ عَظُمَتْ ... وَيَيْتَلِي اللَّهُ بَعْضَ الْقَوْمِ بِالنَّعْمِ

أما إن أفضت المصيبة لجزعٍ وتسخطٍ وتلوّمٍ وتركٍ عبادةٍ ونحو هذا من أمور يكرهها الله تعالى فهي ليست كذلك - كما سبق.



وبالجملة؛ فأمر المؤمن كله خير، لأن باستطاعته توجيه أموره كلها لأن تكون خيرًا له، وذلك بتوجيهها على ضوء الشرع ونور الوحي وطاعة الحي القيوم تبارك وتعالى والدوران بها مع أمر الله، فهنا نقول: إن أمره كله خير -بلا مثوية- لأنها تفضي به لساحل إرضاء المولى عز وجل الذي كل أسائه وصفاته وأفعاله خير.

واختيار الله تعالى لعبده خير من اختيار العبد لنفسه الظالمة الجاهلة. والنعمُ والمصائب كلاهما خير للمؤمن؛ فعن أبي يحيى صهيب بن سنان رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن: إن أصابته سراءٌ شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراءٌ صبر فكان خيرًا له". (٤) وأكثر النعم مستورة بخمار جهلنا بها، حتى إذا فقدناها رأيناها، كما قال الكاساني رحمه الله: "النعمُ مجهولة، فإذا فُقدت عُرفت".

قال ابن تيمية رحمه الله: "أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن كل قضاء يقضيه الله للمؤمن الذي يصبر على البلاء ويشكر على السراء فهو خير له. قال تعالى: { إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور }، وذكرهما في أربعة مواضع من كتابه. فأما من لا يصبر على البلاء ولا يشكر على الرخاء فلا يلزم أن يكون القضاء خيرًا له. ولهذا أجيب من أورد هذا على ما يُقضى على المؤمن من المعاصي بجوابين:

أحدهما: أن هذا إنما يتناول ما أصاب العبد، لا ما فعله العبد، كما في قوله تعالى: { ما أصابك من حسنة فمن الله } أي من سراء { وما أصابك من سيئة فمن نفسك } أي من ضراء. وكقوله تعالى: { وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون } أي بالسراء والضراء، كما قال تعالى: { ونبلوكم بالشر والخير فتنة } وقال تعالى: { إن تمسكم حسنة



تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها { فالحسنات والسيئات يراد بها المسارّ والمضارّ، ويراد بها الطاعات والمعاصي.

والجواب الثاني: أن هذا في حق المؤمن الصبّار الشكور. والذنوب تنقص الإيمان، فإذا تاب العبد أحبه الله، وقد ترتفع درجته بالتوبة. قال بعض السلف: كان داود بعد التوبة خيراً منه قبل الخطيئة (٥). فمن قُضي له بالتوبة كان كما قال سعيد بن جبير (٦): إن العبد ليعمل الحسنة فيدخل بها النار، وإن العبد ليعمل السيئة فيدخل بها الجنة؛ وذلك أنه يعمل الحسنة فتكون نصب عينه ويعجب بها، ويعمل السيئة فتكون نصب عينه فيستغفر الله ويتوب إليه منها.

وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "الأعمال بالخواتيم" (٧). والمؤمن إذا فعل سيئة فإن عقوبتها تندفع عنه بعشرة أسباب:

أن يتوب فيتوب الله عليه، فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له. أو يستغفر فيغفر له، أو يعمل حسنات تمحوها، فإن الحسنات يذهبن السيئات. أو يدعو له إخوانه المؤمنون ويستغفرون له حياً وميتاً. أو يهدون له من ثواب أعمالهم ما ينفعه الله به، أو يشفع فيه نبيه محمد صلى الله عليه وسلم (٨). أو يتبّله الله تعالى في الدنيا بمصائب تكفر عنه، أو يتبّليه في البرزخ بالصعقة (٩) فيكفر بها عنه. أو يتبّليه في عرصات القيامة من أهوالها بما يكفر عنه. أو يرحمه أرحم الراحمين (١٠). فمن أخطأته هذه العشرة فلا يلومن إلا نفسه كما قال تعالى فيما يروي عنه رسوله صلى الله عليه وسلم: "يا عبادي؛ إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إيّاها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه" (١١).



فإذا كان المؤمن يعلم أن القضاء خير له إذا كان صَبَّارًا شَكُورًا، أو كان قد استخار الله وعلم أن من سعادة ابن آدم استخارته لله ورضاه بما قسم الله له؛ كان قد رضي بما هو خير له. وفي الحديث الصحيح عن علي رضي الله عنه قال: "إن الله يقضي بالقضاء، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط". ففي هذا الحديث الرضا والاستخارة، فالرضا بعد القضاء والاستخارة قبل القضاء، وهذا أكمل من الضراء والصبر، فلهذا ذكر في ذاك الرضا وفي هذا الصبر.

ثم إذا كان القضاء مع الصبر خيرًا له؛ فكيف مع الرضا؟! ولهذا جاء في الحديث: "المصاب من حرم الثواب" في الأثر الذي رواه الشافعي في مسنده: أن النبي صلى الله عليه وسلم لما مات سمعوا قائلًا يقول: "يا آل بيت رسول الله؛ إن في الله عزاءً من كل مصيبة، وخلفًا من كل هالك، ودركًا من كل فائت. فبالله فثقوا، وإياه فارجوا، فإن المصاب من حرم الثواب". ولهذا لم يُؤمر بالحزن المنافي للرضا قط، مع أنه لا فائدة فيه، فقد يكون فيه مضرّة، لكنه عُفي عنه إذا لم يقترن به ما يكرهه الله.

وقد ظن طائفة من المصنفين في هذا الباب أن الرضا عن الله من توابع المحبة له، وهذا إنما يتوجه على المأخذ الأول وهو: الرضا عنه لاستحقاقه ذلك بنفسه، مع قطع العبد النظر عن حظّه، بخلاف المأخذ الثاني وهو: الرضا لعلمه بأن المقضيّ خير له.

ثم إن المحبة متعلقة به، والرضا متعلق بقضائه، لكن قد يقال: إن المحبة لله نوعان: محبة له نفسه، ومحبة له لما فيه من الإحسان. وكذلك الحمد له نوعان: حمدٌ له على ما يستحقه نفسه، وحمد على إحسانه إلى عبده. فالنوعان للرضا كالنوعين للمحبة.



وأما الرضا به وبدينه وبرسوله فذلك من حظ المحبة، ولهذا ذكر النبي صلى الله عليه وسلم ذوق طعم الإيمان كما ذكر في المحبة وجود حلاوة الإيمان، وهذان الحديثان الصحيحان هما أصلٌ فيما يُذكر من الوجد والذوق الإيماني الشرعي دون الضلالي البدعي، ففي صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد نبيًّا" (١٢). وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "ثلاثٌ من كنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان؛ أن يكون اللهُ ورسولُهُ أحبَّ إليه مما سواهما، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله، ومن كان يكره أن يرجع إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يُلقى في النار" (١٣). (١٤)

وبالجملة؛ فكلُّ قضاءٍ الله خيرٌ للمؤمن المُسَدِّد، فمن جهة أنه قضاء الله وفعله فهو خير، ومن جهة ما يترتب عليه ويفضي به إلى مرضي الله تعالى من الصبر والرضا والشكر والحمد عند البلاء والتوبة والإنابة من الذنوب ونحو ذلك فهو خير أيضًا، فكل قضاء الله خير. وبالله التوفيق.

.....

١. ومن هنا بطلت نسبة الشر إليه سبحانه، فالشر ليس إليه، لأن الشر المطلق غير موجود في مخلوقاته، فما من شر إلا فيه خير إما في ذاته أو بما يفضي إليه من حكم غائية خيرية.

وقال شيخنا عبد الرحمن بن ناصر البراك حفظه الله تعالى: "الأشياء المخلوقة فيها خير وشر، والله خالق الخير والشر، أما فعل الرب سبحانه: حكمه وقضاؤه وتقديره؛ فكله خير، ليس فيه شر، والشر لا يضاف إلى الله اسمًا، ولا صفةً ولا فعلاً، فالشر لا يكون في أسمائه فكلها حسنى، ولا في صفاته فكلها صفات كمال وحمد، ولا في أفعاله فكلها أفعال عدل وحكمة، وإنما يكون في مفعولاته، أي: مخلوقاته، وهذا ما فُسر به قول النبي صلى الله عليه وسلم: "والشر ليس إليك".



فإنه تعالى لا يخلق شرًا محضًا؛ بل كل الشر الذي في المخلوقات شرّ نسبيّ ليس شرًّا محضًا، وهذا يرجع إلى الإيثار بحكمته سبحانه وتعالى، وأنه حكيم، ما خلق شيئًا عبثًا، لم يخلق شيئًا إلا لمصالحٍ وحكمٍ يعلمها سبحانه، وليس من شرط ذلك أن تكون عائدة للعبد، بل قد يكون فيها شر لبعض الناس، وهو شر جزئي إضافي، فأما شر كلي، أو شر مطلق؛ فالله تعالى منزّه عنه". شرح العقيدة الطحاوية (٢٤٧)

فالمعصية في ذاتها شرّ كلها، ورجس كلها إلا ما أفضت بصاحبها لأمر محمود شرعًا، والمقصود أن الخير قد يلحق بها إن وفق الله مجتريها لتوبة نصوح، فهنا سرّ المسألة ومقصودها، وليس في هذا تزيين لها أو تسهيل أو تصغير.

٢. ولقد استجرى الشيطان فتانًا من الناس فظنوا أن الإيثار بالقدر يستلزم الرضا بالمعاصي، وهذا ضلال مبين. فلا يجوز الرضا بما يُسخط الله تعالى وينهى عنه إلا من جهة ما يفضي به للعبد لأمرٍ صالحة وأحوال فاضلة - إن كانت - كالتوبة وتوابعها، ومن جهة الشرع لأحكام عادلة أو مراحم إلهية. وقد سأل ابن القيم شيخه رحمهما الله تعالى عن حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: "والذي نفسي بيده لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيرًا له، وليس ذلك إلا للمؤمن". رواه مسلم (٢٩٩٩) قال: "فسألت شيخنا -أي ابن تيمية رحمه الله- هل يدخل في ذلك قضاء الذنب؟ فقال: نعم بشرطه. فأجمل في لفظة بشرطه ما يترتب على الذنب من الآثار المحبوبة لله من التوبة والانكسار والندم والخضوع والذل والبكاء وغير ذلك". الفوائد (١ / ٩٤)

٣. طريق المهجرتين (١/١٥٣ - ١٥٧) باختصار.

٤. مسلم ٢٢٧/٨ (٢٩٩٩)

٥. وكذلك آدم عليه السلام، فحاله ودرجته بعد توبته أفضل منهما قبل خطيئته.

٦. وجاءت كذلك عن الحسن البصري رحمه الله تعالى.

٧. البخاري (٦٤٩٣) و (٦٦٠٧) ومسلم (١/٧٤ و ٨/٤٩)

٨. كذلك غيره صلى الله عليه وسلم من الشفعاء كالشهداء والأفراط والأصحاب والملائكة وغيرهم مما

جاءت به السنة.



٩. لعله قصد عذاب القبر في الجملة، أو أنها مصحّفة عن ضغطة - أي ضغطة القبر -، لأن الصعقة هي نفخة الصور.

١٠. كما جاء في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه وغيره في خبر الجهنّمين الطويل المخرج في الصحيحين، وفيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "... حتى إذا خلص المؤمنون من النار؛ فوالذي نفسي بيده ما منكم من أحد بأشدّ مناشدة لله في استقصاء الحق من المؤمنين لله يوم القيامة لإخوانهم الذين في النار. وفي رواية: فما أنتم بأشدّ مناشدة في الحق قد تبين لكم من المؤمنين يومئذ للجبار، إذا رأوا أنهم قد نجوا في إخوانهم - يقولون: ربنا؛ كانوا يصومون معنا ويصلون ويحجون! فيقال لهم: أخرجوا من عرفتم. فتحرم صورهم على النار، فيُخرجون خلقًا كثيرًا قد أخذت النار إلى نصف ساقية وإلى ركبتيه، ثم يقولون: ربنا؛ ما بقي فيها أحد ممن أمرتنا به. فيقول: ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه. فيُخرجون خلقًا كثيرًا، ثم يقولون: ربنا؛ لم نذر فيها أحدًا ممن أمرتنا. ثم يقول: ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال نصف دينار من خير فأخرجوه. فيُخرجون خلقًا كثيرًا، ثم يقولون: ربنا؛ لم نذر فيها ممن أمرتنا أحدًا. ثم يقول: ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه. فيُخرجون خلقًا كثيرًا، ثم يقولون: ربنا؛ لم نذر فيها خيرًا". وكان أبو سعيد الخدري يقول إن لم تصدقوني بهذا الحديث فاقراءوا إن شئتم: (إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرًا عظيمًا)، فيقول الله عز وجل: شفعت الملائكة، وشفع النبيون، وشفع المؤمنون، ولم يبق إلا أرحم الراحمين. فيقبض قبضة من النار فيُخرج منها قومًا لم يعملوا خيرًا قط، قد عادوا حُممًا، -أي فحمًا من حرق النار لهم عيادًا بالله تعالى- فيلقينهم في نهر في أفواه الجنة يقال له نهر الحياة، فيخرجون كما تخرج الحَبَّة في حميل السيل، ألا ترونها تكون إلى الحجر أو إلى الشجر ما يكون إلى الشمس أصيفر وأخضر، وما يكون منها إلى الظل يكون أبيض؟" فقالوا: يا رسول الله، كأنك كنت ترعى بالبادية! قال: "فيخرجون كاللؤلؤ، في رقابهم الخواتم، يعرفهم أهل الجنة، هؤلاء عتقاء الله الذين أدخلهم الله الجنة بغير عمل عملوه ولا خير قدّموه، -أي بعد التوحيد والإيمان إعمالًا لبقية النصوص- ثم يقول: ادخلوا الجنة، فما رأيتموه فهو لكم. فيقولون: ربنا؛ أعطيتنا ما لم تعط أحدًا من العالمين! فيقول: لكم عندي أفضل من هذا! فيقولون: يا ربنا؛ أي شيء أفضل من هذا؟ فيقول: رضاي فلا أسخط عليكم بعده أبدًا". رواه البخاري (٧٤٣٩) ومسلم (١٨٣) واللفظ له. نسأل الله الكريم من فضله العظيم، ونسأله رضوانه والجنة، (ورضوان من الله أكبر).

١١. مسلم ١٧/٨ (٢٥٧٧) (٥٥)



١٢. مسلم (٦٠)
١٣. البخاري ١٠/١ (١٦) ومسلم ٤٨/١ (٤٣) (٦٧)
١٤. مجموع الفتاوى (١٠/٤٢ - ٤٨) باختصار.



(وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم)

وَرُبَّ بَاكِ فَوَاتٍ حَاجَتِهِ ... وَفِي الْفَوَاتِ النَّجَاةُ مِنْ عَطْبِهِ

إنّ المؤمن راضٍ مسلمٌ لأمر ربه تعالى ليقينه بعلمه محكمته ولطفه ورفقه ورحمته، وأن ما يختاره مولاه له خير مما يختاره هو لنفسه، فهو أرحم به من نفسه ومن والديه له، فهو راضٍ سعيد بتدبير ربه واختياره مهما كان حاله الظاهر بائساً، فاختيار الله تعالى لعبده خير من اختيار العبد لنفسه، فهو أعلم وأرحم وأحكم وألطف وأرفق به من نفسه، فعلام يتبرّم العبد بفعل مولاه.

وتدبر مراراً قوله تعالى: (وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون)، ولاحظ كيف وصف الله تعالى الأمر الذي كرهته بعض النفوس بالخير لها وهي لا تعلم، وكيف وصف الأمر الذي أحبته بالشر لها، فلم يذكر أن غيره خير منه ونحو ذلك، بل وصفه بالشرّ، مع أنها - لجهلها بالعاقبة - تُحبه! فإنها لجهلها تحب ما فيه حتفها وهلاكها وتكره ما فيه نجاتها وفلاحها. ثم قف كثيراً عند خاتمة الآية وسلّم لربك كلّ أمرك (والله يعلم وأنتم لا تعلمون)، فعلم الله كامل تام مستغرق لكل أمرك ماضيه وحاضره ومستقبله، ومحيط بكل تفاصيله، ويعلم كل ما يكتنف أمرك من أمور أخرى تغير حقيقته أو مساره، ففوّض أمرك إليه، وسلّمه له، وارض به كل الرضا، واعلم أنه لا يخيب مع ربه من هذا دين قلبه.



ومن عرف حقيقة الدنيا والآخرة هانت نفسه لله تعالى، وقرت عينه به، واكتفى به عما سواه، ولم يلتفت لما فاتته من حطام الدنيا ما دام دينه مُعافي، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: مكثت سنة أريد أن أسأل عمر بن الخطاب عن آية. فما أستطيع أن أسأله هيبة له.. الحديث وفيه: فقلت (١): يا رسول الله، إن كسرى وقيصر فيما هما فيه، وأنت رسول الله، فقال: "أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة؟". (٢) قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: "من الجهل أن يخفى على الإنسان مراد التكليف، فإنه موضوع على عكس الأغراض، فينبغي للعاقل أن يأنس بانعكاس الأغراض، فإن دعا وسأل بلوغ غرض؛ تعبد الله بالدعاء، فإن أعطي مراده شكر، وإن لم ينل مراده فلا يبغي أن يلح في الطلب؛ لأن الدنيا ليست لبلوغ الأغراض، وليقل لنفسه: (وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ)، ومن أعظم الجهل أن يمتعض في باطنه لانعكاس أغراضه، وربما اعترض في الباطن، أو ربما قال: حصول غرضي لا يضر، ودعائي لم يستجب. وهذا كله دليل على جهله وقلة إيمانه وتسليمه للحكمة.

ومن الذي حصل له غرض ثم لم يُكدر؟! هذا آدم، طاب عيشه في الجنة، وأخرج منها، ونوح سأل في ابنه فلم يعط مراده، والخليل ابتلي بالنار، وإسحاق بالذبح (٣) ويعقوب بفقد الولد، ويوسف بمجاهدة الهوى، وأيوب بالبلاء، وداود وسليمان بالفتنة، وجميع الأنبياء على هذا. وأما ما لقي نبينا محمد صلى الله عليه وسلم من الجوع والأذى وكدر العيش فمعلوم، فالدنيا وضعت للبلاء، فينبغي للعاقل أن يوطن نفسه على الصبر، وأن يعلم أن ما حصل من المراد فُلُطْفٌ، (٤) وما لم يحصل فعلى أصل الخلق والجبلة للدنيا، كما قيل:



طُبِعَتْ عَلَى كَدْرٍ وَأَنْتَ تَرِيدُهَا ... صَفْوًا مِنَ الْأَقْدَاءِ وَالْأَكْدَارِ" (٥)

وقال ابن القيم رحمه الله في الآية: (وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون): "في هذه الآية عدة حكم وأسرار ومصالح للعبد، فإن العبد إذا علم أن المكروه قد يأتي بالمحجوب، والمحجوب قد يأتي بالمكروه؛ لم يأمن أن توافيه المضرة من جانب المسرة، ولم ييأس أن تأتيه المسرة من جانب المضرة؛ لعدم علمه بالعواقب. فإن الله يعلم منها ما لا يعلمه العبد. وأوجب له ذلك أموراً منها: أنه لا أنفع له من امتثال الأمر وإن شقَّ عليه في الابتداء، لأن عواقبه كلها خيرات ومسرات ولذات وأفراح، وإن كرهته نفسه فهو خير لها وأنفع. وكذلك لا شيء أضر عليه من ارتكاب النهي وإن هويته نفسه ومالت إليه، وأن عواقبه كلها آلام وأحزان وشرور ومصائب.

وخاصةً العقل تحمّل الألم اليسير لما يعقبه من اللذة العظيمة والخير الكثير، واجتناب اللذة اليسيرة لما يعقبها من الألم العظيم والشر الطويل، فنظرُ الجاهل لا يجاوز المبادئ إلى غاياتها، والعقل الكيس دائماً ينظر إلى الغايات من وراء ستور مبادئها، فيرى ما وراء تلك الستور من الغايات المحمودة والمذمومة. فيرى المناهي كطعام لذيذ قد خلط فيه سمّ قاتل، فكلمة دعت له لذته إلى تناوله نهاه ما فيه من السمّ، ويرى الأوامر كدواء كريحه المذاق مُفضٍ إلى العافية والشفاء، وكلما نهاه كراهة مذاقه عن تناوله أمره نفعه بالتناول. ولكن هذا يحتاج إلى فضل علم تدرك به الغايات من مبادئها، وقوة صبر يوطن به نفسه على تحمل مشقة الطريق لما يؤول إليه عند الغاية. فإذا فقد اليقين والصبر تعذر عليه ذلك، وإذا قوي يقينه وصبره هان عليه كل مشقة يتحملها في طلب الخير الدائم واللذة الدائمة.



ومن أسرار هذه الآية: أنها تقتضي من العبد التفويض إلى من يعلم عواقب الأمور، والرضا بما يختاره له ويقضيه له، لما يرجو فيه من حسن العاقبة.

ومنها: أنه لا يقترح على ربه ولا يختار عليه ولا يسأله ما ليس له به علم، (٦) فلعل مضرته وهلاكه فيه وهو لا يعلم، فلا يختار على ربه شيئاً، بل يسأله حسن الاختيار له، وأن يرضيه بما يختاره، فلا أنفع له من ذلك.

ومنها: أنه إذا فوض إلى ربه ورضي بما يختاره له أمده فيما يختاره له بالقوة عليه والعزيمة والصبر، وصرف عنه الآفات التي هي عرضة اختيار العبد لنفسه، وأراه من حسن عواقب اختياره له ما لم يكن ليصل إلى بعضه بما يختاره هو لنفسه. (٧)

ومنها: أنه يريجه من الأفكار المتعبة في أنواع الاختيارات، ويفرغ قلبه من التقديرات والتدبيرات التي يصعد منها في عقبة وينزل في أخرى، ومع هذا فلا خروج له عما قدر عليه، فلو رضي باختيار الله أصابه القدر وهو محمود مشكور ملطوف به فيه، وإلا جرى عليه القدر وهو مذموم غير ملطوف به فيه، لأنه مع اختياره لنفسه. ومتى صح تفويضه ورضاه اكتنفه في المقدور العطف عليه واللفظ به، فيصير بين عطفه (٨) ولطفه، فعطفه يقيه ما يحذره ولطفه يهون عليه ما قدره. وإذا نفذ القدر في العبد كان من أعظم أسباب نفوذه تحيّل في رده، فلا أنفع له من الاستسلام وإلقاء نفسه بين يدي ربه". (١٠)

وتأمل دعاء الاستخارة تجد فيه راحة الصدر وقرّة العين ورسوخ الثقة وثلج اليقين، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُعلم أصحابه الاستخارة في الأمور كلها كما يعلم السورة من القرآن، يقول: «إذا هم أحدكم



بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة، ثم ليقل: اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب، اللهم فإن كنت تعلم هذا الأمر - ثم يسميه بعينه - خيرًا لي في عاجل أمري وآجله - أو قال: - في ديني ومعاشي وعاقبة أمري - فاقدِّره لي، ويسِّره لي، ثم بارك لي فيه، اللهم إن كنت تعلم أنه شرٌّ لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري أو قال: في عاجل أمري وآجله فاصرفه عني واصرفني عنه، واقدر لي الخير حيث كان، ثم رَضِّني به». (١٠)

ومن الرضا والتفويض الإكثار من الحوقلة ومن ما شاء الله، لأن التوكل موصل للرضا. ومن أدامهما كُوفئ بنخل الجنة وقوة الدنيا. قال الشيخ حماد الأنصاري رحمه الله: "قول ما شاء الله، لا حول ولا قوة إلا بالله. قالها الإمام مالك لمن سأله كيف حصلت هذا العلم؟ وهذا الدعاء فيه شبه إجماع من أهل العلم أن من افتتح به الدرس يُفتح عليه". (١١) ومن صيد خواطر ابن الجوزي رحمه الله أنه قد عقد فصلاً سمّاه: الندم على ما فات، قال فيه: "تأملت أحوال الفضلاء، فوجدتهم - في الأغلب - قد بُخسوا من حظوظ الدنيا، ورأيت الدنيا - غالبًا - في أيدي أهل النقائص.

فنظرت في الفضلاء، فإذا هم يتأسفون على ما فاتهم مما ناله أولو النقص، وربما تقطع بعضهم أسفًا على ذلك. فخاطبت بعض المتأسفين فقلت له: ويحك تدبر أمرك، فإنك غالط من وجوه:

أحدها: أنه إن كانت لك همة في طلب الدنيا، فاجتهد في طلبها تريح التأسف على فوتها، فإن تعودك متأسفًا على ما ناله غيرك، مع قصور اجتهادك غاية العجز.



والثاني: أن الدنيا إنما تُراد لتُعبَّرَ لا لتُعمَّرَ، وهذا هو الذي يدلُّك عليه علمك ويبلغه فهمك. وما يناله أهل النقص من فضولها يؤدي أبدانهم وأديانهم. فإذا عرفت ذلك ثم تأسفت على فقد ما فقدته أصلح لك، وكان تأسُّفك عقوبةً لتأسَّفِكَ على ما تعلم المصلحة في بُعْدِهِ، فاقنع بذلك عذابًا عاجلاً، إن سلمت من العذاب الآجل.

والثالث: أنك قد علمت بخس حظ الآدمي في الجملة من مطاعم الدنيا ولذاتها، بالإضافة إلى الحيوان البهيم، لأنه ينال ذلك أكثر مقدارًا مع أمن، وأنت تناله مع خوف وقلة مقدار. فإذا ضوعف حظك من ذلك كان ذلك لاحقًا بالحيوان البهيم من جهة أنه يشغله ذلك عن تحصيل الفضائل. (١٢) وتخفيف المؤمن يحث صاحبه على نيل المراتب. فإذا آثرت - مع قلة الفضول - الفضول، عدت على ما علمت بالإزراء، فشتت علمك، ودللت على اختلاط رأيك". (١٣)

فَلَا تَجْزَعْ وَإِنْ أَعْسَرَتْ يَوْمًا ... فَقَدْ أَيْسَرَتْ فِي الزَّمَنِ الطَّوِيلِ

وَلَا تَيَاسَّ فَإِنَّ الْيَأْسَ كُفْرٌ ... لَعَلَّ اللَّهَ يُغْنِي عَنْ قَلِيلٍ

وَلَا تَظُنُّ بِرَبِّكَ ظَنَّ سَوْءٍ ... فَإِنَّ اللَّهَ أَوْلَى بِالْجَمِيلِ

وعلى الداعي تصديق الوعد بالإجابة، فلا يحمل همها ما دام مستجمعًا أسباب قبولها، عالمًا معاني إجابتها بالتعجيل أو التأجيل أو كفاية الشر بقدرها أو ادخارها حسنة، فقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم؛ إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث: إما أن تُعجَّلَ له دعوته، وإما أن يدخرها له في الآخرة، وإما أن يُصرف عنه من سوء مثلها"، قالوا: إذا نُكثِر. قال: "الله أكثر". (١٤)



و"ينبغي لمن وقع في شدة ثم دعا أن لا يختلج في قلبه أمرٌ من تأخير الإجابة أو عدمها. لأن الذي إليه أن يدعو، والمدعوُّ مالك حكيم، فإن لم يُجِبْ فَعَلَّ ما يشاء في ملكه، وإن أَّخَرَ فَعَلَّ بمقتضى حكمته. فالمعترض عليه في سرّه خارج عن صفة عبد، مزاحم بمرتبة مستحق.

ثم ليعلم أن اختيار الله عز وجل له خير من اختياره لنفسه. فربما سأل سيلاً سال به! وروي أن أحد السلف كان يسأل الله عز وجل أن يرزقه الجهاد فهتف به هاتف: "إنك أن غزوت أُسْرَتَ، وإن أُسْرَتَ تنصرت".

فإذا سلّم العبد تحكيماً لحكمته وحكمه، وأيقن أن الكل ملكه؛ طاب قلبه، قُضيت حاجته أو لم تقض. فإذا رأى يوم القيامة أن ما أُجيب فيه قد ذهب، وما لم يُجِبْ فيه قد بقي ثوابه، قال: ليتك لم تجب لي دعوة قط. فافهم هذه الأشياء، وسلّم قلبك من أن يختلج فيه ريب أو استعجال". (١٥)

ومما يعين على الرضا والتسليم؛ اليقين بأن تدبير الله للعبد أجدى وأنفع من تدبير العبد لنفسه، وأن العاقبة غيب لا يعلمه إلا مولاه، فخير له أن يرضى بتدبير من هو أرحم به من نفسه، وتأمل قصة الخضر مع موسى عليه السلام في السفينة والغلام والجدار، وما تحتها من معان عظيمة في الرضا والتسليم والحمد والشكر لله رب العالمين. وسنذكر ما تيسر منها مع شرح الإمام البغوي لها في تفسيره القيم، قال في قوله تعالى: (فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا)، "قال: { فَانْطَلَقَا } يمشيان على الساحل يطلبان سفينة يركبانها، فوجدوا سفينة فركباها، وعن أبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم: "مرّت بهم سفينة فكلموهم أن يحملوهم فعرفوا الخضر فحملوهم بغير نَوْلٍ (١٦) فلما لججوا البحر أخذ الخضر فأسأ فخرق لوحاً من السفينة"،



(١٧) فذلك قوله تعالى: { حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ لَهُ مُوسَى { أَخْرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا } أي: منكراً، والإمر في كلام العرب: الداهية، وأصله: كل شيء شديد كثير. وقال القتيبي: { إِمْرًا } أي: عجباً. وروي أن الخضر لما خرق السفينة لم يدخلها الماء. وروي أن موسى لما رأى ذلك أخذ ثوبه فحشى به الخرق.

{ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٢) قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا (٧٣) فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا (٧٤) }، قال أبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم: "كانت الأولى من موسى نسياناً، والوسطى شرطاً، والثالثة عمداً". (١٨) { فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا } في القصة أنهما خرجا من البحر يمشيان، فمرا بغلمان يلعبون، فأخذ الخضر غلاماً ظريفاً وضيء الوجه، فأضجعه ثم ذبحه بالسكين. قال السدي: كان أحسنهم وجهاً، وكان وجهه يتوقد حسناً. قال ابن عباس: كان غلاماً لم يبلغ الحنث. وهو قول الأكثرين. قال ابن عباس: لم يكن نبي الله يقول: (أقتلت نفساً زكية) إلا وهو صبي لم يبلغ. وعن أبي بن كعب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الغلام الذي قتله الخضر طبع كافراً، ولو عاش لأرهب أبويه طغياناً وكفراً". (١٩) { لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا } أي: منكراً. قال قتادة: النكر أعظم من الإمر؛ لأنه حقيقة الهلاك، وفي خرق السفينة كان خوف الهلاك.

قوله عز وجل: { وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنِينَ فَخَشِينَا } أي فعلمنا { أَنْ يُرْهِقَهَا } يغشيها { طُغْيَانًا وَكُفْرًا } قال سعيد بن جبير: فخشينا أن يحملها حبه على أن يتابعه على دينه. { فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً } أي صلاحاً وتقوى { وَأَقْرَبَ رُحْمًا }، قال



قتادة: أي أوصل للرحم وأبرّ بوالديه. قال الكلبي: أبدلها الله جارية، فتزوجها نبي من الأنبياء، فولدت له نبياً فهدى الله على يديه أمة من الأمم.

قال مطرف: فرح به أبواه حين وُلد، وحزنا عليه حين قتل. ولو بقي لكان فيه هلاكهما، فليرض امرؤ بقضاء الله تعالى، فإن قضاء الله للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه فيما يحب. وقال عز وجل: { وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا). (٢٠)

وقد كتب ابن القيم رحمه الله فائدة جليلة من قوله تعالى: (كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون) وقوله عز وجل: (وان كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً)، "فالآية الأولى في الجهاد الذي هو كمال القوة الغضبية، والثانية في النكاح الذي هو كمال القوة الشهوانية. فالعبد يكره مواجهة عدوه بقوته الغضبية خشية على نفسه منه، وهذا المكروه خير له في معاشه ومعاده، ويجب المواجهة والمتاركة وهذا المحبوب شرّ له في معاشه ومعاده، وكذلك يكره المرأة لوصفٍ من أوصافها وله في إمساكها خير كثير لا يعرفه، ويجب المرأة لوصفٍ من أوصافها وله في إمساكها شرّ كثير لا يعرفه!

فالإنسان كما وصفه به خالقه ظلوم جهول، فلا ينبغي أن يجعل المعيار على ما يضره وينفعه ميله وحبه ونفرته وبغضه، بل المعيار على ذلك ما اختاره الله له بأمره ونهيه. فأنفع الأشياء له على الإطلاق طاعة ربه بظاهره وباطنه، وأضرّ الأشياء عليه على الإطلاق



معصيته بظاهره وباطنه، فاذا قام بطاعته وعبوديته مخلصاً له؛ فكل ما يجري عليه مما يكرهه يكون خيراً له، وإذا تخلى عن طاعته وعبوديته؛ فكل ما هو فيه من محبوب هو شرّ له.

فمن صحت له معرفة ربه والفقّه في أسماؤه وصفاته علم يقيناً أن المكروهات التي تصيبه والمحن التي تنزل به فيها ضروب من المصالح والمنافع التي لا يحصيها علمه ولا فكرته، بل مصلحة العبد فيما يكره أعظم منها فيما يحب. فعامة مصالح النفوس في مكروهاتها، كما أن عامة مضارّها وأسباب هلكتها في محبوباتها.

فانظر إلى غارس جنة من الجنات خبير بالفلاحة غرس جنة وتعاهدّها بالسقي والإصلاح، حتى إذا أثمرت أشجارها أقبل عليها يفضّل أوصالها ويقطع أغصانها لعلمه أنها لو خلّيت على حالها لم تطب ثمرتها، فيطعمها من شجرة طيبة الثمرة حتى إذا التحمت بها واتحدت وأعطت ثمرتها أقبل يقلّمها ويقطع أغصانها الضعيفة التي تذهب قوتها، ويذيقها ألم القطع والحديد لمصلحتها وكما لها، لتصلح ثمرتها أن تكون بحضرة الملوك.

ثم لا يدعها ودواعي طبعها من الشرب كل وقت، بل يعطشها وقتاً ويسقيها وقتاً، ولا يترك الماء عليها دائماً وإن كان ذلك أنضر لورقها وأسرع لنباتها. ثم يعمد إلى تلك الزينة التي زيّنت بها من الأوراق فيلقي عنها كثيراً منها لأن تلك الزينة تحول بين ثمرتها وبين كمال نضجها واستوائها، كما في شجر العنب ونحوه، فهو يقطع أعضائها بالحديد ويلقي عنها كثيراً من زيتتها وذلك عين مصلحتها، فلو أنها ذات تمييز وإدراك كالحيوان لتوهّمت أن ذلك إفساد لها وإضرار بها، وإنما هو عين مصلحتها.



وكذلك الأب الشفيق على ولده، العالم بمصلحته، إذا رأى مصلحته في إخراج الدم الفاسد عنه بضع جلده وقطع عروقه وأذاقه الألم الشديد، وإن رأى شفاؤه في قطع عضو من أعضائه أبانه عنه، وكان ذلك رحمة به وشفقة عليه. وإن رأى مصلحته في أن يمسك عنه العطاء لم يعطه ولم يوسع عليه؛ لعلمه أن ذلك أكبر الأسباب إلى فساده وهلاكه، وكذلك يمنعه كثيراً من شهواته حمية له ومصلحة، لا بخلاً عليه.

فأحكم الحاكمين وأرحم الراحمين وأعلم العالمين الذي هو أرحم بعباده منهم بأنفسهم ومن آبائهم وأمهاتهم إذا أنزل بهم ما يكرهون؛ كان خيراً لهم من أن لا ينزله بهم، نظراً منه لهم وإحساناً إليهم ولطفاً بهم، ولو مُكِّنوا من الاختيار لأنفسهم لعجزوا عن القيام بمصالحهم علماً وإرادة وعملاً، لكنه سبحانه تولى تدبير أمورهم بموجب علمه وحكمته ورحمته، أحبوا أم كرهوا.

فعرف ذلك الموقنون بأسمائهم وصفاته فلم يتهموه في شيء من أحكامه، وخفي ذلك على الجهلة به وبأسمائهم وصفاته فنازعوه تديبره وقدحوا في حكمته ولم ينقادوا لحكمه، وعارضوا حكمه بعقولهم الفاسدة وآرائهم الباطلة وسياساتهم الجائرة، فلا لربهم عرفوا، ولا لمصالحهم حصلوا، والله الموفق.

ومتى ظفر العبد بهذه المعرفة سكن في الدنيا قبل الآخرة في جنة لا يشبهها فيها إلا نعيم الآخرة، فإنه لا يزال راضياً عن ربه. والرضا جنة الدنيا ومستراح العارفين، فإنه طيب النفس بما يُجري عليه من المقادير التي هي عين اختيار الله له، وطمأننته إلى أحكامه الدينية، وهذا هو الرضا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلم رسولاً. وما ذاق طعم الإيمان من لم يحصل له ذلك.



وهذا الرضا هو بحسب معرفته بعدل الله وحكمته ورحمته وحسن اختياره، فكلما كان بذلك أعرف كان به أرضى، فقضاء الرب سبحانه في عبده دائر بين العدل والمصلحة والحكمة والرحمة، لا يخرج عن ذلك البتة، كما قال في الدعاء المشهور: "اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ في حكمك، عدلٌ في قضاؤك. أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك؛ أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي وغمي. ما قالها أحد قط الا أذهب الله همّه وغمّه، وأبدله مكانه فرحاً" قالوا: أفلا نتعلمهن يا رسول الله؟ قال: "بلى، ينبغي لمن سمعهن أن يتعلمهن". (٢١) والمقصود قوله: "عدلٌ في قضاؤك" وهذا يتناول كل قضاء يقضيه على عبده من عقوبة أو ألم وسبب ذلك، فهو الذي قضى بالسبب وقضى بالمسبب، وهو عدل في هذا القضاء، وهذا القضاء خير للمؤمن كما قال: "والذي نفسي بيده لا يقضي الله للمؤمن قضاء الا كان خيراً له، وليس ذلك إلا للمؤمن". (٢٢) فسألت شيخنا (٢٣) هل يدخل في ذلك قضاء الذنب؟ فقال: نعم بشرطه. فأجمل في لفظة بشرطه ما يترتب على الذنب من الآثار المحبوبة لله من التوبة والانكسار والندم والخضوع والذل والبكاء وغير ذلك". (٢٤)

ومن يحمد الدنيا لعيشٍ يسرّه ... فسوف - وربّي - عن قليلٍ يلومها

ولله الأمر من قبل ومن بعد، فإننا نكتب هذا الآن (شعبان / ١٤٤١) والعالم أجمع يكتسحه بأمر الله تعالى وباء قاتل يسمونه كورونا (كوفيد ١٩) وقد غصت مشافي بعض الدول بالحالات الحرجة، وفاضت ثلاثجات الموتى بعشرات الآلاف من جثث المتوفين حتى وضعوها في صالات التزلج الواسعة، وعطلت الجمعة والجماعة في أكثر بلاد



الإسلام، وصار حظراً للتجوال على مدار اليوم والليلة. والناس في استغفار وتوبة وجوار بالدعاء وقنوت وابتهاال، فهم في كرب لا يعلمه إلا الله، ولا نعلم كيف ستنجلي، ولكننا على يقين بأنها خير للمؤمن فيما شهادة أو عافية، والحمد لله على كل حال. سائلاً المولى الرحيم أن يرفع الوباء والبلاء، وأن ينزل رحمته ولطفه وعافيته إنه سميع قريب مجيب. ومهما يكن من أمر فأمر الله كله خير، وكل مصيبة ليست في الدين فخطبها يسير مقارنة بمصائب الأديان. والخيبة كل الخيبة ظنُّ المبتلى في دينه أنه معافي.. (فأنساهم أنفسهم).

وكلُّ كسرٍ فإنَّ الدينَ يجبرُهُ ... وما لكسر قناة الدين جبرانٌ

ولله في ذلك حكم باهرة لا نعلمها والله يعلمها وهو العليم الخبير، آمنا وسلمنا وإلى الله أنبنا وإلى الله المصير. ومن حَكَمَ ذلك أنها قرعت قلوب الناس فدفعتهم للتوبة من الحوبة، وللأوبة من الشوبة، وللاستيقاظ من رقدة الغفلة، والاستعداد ليوم النُّقْلة. ومن حكمها التي رأيناها عياناً بياناً أنها ردّت جابرة الملاحدة للتواضع والانكسار والافتقار التام، وحتت جباههم خضوعاً وأذلت أعناقهم خشوعاً خوفاً من سوء مصير الدنيا، فهم من أحرص الناس على الحياة، لأنها في أعينهم حياة واحدة، وقد جاءهم ما لا قبّل لهم به، وأفزعهم فيروس لا يرى بالعين، ولا ترده الأسلحة ولا المبيدات، فبيناهم يزعمون أنهم أصبحوا - عياداً بالله تعالى - آلهة تخلق وتدبر؛ إذ هم يصيحون فشلاً، ويكون حيرة وخيبة، ويهلعون رعباً ومخافة ويأساً، والله تعالى يقول: (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٠) بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ (٤١) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (٤٢) فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ



هَمُّ الشَّيْطَانِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٤٣) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (٤٤) فَقَطَّعَ دَابِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٥) وقال تعالى: { وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ (٤) فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بِأُسْنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ}. وقال تعالى: { وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ } [القصص : ٥٨]. وقال سبحانه: { وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٦) أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ (٩٧) أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ (٩٨) أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ (٩٩) } .

وتأمل خبر تلك النملة التي قالت لقومها ناصحة: (ادخلوا مساكنكم) فقد صارت اليوم عادً الثانية وطغاة العالم وجبابرة البشر يصيحون في أقوامهم: ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم ذلك الفيروس الذي لا يرى، قالوا هذا وهم بالأمس يقولون: (من أشد منا قوة) فسبحان من لا يدوم سواه، ولا باقي إلا إيّاه، ولا أله إلا هو.

.....

١ . القائل هنا هو عمر رضي الله عنه.

٢ . البخاري، الفتح ٨ (٤٩١٣) واللفظ له، مسلم (١٤٧٩)

٣ . الصواب وعليه الأكثر أن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام، وآيات الكتاب بهذا شاهدة. قال شيخ الإسلام رحمه الله في مسألة تعيين الذبيح: "النزاع فيها مشهور، لكن الذي يجب القطع به أنه إسماعيل، وهذا الذي عليه الكتاب والسنة والدلائل المشهورة، وهو الذي تدل عليه التوراة التي بأيدي أهل الكتاب.. ومما يدل على أنه



إسماعيل: قصة الذبيح المذكورة في سورة الصافات. قال تعالى: { فبشرناه بغلام حليم }، وقد انطوت البشارة على ثلاث: على أن الولد غلام ذكر، وأنه يبلغ الحلم، وأنه يكون حليماً. وأي حلم أعظم من حلمه حين عرض عليه أبوه الذبيح فقال: { ستجدني إن شاء الله من الصابرين }؟ وقيل: لم ينعت الله الأنبياء بأقل من الحلم، وذلك لعزة وجوده، ولقد نعت إبراهيم به في قوله تعالى: { إن إبراهيم لأواه حليم }، { إن إبراهيم لحليم أواه منيب } لأن الحادثة شهدت بحلمهما: { فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين } - إلى قوله - { وفديناه بذبح عظيم }. فهذه القصة تدل على أنه إسماعيل من وجوه:

أحدها: أنه بشره بالذبيح، وذكر قصته أولاً، فلما استوفى ذلك قال: { وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين وباركنا عليه وعلى إسحاق }، فيبين أنها بشارتان؛ بشارة بالذبيح، وبشارة ثانية بإسحاق، وهذا بين.

الثاني: أنه لم يذكر قصة الذبيح في القرآن إلا في هذا الموضع، وفي سائر المواضع يذكر البشارة بإسحاق خاصة، كما في سورة هود من قوله تعالى: { وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب }، فلو كان الذبيح إسحاق لكان خلفاً للوعد في يعقوب.

الوجه الثالث: أنه ذكر في الذبيح أنه غلام حليم، ولما ذكر البشارة بإسحاق ذكر البشارة بغلام عليم في غير هذا الموضع. والتخصيص لا بد له من حكمة، وهذا مما يقوّي اقتران الوصفين، والحلم هو مناسب للصبر الذي هو خُلُقُ الذبيح. وإسماعيل وُصف بالصبر في قوله تعالى: { وإسماعيل وإدريس وذا الكفل كل من الصابرين }، وهذا أيضاً وجه ثالث فإنه قال في الذبيح: { يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين }، وقد وصف الله إسماعيل أنه من الصابرين، ووصف الله تعالى إسماعيل أيضاً بصدق الوعد في قوله تعالى: { إنه كان صادق الوعد } لأنه وعد أباه من نفسه الصبر على الذبح فوقه به.

الوجه الرابع: أن البشارة بإسحاق كانت معجزة؛ لأن العجوز عقيم، ولهذا قال الخليل عليه السلام: { أبشرتموني على أن مسني الكبر فبم تبشرون }، وقالت امرأته: { أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخا }، وقد سبق أن البشارة بإسحاق في حال الكبر، وكانت البشارة مشتركة بين إبراهيم وامرأته. وأما البشارة بالذبيح فكانت لإبراهيم عليه السلام، وامتنحن بذبحه دون الأم المبشرة به.

ومما يدل على أن الذبيح ليس هو إسحاق أن الله تعالى قال: { فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب } فكيف يأمر بعد ذلك بذبحه؟ والبشارة ببيعقوب تقتضي أن إسحاق يعيش ويولد له يعقوب. ولا خلاف بين الناس



أن قصة الذبيح كانت قبل ولادة يعقوب، بل يعقوب إنما ولد بعد موت إبراهيم عليه السلام، وقصة الذبيح كانت في حياة إبراهيم بلا ريب.

ومما يدل على ذلك أن قصة الذبيح كانت بمكة، والنبي صلى الله عليه وسلم لما فتح مكة كان قرنا الكبش في الكعبة، فقال النبي صلى الله عليه وسلم للسادن: "إني أمرت أن تُحمر قرني الكبش، فإنه لا ينبغي أن يكون في القبلة ما يُلهي المصلي" (قلت: رواه أبو داود (٢٠٣٠) بنحوه، وصححه الألباني. والخمار: الغطاء. وقد احترق القرنان حينما أحرق الحجاج - بلا قصد - الكعبة برميها بالمنجنيق الملتهب نارًا، حينما كان ابن الزبير رضي الله عنهما متحصنًا منه في مسجد الكعبة). ولهذا جعلت منى محلًّا للنسك من عهد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وهما اللذان بنيا البيت بنص القرآن. ولم ينقل أحد أن إسحاق ذهب إلى مكة لا من أهل الكتاب ولا غيرهم، لكن بعض المؤمنين من أهل الكتاب يزعمون أن قصة الذبيح كانت بالشام فهذا افتراء؛ فإن هذا لو كان ببعض جبال الشام لُعرف ذلك". مجموع الفتاوى (٤ / ٣٣١ - ٣٣٥) مختصرًا.

٤. أي أن العبد إذا أعطاه الله مراده فإن هذا على خلاف سنة الدنيا المكدرّة، إنما هو محض كرم الله تعالى ولطفه به.

٥. صيد الخاطر (٣٩٩) والبيت الذي ختم به خاطره مأخوذ من قصيدة أبي الحسن التهامي في رثاء ابنه، وهي من الكامل، مع التحفظ على قوله: "حكم المنيّة" فالحكم لله لا لمخلوقاته، وقد يكون قصد بذلك حكم الله تعالى بأن جعل سنته أن المنيّة - وهي الموت - جارية على جميع الناس، فبهذا التوجيه يكون البيت صالحًا. ومنها:

حُكْمُ الْمَنِيَّةِ فِي الْبَرِيَّةِ جَارٍ ... مَا هَذِهِ الدُّنْيَا بَدَارَ قَرَارٍ
بَيْنَا يَرَى الْإِنْسَانَ فِيهَا مُخْبِرًا ... حَتَّى يَرَى خَبْرًا مِنَ الْأَخْبَارِ
وَالنَّفْسُ إِنْ رَضِيَتْ بِذَلِكَ أَوْ أَبَتْ ... مُنْقَادَةٌ بِأَزْمَةِ الْأَقْدَارِ
طُبِعَتْ عَلَى كَدَرٍ وَأَنْتَ تُرِيدُهَا ... صَفْوًا مِنَ الْأَقْدَارِ وَالْأَكْدَارِ
وَإِذَا رَجَوْتَ الْمُسْتَحِيلَ فَأَيُّهَا ... تَبْنِي الرَّجَاءَ عَلَى شَفِيرِ هَارٍ
الْعَيْشُ نَوْمٌ وَالْمَنِيَّةُ يَقْظَةٌ ... وَالْمَرْءُ بَيْنَهُمَا خَيَالٌ سَارٍ
فَاقْضُوا مَا رَبَّكُمْ عَجَالًا إِنَّهَا ... أَعْمَارُكُمْ سَفَرٌ مِنَ الْأَسْفَارِ



يا كوكبًا ما كان أقصر عمره ... وكذلك عمر كواكب الأسحار

جاورت أعدائي و جاور ربه ... شتان بين جواره و جوارى

٦. ولا يمنع هذا من دعاء ربه ما فيه صلاحه وقيامه من جلب الخير الخاص و دفع ضده، فالعبد على الدوام يسأل ربه كل حاجته، فما هو إلا به، وأنا له إلا عليه، قال سبحانه: (وقال ربكم ادعوني استجب لكم).
٧. وتظهر هذه المعاني الجميلة في دعاء الاستخارة الذي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمه أصحابه كما يعلمهم السورة من القرآن.
٨. العطف هنا هو الرحمة والحنان.
٩. الفوائد (١ / ١٣٦ - ١٣٨) مختصرًا.
١٠. البخاري، الفتح ١٣ (٧٣٩٠)
١١. المجموع (ص: ٤٨٢)
١٢. أي لا يكن حظك كحظ الحيوان الذي غاية همته طعامه ولذته، لأنك إن زدت في همتك لتحصيل ما حصله كنت شبيهًا له فيما يُحصّله وفيما حُرِمَ منه من فضائل الدين والعقل، وحرمت لذلك ما أُعطيه أهل الفضائل مع نقص لذائذ دنياهم الحسية.
١٣. صيد الخاطر (١ / ٥)
١٤. أحمد (١٠٧٤٩) وجود سنده محققه. والبخاري في الأدب المفرد (٧١٠)، والحاكم (١ / ٤٩٣) وقال: صحيح الإسناد. ووافقه الذهبي. وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب: حسن صحيح.
١٥. صيد الخاطر (١ / ٥١) بتصرف يسير.
١٦. أي مجانًا بلا أجر.
١٧. البخاري (١ / ٢١٨)
١٨. البخاري: (٥ / ٣٢٦)، مسلم (٤ / ١٨٤٧ - ١٨٥٠)



١٩. مسلم (٢٦٦١)
٢٠. تفسير البغوي (١٩٠-١٩٤) باختصار.
٢١. أحمد (٣٧١٢) وضعفه محققوه من جهة الجهالة بأبي سلمة الجهني، وأنه راوٍ آخر غير أبي موسى الجهني. وصححه أحمد شاكر، وكان الأرنؤوط قد صححه في تخريج ابن حبان ثم تراجع عنه هنا، وصححه ابن القيم في إعلام الموقعين (١/١٥٠) وصححه الألباني في الصحيحة (١٩٩) وقال: "ليس في الرواة من اسمه موسى الجهني إلا موسى بن عبد الله الجهني، وهو الذي يكنى بأبي سلمة، وهو ثقة من رجال مسلم.
٢٢. مسلم (٢٩٩٩)
٢٣. أي ابن تيمية رحمه الله.
٢٤. الفوائد (١/٩١-٩٤)



كيف تتخطى مرحلة (الو)

إنّ (لو) أحبولة الشيطان، يصطاد بها ضيقي الصدور، أو ضعيفي البصائر، فلا يستطيع الشيطان بلوغ مآربه من المرء في هذا إلا من باب الجهل بالشرع أو الجهالة فيه، أي ضعف العلم والبصيرة أو وهن اليقين والإرادة، لذلك نوه الله تعالى للجمع بين العلم والإيمان، فقال سبحانه: (وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث)، فالعلم نور والإيمان مَرَكَبٌ، فبالنور تصل سفينة الإيمان شاطئ النعيم بإذن الله تعالى، فالنور لا يكفي والراحلة لا تكفي، بل لا بد من اجتماعهما للوصول لعلين برحمة أرحم الراحمين تبارك وتعالى.

فما أحوج الناس في هذا الزمان للتواصي بالحق والصبر فيه عبر طرُق هدايات الشريعة هذا الموضوع الذي لا تنفك أسبابه عن هجومها على أفئدة الناس وعلى صدورهم على الدوام عند أدنى عثرة فُجاءة، أو تلاشي أمنية، أو فوات رغبة، فلو اعتنقته أفئدتهم على وفق الشرع ورَضُوا ما آتاهم الله تعالى لأراحوا أنفسهم من زفرات الخيبات، وحسرات الفوات، وجرعات الغيظ، وزعزعة سكينه القلوب. ذلك أنّ الإنسان في مراحل حياته وسيرورة أيامه يمرّ ولا بدّ بمنعطفات حرجة في حياته، (لتركن طبقاً عن طبق) وحالاً بعد حال، فيترتب على اختياره لمنعطفاته الحياتية أمور كبار أو صغار بحسب حجم هذا الأمر، وكم من أمر صغير تترتب عليه العظائم!



لذلك شرع الله تعالى المشاورة والاستخارة والتوكل، فقال سبحانه: (وشاورهم في الأمر)، وقال سبحانه: (ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل)، وقال سبحانه: (فإذا عزم فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين). وعن جابر رضي الله عنه قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم يعلمنا الاستخارة في الأمور كلها، كالسورة من القرآن..". (١) وقال صلى الله عليه وسلم: "احِرْضْ عَلَيَّ مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِزْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ". (٢)

ولا جرم في شأن تقديم الشريعة أمر الرضا بالله تعالى في كل أمر، فإن الفرح بتحصيل المرغوب أو دفع المرهوب أو الحزن أو الحسرة أو الغضب لفواته لها أثر مباشر في سكينته الإنسان وراحته وطمأنينته، مهما كانت جهة المُقَدِّرِ الربّاني أو الاختيارِ الإنساني، سواء أكان ذلك الأمر فقد حبيب، أو خسارة مكتسب، أو تسلط ظالم، أو مرض عضال، أو اختيار قسم الدراسة، أو العمل، أو الزواج، أو المسكن، أو السفر، أو إجراء صفقة ما، أو اختيار ما.. ونحو ذلك. ولا يكاد ينفك أحد عن ذلك، فقطب رحي الراحة في الرضا. والدنيا إنما هي مزرعة وحرث وميدان عمل.

والمقصود؛ بيان أن لفظ ومعنى (لو) لها استدعاء وحضور في حياة أكثر الناس، وأكثر استعمالها شيوعاً التحسر والتلهّف والتسخط على ماضٍ انقضى اعتراضاً على القدر، وهذا هو المذموم.

وبالجملة؛ فلفظ (لو) له أحوال:

الأول: أن يقولها اعتراضاً على القدر وتسخطاً له، فهذا محرم.



الثاني: أن يقولها لمجرد الخبر المحض، فهي مباحة في الأصل، ولكن يختلف حكمها بحسب صدق الخبر أو كذبه.

الثالث: أن يقولها لبيان ما ينبغي فعله مما فات من الطاعات من غير تسخط، فهذا مشروع.

الرابع: أن يقولها للتمني في المستقبل، فهي بحسب ما تمنّاه من خير أو شرّ.

بيان ذلك: أن لفظ (لو) له أحوال قد بينها الكتاب وفصلتها السنة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير". احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز. وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله، وما شاء فعل؛ فإن لو تفتح عمل الشيطان". (٣)

وعليه فالحال الأول للفظ (لو) هو أن يقولها اعتراضاً على القدر وتسخطاً، فهذا من عمل الشيطان. وكثير ممن يقولونها إنما يقولونها تسخطاً واعتراضاً على القدر وذمّاً للمقضي، وهذا هو الممنوع المذموم، وهو لا يغني عن صاحبه شيئاً سوى ألم الحسرة ووزر الذنب، فلا هو بالذي سلم من المؤلم، ولا هو بالذي تقلد مكرمة الصابرين الراضين الحامدين الشاكرين.

والاعتراض على القضاء وتسخطه من خصال المنافقين، ولا غرور؛ فليس لهم زاد من رضا يسافرون به في تخوم ابتلاءات الدنيا كحال المتقين الفائزين الحائزين رضا الآخرة برضاهم في الدنيا. فقلب المنافق فارغ من الرضا بالله تعالى، لهذا فمن وسائل طرد النفاق



عن حمى القلب ترديد ذكر الرضا طرفي النهار قال رسول الله ﷺ: «ما من عبد مسلم يقول حين يُصبح وحين يُمسي ثلاث مرات: رضيت بالله ربًّا وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ نبيًّا، إلا كان حقًا على الله أن يرضيه يوم القيامة». (٤)

قال الله تعالى ذامًا المنافقين واصفًا مقالهم وحالهم مع مُرّ المقادير وشديدات الأفضية: (يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا [آل عمران: ١٥٤] وقال سبحانه: (الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا)، فهم يعترضون على مواقع القدر بهذا، وفيه من سوء الأدب مع الله تعالى ما فيه، (ما لكم لا ترجون لله وقارا). قال ابن باز رحمه الله تعالى: "قوله صلى الله عليه وسلم: "فإن لو تفتح عمل الشيطان" يعني تفتح عن العبد عمل الشيطان ووساوسه وتشكيكه، فينبغي للمؤمن ألا يستعملها حتى لا يقع في حبائل الشيطان ووساوسه وتشكيكه، وإملائه ما لا ينبغي، فإن الأمور بيد الله تعالى، هو الذي قدرها جل وعلا، فإذا فعل المؤمن ما شرع الله من العلاج، من السفر، ومن الإقامة، ومن الأكل ومن غير ذلك من الأسباب التي تعاطاها، ثم غلبه القدر؛ فليقل: قدر الله، وما شاء فعل، إنا لله وإنا إليه راجعون، فليس الأمر بيده، بل بيد الله تعالى؛ ولهذا قال تعالى: (وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ) أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون [البقرة: ١٥٥-١٥٧]، وقال النبي ﷺ: "ما من عبد يصاب بمصيبة فيقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم آجرني في مصيبتى، واخلف لي خيرًا منها، إلا آجره الله في مصيبتى، وأخلف له خيرًا منها"، (٥) فالمؤمن هكذا تحت القدر، لكن لا يمنعه القدر من تعاطي الأسباب، يفعل الأسباب التي يستطيعها، فإذا قدر أن الأسباب لن تنفع؛ فلا يجزع، ولا يقل: لو لو، بل يقول: قدر الله وما شاء فعل، إنا



لله وإنا إليه راجعون، مثلاً ذهب بالمريض إلى الطبيب الفلاني، أو المستشفى الفلاني، أو المستوصف الفلاني فلم يقدر نفع الأسباب؛ فلا يقل بعد موته: لو أني سافرت به إلى الخارج، لو أني ذهبت إلى المستشفى الآخر، لو أني ذهبت إلى فلان، هذا ما ينفع قد مضى الأمر، والله تعالى لو شاء ذلك لوقع، لكن هذه المنية انتهت، والأجل قد تم، فلا ينبغي الاعتراض بقول: لو لو.

أما إذا كان قول (لو) لبيان ما ينبغي، مثل ما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما أهديت". (٦) هذا ليس للاعتراض، ولكن لبيان الأفضل، مثل لو علمت أن هذا واقع لفعلت كذا وكذا، مما يبين للناس أنه الأفضل وأنه الأحرى، ولو علمت أن فلاناً موجوداً لزرته، ولو علمت أن فلاناً مريضاً لعدته، أو ما أشبه ذلك مما يسفر عن أسفه على ما فات عليه، ليس على سبيل الاعتراض، هذا لا خلاف في هذا الباب، وإنما الممنوع هو الاعتراض على القدر، وأما إخباره وأنه لو كان كذا الفعل كذا، لو كان فلاناً موجوداً لقرأت عليه، لو كان العالم موجوداً لقرأت عليه، لو علمت أن فلاناً مريضاً لزرته، لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما سمرت إلى كذا، وما أشبه ذلك، ليس هذا من باب الاعتراض". (٧) وقال العثيمين رحمه الله تعالى في كلامه على قوله صلى الله عليه وسلم: "فإن لو تفتح عمل الشيطان": "كلمة (لو) في هذا المقام إنما تفتح باب الندم والحزن، ولهذا نهى عنها رسول الله، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأن الإسلام لا يريد من الإنسان أن يكون محزوناً ومهموماً بل يريد منه أن يكون منشرح الصدر وأن يكون مسروراً طليق الوجه، ونبه الله المؤمنين لهذه النقطة بقوله: {إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئاً إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ}.. والمهم أن الشرع يجب من المرء أن يكون دائماً في سرور، ودائماً في فرح



ليكون متقبلاً لما يأتيه من أوامر الشرع؛ لأن الرجل إذا كان في ندم وهم وفي غم وحزن لا شك أنه يضيق ذرعاً بما يلقي عليه من أمور الشرع وغيرها، ولهذا يقول الله تعالى لرسوله دائماً: {وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ}، {لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ}.

وهذه النقطة بالذات تجد بعض الغيورين على دينهم إذا رأوا من الناس ما يكرهون تجدهم يؤثر ذلك عليهم، حتى على عبادتهم الخاصة، ولكن الذي ينبغي أن يتلقوا ذلك بحزم وقوة ونشاط، فيقوموا بما أوجب الله عليهم من الدعوة إلى الله على بصيرة، ثم إنه لا يضرهم من خالفهم". (٨)

ومن ذلك قول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في توجيهه النافع الشهير: "كثير من الناس إذا رأى المنكر أو تغير كثير من أحوال الإسلام جزع وكَلَّ وناح كما ينوح أهل المصائب، وهو منهى عن هذا، بل هو مأمور بالصبر والتوكل والثبات على دين الإسلام وأن يؤمن بالله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، وأن يؤمن بأن العاقبة للتقوى، كما قال رب العزة جلا وعلا: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾". (٩)

الثاني: أن يقولها لمجرد الخبر المحض، فهي بحسب الخبر إن صدقاً وإن كذباً. كقوله: لو كنت متفرغاً للقيتك، أو لو مررت ببلدتك لزررتك ونحو ذلك. فإن (لو) هنا هي لمجرد الإخبار، فهذه لا بأس بها، وهي بحسب الخبر إن صدقاً وإن كذباً، فيجوز إلا إن كان كاذباً في خبره. مثاله قول عمرو بن معدي كرب الزبيدي اليماني معاتباً قومه إذ لم يصدقوا في الحرب فلم يستحقوا مدحته:



فلو أن قومي أنطقني رماحهم... نطقت ولكن الرماح أجرت (١٠)

والإجرار: هو شق لسان الفصيل لئلا يرضع أمه، ويجعل في لسانه عود صغير ليمنعه من خلف أمه. يقول: لو أنهم أبلوا في الحرب بلاء حسناً لمدحتهم وذكرت بلاءهم ولكن قصروا فأجرؤوا لساني فما أنطق بمدحهم.

الثالث: أن يقولها لبيان ما ينبغي فعله مما فات، فهذا مشروع لأنه خال من الاعتراض على المقادير. فتكون هنا للتأسف على فوات قربة وطاعة، فهذه محمودة إن كانت لتربية النفس وتأديبها وزجرها عن تفويت خير الآخرة فيما يُستقبل مع الرضا بالقضاء الذي قد نفذ، فهو يقولها تربية لنفسه فيما يُستقبل لا في تسخطها على ما فات. وكذلك لو قالها لبيان ما ينبغي، وكذا لبيان فضل العمل الفائق، أو أن يقولها تطيباً لقلوب أصحابه وحثاً للناس على فعله للائتساء والافتداء، ويحمل عليه قوله صلى الله عليه وسلم: "لو استقبلت من أمري ما استدبرت لما سقت الهدى ولجعلتها عمرة". (١١) وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أن النبي ﷺ لم يقل: «لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما سقت الهدى ولجعلتها عمرة» لأجل أن الذي فعله مفضل، ففعله هو الأفضل، وإنما أراد تطيب قلوب أصحابه لما شق عليهم أن يخلوا من إحرامهم، وفي هذا تأليف للقلوب، فجمع الله له الأجرين: أجر فعل الأفضل، وأجر ما اختار من موافقتهم على ما أمرهم به لولا سوق الهدى، وذلك لأن في سوق الهدى من تعظيم شعائر الله ما ليس في التمتع والتحلل والإحرام ثانياً، فيكون القارن الذي ساق الهدى أفضل من المتمتع الذي لم يسق الهدى. (١٢)

الرابع: أن يقولها للتمني في المستقبل، فهي بحسب ما تمناه من خير أو شر. فتكون محمودة إن كانت عن صادق أمنية صالحة، ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: "إنما الدنيا



لأربعة نفرٍ: عبد رزقه الله مالاً وعلماً فهو يتقي فيه ربه، ويصل فيه رحمه، ويعلم الله فيه حقاً، فهذا بأفضل المنازل. وعبد رزقه الله علماً، ولم يرزقه مالاً، فهو صادق النية، يقول: لو أن لي مالاً لعملت بعمل فلان، فهو بنيته، فأجرهما سواء. وعبد رزقه الله مالاً، ولم يرزقه علماً (١٣)، فهو يخبط في ماله (١٤) بغير علم، لا يتقي فيه ربه، ولا يصل فيه رحمه، ولا يعلم الله فيه حقاً، فهذا بأخبث المنازل (١٥) وعبد لم يرزقه الله مالاً ولا علماً، فهو يقول: لو أن لي مالاً لعملت فيه بعمل فلان، فهو بنيته، فوزرهما سواء". (١٦)

فالنَّية تدرِكُ ما لا يدركُ العمل، "إنما الأعمال بالنيات" (١٧). ومردّد ذلك إلى أن الغرض من التقوى هو صلاح القلب، حتى وإن خلت اليد من مال يثبت به حبه لربه تعالى بإنفاقه في مرضاته، أو عجز الجسد عن الوقوف بين يديه ليقوم في صلاته، أو لم تطق صحته صيام هاجرة، أو منعت المرأة من صلاة لعذرهما الشهري، أو عجز العبد عن الوصول لمشاعر الحج أو الجهاد باللسان أو باليد ونحو ذلك، فالعبرة بما في القلب، كما قال صلى الله عليه وسلم: "التقوى ههنا"، (١٨) فالعبرة والمعول على ما في القلب، أما الجوارح فأعوان لهذا القلب، وجنود له، ينفذ القلب بواسطتها ما يريد، قال تبارك وتعالى: (لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم).

فهيكل العبادات قوالب لإحسان العبودية لله تعالى، وإذا تدبرت الوحي وجدت أن صلاح القلب هو الغاية لكل عبادة بدنية أو مالية أو غيرها، فتلك العبادات تصقله وتهذبه وتصفيه وتنيره وتطيبه، فلا غنى عنها، ولا قوام لها إلا به، فهي أركانٌ عملية للعبادة مقصودة لذاتها، فهي عبادة، وثمرتها صلاح القلب، لذلك فالعبادة تكون فاسدة في حال فسد القلب فيها كالرياء.



ومن هنا كان أمر أعمال القلب في الغاية القصوى والأمد الغائي لكل مؤمن موفق، فترى صاحب أعمال القلب العظيمة يسبق بمراحل من دونه في مراتب أعمال القلوب وإن كان المسبوق أكثر اجتهاداً في أعمال البدن، (ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ).

والإيمان في القلب والجوارح كالشجرة، فأصولها القلب وفروعها الجوارح، فإذا فسد جذع الأصل فسيظهر عرق فساده في الفروع والأغصان والأوراق والثمار، وإن طاب طابت، ومتى رأينا فساداً في ثمرة أو غصن استدللنا بذلك على فساد في الجذع بحسبه، وفي هذا ردّ على من زعم أن فساد الظاهر لا علاقة له بفساد الباطن، كلا؛ بل لولا فساد في الباطن ما ظهر فساد الظاهر، ولا عكس، فقد يفسد الباطن ويبقى الظاهر مزيفاً إلى حين، (ولتعرفنهم في لحن القول). ونحن قد أمرنا بمعاملة الناس بحسب ما ظهر منهم، وما أبدوه لنا من صفحاتهم، ونكل حقائق ما في قلوبهم لعلام الغيوب، فلا ننقب العيوب ولا نركبها.

قال شيخنا عبد الكريم الخضير حفظه الله تعالى: "إذا ظهر على الجوارح شيء من المخالفات هل يمكن أن يحتج هذا المخالف بأن التقوى ههنا؟ نقول: لو كان في هذا المخفي شيء، أو أن التقوى موجودة في هذا القلب لظهرت على الجوارح؛ لأن ما ظهر على الجوارح من المخالفات برهان على تكذيب الدعوى التي هي التقوى، لما استدل الصحابي بقوله جل وعلا: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا﴾ [سورة المائدة] (٩٣) قال: يشرب الخمر وهو تقي، قال له عمر رضي الله عنه: «أخطأت أستك الحفرة، لو اتقيت وآمنت وعملت الصالحات لم تشرب الخمر». (١٩)



وهذا الذي تظهر عليه علامات الفسوق يخلق لحيته، ويشرب ما يشرب علناً، ويسبل ثيابه، أو عنده مخالقات، يقول: التقوى ههنا! هذا لو اتقى الله ما حصلت منه هذه الأمور، فقد كذب دعواه بفعله، وليس في هذا مستمسك للعصاة المعلنين بمعاصيهم أن يقولوا: التقوى ههنا، لو اتقى الله، جل وعلا، ما فعل هذه المعاصي". (٢٠)

هذا؛ ومما يلحق بذلك لفظ (لولا) فهي (لو) المنفية، قال العثيمين رحمه الله تعالى: "إسناد الشيء إلى سببه ينقسم إلى أقسام:

الأول: قسم يكون شركاً أكبر، مثل أن يقول: لولا الولي فلان هلكت، والولي فلان هذا مدفون مقبور لا ينفع أحداً شيئاً، فلا يصدر هذا القول إلا من شخص يعتقد أن لهذا الولي المدفون تصرفاً في الكون، فيكون شركاً أكبر مخرجاً عن الملة.

الثاني: أن يضيف الشيء إلى سببه المعلوم شرعاً أو المعلوم حساً. فهذا جائز ولا بأس به، مثل أن تقول: لولا أن فلاناً توضأ لم تصح صلاته، هذا صحيح واقع، لو لم يتوضأ لم تصح صلاته هذا السبب الشرعي.

أما السبب الحسي فكأن يسقط في بئر فيخرجه رجل آخر فيقول: لولا فلان أخرجني هلكت، فهذا أيضاً صحيح، لكن لا يعتقد أن فلاناً هو الذي استقل، لكن يسره الله له فأنقذه، ومنه قول الرسول عليه الصلاة والسلام في عمه أبي طالب حيث أخبر أن عمه أبا طالب في ضحضاح من نار وعليه نعلان يغلي منهما دماغه قال: "ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار" (٢١) هذا جائز، لأنه صدر من الرسول عليه الصلاة والسلام، وهو في كلام العلماء كثير من إضافة الشيء إلى سببه المعلوم حساً أو شرعاً. (٢٢)



الثالث: أن يضيفه إلى السبب مع الله مقرونًا بالواو، فهذا لا يجوز، بل هو من الشرك، لكنه شرك أصغر، إلا أن يعتقد أن الثاني الذي مع الله له تصرف كتصرف الله فيكون شركًا أكبر، مثل أن يقول: لولا الله وفلان لحصل كذا وكذا، فهذا لا يجوز، حتى وهو يعتقد أن الله فوق كل شيء، بل يقول: لولا الله ثم فلان.

أما إن اعتقد أن الله وفلان سواء في التأثير فهذا شرك أكبر، وعلى هذا فإذا كان خبرًا فإنه لا بأس به، أو إذا كان مستندًا إلى سبب صحيح فإنه لا بأس به". (٢٣)

وشاهد المقال: أن الناس حيال فوات مرغوبهم أو حصول مرهوبهم على درجات ودركات؛ فقد يجزعون، وقد يصبرون، وأقلهم من يرضون، وأقل قليلهم من يحمدون ويشكرون، (إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ).

والآن حان وقت إجابة السؤال الكبير: كيف تتخطأ مرحلة (الو)؟ وسأوجز الجواب في عشرة أمور:

الأول: تحريك نوابه القلب لرسوخ يقينية نفاذ القضاء والقدر، وأن ما قضاه الله فهو لا بد كائن، قال سبحانه: (ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير) وقال تعالى: (إنا كل شيء خلقناه بقدر)، وقال صلى الله عليه وسلم: "واعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك". (٢٤) فقدّر الله ماضٍ، وقضاؤه نافذ، مهما كابر الإنسان.



الثاني: العلم اليقيني بأن اختيار الله لك خير من اختيارك لنفسك، وأنتك مهما أوتيت من علم وحكمة وقدرة فلن تختار الطريق الأنسب لك لا بعلمك وحكمتك ولا بإرادتك وعملك.

الثالث: العلم بأن صواب الاختيار والمسار ليس محصوراً في ذلك الإطار الضيق من تحقيق مشتهى نفسك العجلى ونظرتها القاصرة، بل هو عبارة عن لوحة كبيرة تدرج فيها أمور كثيرة متشابكة من مصير دينك ودنياك، ومع اجتماع كل عناصر اللوحة ينبثق الاختيار الأصوب والأفضل، فميزان الاختيار الصائب ضخم جداً ودقيق جداً، فلا يهمل أي أمر من أمورك مهما صغر أنياً في عينك، أو عزب عن ذاكرتك، أو نحو ذلك، وليس هذا لأحد إلا لعلام الغيوب سبحانه.

الرابع: العلم بأن الأمور المؤلمة في ابتدائها فإنها تؤول إلى سعادة في نهايتها لمن اتقى الله تعالى، فبالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين، والعبرة بكمال النهايات لا نقص البدايات، ومن كانت بداياته محرقة كانت نهاياته مشرقة بإذن الله تعالى. فكل أمور الدين والدنيا يعترها ما يعترها من المشاق والآلام، فإذا علمت أن أشرف الخلق وأكملهم وأطيبهم قد صُبت عليه صنوف البلايا من موت البنين والبنات والوالدين والأعمام والزوجة المحبة، وابتلي بقاطعي الأرحام، ومؤذي الجيران، والماشين بالبهتان، والمحاربين له في نفسه وعرضه وأصحابه، فصبر وصابر، ورضي فأرضي، وحمد فحمد، وشكر فشكر، فكان سيد ولد آدم طراً، ومقدمهم يوم يقوم الأشهاد، فمن تأمل سيرته علم أن البلاء رجم الفرح، والامتحان معراج العلى، واليقين سلم الفلاح، والرضا باب الجنة، (ولسوف يعطيك ربك فترضى).



الخامس: العلم بحقيقة الدنيا، فإنَّ ذلك يثمر الزهد فيها، ويتبين لك أنها لا تستحق، فحينها تستحيل لواعج الحسرات إلى مرهم وترياق، (ما عندكم ينفد وما عند الله باق)، (وللآخرة خير لك من الأولى)، (والآخرة خير وأبقى)، (وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة هي الحيوان لو كانوا يعلمون)، وقال صلى الله عليه وسلم: "لو أنَّ الدنيا تساوي عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء". (٢٥) وقال صلوات الله وسلامه وبركاته عليه: "لغدوة في سبيل الله - أو روحة - خير من الدنيا وما فيها، ولموضع سوط أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما فيها". (٢٦) ولما تعجَّب الصحابة من نعومة وجمال جبة سندس كانت لأكيدر دومة (٢٧) قال صلى الله عليه وسلم: "أتعجبون من هذه؟ فوالذي نفسي بيده، لمناديل سعد بن معاذ في الجنة خير منها". (٢٨) وعليه، فالدنيا ليست بشيء في عين المبصر الحقيقي ببصيرته وهدى الله له، لا بعجلته وطيشه وطفولة رغباته وصغر أمنيته. ومن كان كذلك فلن يأس على فائت، ولن يفرح باطلاً بمؤتى، وستذوب لوعاته كندى الصباح عند تذكُّر الرجعى، وسيوقن حينها أنَّ الدنيا لا تستحق الغضب لأجلها، والحزن من أحوالها، والخوف من أهوالها، والأسى منها ولها. فرضوان الله تعالى هو غاية الأمانى، ونهاية الآمال، وسقف الرغبات، فمن وجد الله فماذا فقد؟ ومن فقد رضوانه فماذا وجد؟!

والمقصود؛ أنَّ الميزان الحقيقي هو ميزان الآخرة، فمن ضبط رمانة ميزانه على ذلك استقامت له جادة السعداء، ولاحت له رفقة الأنبياء، واتبع الرسول بإحسان، فكان من الفائزين.



السادس: انتظار الأجر بالرضا بالقضاء، فالراضي موفور الحظ مغذو النصيب، قال رسول الله ﷺ: «ما من عبد مسلم يقول حين يُصبح وحين يُمسي ثلاث مرات: رضيت بالله ربًّا وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ نبيًّا، إلا كان حقًّا على الله أن يرضيه يوم القيامة». (٢٩) فكيف لعاقل أن لا ينتظر كنوز العطايا وذخائر المزايا؟! وعند الله للأتقى مزيدٌ.

وَرَبِّكَ مَا مَالُ الْفَتَى بِذَخِيرَةٍ ... وَلَكِنَّ تَقْوَى اللَّهِ خَيْرُ الذَّخَائِرِ

السابع: التلذذ بالبلاء الذي لا بد منه، ولا حيلة في دفعه، فان كان لدينا فهو الصبر والرضا والحمد والشكر، وإن كان للدين فهو أعظم وأعلى وأجلى وأسعد، كان مالك رحمه الله تعالى يقول: لا تغبطوا أحدًا لم يصبه في هذا الأمر بلاء، يقول: إن الله لا بد أن يتلي المؤمن، فإن صبر رفع درجته كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾. (٣٠)

الثامن: العيش بحسن الظن بالله تعالى، فالله عند ظن عبده به فليظن به ما شاء، فأحسن الظن كل الحسن بربك تعالى الذي لا يأتي بالخير إلا هو، لا يدفع الشر إلا هو، ولا إله إلا هو. واعلم أن انتظار الفرج عبادة المتوكلين الموقنين، وكل عسر يتبعه فرج ويسر، فما ابتلى ليُعذَّب ولكن ليُهذَّب، والبلاء يجمع بينك وبين الله والعافية تجمع بينك وبين نفسك، ويا ابن آدم لقد بورك لك في حاجة اكثرت فيها من قرع باب سيدك سبحانه.

فلا تظنن بربك ظنَّ سوء ... فإنَّ الله أولى بالجميل

ولا تظنن بنفسك قطَّ خيرًا ... فكيف بظالمٍ جانٍ جهولٍ

وظنَّ بنفسك السُّوءى تجدها ... كذلك خيرها كالمستحيل



وما بك من تقى فيها وخير ... فتلك مواهبُ الرّبِّ الجليلِ

وليس لها ولا منها ولكن ... من الرّحمن فاشكر للدليلِ

التاسع: مجاهدة النفس لله تعالى، فإن النفس جزوع هلوع حرون جهول لعوب، محتاجة لزمها على التقوى، وجرّها لمراتع الهدى، والرفق بها، حتى تذوق فتعرف فتغترف فتشاق فتسير فتعتاد وتثبت فتصل بإذن الله تعالى، قال الله تعالى: (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)، وقال: (وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ). فجاهد نفسك في الله تعالى، واحزم معها، وارفق بها، ودارها، وراعها، ومن ثبت نبت، (وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ).

العاشر: العلم بأنك قد بذلت وسعك بالاستخارة والاستشارة وبذل الوسع والتوكل على الله تعالى والاستعانة به وحسن الظن به، وهذا أقصى ما عليك، فلم يبق إلا ثلج اليقين بحسن الخلف، وبحر الرضا بتدبير المولى.

على العبد أن يسعى إلى الخير جهده ... وليس عليه أن تتم المقاصدُ

وإني لكثير الوقوف والاستدعاء والتأمل والتلذذ والتعلم من كلام لأنس رضي الله عنه في وصف تسليم رسول الله صلى الله عليه وسلم لربه في الأقدار، قال أنس: "والله لقد خدمته تسع سنين، ما علمته قال لشيء صنعته لم فعلت كذا وكذا، أو لشيء تركته هلاّ فعلت كذا وكذا". (٣١) فأني تسليم ورضا وراحة كهذا، (وإنك لعلي خلق عظيم)، (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين)، "أيها الناس، إنّما أنا رحمة مهداة". (٣٢) والرحمة المهداة للبشرية من لدن الرحمن الرحيم لا تكون إلا كاملة.



وإذا رحمت فأنت أم أو أب ... هذان في الدنيا هما الرحماء

صلوات الله وبركاته وسلامه ورحماته عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان،
وبالله وحده التوفيق، وعليه التكلان، وإليه المآب.

.....

١. البخاري (٦٣٨٢)

٢. مسلم ٥٦/٨ (٢٦٦٤) (٣٤)

٣. مسلم ٥٦/٨ (٢٦٦٤) (٣٤)

٤. أحمد (١٨٩٦٧) (٣٣٧/٤) من حديث أنس، وفيه سابق بن ناجية لم يوثقه غير ابن حبان. وقال محققو
المسند: صحيح لغيره. وجود سنده النووي في الأذكار، وحسنه ابن باز في تحفة الأختيار. وله شاهد من حديث أبي
سعيد الخدري عند أحمد (١١١٠٢) وهو حديث صحيح.

٥. مسلم (٩١٨)

٦. البخاري (٧٢٢٩) مسلم (١٢١١) (١٣٠)

٧. شرح كتاب التوحيد (٦٤) باب ما جاء في (لو)

٨. كتاب مجموع فتاوى ورسائل العثيمين. المناهي اللفظية (٤٩٥)

٩. فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٢٩٧ / ١٨)

١٠. وهو من الطويل، وهذه الأبيات معدودة هي من جزيل قصائد الحماسة، وهي عشرة أبيات،

قال عمرو:

ومرد على جرد شهدت طرادها ... قبيل طلوع الشمس أو حين ذرت

صبختهم بيضاء يبرق بيضها ... إذا نظرت فيها العيون ازمهرت

ولما رأيت الخيل زورا كأنها ... جداول زرع أرسلت فاسبطرت



وجاشت إليّ النفس أول وهلة... فرذت على مكروهاها فاستقرت
عَلَامَ تقول الرُمح يُثقل عاتقي... إذا أنا لم أظعن إذا الخيل ولت
عقرت جواد ابني ذريد كليهما... وما أخذتني في الختونة عزتي
لحا الله جرماً كلما ذر شارق... وجوه كلاب هارشت فازبأرت
ظللت كأني للرمح دريئة... أقاتل عن أبناء جرم وفرت
فلم تغن جرم نهدا إذ تلاقنا... ولكن جرماً في اللقاء ابدعرت
فلو أن قومي أنطقني رماحهم... نطقت ولكن الرماح أجرت

وكان من قصة هذه الأبيات أن جرماً ونهداً - وهما قبيلتان من قضاة - كثرت بطونهم فتلاحوا فاقتلوا وتفرقوا وتشتت أمرهم، وحرش الشيطان بينهم فقطعوا أرحامهم ووقع الشر بينهم، فلحقت نهد بن زيد ببني الحارث بن كعب فحالفوهم، ولحقت جرم بن ريان ببني زيد فحالفوهم، ثم وقعت الحرب بين الحارث وبني زيد واستتبع ذلك أن تحارب نهد جرماً، فتحاربت بنو الحارث وبنو زيد في الحرب التي كانت بينهم فالتقوا، وعلى بنى الحارث عبد الله بن عبد المدان، وعلى بنى زيد عمرو بن معدي كرب الزبيدي، فتعبي القوم، فاستعدت جرم لنهد، وتواقع الفريقان، فاقتلوا، فكانت الدبرة يومئذ على بنى زيد وانهموا، وقد فرت جرم عن حلفائها من زيد، فهزمت بنو زيد قوم عمرو بن معدي كرب، وانخذلت عنها جرم التي لم ترع حق الحلف. فهتف عمرو بهذه الأبيات الشاحخة الخامسة المتألمة الأبيّة، وروياها الرائق الماتع الفريد.

والمرد: جمع أمرد. الجرد: جمع أجرد، وهو الفرس القصير الشعر. الطراد: هو مطاردة الفرسان بأن يجعل بعضهم على بعض في الحرب. ذرت الشمس: طلعت وظهرت أول طلوعها. صبحتهم: جئتهم بالكتيبة صباحاً. بيضاء: يريد كتيبة بيضاء عليها بياض الحديد. بيضها: قلانس الحديد على رؤوسها، واحدها بيضة. ازمهت: احمرت من الغضب. الزور: جمع أزور وزوراء؛ وهو المعوج العنق. ورويت " رهواً": أي سراعاً متتابعة. الجداول: الأنهار الصغار. اسبطرت: امتدت في سرعة. جاشت: ارتفعت من فزع، وهذا ليس لكونه جباناً، بل هو بيان حال النفس، ونفس الجبان والشجاع سواء فيما يدمهما عند الوهلة الأولى، ثم يختلفان، فالجبان يركب نفرتة، والشجاع يدفعها فيثبت. لذلك قال: فرذت على مكروهاها: أي رددتها على الشدة. ومن ذلك قول ابن الإطنابة:



أَبْتُ لِي عَفْتِي وَأَبِي بَلَائِي ... وَأَخْذِي الْحَمْدَ بِالثَّمَنِ الرَّيْحِ
وَأَجْشَامِي عَلَى الْمَكْرُوهِ نَفْسِي ... وَضَرْبِي هَامَةَ الْبَطْلِ الْمَشِيحِ
وَقَوْلِي كُلَّمَا جَشَأْتُ وَجَاشَتْ ... مَكَانَكَ، تُحْمَدِي أَوْ تَسْتَرِيحِي
لَأُدْفَعَ عَنْ مَائِثَرِ صَالِحَاتٍ ... وَأَحْمِي بَعْدُ عَنْ عَرَضِ صَحِيحِ

أما الختونة التي ذكرها عمرو وهي من الختن أي المصاهرة، والختن: أبو امرأة الرجل وأخو امرأته وكل ما كان من قبل امرأته، والاسم الختونة. وقد ذكر الله القربان في قوله تعالى: (وهو الذي خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا وكان ربك قديرا) فالقربان بالنسب عصبه وخؤولة، وصهرا بالنكاح، ورضاعاً.

أما قوله: لحاه الله: أي أهلكه، وهو دعاء، وأصل اللحو نزع قشر العود. ذرّ شارق: طلعت الشمس. وجوه: بالنصب على الذمّ والشتم، أو بدل من «جرماً». هارشت: من المهارشة، وهي تقائل الكلاب. ازبأرت: انتفشت حتى ظهر أصول شعرها وتجمعت للوثب. الدريئة: الحلقة التي يتعلم الرامي الطعن والرمي عليها، فقوله: «ظللت كأني للرماح دريئة» أي: بقيت في نهاري منتصباً في وجوه الأعداء والطعن يأتيني من جوانبي أذب عن جرم، ويجوز أن يكون المعنى: كأني للرماح صيد. نهّد: قبيلة. لم تغنها جرم: لم تقاومها ولم تكفها ولكنها فرّت منها. وأضاف نهداً إلى ضمير جرم لاعتقادهم الاكتفاء بها. ابذعرت: تفرقت وتبددت. أجرت: الإجرار: أن يشق لسان الفصيل ويوضع فيع عويد لثلا يرضع. يقول: لو أن قومي قاتلوا وأبلوا لذكرت ذلك وفخرت بهم، ولكن رماحهم أجرتني، أي: قطعت لساني عن مدحهم لفرارهم، أراد أنهم لم يقاتلوا. وقال الجاحظ في البيان والتبيين (١٥٤/٢) «الجرار: عود يعرض في فم الفصيل أو يشقّ به لسانه لثلاً يرضع أمه. فيقول: قومي لم يطعنوا بالرماح فأثني عليهم ولكنهم فروا فأمسكت كالفصيل الذي في فمه جرار". وانظر: شرح الأصمعيات: (١٢١-١٢٢) ومعجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع للبكري (٤١/١).

وأقول: لعلّ سبب جرم سيوفها عن نهد تذكر الأرحام، فمعاداة الأقارب شر وبلاء، الرابع فيها خاسر، والمنتصر مهزوم، كما قال البحري في صلح بني تغلب وهي في الغاية من وصف آلام الصلة الجميلة التي اغتالها فتائل الغضب وقلائد الشيطان:

وَفُرْسَانِ هَيْجَاءٍ نَمِيْشُ صُدُوْرَهَا ... بِأَحْقَادِهَا حَتَّى تَضِيْقُ دُرُوْعُهَا
تُقْتَلُ مِنْ وَتَرٍ أَعَزَّ نَفُوْسَهَا ... عَلَيْهَا بِأَيْدٍ مَا تَكَادُ تُطِيْقُهَا



إِذَا احْتَرَبْتَ يَوْمًا فَفَاضَتْ دِمَاؤُهَا ... تَذَكَّرْتَ الْقُرْبَى فَفَاضَتْ دُمُوعُهَا

شَوَاجِرُ أَرْمَاحٍ تُقَطَّعُ بَيْنَهُمْ ... شَوَاجِرُ أَرْحَامٍ مَلُومٌ قَطُوعُهَا

فبعضهم يسفك دم بعض ويده لا تكاد تطاوع وتره، والدماء تفيض على الثرى، والدموع تسيل على المآقي، والرماح تقطع علائق الأرحام. والله المستعان.

والشاعر هو عمرو بن معدي كرب بن ربيعة بن عبد الله الزبيدي. ويكنى أبا ثور، من الشعراء المخضرمين، ولد سنة ٥٢٥ م، أي حوالي مئة سنة قبل الهجرة، وتوفي سنة ٦٤٢ / ٢١. فارس اليمن المشهور، وصاحب غارات المذكورة، وفد على المدينة سنة ٩ هـ، في وفد مذجج في عشرة من بني زبيد، فأسلموا وعادوا. ولما توفي النبي ﷺ ارتد عمرو في اليمن، ثم رجع إلى الإسلام، فبعثه أبو بكر إلى الشام، فشهد اليرموك، وفقد فيها إحدى عينيه. وبعثه عمر إلى العراق، فشهد القادسية، وكان عصي النفس، أبيًا. وشهد القادسية وهو ابن مئة وست سنين فيما يزعمون، وأبلى فيها بلاء عظيمًا. واختلف في وفاته، فقيل في القادسية وقيل بعد وقعة نهاوند.

١١. البخاري (٧٢٢٩) مسلم (١٢١١) (١٣٠)

١٢. وانظر: الفتاوى (٢٦ / ٨٩ - ٩٢)

١٣. أي: علمًا نافعًا يحجزه عن الحرام ويدفعه للإحسان والتقوى.

١٤. لاحظ وصف فعله في ماله بالخطب، إشارة لعدم الاتزان والاقتصاد والتحرز والتورع.

١٥. وذلك لخبث طويته، وخسة، طبيته وسوء معدنه، فإنه قد تمنى الحرام حتى وإن لم يكُ متمكنًا

منه.

١٦. أحمد (١٨٠٣١) بسند حسن من حديث أبي كبشة الأنباري، وله شاهد صحيح من حديث

أبي هريرة، ذكره الأرنؤوط. ورواه الترمذي (٢٣٢٥) وقال: حسن صحيح. وصححه الألباني.

١٧. البخاري ٢/١ (١) ومسلم ٤٨/٦ (١٩٠٧)

١٨. مسلم (٦٤٨٢)



١٩. نقلها ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٤٠٥/١١) وقوله: "أخطأت.. مثل يُضرب لمن لم يصب مَوْضِع الصواب.

وهذه الحادثة لها فوائد جمة فقهية ومسلكية، وقد جرت لقدامة بن مظعون رضي الله عنه، وهو أحد الصحابة الأخيار، إذ جلس يوماً مع بعض الصحابة يتذكرون القرآن، فتلوا قول الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [المائدة: ٩٣].. الآية. فقالوا: "الحمد لله، نحن ممن آمن، ونحن على صلاح وتقوى، وليس علينا جناح فيما طعمنا"، فجاءوا بالخمير فشربوها ظناً أنها حلال لهم. فعلم عمر رضي الله عنه بخبرهم، فجاء بقدامة ومن كان معه، وجمع لهم الصحابة، فسألوا قدامة بن مظعون لم؟ فتأول لهم الآية، فقال له عمر بن الخطاب: "أخطأت أستك الحفرة، لو اتقيت وآمنت وعملت الصالحات لم تشرب الخمر". ثم قال لمن حوله من كبار الصحابة: سلوهم فإن شربوها مستحلين كفروا، وإن شربوها متأولين جلدوا، فأقيم عليهم الحدّ، وفي هذا دليل على منع التكفير بالتأويل والشبهة.

وبقي قدامة بن مظعون رضي الله عنه دهرًا يبكي على نفسه، حتى خشي أن يصل به الأمر إلى اليأس من رحمة الله تعالى، فجاء به عمر رضي الله عنه مرة أخرى، ثم قال له: "لا أدري أيّ ذنبك أعظم: استحللك الخمر؟ أم يأسك من رحمة الله؟ وتلا عليه أول سورة غافر: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهَ الْمُصِيرِ﴾ [غافر: ٣] فذهب ما به وصلاح حاله رضي الله عنه وعن عمر.

٢٠. شرح الأربعين النووية عبد الكريم الخضير (٢١/١٤)

٢١. البخاري (٣٨٨٣) ومسلم (٢٠٨)

٢٢. ولا شك أن الأكمل والأجمل أن يقول: لولا الله، أو لولا أن الله يسّر بفلان ونحوه، فهذا أفضل وأحسن، أما الحديث ففيه بيان الجواز، والله أعلم.

٢٣. لقاء الباب المفتوح (٢٩) وانظر: شرحه لكتاب التوحيد (٤٦) فتاوى ابن عثيمين (٣/١٣٠)

٢٤. أبو داود (٤٧٠١) وصححه الألباني.

٢٥. ابن ماجه (٤١١٠) والترمذي (٢٣٢٠) وقال: "حديث صحيح غريب". وصححه الألباني

في الصحيحة (٩٤٠)



٢٦. أحمد (١٥٥٦٣) وصححه محققوه الأرنؤوط وأصحابه.
٢٧. أي: حاكم دومة الجندل، وقد أسرته خيل خالد بن الوليد رضي الله عنه بأمر الرسول صلى الله عليه وسلم أثناء غزوة تبوك في قصة جميلة حوت كثيرًا من دلائل نبوته صلى الله عليه وسلم.
٢٨. البزار في مسنده (٢٥٧/٣ - ٢٥٨) قال الألباني لما ساق سنده: وهذا إسناد جيد، رجاله كلهم ثقات على شرط مسلم. السلسلة الصحيحة (٣٣٤٦)
٢٩. أحمد (١٨٩٦٧) (٣٣٧/٤) من حديث أنس، وفيه سابق بن ناجية لم يوثقه غير ابن حبان. وقال محققو المسند: صحيح لغيره. وجود سنده النووي في الأذكار، وحسنه ابن باز في تحفة الأختيار. وله شاهد من حديث أبي سعيد الخدري عند أحمد (١١١٠٢) وهو حديث صحيح.
٣٠. خرجه يعقوب بن سفيان في المعرفة والتاريخ (١/ ٤٧٤، ٦٦٠) ومن طريقه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٨/ ٣٤٣)، وأبو العرب التميمي في المحن (٢٩٧) وورد بنحوه عن عمر بن عبد العزيز وكذلك الإمام أحمد رحمهم الله تعالى.
٣١. مسلم (٢٣١٠)
٣٢. ابن سعد في الطبقات (١/ ١٩٢)، وابن الأعرابي في المعجم ٢/ ٥٥٦ (١٠٨٨)، والبيهقي في الدلائل (١/ ١٥٩)، وصحيح الألباني إسناده مع إرساله في السلسلة (٤٩٠). وله شواهد.



عموم الرضا بالزمان والمكان واللون والجنس والنسب والزوج والولد والرزق وسائر أحوال الدنيا

إنّ الله تعالى أرحم بعبده من نفسه، وأعلم بما يصلحه في دينه ودنياه، فهو وكيله وربّه وسيدّه ومولاه ورازقه وخالقه ومالكه ومدبّر أمره، فلا خير واصل للعبد إلا من ربه، ولا شر مدفوع إلا بفضلّه، فله الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم وإليه نرجع، ولو وكل الله عبده لنفسه لباءت بالخسران، ورجعت بالخيبة، وانقلبت بالفشل والضيعة.

فعلى العبد العاقل الموفق الحازم أن يرضى بكل تفاصيل حياته المقدّرة من الله تعالى له، فيرضى بالزمان والمكان واللون والجنس والنسب والزوج والولد والرزق وسائر أحواله، فهو إنما صلح على هذه الأمور في دينه ودنياه، ولو وكله إلى نفسه أو إلى خلقه لانقطعت عنه أسباب السلامة والعافية ورفعت عنه حبال التوفيق والسعادة، فلو كان في زمان غير زمانه، أو أوجد في مكان أو بلد غير ما خلق فيه، أو زوج وولد وأقارب وجيرة وزملاء وأحاب غير من اختيروا له واختير لهم، أو كان ماله زائداً أو ناقصاً عمّا لديه، أو لونه أو جسده أو جنسه أو نسبه مغايراً؛ لربّما أفضى به ذلك إلى معاطب لم يتخيّلها، وسار به ذلك الحال المخالف لمهالك لم تكن لتقع لو أنه كان على تلك الحال التي اختارها مولاه له، ورُبّ أمر يتمناه العبد وفيه شؤمه. فليرض كل عبد بقسم الله له، فلربّما لو سار به قدر الله في غير مساره الذي مشاه؛ لكان حاله في أدرك بؤس وأعنت عيش وأشقى مصير!



وبما أن الأمر الذي يتمنى لو كان عليه لم يحدث أصلاً فهو غيب وعدم، والله وحده يعلم ما لم يكن لو كان كيف يكون، كما قال سبحانه في المتخلفين عن تبوك: (لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً ولأوضعوا خلالكم)، وقال في أهل النار حين يتمنون العود للدنيا: (ولو ردوا لعادوا لما نهو عنه)، فعلمه تبارك وتعالى قد أحاط بكل شيء ووسع كل شيء، وقد جعل سبحانه قدره سرّاً من أسرار خلقه، فالقدر هو عمادُ خلق الله تعالى لأنه متعلق بعلمه وكتابه ومشيته وخلقهِ جل جلاله، فقد قدر الله تعالى مقادير كلِّ الخلائق بكل تفاصيلها قبل خلقها، ورتب الأمور على بعضها تدبيراً محكماً لا تشوبه أدنى شائبة ولا ينقصه شيء، وأمورُ خلقه مرتبة على بعضها بإتقان وإحكام كامل، وكل أمر مرتب على سبب قبله، وهو سبب لغيره، فبين المقادير تسلسلٌ وترايط شديد التعقيد كامل الإحكام، وقد يرتب على حدث اليوم أمراً سيكون بعد ألف سنة، ولو اختلف مساره قليلاً لتغيّرت أمور لا تحصى متعلقة ببشرٍ لا يحصون!

فلو أن فلاناً - مثلاً - لم يلتق بفلان في ذلك الزمان والمكان؛ ما صارت بينهما معرفة وصحبة، وما تمّ بينهما مصاهرة، وهي التي سيكون منها ذرية من نسلٍ يتكاثر في بيئة كذا ومجتمع كذا ومتعلق بكذا وكذا من أمور حياة فئامٍ كثيرة من الناس، فينشأ أحد ذريته بين أحواله أو أعمامه، وبعدها يكون لحفيده شأن في الناس، فيكون إمام هدى أو داعية ضلال، مجدّد للأمة أو من فراعنتها، وربما حكمت هذه الأسرة بقاعاً من الدنيا فأقام الله بها شرعه وأنهض برجالها دينه، وربما كانت من شياطين حزب عدوّه. وليس الأمر في هذه الأمور الكبار فقط، بل حتى في أدنى التفاصيل، فلو أن فلاناً تأخر عن مكان كذا بثانية أو ثانيتين ما حصل ذلك الحادث، ولو أنه ما التفت ببصره لكذا لم يحدث كذا، ولو أن فلاناً ما وقع



منه القلم ما صار كذا وكذا، فربّ حدث يسير جدًّا ترتبت عليه أمور كبار، ولهذا نهينا عن كلمة "لو" إن كانت من باب التحسّر أو الاعتراض، لأنها فتح بابٍ للتحسّر على أمر قد كتبه الله تعالى وجعله من ضمن ناموسه الكوني الذي لا يتغيّر ولا يتبدل بعدما كتبت في اللوح المحفوظ، فالنظر فيه تحسّرًا أو اعتراضًا فيه منازعة للمُقدّر تبارك وتعالى في قضائه وقدره، في كتابته ومشئته وخلقه، فالله تعالى عالمٌ بكل شيء قبل وقوعه وقد كتبه وشاءه وخلقه، (إنا كل شيء خلقناه بقدر)، وفيها كذلك فتحُ بوابة القلب للشيطان الرجيم، فيلججه فيعيث في مدينته فسادًا وخرابًا وظلمةً وألمًا وشرورًا وسوء ظنٍّ بمن كل الخير منه وحده. فشرعية الله الكاملة قد سدّت منافذ الشيطان وحسّمت مواد فساده وأغلقت ذرائع مكرهه، فمن خالف وعصى فقد فتح على نفسه الوسوس والشكوك والضيق والعنت والاعتراض على الله رب العالمين.

وعلى ذلك؛ فيما أنّ مسارك الذي تتمنى أنك أوجدت فيه غيبٌ لا يعلمه إلا الله، وعدمٌ لم يخلقه الله، وأن الله تعالى -الذي هو أرحم وأعلم بك من نفسك - قد اختار لك هذا الزمان والمكان واللون والجنس والنسب والزوج والولد والرزق وغير ذلك مما تقوم به حياتك وابتلاؤك؛ فاعلم علمَ يقينٍ راسخٍ لا شك فيه أنّ الله سبحانه قد اختار لك ما هو أفضل لك من اختيارك لنفسك، أمّا الذين تتمنى أن تكون كحالهم فقد خلقهم الله تعالى في حالٍ لعلك إن أعطيتهُ شقيت شقاء الأبد، ولو أنّهم أعطوا حالك لم يسعدوا، وكلُّ مُيسرٍ لما خلقت له، فانغمس بكل قلبك في بحر الرضا وثلج اليقين وبرد الحمد.

وَكَمْ رُمْتُ أَمْرًا خَرَّتْ لِي فِي أَنْصَرَفِهِ ... وَمَا زِلْتُ بِي مِنْ بِي أَبْرَ وَأَرْحَمَا



ومن مصالح الرضا بالله وأقداره أن المرء يستريح من عنتِ الترقب وكآبة المقارنة وقلق الأمانى وسوداوية النظر للحال، فيعيش متأدبًا مع جناب ربه، متصالحًا مع نفسه، متعايشًا مع حاله، رضيَّ المحيَّا حسنَ الأخلاق مع الناس، فلا شيء من الدنيا في نظر الراضي بالله يستحق العناء.

ولنقف عند مثال شديد الوضوح لأعلى أمنية زمانية عند أكثر المؤمنين، وهي صحبة خاتم المرسلين صلوات الله وسلامه وبركاته عليه، ولنرَ توجيه الصحابي الجليل المقداد بن الأسود رضي الله عنه (١) حيال ذلك؛ فقد روى أحمد في مسنده والبخاري في الأدب المفرد (٢) عن جبير بن نفير قال: جلسنا إلى المقداد بن الأسود يومًا، فمرَّ به رجل، فقال: طوبى لهاتين العينين اللتين رأتا رسول الله صلى الله عليه وسلم، والله، لوددنا أننا رأينا ما رأيت، وشهدنا ما شهدت، فاستغضب، فجعلتُ أعجب، ما قال إلا خيرًا!

ثم أقبل عليه فقال: "ما يحمل الرجل على أن يتمنى محضرًا غيبه الله عنه؟ لا يدري لو شهده كيف يكون فيه؟ والله، لقد حضر رسول الله صلى الله عليه وسلم أقوامٌ كبهم الله على مناخرهم في جهنم؛ لم يجيبوه ولم يصدّقوه. أو لا تحمدون الله عز وجل إذ أخرجكم لا تعرفون إلا ربكم، فتصدّقون بما جاء به نبيكم صلى الله عليه وسلم، قد كُفّيتم البلاء بغيركم.

والله لقد بُعث النبي صلى الله عليه وسلم على أشدِّ حالٍ بُعث عليها نبيٌّ قطّ، في فترة وجاهلية، ما يرون أن دينًا أفضل من عبادة الأوثان، فجاء بفرقان فرّق به بين الحق والباطل، وفرّق به بين الوالد وولده، حتى إن كان الرجل ليرى والده أو ولده أو أخاه كافرًا، وقد فتح الله قُفْلَ قلبه بالإيمان، ويعلم أنه إن هلك دخل النار، فلا تقرّ عينه، وهو



يعلم أن حبيبه في النار، وأنها لتي قال الله عز وجل: {والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قررة أعين} [الفرقان: ٧٤].

وتدبر قول الله تعالى في بيان أحوال بعض خلقه ممن تمنوا أشياء ولم يعلموا أن الله قد حفظهم عنها رحمة بهم: (قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم (٧٩) وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها إلا الصابرون (٨٠) فخشفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين (٨١) وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا أن من الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون)، وتدبر رحمة الله تعالى بمن يبكي لفراق شخص كان ذهابه خيرا لهما من بقاءه: (وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقها طغيانا وكفرا * فأردنا أن يبدلها ربهما خيرا منه زكاة وأقرب رحما).

واعلم - رحماني الله وإياك - أن الألم الذي يجتوي فؤادك - أيًا كان - إنما هو محض ابتلاء يُمحص دينك وينقي صحيفتك ويرفع درجتك ويُعلي مقامك عند ربك إن أحسنت استقباله، فاشكره واحمده وارض به وبقضائه، وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل"، (٣) والأمثل هو الأشرف والأعلى رتبة في الدين. ولك في رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة، فقد أخرج الشيخان (٤) عن عائشة رضي الله عنها قالت: "إن كنا لننظر إلى الهلال ثلاثة أهلة، وما أوقدت في أبيات رسول الله صلى الله عليه وسلم نار". (٥) فقلت: ما كان يعيشكم؟ قالت: الأسودان التمر والماء. وهو أكرم الخلق على الله تعالى.



واعلم أن الله تعالى يعطي ويمنع عبده بما يصلحه، قال تعالى: (وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ) [الشورى: ٢٧].
وتدبر قول الله تعالى: (ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين (٧٥) فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون (٧٦) فأعقبهم نفاقا في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون).

وذكر الحافظ ابن رجب رحمه الله تعالى في شرح حديث الوليِّ (٦) عن أنس رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم، عن جبريل عليه السلام، عن ربه تعالى وتقدس قال: " .. وَإِنَّ مِنْ عِبَادِي الْمُؤْمِنِينَ مَنْ يَسْأَلُنِي الْبَابَ مِنَ الْعِبَادَةِ فَأَكْفُهُ عَنْهُ، وَلَوْ أَعْطَيْتُهُ إِيَّاهُ لَدَاخَلَهُ الْعُجْبُ وَأَفْسَدَهُ ذَلِكَ، وَإِنَّ مِنْ عِبَادِي الْمُؤْمِنِينَ مَنْ لَا يَصْلِحُ لَهُ إِلَّا الْغِنَى وَلَوْ أَفْقَرْتَهُ لَأَفْسَدَهُ ذَلِكَ، وَإِنَّ مِنْ عِبَادِي الْمُؤْمِنِينَ مَنْ لَا يَصْلِحُ لَهُ إِلَّا الْفَقْرُ، وَلَوْ أَغْنَيْتَهُ لَأَفْسَدَهُ ذَلِكَ، وَإِنَّ مِنْ عِبَادِي الْمُؤْمِنِينَ مَنْ لَا يَصْلِحُ لَهُ إِلَّا الصِّحَّةُ وَلَوْ أَسْقَمْتَهُ لَأَفْسَدَهُ ذَلِكَ، وَإِنَّ مِنْ عِبَادِي الْمُؤْمِنِينَ مَنْ لَا يَصْلِحُ لَهُ إِلَّا السُّقْمُ وَلَوْ أَصْحَحْتَهُ لَأَفْسَدَهُ ذَلِكَ. إِنْ أُدْبِرَ عِبَادِي بِعِلْمِي بِقُلُوبِهِمْ، إِنْ عَلِمْتُ خَيْرٌ". وفي رواية: "أتاني جبريل، فقال: يا محمد، ربك يقرأ عليك السلام، ويقول: إن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا بالغنَى ولو أفقرته لكفر، وإن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا القِلَّةُ ولو أغنيته لكفر، وإن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا بالسقم ولو أصححته لكفر، وإن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا بالصحة ولو أسقمته لكفر". (٧)

فليس معيار التفضيل رخاء الحال أو رقتة، ولا طول الجسد أو لونه أو شكله أو سلالته أو زمانه أو مكانه، والأرض لا تقدس أحداً والعصر لا يزكيه، إنما يزكيه ويرفعه ويكرمه



إيمانه وتقواه، قال سبحانه: (إِنْ أكرمكم عند الله أتقاكم)، وقال سبحانه: (فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ) [الفجر: ١٥-١٦] ، وقال تعالى: (وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرَّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا) [سبأ: ٣٧].

وقد علق الكلاباذي رحمه الله تعالى على الحديث، بقوله: "وقوله: "إِنْ مِنْ عبادي المؤمنين من لا يصلح إيمانه إلا الغنى، لو أفقرته لأفسده ذلك"، هذا من نصيحته له، وذلك أن الله تعالى إنما أحبَّ المؤمن لإيمانه؛ لأنه لما أحبه كتب في قلبه الإيمان، وحبّه إليه، وكره إليه الكفر والفسوق والعصيان، فهو سبحانه يصرّفه عما يخل بإيمانه؛ لئلا يخرج في حبه إياه شيء. وقد خلق الله عباده على طبائع مختلفة وأوصاف متفاوتة، فمنهم القوي، ومنهم الضعيف، ومنهم الرقيق، ومنهم الكثيف، ومنهم الوضيع، ومنهم الشريف. فمن علم الله تعالى من قلبه ضعفاً لا يتحمل الفقر أغناه، إذ لو أفقره إياه فهو سبحانه يغنيه، فيقرّبه بذلك منه، ويدنيه، فيصونه بغناه من أن ينصرف بحاجته إلى سواه... فإذا كان الفقر لبعض الناس مُنسياً، صرف الحق عن عرف ذلك منه الفقر؛ لأنه لا يجب أن ينسأه حبيبه، وكذلك من علم أن لا يصلح إيمانه إلا الفقر أفقره؛ لأنه تعالى يعلم أن الغنى يطغيه، وأن الفقر لا ينسيه، بل يشغل لسانه بذكره، والثناء عليه، وقلبه بالتوكل عليه، والالتجاء إليه". (٨) وقال العثيمين رحمه الله تعالى في ذلك: "فالغني ربما يطغى بغناه ويستكثر، والفقير ربما يقنط من رحمة الله ويستحسر ويستبعد الفرج، فيكون الأول فاسداً بطغيانه، والثاني فاسداً بيأسه وقنوطه". (٩)



وتأمل دعاءه صلى الله عليه وسلم وتسليمه لربه ورضاه به في قوله: "ماضٍ فيَّ حكمك، عدلٌ فيَّ قضاؤك". (١٠) قال ابن تيمية رحمه الله تعالى: "وإذا عُرِفَ أن كل واحد من الابتلاء بالسراء والضراء قد يكون في باطن الأمر مصلحةً للعبد أو مفسدةً له، وأنه إن أطاع الله فذلك كان مصلحةً له، وإن عصاه كان مفسدةً له؛ تبيّن أن الناس أربعة أقسام: منهم من يكون صلاحه على السراء، ومنهم من يكون صلاحه على الضراء، ومنه من يصلح على هذا وهذا، ومنهم من لا يصلح على أحدٍ منها. والإنسان الواحد قد يجتمع له هذه الأحوال الأربعة في أوقاتٍ أو وقتٍ واحدٍ، باعتبار أنواعٍ يبتلى بها". (١١) وتأمل كذلك دعاء الاستخارة وما تضمّن من معاني الخيرة الإلهية لعبد.

هذا؛ وقد بيّن النبي صلى الله عليه وسلم المعيار الصحيح للمفاضلة عند الله كما في المسند (١٢) من حديث أبي نضرة، حدثني من سمع خطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم في وسط أيام التشريق فقال: "يا أيها الناس، ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا أحمر على أسود، ولا أسود على أحمر، إلا بالتقوى".

قال ابن رجب في تفسيره: "قال ابن عباسٍ في قوله تعالى: (واعلموا أن الله يحوّل بين المرء وقلبه): قال: يحوّل بين المؤمن وبين المعصية التي تجرّه إلى النار. وقال الحسنُ - وذكر أهل المعاصي - : هأنوا عليه، فعصوه، ولو عزّوا عليه لعصمهم. وقال ابن مسعودٍ: إنّ العبدَ ليهمُّ بالأمر من التجارة والإمارة حتى يُيسرَ له. فينظرُ اللهُ إليه فيقولُ للملائكة: اصرفوه عنه، فإنه إن يسرتهُ له أدخلته النار، فيصرفه اللهُ عنه، فيظلُّ يتطيّرُ يقولُ: سبقني فلانٌ دهاني فلان، وما هو إلا فضلُ الله عز وجل". (١٣)



وتأمل نعم الله العديدة عليك حتى لا تقع في سوء ظن به عز وجل، واعلم أنك مهما اجتهدت في عدها فلن تستطيع إحصائها كما قال سبحانه: (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ) [النحل: ١٨] واعلم أن الخيرة كلها إنما هي فيما اختاره الله عز وجل لك، وأنك إن ابتليت بما به تألّمت أو ضاق له صدرك أو نفرت عنه نفسك فهو خير لك وإن جهلت العاقبة (وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون) صدق الله؛ فالله يعلم ونحن لا نعلم. لا نعلم ما يصلحنا على التفصيل، ولا نعلم ما يترتب على أفعالنا وأحوالنا في قابل الزمان. ففي المال مثلاً - وهو غالب الأمنيات العاجلة لأكثر بني الإنسان - لا يعلم المرء أين الخير فيه بالضبط، فلربما زاد فأفضى إلى البطر والأشر والمعاصي والطغيان، ولربما نقص فطرح صاحبه على ساحل القنوط وسوءات الظن بالله تعالى، وتدبر بقلبك قوله الله تبارك وتعالى: (ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء إنه بعباده خبير)، قال العلامة ابن سعدي مفسراً هذه الآية الكريمة: "أي لغفلوا عن طاعته، وأقبلوا على التمتع بشهوات الدنيا، فأوجبت لهم الانكباب على ما تشتهيهِ نفوسهم، ولو كان معصية وظلماً". (١٤)

وأجمل بردّ عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى على من بكّته بأنه قد أفقر ولده من بعده: فعن هاشم قال: "لما كانت الصّرة التي هلك فيها عمر، دخل عليه مسلمة بن عبد الملك، فقال: يا أمير المؤمنين؛ إنك أفقرت أفواه ولدك من هذا المال، وتركتهم عيلة لا شيء لهم، فلو وصيت بهم إليّ، وإلى نظرائي من أهل بيتك. قال: فقال: أسندوني، ثم قال: أمّا قولك إنني أفقرت أفواه ولدي من هذا المال، فوالله إنني ما منعتهم حقاً هو لهم، ولم أعطهم ما ليس



لهم، وأما قولك: لو أوصيت بهم، فإنّ وصيّ ووليّ فيهم الله الذي نزل الكتاب، وهو يتولى الصالحين. بنى أحد الرجلين، إما رجل يتقي الله، فسيجعل الله له مخرجاً، وإما رجل مكبّ على المعاصي، فإنّي لم أكن أقوى على معاصي الله.

ثم بعث إليهم، وهم بضعة عشر ذكراً، قال: فنظر إليهم فذرفت عيناه، ثم قال: بنفسى الفتية الذين تركتهم عيلة لا شيء لهم، فإنّي بحمد الله قد تركتهم بخير، أي بنى؛ إن أباكم مثّل بين أمرين: بين أن تستغنوا، ويدخل أبوكم النار، أو تفتقروا ويدخل أبوكم الجنة، فكان أن تفتقروا، ويدخل الجنة أحبّ إليه من أن تستغنوا ويدخل النار. قوموا عصمكم الله". (١٥) وباللّٰه التوفيق، واللّٰه أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على محمد وآله وصحبه ومن تبعهم بإحسان، والحمد لله رب العالمين.

.....

١. هو المقداد بن عمرو الكندي، واشتهر بالمقداد بن الأسود، لأنه قدم إلى مكة وحالف الأسود بن عبد يغوث الزهري، فتنبأه الأسود، فصار يقال له المقداد بن الأسود، تزوج ضباة بنت الزبير بن عبد المطلب ابنة عم النبي ﷺ، هاجر الهجرتين، وشهد بدرًا والمشاهد بعدها، قال عنه عاصم بن زرر: أول من قاتل على فرس في سبيل الله المقداد بن الأسود. مات المقداد في خلافة عثمان سنة ثلاث وثلاثين من الهجرة، وهو ابن سبعين سنة، رضي الله عنه وأرضاه. وانظر: الإصابة في تمييز الصحابة للحافظ بن حجر (٦/ ٢٠٢-٢٠٣)

٢. المسند (٢٣٨١٠) والأدب المفرد (٨٧) وصححه الألباني.

٣. أحمد (١٤٩٤) وحسنه محققوه من أجل عاصم بن بهدله. وصححه الألباني في صحيح الجامع (٩٩٦)

٤. البخاري ٢٠١/٣ (٢٥٦٧)، ومسلم ٢١٨/٨ (٢٩٧٢) (٢٨)

٥. أي تمرّ عليهم ثلاثة أشهر وهم لا يطبخون شيئاً.

٦. (١/ ٩٤)



٧. أخرجه ابن أبي الدنيا مطولاً في أول كتابه الأولياء (١)، وأبو نعيم في الحلية (٣١٩/٨)، والكلاباذي في المعاني (٣٧٧/١) والبغوي في شرح السنة (٥/٢١) والطبراني (٢٦٤/٨) وابن عساكر (٩٥/٧) وأخرجه الخطيب (١٤/٦) وقال ابن الجوزي في العلل المتناهية (٣١/١): لا يصح. وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٧٥/١). والرواية الثانية أخرجها الخطيب في تاريخ بغداد (٦/٥٠٣) ومدارها على يحيى بن عيسى الرملي وهو ضعيف، فالحديث ضعيف. وللحديث ألفاظ متقاربة، ولم أقف على شيء منها صحيح خلا بعض ألفاظه، وإن كانت معانيها صحيحة، وهي صالحة للاعتبار، وقد استشهد بها الأئمة، كالبعوي وابن تيمية وابن القيم وابن رجب وابن كثير وغيرهم.

٨. بحر الفوائد المشهور بمعاني الأخبار (٣٨٢-٣٨٣)

٩. تفسير العثيمين، سورة سبأ (٢٢٧/١)

١٠. أحمد (٤٣١٨) وابن حبان (٩٧٢) وصححه الأرناؤوط.

١١. قاعدة في المحبة (١ / ١٧٠)

١٢. المسند (٢٣٤٨٩) وصححه محققوه.

١٣. تفسير ابن رجب (٣١٤/٢)

١٤. تفسير السعدي (١ / ٧٥٨)

١٥. حلية الأولياء (٥ / ٣٣٣)، وصفة الصفوة (٢ / ٧١)



حكم الرضا

إن للرضا أنواع: منها الرضا بالله ربًّا ومعبودًا. وهذا أساس الإيمان، ولا يصح دين المرء بدونه، ومن توابع ذلك: الرضا بالإسلام، وبالرسول صلى الله عليه وسلم، وبالقرآن، ونحو ذلك مما جاء عن الله تعالى. ومن ذلك: الرضا بقضاء الله وقدره. وهو منقسم لنوعين:

أحدهما: الرضا بالقضاء، وهذا تابع للنوع الأول؛ فهو واجب وفريضة وهو أحد أركان الإيمان التي لا يصح إلا بها.

أما النوع الثاني: فهو الرضا بالمقضي، أي مفعولات الله تعالى بعبده، فليس المراد هنا فعل الله أنها مفعوله، أي ليس هو صفة الله التي هي الخلق والتقدير، إنما هو مخلوق الله تعالى الذي هو نفس المصيبة، مثاله: المرض، فالمرض يكتنفه جانبان: الأول: من جهة أن الله هو الذي قدره؛ فهذا هو النوع الأول، وهو القضاء. والثاني: من جهة ذات المرض والإحساس به والتألم منه، فهذا هو المراد هنا، فهو المقضي.

وهذا النوع - أي الرضا بالمقضي - قد اختلف العلماء في حكمه بين الوجوب إلحاقاً بالنوع الأول، لأنها في النهاية راجعة إلى قضاء الله تعالى، والاستحباب - وهو الراجح - لانفكاك جهته تصوُّراً في الذهن، لأنه مخلوق من جملة المخلوقات، وليس هو ذات القضاء والقدر، وأيضاً لمشقة احتمال هذا النوع على أكثر الناس، وربما يكون فيه نوع حرج على



كثير منهم، والشريعة لا تأتي بالخرج، قال الله تعالى: (ما جعل عليكم في الدين من حرج)، وقال سبحانه: (لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها).

ومما تلزم معرفته في الدين؛ أن الله تعالى قد اقتضى كماله وحكمته ألا يخلق شرًا محضًا لا خير فيه بوجه من الوجوه، فهو منزّه عن ذلك جل وعلا، أما الشيء الذي فيه جانبان أحدهما شرٌّ من جهة المخلوق وخير من جهة الحكمة الخالق فهو ليس بشرٍّ محض، فما فيه من إمضاء حكمة الله وحسن تدبيره وتقديره فهو خير، وما فيه من قطع مدد الخير عنه فهو شر.

واعلم أنه لا يوجد في المخلوقات البتّة شرٌّ محض، بل لا شرٌّ إلا وفي ثناياه خير علمه وعلم بعض حكمته من علمه وجهله من جهله، ولتوضيح ذلك: فأصل الشرور والذنوب والمعاصي والخبائث في هذا الكون هو إبليس أعاذنا الله منه، ولا شر في الوجود أشر منه، ومع هذا ففي خلق الله له حكم سامية وخير كثير، ومن أعظم ذلك إقامة الدين على سنّة التكليف والابتلاء، فبثّ الله الإنس والجن وأمدّ من شاء منهم بفضله وهداه وتوفيقه فعملوا بطاعته فنالوا مرضاته، وخذل من شاء منهم فتحرّكت نفوسهم الخالية المحرومة من توفيق الله للشر.

والمقصود؛ أن كل شرٍّ فإنه يقصّر دون شرِّ إبليس الرجيم، ومع هذا ففي خلق الله له جهةٌ خيرٍ ومنافع ما كانت لتكون بأمر الله لو لم يوجد هذا الشرُّ الإبليسي، وبهذا فلا يوجد في الوجود شرٌّ محض.



وبهذا يتبين لنا معنى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: "والشرُّ ليس إليك"، (١) فالشر داخل في جملة مخلوقات الله تعالى، فينسب إليه في جملة عموم خلقه، ولا يُضاف إليه إفرادًا وقصدًا، فلا يقال: الله خالق الشر، ومقدّر الشر، وإن كان هو الخالق والمقدر لهما جميعًا، كما في قوله تعالى: (الله خالق كل شيء)، بل يُؤتى بصيغة المبني لما لم يُسم فاعله، كقوله تعالى: ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾، فأضاف الشر إلى الخلق، ولم يصفه إلى الله تنزيهًا له، مع أنّ كلها من جملة مخلوقاته سبحانه وتعالى، ومن ذلك قوله ﷺ: "أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق"، (٢) ولم يقل: من الشر الذي خلقه الله. وعليه؛ فالشر داخل في عموم مخلوقات الله تعالى، لكنه لا يُنسب إلى الله تعالى لأمرين:

الأول: الأدب مع جناب الله تبارك وتعالى، كما جاء في القرآن الكريم، كما في قوله تعالى على لسان الجن: (وأنا لا ندرى أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً)، فأسند الخير إلى الله، وأبهم إرادة الشر. ومنه وقوله تبارك وتعالى في فاتحة الكتاب: (صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم). وانظر لأدب الخليل عليه السلام حينما قال: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾، فنسب المرض إلى نفسه، وأضاف الشفاء إلى ربه، وإن كان الجميع منه سبحانه وبحمده. وتدبر أيضًا حسن الوصف في خبر الخضر عليه السلام بإضافة إرادة التعيب إلى نفسه والرحمة إلى ربه، فقال فيما أخبر الله تعالى عنه: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾، ولما ذكر إرادة الخير والرحمة باليتيمين أضاف ذلك إلى الله تعالى فقال: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾.



الثاني: عدم وجود الشرِّ المحض أصلاً في المخلوقات، والشر المحض هو الذي لا حكمة في تقديره، فكيف تنسب شيئاً لله تعالى وهو غير موجود على الإطلاق؟ فما من شر في الخلق إلا وفيه جانب خير اقتضته حكمة الخلاق العليم الخبير الحكيم سبحانه.

وبهذا يتبين أن الشرَّ أمرٌ نسبيّ، أما حقيقة فعل الله تعالى وقضائه وقدره فإنه ليس بشرّ، لأن فيه خير باعتبار آثاره الحميدة. والشرور الموجودة في دار التكليف هي شرور بالنسبة للعبد، فالكفر والنفاق والشرك والمعاصي هي شرٌّ نسبيّ بالنسبة إلى العبد الذي فعلها، لكنّ هذا الشرّ بالنسبة إلى الله تعالى فإنه يضاف إليه إضافة خلق، بمعنى أنها من جملة مخلوقات الله تعالى، فالله خالق كل شيء، وما من شيء إلا والله وحده خالقه تبارك وتعالى، فالله تعالى قد قدر الكفر والشرك لحكمة، فهي بالنسبة إلى الله خير؛ لما ترتب عليها من حكم عظيمة؛ كانقسام الخلائق إلى سعداء وأشقياء، وقيام سوق الجنة والنار، وقيام ساق الابتلاء والمجاهدة، وظهور آثار صفات الكمال لله تعالى كالعزة والغضب والانتقام من أعدائه، ونفاذ كمال القدرة وجمال الخليفة بخلق المتضادات والمختلفات والمتقابلات، وغير ذلك كثير.

ومن هذا الباب جاء الأمر بالإيمان بالقدر خيره وشره، والمراد بالشر في القدر هنا هو شر المقدور، أي المخلوق والمقضيّ، فالشرّ فيه إنما هو باعتبار المفعول لا باعتبار الفعل، وكذلك القضاء فمن حيث هو فعل الله فكله خير محض، ومن حيث هو المقضيّ ففيه جهتان منفكتان: الأولى: جهةٌ خيرٍ للحكم الحميدة المترتبة عليه أيّاً كان، فكل فعل الله خير، والثانية: قد يكون فيه خير لإمداد الله له بالخير، وقد يكون فيه شرّ بسبب قطع أسباب الخير من الله عنه. ومن ذلك دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم: "وقنا شر ما قضيت"،



(٣) فالقضاء هنا هو القدري الكوني، (٤) وهو المقضي، فمن حيث هو قضاء الله فهو خير، ومن حيث هو المقضي ففيه شرٌّ غير متمحّض، فالعبد يسأل ربه أن يقيه ذلك الشر.

هذا؛ وإن من المهمات جدًّا في هذا الباب الشائك معرفة أن قدر الله تعالى ليس هو فقط المستقبل، بل هو أيضًا هذا الحاضر الذي عليه تُبنى أمور المستقبل بتدبير الله الحكيم سبحانه، ويلحق بذلك معرفة العقل الذي توزن به الأمور في الشرع، فهل هو عقل فلان أو عقل فلان، أم هو العقل المنتظم لدى العقلاء الذي لا يختلفون على تقريراته؟

هو الثاني بلا شك، لأن عقل الإنسان الواحد يعتريه الضعف والنقص والعجز والوهم والهوى والنسيان، بل يعتريه تبدل الآراء في ثاني الحال، فتجد أن ما قرره عقلك اليوم هو عين ما نفاه غدًا، وما ظننته يومًا واجب التصديق بوزن المناطقة - البعيد عن عصمة الوحي المنزل - إذ بك ترى خللاً فيه ينزله عن رتبة الواجب للجائز، وقد ينزل بأخرةٍ للمستحيل!

وعليه؛ فالعقل الذي هو مناط التكليف هو عقلك الخاص بك، أما العقل الذي يرجع إليه العقلاء، ويشيرون إليه بالأمر التي يقبلها العقل الصحيح أو يحيلها ونحو ذلك؛ فهو العقل المنتظم لمجمل آراء العقلاء، والذي انتظم عقولهم إجماعًا، فإن خالفه يومًا أحد قالوا: قد خالف العقل.

واعلم أن المعيار الضابط لهذا العقل العام هو الشرع المطهر المصون، فما قرره الشرع صريحًا صحيحًا علمنا أن العقل العام للعقلاء يقبله، وما نفاه الشرع أو منع منعه ونحو ذلك فحينها نعلم يقينًا أنه يخالف للعقل الصحيح، ومحصلة هذا أمران:



الأول: أنه لا تعارض البتة بين النص الصحيح الصريح وبين العقل الصحيح، فإن ظهر تعارض فالأمر عائد إما لعدم صحة النص (الكتاب والسنة) وإما لعدم صراحته، وبالتالي الخطأ في فهمه، وإما لخطأ التقرير العقلي أصلاً، فإن كان النص صحيحاً صريحاً كنصوص الإيمان والصفات واليوم الآخر والقدر والنبوات ونحو ذلك؛ فحينها يكون الخلل في التصور العقلي للشخص الذي ظن وجود تعارض، إذ لا تعارض البتة بين ما قاله الله تعالى وبين ما خلقه، فالعقل خلقه والشرع أمره، (ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين).

الثاني: أن معيار العقل السليم هو الشرع الصحيح، ومن زعم التعارض بين دلائل الشرع وموارد العقل؛ فعليه أن يراجع ميزان دلائل وتصورات عقله مع العقل المنتظم للعقلاء، وهو ما تبينه الشريعة الغراء، فإن هذا العقل الصحيح يستحيل أن يخالف الشرع، (صنع الله اذي أتقن كل شيء)، (ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت).

وإن من أنواع الرضا عند التقسيم: الرضا بالمعاصي والفساد. وهو النوع يحرم الرضا به، فلا يُشرع الرضا ولا يحل إلا بما رضىه الله تعالى، حتى وإن كان داخلياً في عموم خلقه له. ولا يرد علينا أن الله تعالى أراد، ذلك أن إرادة الله تعالى منقسمة لقسمين:

أحدهما: إرادة دينية شرعية. وهي مرتبطة بالأمر لا بالقدر، كالصلاة والصيام والذكر والدعاء، فهي محبوبة شرعاً وقدرًا، وحكم الرضا بها واجب.

والثاني: إرادة كونية قدرية. وهي مرتبطة بالقدر لا بالأمر، فقد يُقدر الله تعالى شيئاً وهو لا يحبّه شرعاً، ككفر أبي جهل مثلاً، وقد يقدر الله شيئاً وهو يحبه شرعاً، كإسلام أبي



بكر رضي الله عنه، والحكم: أن نرضى بما يحببه الله تعالى، ونسخط ما يكرهه سبحانه. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "الرضا نوعان: أحدهما: الرضا بفعل ما أمر الله به وترك ما نهى عنه. ويتناول ما أباحه الله من غير تعدد محذور. وهذا الرضا واجب، كما قال: { والله ورسوله أحق أن يرضوه } ولهذا ذم من تركه بقوله: (ومنهم من يلمزك في الصدقات فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون* ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون (التوبة / ٥٩)).

والنوع الثاني: الرضا بالمصائب: كالفقر والمرض والذل. فهذا رضا مستحب في أحد قولي العلماء، وليس بواجب، وقد قيل: إنه واجب. والصحيح أن الواجب هو الصبر. كما قال الحسن: "الرضا عزيز، ولكن الصبر معول المؤمن". (٥) وقد روي في حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن استطعت أن تعمل بالرضا مع اليقين فافعل، فإن لم تستطع فإن في الصبر على ما تكره خيرًا كثيرًا». (٦)

وأما الرضا بالكفر والفسوق والعصيان: فالذي عليه أئمة الدين أنه لا يرضى بذلك، فإن الله لا يرضاه كما قال: (ولا يرضى لعباده الكفر) (الزمر / ٧)، وقال: (والله لا يحب الفساد) (البقرة / ٢٠٥)، وقال تعالى: (فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين). (٧) وقال أيضًا: "أكثر العلماء على أن الرضا بالمصائب مستحب وليس بواجب؛ لأن الله أثنى على أهل الرضا بقوله: (رضي الله عنهم ورضوا عنه) وإنما أوجب الله الصبر، فإنه أمر به في غير آية، ولم يأمر بالرضا بالمقدور، ولكن أمر بالرضا بالمشروع، فالمأمور به يجب الرضا به". (٨) "وأما الرضا بما أمر الله به فأصله واجب، وهو من الإيمان، وهو من توابع المحبة". (٩)



وهنا ملحظ دقيق جداً بخصوص مشروعية الرضا بالمعاصي من جهة كونها خلقاً وقدراً لله تعالى، دون كونها في ذاتها معصية له مسخوطة منه ومن أوليائه سبحانه وتعالى، ولكن لا يُحسن فهم هذا كلُّ أحد، وعليه؛ فقد لا يحسن إيراد هذا على ما يخشى عليهم عدم فقهه أو حملة على غير محمله، (١٠)

فَيُضَلُّونَ بِالرِّضَا بِالْمَعَاصِي لِذَاتِهَا، فَيُرَكَّبُونَهَا مَعَ زُمْرِ الضَّالِّينَ، زَعَمًا مِنْهُمْ بِالْجُرِي مَعَهَا رِضًا بِإِرَادَةِ اللَّهِ الْكُونِيَّةِ حَتَّى وَإِنْ سَخَطَهَا اللَّهُ تَعَالَى شَرَعًا وَدِينًا! قَالَ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: "أَمَّا الْمَعَاصِي فَتُرْضَى مِنْ جِهَةِ كَوْنِهَا مِضَافَةً إِلَى اللَّهِ خَلْقًا وَتُسَخَطُ مِنْ جِهَةِ كَوْنِهَا إِلَى الْعَبْدِ فِعْلًا وَكِسْبًا. وَهُوَ سَبْحَانَهُ إِنَّمَا قَدَّرَ الْأَشْيَاءَ لِحِكْمَةٍ، فَهِيَ بِاعْتِبَارِ تِلْكَ الْحِكْمَةِ مَحْبُوبَةٌ مَرْضِيَّةٌ، وَقَدْ تَكُونُ فِي نَفْسِهَا مَكْرُوهَةً وَمَسْخُوطَةً، إِذْ الشَّيْءُ الْوَاحِدُ يَجْتَمِعُ فِيهِ وَصِفَانِ يُحِبُّ مِنْ أَحَدِهِمَا وَيُكْرَهُ مِنَ الْآخَرِ". (١١) "وَفَرَّقَ بَيْنَ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ، وَمَا يُرَادُ لِإِفْضَائِهِ إِلَى الْمَحْبُوبِ مَعَ كَوْنِهِ مَبْغُضًا مِنْ جِهَةِ أُخْرَى، فَإِنَّ الْأَمْرَ الْوَاحِدَ يُرَادُ مِنْ وَجْهِ وَيُكْرَهُ مِنْ وَجْهِ آخَرَ؛ كَالْمَرِيضِ الَّذِي يَتَنَاوَلُ الدَّوَاءَ الْكَرِيهَ، فَإِنَّهُ يَبْغُضُ الدَّوَاءَ وَيُكْرَهُهُ، وَهُوَ مَعَ هَذَا يَرِيدُ اسْتِعْمَالَهُ لِإِفْضَائِهِ إِلَى الْمَحْبُوبِ، لِأَنَّهُ فِي نَفْسِهِ مَحْبُوبٌ. وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: "وَمَا تَرَدَّدْتَ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدَّدِي عَنْ قَبْضِ نَفْسِ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ، وَلَا يَدُّ لَهُ مِنْهُ". (١٢) فَهُوَ سَبْحَانَهُ لَمَّا كَرِهَ مَسَاءَةَ عَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَكْرَهُ الْمَوْتَ؛ كَانَ هَذَا مَقْتَضِيًّا أَنْ يَكْرَهُ إِمَاتَتَهُ، مَعَ أَنَّهُ يَرِيدُ إِمَاتَتَهُ لِمَا لَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى.



فالأمر التي يبغضها الله تعالى وينهى عنها لا تُحب ولا تُرضى، لكن نرضى بما يرضى الله به حيث خلقها لما له في ذلك من الحكمة، فكذلك الأفعال التي لا يحبها ولا يبغضها؛ لا ينبغي أن تُحب ولا تُرضى، كما لا ينبغي أن تُبغض.

والرضا الثابت بالنص هو أن يرضى بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيًّا. وأما بالنسبة إلى القدر فيرضى عن الله، إذ له الحمد على كل حال، ويرضى بما يرضاه من الحكمة التي خلقت لأجلها ما خلق، وإن كنا نبغض ما يبغضه من المخلوقات. فحيث انتفى الأمر الشرعي، أو خفي الأمر الشرعي؛ لا يكون الامتثال والرضا والمحبة كما يكون في الأمر الشرعي، وإن كان ذلك مقدورًا.

وهذا موضع يغلط فيه كثير من خاصة السالكين وشيوخهم فضلًا عن عامتهم. ويتفاوتون في ذلك بحسب معرفتهم بالأمر الشرعي وطاعتهم له، فمنهم من هو أعرف من غيره بالأمر الشرعي وأطوع له؛ فهذا تكون حاله أحسن ممن يقصر عنه في المعرفة بالأمر الشرعي والطاعة له. ومنهم من يبعد عن الأمر الشرعي ويسترسل حتى ينسلخ من الإسلام بالكلية، ويبقى واقفًا مع هواه والقدر. ومن هؤلاء من يموت كافرًا، ومنهم من يتوب الله عليه، ومنهم من يموت فاسقًا، ومنهم من يتوب الله عليه.

وهؤلاء ينظرون إلى الحقيقة القدرية، معرضين عن الأمر الشرعي، ولا بد مع ذلك من اتباع أمرٍ ونهيٍ غير الأمر الشرعي، إما من أنفسهم، وأما من غير الله ورسوله، إذ الاسترسال مع القدر مطلقًا ممنوع لذاته، لما تقدم من أن العبد مفطور على محبة أشياء وبغض أشياء.



وقول من قال: أن العبد يكون مع الله كالميت مع الغاسل لا يصح ولا يسوغ على الإطلاق عن أحد من المسلمين، وإنما يقال ذلك في بعض المواضع، ومع هذا فإنما ذلك لخفاء أمر الله عليه، وإلا فإذا علم ما أمر الله به وأحبه فلا بد أن يحب ما أحبه الله ويبغض ما أبغضه". (١٣)

وقال: "فإن قيل: فكيف يكون الله ساخطاً مبغضاً لما قدره وقضاه؟!"

قيل: نعم، فالله سبحانه وتعالى يفعل ما يفعله لما له في ذلك من الحكمة، وأن ما يضر الناس من المعاصي والعقوبات يخلقها لما له في ذلك من الحكمة. والإنسان قد يفعل ما يكرهه كشربه الدواء الكريه لما له فيه من الحكمة التي يجلبها كالصحة والعافية، فشرب الدواء مكروه من وجهٍ محبوب من وجه.

فالعبد يوافق ربه فيكره الذنوب ويمقتها ويبغضها لأن الله يبغضها ويمقتها، ويرضى بالحكمة التي خلقها الله لأجلها، فهي من جهة فعل العبد لها مكروهة مسخوطة، ومن جهة خلق الرب لها محبوبة مرضية؛ لأن الله خلقها لما له في ذلك من الحكمة. والعبد فعلها وهي ضارة له موجبة له العذاب، فنحن ننكرها ونكرها وننهي عنها كما أمرنا الله بذلك، إذ كان هو أيضاً سبحانه يسخطها ويبغضها، ونعلم أن الله أحدثها لما له في ذلك من الحكمة، فنرضى بقضائه وقدره، فمتى لحظنا أن الله قضاه وقدرها رضينا عن الله وسلّمنا لحكمه، وأما من جهة كون العبد يفعلها فلا بد أن نكره ذلك وننهي عنه ونجتهد في دفعه بحسب إمكاننا، فإن هذا هو الذي يحبه الله منا. (١٤)



والله تعالى إذا أرسل الكافرين على المسلمين فعلينا أن نرضى بقضاء الله في إرسالهم،
وعلينا أن نجتهد في دفعهم وقتالهم. وأحد الأمرين لا ينافي الآخر. (١٥) وهو سبحانه
خلق الفأرة والحية والكلب العقور وأمرنا بقتل ذلك، فنحن نرضى عن الله إذ خلق ذلك،
ونعلم أن له في ذلك حكمة، ونقتلهم كما أمرنا، فإن الله يحب ذلك ويرضاه". (١٦)

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى: "ومن منازل إياك نعبد وإياك نستعين: منزلة الرضا.
وقد أجمع العلماء على أنه مستحب مؤكد استحبابه، واختلفوا في وجوبه على قولين،
وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يحكيها قولين لأصحاب أحمد، وكان
يذهب إلى القول باستحبابه، قال: ولم يجيء الأمر به كما جاء الأمر بالصبر، وإنما جاء الثناء
على أصحابه ومدحهم. قال: وأما ما يروي من الأثر: "من لم يصبر على بلائي ولم يرض
بقضائي فليخذ رباً سواي". (١٧) فهذا أثر إسرائيلي ليس يصح عن النبي صلى الله عليه
وسلم. قلت: ولا سيما عند من يرى أنه من جملة الأحوال التي ليست بمكتسبة، بل هو
موهبة محضة، فكيف يؤمر به وليس مقدوراً عليه.

وهذه مسألة اختلف فيها أرباب السلوك على ثلاث طرق فالخراسانيون قالوا: الرضا
من جملة المقامات، وهو نهاية التوكل، فعلى هذا يمكن أن يتوصل إليه العبد باكتسابه.
والعراقيون قالوا: هو من جملة الأحوال وليس كسبياً للعبد، بل هو نازلةٌ تحل بالقلب
كسائر الأحوال. والفرق بين المقامات والأحوال: أن المقامات عندهم من المكاسب،
والأحوال مجرد المواهب. (١٨) وحكمت فرقة ثالثة بين الطائفتين فقالوا: يمكن الجمع
بينهما بأن يقال: بداية الرضا مكتسبة للعبد وهي من جملة المقامات، ونهايته من جملة
الأحوال وليست مكتسبة، فأوله مقامٌ ونهايته حال.



واحتج من جعله من جملة المقامات بأن الله مدح أهله وأثنى عليهم وندبهم إليه، فدل ذلك على أنه مقدور لهم، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا". (١٩) وقال: "من قال حين يسمع النداء: رَضِيتُ بِاللَّهِ رَبًّا وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا؛ غُفِرَتْ لَهُ ذُنُوبُهُ". (٢٠) وهذان الحديثان عليهما مدار مقامات الدين، وإليهما ينتهي، وقد تَضَمَّنَا الرضا بربوبيته سبحانه وألوهيته، والرضا برسوله والانقياد له، والرضا بدينه والتسليم له. ومن اجتمعت له هذه الأربعة؛ فهو الصديق حقًّا. وهي سهلة بالدعوى واللسان، وهي من أصعب الأمور عند الحقيقة والامتحان، ولا سيما إذا جاء ما يخالف هوى النفس ومرادها.

والتحقيق في المسألة: أن الرضا كسبي باعتبار سببه، موهبي باعتبار حقيقته. فيمكن أن يقال بالكسب لأسبابه، فإذا تمكن في أسبابه وغرس شجرته؛ اجتنى منها ثمرة الرضا، فإن الرضا آخِرُ التوكل، فمن رسخ قدمه في التوكل والتسليم والتفويض؛ حصل له الرضا ولا بد.

ولكن لعزته وعدم إجابة أكثر النفوس له وصعوبته عليها لم يوجب الله على خلقه رحمة بهم وتخفيفاً عنهم، لكن ندبهم إليه، وأثنى على أهله، وأخبر أن ثوابه رضاه عنهم الذي هو أعظم وأكبر وأجل من الجنان وما فيها، فمن رضي عن ربه رضي الله عنه، بل رضا العبد عن الله من نتائج رضا الله عنه، فهو محفوف بنوعين من رضاه عن عبده: رضا قبله أو جب له أن يرضى عنه، ورضا بعده هو ثمرة رضاه عنه، ولذلك كان الرضا باب الله الأعظم، وجنة الدنيا، ومستراح العارفين، وحياة المحيين، ونعيم العابدين، وقرّة عيون المشتاقين". (٢١)



ولا بدّ أن يُعلم أن الفعل غير المفعول والقضاء غير المقضي، وأنه لا تلازم بين الإرادتين الشرعية والقدرية، فالشرعية تابعة للمحبة، والقدرية تابعة للمشيئة، وكلاهما لحكم حميدة. قال ابن القيم رحمه الله: "والذي يكشف هذه الغمّة ويبصر من هذه العماية وينجي من هذه الورطة؛ إنما هو التفريق بين ما فرق الله بينه وهو المشيئة والمحبة، فإنهما ليسا واحداً ولا هما متلازمين، بل قد يشاء ما لا يحبه، ويجب ما لا يشاء كونه.

فالأول: كمشيئته لوجود إبليس وجنوده، ومشيئته العامة لجميع ما في الكون مع بغضه لبعضه. والثاني: كمحبته إيمان الكفار وطاعات الفجار وعدل الظالمين وتوبة الفاسقين، ولو شاء ذلك لوجد كلّه وكان جميعه، فإنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

فإذا تقرر هذا الأصل وأن الفعل غير المفعول، والقضاء غير المقضي، وأن الله سبحانه لم يأمر عباده بالرضا بكل ما خلقه وشاء؛ زالت الشبهات وانحلت الإشكالات والله الحمد، ولم يبق بين شرع الرب وقدره تناقض بحيث يظن إبطال أحدهما للآخر، بل القدر ينصر الشرع والشرع يصدّق القدر، وكل منهما يحقق الآخر.

إذا عرف هذا؛ فالرضا بالقضاء الديني الشرعي واجب، وهو أساس الإسلام وقاعدة الإيمان، فيجب على العبد أن يكون راضياً به بلا حرج ولا منازعة ولا معارضة ولا اعتراض، قال الله تعالى: (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً)، فأقسم أنهم لا يؤمنون حتى يحكموا رسوله صلى الله عليه وسلم، وحتى يرتفع الحرج من نفوسهم من حكمه، وحتى يسلموا لحكمه تسليماً. وهذا حقيقة الرضا بحكمه، فالتحكيم في مقام الإسلام، وانتفاء الحرج في مقام الإيمان، والتسليم في مقام الإحسان.



ومتى خالط القلب بشاشة الإيمان (٢٢) واكتحلت بصيرته بحقيقة اليقين، وحيي بروح الوحي، وتمهدت طبيعته، وانقلبت النفس الأمانة مطمئنة راضية وادعة، وتلقى أحكام الرب تعالى بصدر واسع منشرح مسلم؛ فقد رضي كل الرضا بهذا القضاء الديني المحبوب لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم.

والرضا بالقضاء الكوني القدري الموافق لمحبة العبد وإرادته ورضاه من الصحة والغنى والعافية واللذة أمر لازم بمقتضى الطبيعة، لأنه ملائم للعبد محبوب له، فليس في الرضا به عبودية، بل العبودية في مقابلته بالشكر والاعتراف بالمنة ووضع النعمة مواضعها التي يحب الله أن توضع فيها، وألا يعصى المنعم بها، وأن يرى التقصير في جميع ذلك.

والرضا بالقضاء الكوني القدري الجاري على خلاف مراد العبد ومحبه مما لا يلائمه ولا يدخل تحت اختياره مستحب، وهو من مقامات أهل الإيمان. وفي وجوبه قولان، وهذا كالمريض والفقر وأذى الخلق له والحر والبرد والآلام ونحو ذلك.

والرضا بالقدر الجاري عليه باختياره مما يكرهه الله ويسخطه وينهى عنه كأنواع الظلم والفسوق والعصيان حرام يعاقب عليه، وهو مخالفة لربه تعالى، فإن الله لا يرضى بذلك ولا يجبه. فكيف تتفق المحبة ورضا ما يسخطه الحبيب ويبغضه، فعليك بهذا التفصيل في مسألة الرضا بالقضاء". (٢٣)

وقال الشيخ سفر الحوالي حفظه الله تعالى: "من المقضي ما يرضى به، ومنه ما يسخط ويؤمقت، ولتوضيح ذلك: لقد لعن الله سبحانه وتعالى الكافرين (أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ) [البقرة: ١٥٩] وذمهم في مواضع كثيرة، والمؤمن في ذاته ليس ملعوناً،



وليس مغضوباً عليه في ذاته، فقد يفعل من الأفعال ما هو ملعون أو مغضوب عليه، أو غير مرضي لله سبحانه وتعالى سواء في الأفعال أو في الذوات أو في الأعيان، منها ما يبغضه الله ولا يرضاه، ونحن إذاً لا يجوز لنا أن نرضى بكل شيء.

وكذلك فهناك فرق بين القضاء والمقضي، وهذا الموضوع فيه دقة، وقد اختلف أهل السنة والجماعة مع الأشعرية، فالأشعرية جبرية جهمية، لكنهم لم يقولوا: إن الإنسان كريشة في مهب الريح، ولم يستطيعوا أن يصرحوا بالجبر. (٢٤) وقد اختلف أهل السنة والجماعة مع الأشعرية في مسألة أفعال الله سبحانه، فقال أهل السنة والجماعة كما قال ابن القيم رحمه الله: رَحِمَهُ اللَّهُ رَحِمَهُ اللَّهُ وهو قول سلف الأمة وجمهورها: إن القضاء غير المقضي رَحِمَهُ اللَّهُ رَحِمَهُ اللَّهُ، وهذا معروف بالبديهة، فلو فكرت لوجدت أن القضاء غير المقضي، فقضاء الله فعله، والمقضي أثر القضاء، وآثار قضائه يدركها العقل والفطرة فيقول: "قول سلف الأمة وجمهورها: إن القضاء غير المقضي، فالقضاء فعله ومشيئته، وما قام به بذاته واتصف به سبحانه وتعالى، وأما المقضي فمفعوله المبين له المنفصل عنه، وهو المشتمل على الخير والشر، فقضاؤه كله حق، والمقضي منه حق، ومنه باطل". (٢٥) فمن حيث إن الله سبحانه وتعالى خلق إبليس، وخلق الكفر، وخلق الشر، وأن الله قضى ذلك فهذا حق، لكن من حيث إن هذه الأعيان أو هذه الأفعال مذمومة أو ملعونة شرعاً فهذه من جهة الشرع فيها الحق وفيها الباطل، ومنها ما يحمد ومنها ما يذم، ومنها ما يرضى به ومنها ما نكرهه، لكن من حيث اتصاف الله سبحانه وتعالى بأنه هو الذي يقضي، وله القضاء، وله الأمر فهذا حق، فالقضاء كله حق، لكن المقضي هو أثر القضاء أعياناً أو أعمالاً، فمنها ما يرضى ومنها ما يُسخط، ومنها ما هو حق ومنها ما هو باطل، بميزان الأمر



والشرع. فهنا قال السلف هذا القول، فجاء الأشعرية وقالوا: القضاء هو عين المقضي، والفعل هو عين المفعول، ولهذا وقعوا في الجبر، أو لم يستطيعوا أن يدفعوا عن أنفسهم هذا السؤال، ومنهم أبا بكر الباقلاني، شيخهم وإمامهم الأكبر.

وقول القائل: إذا كان الكفر بقضاء الله وقدره، ونحن مأمورون أن نرضى بقضاء الله، فكيف ننكره ونكرهه؟ فهذا عجز، لأن القائل لا يفرق بين القضاء وبين المقضي، لكن أهل السنة والجماعة يفرقون، ولهذا يقولون: نحن نؤمن بالقضاء، ونحب قضاء الله، لكن نكره المقضي الذي هو الكفر، فهنا أمران:

قضاء الله، وهو: فعل قائم بذات الله. ومقضي وهو: المفعول المنفصل عنه. فالقضاء كله خير وعدل وحكمة نرضى به كله. والمقضي قسمان: منه ما يرضى. والقضاء الذي قضاه الله له وجهان:

أحدهما: تعلقه بالرب تعالى ونسبته إليه فمن هذا الوجه يرضى به.

والوجه الثاني: تعلقه بالعبد ونسبته إليه، فمن هذا الوجه ينقسم إلى ما يرضى به، وإلى ما لا يرضى به. ولهذا قال الله تعالى لنبينا صلى الله عليه وسلم: (فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ [فاطر: ٨]). ومن هنا أمر النبي صلى الله عليه وسلم بأن يصبر من جهة أن الله يدخل من يشاء ويهدي من يشاء، ولا يعني ذلك أن يرضى بكفرهم، فلم يأمره ربه بذلك وحاشاه صلى الله عليه وسلم، بل هو الذي جاهدهم واستمر في جهادهم، لكن مع المجاهدة لم يؤمنوا؟ لأن الهداية والضلالة بيد الله تعالى، فقد كتب عليهم الشقاوة فليكونوا كذلك، فعليك أن تسلم بما كتب الله، ولهذا جاء في سورة الأنعام ما هو أشد من ذلك،



قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَهُ: (وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ [الأنعام: ٣٥]) فلا يستطيع ذلك ولن يفعل.

وإنما هذا زيادة في تثبيت النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى عدم اليأس والتحسر، وإنما عليه البلاغ وهذا له مقام آخر، وذكر المصنّف رَحِمَهُ اللهُ مَثَالًا عَلَى ذَلِكَ فَقَالَ: لو قتل إنسانٌ نفسًا. القتل له اعتباران: من حيث قَدَرَهُ اللهُ وقضاه وكتبه وشاءه وجعله أَجَلًا للمقتول ونهاية لعمره يرضى به، وهذا أمر كتبه اللهُ وقَدَرَهُ اللهُ قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، فلا مبدل لقدر الله ولا معقب لحكمه، فنرضى به من هذه الجهة، لكن لا نرضى عن القاتل، ولا نرضى عن فعله، فيقال: من حيث إن القاتل صدر منه القتل وباشره وكسبه وأقدم عليه باختياره وعصى اللهُ بفعله؛ نسخته ولا نرضى به". (٢٦)

هذا؛ واعلم أن الله تعالى حَكَمًا يستحق الحمد التام عليها في كل أمر قَدَرَهُ اللهُ مهما تقاصرت أفهامنا عن إدراك بعضها، وقد ندرك طرفًا منها عند التفكر فضلًا من الله، قال ابن الجوزي رحمه اللهُ تعالى: "رأيت جمهور العلماء يشغلهم طلبهم للعلم في زمن الصبا عن المعاش، فيحتاجون إلى ما لا بد منه، فلا يصلهم من بيت المال شيء، ولا من صلوات الإخوان ما يكفي، فيحتاجون إلى التعرض للإذلال، فلم أر في ذلك من الحكمة إلا سببين: أحدهما: قمع إعجابهم بهذا الإذلال، والثاني: نفع أولئك بثوابهم.

ثم أمعنت الفكر فتلمّحت نكتة لطيفة، وهو أن النفس الأبية إذا رأت حال الدنيا كذلك؛ لم تساكنها بالقلب، ونبت عنها بالعزم، ورأت أقرب الأشياء شبهًا بها مزبلة عليها الكلاب، أو غائطًا يؤتى لضرورة. فإذا نزل الموت بالرحلة عن مثل هذه الدار لم يكن للقلب بها متعلق متمكّن؛ فتَهون حينئذ". (٢٧)



وقال الشيخ الغنيمان حفظه الله عن الرضا بالمصائب: "الإلزام بهذه المنزلة صعب، أي: كون الإنسان يرضى بالشيء الذي وقع له من المصائب؛ لأن الرضا معناه أن يغتبط بهذا الشيء ويفرح به، فهذا لا يستطيعه إلا الأفذاذ، ولكن الواجب هو الصبر وعدم الاعتراض، أما الرضا فإذا وصل إليه الإنسان فهو فضل عظيم، وإن لم يصل إليه فلا يكلفُ به. قال شيخ الإسلام: "ولم يجئ الأمر به كما جاء الأمر بالصبر، وإنما جاء ثناؤه على أصحابه". وقال: "وأعلى من ذلك -أي: من الرضا- أن يشكر الله على المصيبة؛ لما يرى من إنعام الله عليه بها". (٢٨) قال د. سالم القرني: "والصحيح أن المصائب هي قضاء الله ومنسوبة إليه على وجهين:

الأول: كونها فعل الله القائم بذاته تعالى، فهذا يجب الرضا به، والتصديق والتسليم له، ومن ذلك عدل الله، وحكمته، وقدرته، وعلمه سبحانه وخلقه، فالرضا بالمصائب من هذا الوجه واجب لا شك في ذلك.

الثاني: المقضي المنفصل عن الله، المفعول له، فهذا قسمان: مصائب ومعائب (٢٩) فالمعائب لا شك أنه يحرم الرضا بها.

وأما ما يصيب الإنسان فقسمان -أيضاً-: فما كان من صحة وغنى ولذة وغيرها من النعم، وهذا القسم يجب الرضا به، وأنه فضل وإحسان من الله يحمد عليه ويشكر. وأما ما يصيب العبد المؤمن من فقر، ومرض، وجوع، وأذى، وحر وبرد، وغير ذلك مما يكرهه ويبغضه العبد، فيستحب الرضا به، ولو عمل الأسباب لتغييره إلى ما هو أحسن (٣٠) ... أما الرضا بالمعاصي فمحرم. والمعاصي والمنكرات أمور مضرّة للعاصي ولغيره، ومع ذلك



يبقى بعض الناس معها ومع طبعه وذوقه، وينسلخ عن دين الله، ورُبِّما دخل في الشرك الأكبر.

وبعض الناس يبرّر ما هو عليه من معاصٍ بادعاء أن الإيمان في القلب. ومنهم من يتعبد الله بما حرمه الله عليه، ويعتقد أنه طاعة وقربة، (وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ اتَّقُوا اللَّهَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) وحاله في ذلك شرٌّ من حال مَنْ يعتقد ذلك معصية وإثمًا. وقد تتمكن المعصية من القلب فيرضى بها صاحبها، بل ويغلو في ذلك، وذلك على حساب دينه، وصحته، وعقله.

وإيواء أهل المعاصي هو رضا بالمعصية، وتعاونًا عليها، والله سبحانه وتعالى يقول: { وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ } فمن نصر جانبيًا وآواه وأجاره من خصمه وحال بينه وبين أن يقتص منه؛ فقد رضي بفعله. فالإيواء فيه الرضا به والصبر عليه.

وإذا رضي أحد بالبدعة، وأقرّ فاعلها، ولم ينكرها، فقد آواه، وخالف بذلك أمر الله تعالى وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم. فعن أم سلمة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إنه يُستعمل عليكم أمراء، فتعرفون وتنكرون، فمن كره فقد برئ، ومن أنكر فقد سلم، ولكن من رضي وتابع". قالوا: يا رسول الله، ألا نقاتلهم؟ قال: "لا، ما أقاموا فيكم الصلاة". (٣١) معناه: من كره بقلبه ولم يستطع إنكارًا بيد ولا لسان فقد برئ من الإثم، وأدى وظيفته، ومن أنكر بحسب طاقته فقد سلم من هذه المعصية، (٣٢) ومن رضي بفعلهم وتابعهم فهو العاصي. فقوله: "ولكن من رضي وتابع" دليل على وجوب ترك الإيواء أو الرضا بالمعصية.



وقريب من هذا معاشرة أهل البدع، وأهل الفسق والعصيان، ومنادمتهم، وتقريبهم، وإقصاء أهل الإيمان، وأهل الطاعة، وهذه تسمى مداهنة. وعلى المسلم ألا يداهن أهل العصيان، ويرضى بما هم عليه من الفسوق، ويسكت سكوت راض بما هم فيه من غير إنكار.

صحيح أن مداراة الناس، وخفض الجناح لهم، ولين الكلمة، وترك الإغلاظ لهم في القول، من أقوى أسباب الألفة، وقبول الحق، وهي مندوبة، كما في النصوص الشرعية الموضحة لذلك، كقوله سبحانه: { وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ } وقوله: { ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ }. فالرفق بالجاهل في التعليم، وبالفاسق في النهي عن فعله، وترك الإغلاظ عليه حيث لا يظهر ما هو فيه، والإنكار عليه بلطف القول والفعل، ولا سيما إذا احتيج إلى تألفه ونحو ذلك؛ أمر مطلوب مستحب.

أمَّا الرضا بوقوع المعصية من العبد، والسكوت على ذلك، وتأنيده ولو بغير تصريح، فإن هذا من الرضا بمعصية الله، وهذا مخالف لأمر الله، وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا عمّلت الخطيئة في الأرض؛ كان من شهدها فكرهها، - وقال مرة: فأنكرها-؛ كمن غاب عنها، ومن غاب عنها فرضيها؛ كان كمن شهدها". (٣٣)

وهذه مسألة عظيمة؛ لأن الرضا بالمعصية معصية، فقد جاء رجل إلى الشعبي فحسن عنده مقتل عثمان رضي الله عنه، فقال الشعبي: "شركت في دمه". فجعل الرضا بالقتل قتلاً. وقال الله تعالى: { وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا



وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مَثَلْتُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا } . فهذا دليل على وجوب اجتناب أهل المعاصي إذا ظهر منهم منكر، وهذا عدم الرضا بالمعصية؛ لأن من لم يجتنبهم فقد رضي فعلهم، والرضا بالكفر كفر، كما دل عليه قوله: { إِنَّكُمْ إِذَا مَثَلْتُمْ } فكل من جلس في معصية ولم ينكرها يكون مع أهلها في وزرهم، فينبغي أن ينكر عليهم إذا تكلموا بالمعصية، أو عملوها، فإن لم يستطع الإنكار، فينبغي أن يقوم عنهم حتى لا يكون من أهل هذه الآية.

فَدَعِ عَنكَ سَوَاءَ الْأُمُورِ فَإِنَّهَا ... حَرَامٌ عَلَىٰ نَفْسِ التَّقِيِّ ارْتِكَابُهَا

يروى أن عمر بن عبدالعزيز رحمه الله أخذ قومًا يشربون الخمر، ف قيل له عن أحد الحاضرين: إنه صائم، فحمل عليه الأدب، (٣٤) وقرأ هذه الآية { إِنَّكُمْ إِذَا مَثَلْتُمْ } (٣٥) أي: إن الرضا بالمعصية معصية. ولهذا يؤخذ الفاعل والراضي بعقوبة المعاصي حتى يهلكوا بأجمعهم. (٣٦) ولا شك أن هذه المماثلة ليست في جميع الصفات، لكن إلزام شبه بحكم الظاهر من المقارنة. فتجنب أهل الأهواء والبدع واجب لغير الناصح والمعلم لهم، وليس مثلهم في الأهواء والبدع، لقوله تعالى: { وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِّنْ شَيْءٍ } .

فعلى المسلم أن لا يرضى بالكفر والفسوق والعصيان؛ لأن الله لا يرضاه، كما قال سبحانه: { وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ } . ومن المعلوم أن أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله، وقد أمرنا الله أن نأمر بالمعروف ونحبه ونرضاه ونحب أهله، ونهى عن المنكر، وأمرنا أن ننهى عنه ونبغضه ونسخطه ونبغض أهله، ونجاهدهم بأيدينا وألسنتنا وقلوبنا، فكيف نتوهم أنه ليس في المخلوقات ما نبغضه ونكرهه، وقد قال الله تعالى لما



ذكر من المنهيات: { كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا }، فإذا كان الله يكرهها وهو المقدر لها فكيف لا يكرهها ويغضها العبد المأمور بذلك؟ وقال الله تعالى: { وَكَرِهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ } وقال سبحانه: { وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ } فبين أنه يرضى الدين الذي أمر به، فلو كان يرضى كل شيء لما كان له خصيصة.

وبهذا التفصيل يتبين الصواب ويزول اللبس في هذه المسألة العظيمة التي هي مفرق طرق بين الناس". (٣٧)

هذا؛ ولا بد من التفريق بين إرادة الله الشرعية المستلزمة للرضا على الدوام وبين مشيئته الكونية التي في الرضا بها تفصيل، حتى ننزل الرضا منزلته. وقال الحوالي: "أما الرضا بالقدر على المصائب فله تفصيل. لأن الرضا بالدين معروف، لكن هناك أقدار قضاها الله سبحانه وتعالى. فإذا وقع القدر وكان مما لا يرضينا أو مما نكره، فالذي أمرنا به هو الصبر، ولو أمرنا بالرضا لكان في ذلك مشقة علينا.

لكن الذي أمرنا به فضلاً من الله تعالى هو الصبر، فالكره: أمرٌ جبلي خلقي طبعي لا نستطيع أن نتخلص منه. لكن أن نسخط أو أن نقنط، فهذا مما لا يجوز: والعبد يستطيع أن يصبر، كما فعل ذلك النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عندما رفع إليه الصبي ونفسه تقعقع كأنها في شنة (٣٨) ففاضت عيناه، فقال له سعد: ما هذا يا رسول الله؟ قال: "هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء". (٣٩) فليس هناك أحد أكثر رضا بالقدر من النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو أعلى منه منزلةً، وهل هذا الصبر منعه من أن تدمع



عينه لما مات ابنه إبراهيم وقال: "إن القلب ليحزن، وإن العين لتدمع، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا". (٤٠) فهذا هو حال المؤمن، وليس معنى ذلك أن يغير طبيعته كما فعل ذلك بعض المتصوفة عندما مات ابن له فحلق لحيته، وأخذ يضحك أمام الناس، ويقول: "أرأغم نفسي وأرضى بقدر الله وقضائه" فهذا عصي الله سبحانه وتعالى، وجعل من نفسه أمثلة؛ لأنه إلى ما قبل القرن العشرين كان حلق اللحية مثلة، عقوبة يعاقب بها، فإذا أريد أن يعاقب أحد حتى في الدول الكافرة تحلق لحيته.

وكانت بعض الأمم المسوخة - كما كان بعض المجوس - يفعلونه، ومنهم الذين قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا مسخ للفطرة، ولهذا أنكره النبي صلى الله عليه وسلم، والشاهد أن هذا الصوفي لما فعل ذلك جعل نفسه مثلة، وأضحك الناس عليه، وهو بزعمه يظن أنه يراغم النفس ويرضى الله؛ لأن ابنه قد مات، والنبي صلى الله عليه وسلم أكمل الناس يقول: "إني لأعلمكم بالله، وأتقاكم له". (٤١) فهو صلى الله عليه وسلم أعلم الناس بالله وأتقاهم له، ومع ذلك حزن قلبه، ودمعت عينه، فنحن مأمورون بالصبر". (٤٢)

وقال تقي الدين رحمه الله تعالى: "ما يقع في الوجود من المنكرات هي مرادة لله إرادة كونية داخلية في كلماته التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر، وهو سبحانه مع ذلك لم يردّها إرادة دينية، ولا هي موافقة لكلماته الدينية، ولا يرضى لعباده الكفر، ولا يأمر بالفحشاء، فصارت له من وجه مكروهة (٤٣) ولكن هذه ليست بمنزلة قبض المؤمن فإن ذلك يكرهه؛ (٤٤) والكراهة مساءة المؤمن، وهو يريد له ما سبق في قضائه له بالموت فلا بد منه، وإرادته لعبده المؤمن خير له ورحمة به؛ فإنه قد ثبت في الصحيح: "إن الله تعالى لا يقضي



للمؤمن قضاء إلا كان خيرًا له، إن أصابته سراءٌ شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراءٌ صبر فكان خيرًا له". (٤٥)

وأما المنكرات فإنه يبغضها ويكرهها؛ فليس لها عاقبة محمودة من هذه الجهة إلا أن يتوبوا منها فيرحموا بالتوبة، وإن كانت التوبة لا بد أن تكون مسبقة بمعصية (٤٦) ولهذا يجب عن قضاء المعاصي على المؤمن بجوابين:

أحدهما: أن هذا الحديث لم يتناولها وإنما تناول المصائب.

والثاني: أنه إذا تاب منها كان ما تُعقبه التوبة خيرًا، فإن التوبة حسنة، وهي من أحبِّ الحسنات إلى الله، والله يفرح بتوبة عبده إذا تاب إليه أشد ما يمكن أن يكون من الفرح. وأما المعاصي التي لا يُتاب منها فهي شرٌّ على صاحبها. والله سبحانه قدّر كل شيء وقضاه؛ لما له في ذلك من الحكمة، كما قال: { صنع الله الذي أتقن كل شيء } وقال تعالى: { الذي أحسن كل شيء خلقه } فما من مخلوق إلا والله فيه حكمة. والمقصود: التنبيه على أن الشيء المعين يكون محبوبًا من وجه، مكروهًا من وجه، وأن هذا حقيقة التردد، وكما أن هذا في الأفعال فهو في الأشخاص. والله أعلم". (٤٧)

وبالجملة؛ فحكم الرضا بالقضاء والقدر واجب وفرض لأنه فعل الله تعالى، أما حكم الرضا بالمقضي والمقدور فهو فضيلة مستحبة على الراجح، ولكن لا يحلّ النزول فيها عن الصبر إلى ما دونه من التسخط، أما الرضا بالمعاصي فمحرم، بل تُبغض وتسخط من جهة فعل العباد لها لا من جهة تقدير الله تعالى، وبالله التوفيق.

.....



- ١- مسلم ٨٥/٢ (٧٧١) (٢٠١)
- ٢- مسلم ٧٦/٨ (٢٧٠٩)
- ٣- أحمد (١٩٩/١) وأبو داود (١٤٢٥) والترمذي (٣٢٨/٢) وصححه الألباني.
- ٤- القضاء الشرعي خير كله، أما القضاء الكوني فإن القضاء الذي هو فعل الله فخير كله، أما القضاء بمعنى المقضي - أي ذات المقدور المخلوق - فقد يكون خيرًا محضًا، وقد يكون له جهتان: جهة شرّ بذاتها لقطع أسباب الخير وأمداد التوفيق عنها، وجهة خير لما تفضي إليه من خير وآثار حميدة.
- ٥- ورويت كذلك عن عمر بن العزيز رحمه الله، وهما قرينان رحمهما الله، فلعل أحدهما قد أفادها من صاحبه.
- ٦- أحمد (٢٨٠٣) وصححه محققوه. والزهد لهناد (١ / ٣٠٤ / ٥٣٦)، وشعب البيهقي (٧ / ٢٠٣ / ١٠٠٠٠) والطبراني في الكبير (٣ / ١٢٦ / ٢) وصححه الألباني في السلسلة (١٠٧٦)
- ٧- مجموع الفتاوى (١٠ / ٦٨٢)
- ٨- منهاج السنة النبوية (٣ / ١٢٠)
- ٩- مجموع الفتاوى (١٠ / ٤٠)
- ١٠- إن مما يميّز منهج السلف الصالح للأمة حسن تقديرهم لأمر التربية والتعليم وتأثيرهم للحكمة في عرض المسائل، فما كل ما يُعلم يقال، وما كل ما يقال حَصَرَ أهله، فمن العلم ما يكون فتنة لمن لم يحمله على ما وضع له. قال ابن مسعود رضي الله عنه: "ما أنت بمُحدِّثٍ قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم؛ إلا كان لبعضهم فتنة". رواه مسلم في مقدمته (٥). قال ابن وهب رحمه الله على ذلك: "وذلك أن يتأولوه غير تأويله، ويحملوه على غير وجهه". ذكره الشاطبي في الاعتصام (١ / ٤٨٩). وقد ترجم البخاري رحمه الله: باب من خصّ بالعلم قومًا دون قوم كراهية ألا يفهموا. وقال علي رضي الله عنه: "حدّثوا الناس بما يعرفون، أتجّبون أن يُكذّب الله ورسوله". وفي رواية: "ودعوا ما يُنكرون". أي: من المشتبهات التي لا يفهمونها على وجهها أو لا تحملها علومهم أو فهمهم. ومثله قول ابن مسعود رضي الله عنه: "ما أنت بمُحدِّثٍ قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة". رواه مسلم (١ / ٩). قال الحافظ في الفتح (١ / ١٩٩): "ومن كره التحديث ببعض دون بعض أحمد في الأحاديث التي



ظاهاها الخروج على السلطان، ومالك في أحاديث الصفات، و أبو يوسف في الغرائب. ومن قبلهم أبو هريرة كما تقدم عنه في الجرايين، وأن المراد: ما يقع من الفتن. ونحوه عن حذيفة. وعن الحسن أنه أنكر تحديث أنس للحجاج بقصة العريين لأنه اتخذها وسيلة إلى ما كان يعتمد منه من المبالغة في سفك الدماء بتأويله الواهي. وضابط ذلك أن يكون ظاهر الحديث يقوي البدعة، وظاهره في الأصل غير مراد. فالإمساك عنه عند من يُحشى عليه الأخذ بظاهره مطلوب.

والمقصود أن المعلم والمربي والمفتي والواعظ يجب عليهم أن يراعوا أحوال الناس واختلاف أفهامهم، فلا يلقي عليهم غرائب المسائل التي لا يعرفها إلا الراسخون في العلم، كما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال لرجل سأله عن تفسير آية: وما يؤمنك أني لو أخبرتك بتفسيرها كفرت به؟ أي جحدته، وأنكرته، وكفرت به. ذكره ابن كثير في تفسيره (٣٨٦ / ٤) وابن القيم في إعلام الموقعين (٤٣ / ٦) وروى البخاري (٦٨٣٠) أن عمر رضي الله عنه قام فأتى على الله بما هو أهله، ثم قال: "أما بعد؛ فإني قائل لكم مقالة قد قدر لي أن أقولها، لا أدري لعلها بين يدي أجلي، فمن عقأها ووعاها فليحدث بها حيث انتهت به راحلته، ومن خشي أن لا يعقلها فلا أحل لأحد أن يكذب عليّ..". الحديث. وذكر ابن عبد البر رحمه الله في جامع بيان العلم وفضله (٥٣٩ / ١) عن هشام بن عروة عن أبيه قال: "ما حدثت أحداً بشيء من العلم قط لم يبلغه علمه؛ إلا كان ضالاً عليه".

وقال ابن تيمية رحمه الله تعالى في مجموع الفتاوى (٥٩ / ٦): "لما دعت الحاجة إلى تفريع الأعمال وكثرة فروعها، وذلك مستلزم لوقوع النزاع.. اطمأنت القلوب فيها إلى النزاع؛ بخلاف الأمور الخبرية؛ فإن الاتفاق قد وقع فيها على الجمل؛ فإذا فصلت بلا نزاع فحسن؛ وإن وقع التنازع في تفصيلها فهو مفسدة من غير حاجة داعية إلى ذلك.. ومما يتصل بذلك: أن المسائل الخبرية العلمية قد تكون واجبة الاعتقاد، وقد تجب في حال دون حال، وعلى قوم دون قوم، وقد تكون مستحبة غير واجبة، وقد تستحب لطائفة أو في حال كالأعمال سواء. وقد تكون معرفتها مُضرة لبعض الناس؛ فلا يجوز تعريفهم بها". وقال ابن كثير رحمه الله في تفسيره (٥٠٠ / ٤) عند قوله تعالى: (فذكر إن نفعت الذكرى): "ذكر حيث تنفع التذكرة، ومن هنا الأدب في نشر العلم فلا يضعه عند غير أهله". وقد استنبط الإمام المجدد في كتاب التوحيد على حديث معاذ: "أفلا أبشر الناس..". جواز كتمان العلم للمصلحة. وبالله التوفيق.

١١ - مجموع الفتاوى (٤٣ / ١٠) بتصرف يسير.

١٢ - البخاري (٢٣١ / ٤)

١٣ - مجموع الفتاوى (٤٨٤ / ١٠ - ٤٨٥)



- ١٤- وهذا من دقيق العلم وعميق الفقه ونعم التوفيق.
- ١٥- وهذا واضح عند التأمل، ويفهمه ينكشف سر المسألة، فمن جهة خلق الله لها وإفضائها لغاية حكيمة لله تعالى فهي مرضية، ومن جهة سخطه سبحانه لها ونهيه عنها وعدم رضاه شرعاً بها فهي مسخوطة لنا.
- ١٦- منهاج السنة النبوية (٣/ ٢٠٤ - ٢٠٩) مختصراً.
- ١٧- أخرجه الطبراني في الكبير (٢٢/ ٣٢٠) (٨٠٧)، وانظر المجروحين (١/ ٣٢٧)، والمجمع (٧/ ٢٠٧)، ولسان الميزان (٤/ ١٦٧)، وقال زين الدين العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (١/ ١٧١٢): إسناده ضَعِيف. وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٤٠٥٤)، وقال في الضعيفة (٥٠٥): ضعيف جداً.
- ١٨- أي أن المقام يكتسب عن طريق الرياضة والدربة والاجتهاد في العبادة حتى يكون ملكةً لصاحبه. أما الحال فهو موهبة ربانية قد تولد مع صاحبها كالغريزة كسائر خلائه وصفاته، وقد توهب لصاحبها أثناء عمره لطفاً من الله تعالى بلا قصد تحصيلها بالمجاهدة، فالمقام كسبي والحال موهبي.
- ١٩- مسلم (٣٤)، والترمذي (٢٦٢٣)
- ٢٠- البخاري ١٥٩/١ (٦١٤)
- ٢١- مدارج السالكين (٢/ ١٧٢-١٧٤) باختصار.
- ٢٢- للإيمان بشاشة وللقلب بشاشة، والبشاشة هي الانسراح والطلاقة والفرح، فيصح أن تقول خالط الإيمان بشاشة القلب، ويصح أن تقول: خالط القلب بشاشة الإيمان. وقال أبو العباس القرطبي في المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٣/ ٦٠٥) عند حديث أبي سفيان وهرقل في مسلم (١٢٨٩): "وقوله: "وكذلك الإيمان حين يخالط بشاشة القلوب"؛ هكذا وقعت هذه الرواية هنا، وفي البخاري: "حين تخالط بشاشته القلوب"، وهي أوضح. وأصل البشاشة: التلطف والتأنس عند اللقاء. يقال: بش به، وبشيش. ومعنى هذا: أن القلوب المنشرحة إذا سمعت الإيمان، وأصغت إليه بشت له، ورحبت بلقائه، كما يفعل بالغائب عن اللقاء، ثم إذا حلّ الإيمان في القلب انكشفت له محاسنه، وتوالت عليه أنواره، حتى يكره أن يعود في الكفر، كما يكره أن يقذف في النار.
- ٢٣- المدارج (٢/ ١٨٩)



٢٤- وهو وبًا من ذلك قالوا بالكسب وهو آيل للجبر، غير منفك عنه. هذا إذا تنزلنا لمقصوده، وإلا فليس تحت قوله حقيقة على التحقيق، قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى في النبوات (١٤٣): "رأس الجبرية يقول ليس للعبد فعل البتة، والأشعري يوافق على أن العبد ليس بفاعل ولا له قدرة مؤثرة في الفعل، ولكن يقول: هو كاسب، وجهم لا يثبت له شيئًا. لكن هذا الكسب يقول أكثر الناس: إنه لا يُعقل فرق بين الفعل الذي نفاه والكسب الذي أثبتته. وأنشدوا:

مما يقال ولا حقيقة عنده ... معقولةً تدنو إلى الأفهام

الكسبُ عند الأشعري والحال ... عند البهشمي وطرفة النّظام

٢٥- مدارج السالكين (٢ / ٤٩٩)

٢٦- شرح العقيدة الطحاوية (١ / ١٥٥٤-١٥٥٨) باختصار وتصرف. وانظر نص كلام ابن

القيم رحمه الله تعالى في مدارج السالكين (١ / ٢٥٧)

٢٧- صيد الخاطر (١ / ٣٠)

٢٨- شرح فتح المجيد شرح كتاب التوحيد للغنيمان (٩٤ / ٦)

٢٩- المصائب: أي البلاءات المقدره على الإنسان المؤلمة له بغير اختياره، أما المعائب فهي المعاصي

والذنوب. ومن ذلك الاحتجاج بالقدر، فيُشرع عند المصائب ويحرم عند الذنوب والمعائب.

٣٠- أي يدافع قدر الله بقدر الله سبحانه.

٣١- مسلم ٢٣/٦ (١٨٥٤) (٦٣)

٣٢- والإنكار أرفع من مجرد الكراهية، لأن فيه مدافعة لها بحسب الإمكان، فجوزي بالسلامة

التي هي أرفع، وكأنّ فيها إيماء لوعده بدار السلام، فالسلامة التامة إنما هي بدخول الجنة، نسأل الله الكريم من فضله، والله أعلم.

٣٣- سنن أبي داود (٤٣٤٥) وحسنه الألباني في المشكاة (٥١٤١)

٣٤- أي عاقبه تعزيرًا له.



- ٣٥- تفسير القرطبي (٤١٨ / ٥)
- ٣٦- وقد ورد في الحديث أن رسول الله ﷺ قال: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقعد على مائدة يدار عليها الخمر"، رواه أحمد (٢٠ / ١) وغيره وجود سنده ابن حجر في الفتح (٩/٢٥٠)، وصححه الألباني في الإرواء (٦ / ٧). وقال الإمام الأوزاعي رحمه الله: "لا تدخل وليمةً فيها طبل ولا معزاف". رواه أبو الحسن الحري في الفوائد المتقاة (١/٣/٤) بسند صحيح عنه. وقال ابن قدامة رحمه الله في المغني (٧/٢٧٩): "إذا دعي إلى وليمة فيها معصية كالخمر والزمر والعود ونحوه وأمكنه الإنكار وإزالة المنكر؛ لزمه الحضور والإنكار، لأنه يؤدي فرضين؛ إجابة أخيه المسلم وإزالة المنكر. وإن لم يقدر على الإنكار لم يحضر. وإن لم يعلم بالمنكر حتى حضر أزاله فإن لم يقدر انصرف".
- ٣٧- الرضا بالقضاء. د. سالم القرني عن: مجلة جامعة أم القرى (٥ / ٤١٥ - ٤١٩) مختصراً.
- ٣٨- أي قربة بالية، والمراد خشخشة الروح في صدر الصبي إيداناً بخروجها.
- ٣٩- البخاري ١٠٠/٢ (١٢٨٤) ومسلم ٣٩/٣ (٩٢٣)
- ٤٠- صححه الألباني في تلخيص أحكام الجنائز (١ / ١٥) عن أنس، وقد روي بلفظ آخر عند أحمد وأبي داود وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٩٣١) قال: "تدمع العين، ويجزن القلب، ولا نقول إلا ما يرضي الرب، والله إنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون". أما لفظ الصحيحين فهو: "إن العين تدمع، والقلب يجزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون". رواه البخاري ١٠٥/٢ (١٣٠٣) ومسلم ٧٦/٧ (٢٣١٥) (٦٢)
- ٤١- البخاري (٢٠) بنحوه وأحمد (٢٤٩٥٦) بلفظ: "والله إني لأعلمكم بالله عز وجل، وأخشاكم له". قال الشيخ شعيب الأرنؤوط: "إسناده صحيح على شرط مسلم".
- ٤٢- شرح العقيدة الطحاوية (١ / ١٥٥٣)
- ٤٣- أي مكروهة لله تعالى من جهة أنه شاءها كوناً لحكمته، ولم يردّها ولم يجبّها شرعاً.
- ٤٤- ويعني بذلك حديث الولي الذي يرويه أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله قال: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلى عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضت



عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أُحِبُّه، فإذا أُحِببتَه؛ كُنْتُ سَمِعُهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرُهُ الَّذِي يَبْصُرُ بِهِ، وَيَدُهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلُهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلْتَنِي لِأَعْطِيَنَّهُ، وَلِئِنْ اسْتَعَاذَنِي لِأَعِيذَنَّهُ. وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته". رواه البخاري ١٣١/٨ (٦٥٠٢)

٤٥- مسلم (٢٩٩٩)

٤٦- والتقصير في الطاعة من قبيل المعاصي.

٤٧- مجموع الفتاوى (١٨ / ١٣٤)



الرضا والبلاء

إن معيار الرضا هو البلاء، وإلا فالنعيم مرضيٌّ على كل حال، أما البلاء فالغريزة تمنع الرضا به ما لم يأتيها دافع من خارجها يُجَبِّب لها الرضا ويقلب مرارته حلاوة، فالدواء كريبه المأخذ رضيُّ الغاية، وابتغاء الأجر والتقلُّب مع مراد الحبيب حيثما أراد، فأحبه إليه أحبه إليه، والعاقبة: "فمن رضي فله الرضا". (١)

وروى الطبراني في الكبير أن عمران بن حصين رضي الله عنه اشتكى، فدخل عليه جار له، فاستبطأه في العيادة، فقال له: يا أبا نجيد، إن بعض ما يمنعني من عيادتك ما أرى بك من الجهد. قال: فلا تفعل، فإنَّ أحبه إليَّ أحبه إلى الله، فلا تبتئس لي بما ترى، أرايت إذا كان ما ترى مجازاة بذنوب قد مضت، وأنا أرجو عفو الله على ما بقي، فإنه قال: { وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ }. (٢)

ومن البشارات للعبد الصالح المريض أو العاجز عن صالحات أعمال كان قد اعتادها لسفر أو حبس أو غيره أن ثوابها يجري له وإن لم يعمل، كرامة من الله وجوداً، قال صلى الله عليه وسلم: "إذا مرض العبد أو سافر كتب له مثل ما كان يعمل مقيماً صحيحاً". (٣) فعلى المريض ومن في حكمه أن يصبر ويرضى ويحمد ويشكر الله على هذا البلاء، فإن ذلك عبودية الضراء.

وخيراً للمؤمن أن تعجّل عقوبته في الدنيا - إذا لم يكتب له ربه مغفرة لها وعفواً عنها - ويعظم التكفير ويحلُّ الجزاء بحسب حجم الابتلاء ودرجة وقوعه على العبد، فعن أنس



رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا أراد الله بعبده خيراً عَجَّلَ له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد الله بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافي به (٤) يوم القيامة. وإن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله تعالى إذا أحب قومًا ابتلاهم فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط". (٥) قال العثيمين رحمه الله شارحًا: "الأمور كلها بيد الله عز وجل وإيرادته، لأن الله يقول عن نفسه: (فعال لما يريد) ويقول: { إن الله يفعل ما يشاء } فكل الأمور بيد الله، والإنسان لا يخلو من خطأ ومعصية وتقصير في الواجب، فإذا أراد الله بعبده الخير عَجَّلَ له العقوبة في الدنيا إما بهاله أو بأهله أو بنفسه أو بأحد ممن يتصل به.

المهم أن تعجل له العقوبة، لأن العقوبات تكفر السيئات، فإذا تعجلت العقوبة وكفر الله بها عن العبد؛ فإنه يوافي الله وليس عليه ذنب، قد طهرته المصائب والبلايا، حتى إنه ليشدّد على الإنسان موته لبقاء سيئة أو سيئتين عليه، حتى يخرج من الدنيا نقيًا من الذنوب، وهذه نعمة لأن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة.

لكن إذا أراد الله بعبده الشر أمهل له واستدرجه وأدرّ عليه النعم ودفع عنه النقم حتى يبطر ويفرح فرحًا مذموماً بما أنعم الله به عليه. وحينئذ يلاقي ربه وهو مغمور بسيئاته فيُعاقب بها في الآخرة. نسأل الله العافية!

فإذا رأيت شخصًا يبارز الله بالعصيان وقد وقاه الله البلاء وأدرّ عليه النعم؛ فاعلم أن الله إنما أراد به شرًّا؛ لأنَّ الله أحرَّ عنه العقوبة حتى يوافي بها يوم القيامة.



ثم ذكر في هذا الحديث: أنَّ عظم الجزاء من عظم البلاء، يعني أنه كلما عظم البلاء عَظُمَ الجزاء، فالبلاء السهل له أجر يسير، والبلاء الشديد له أجر كبير؛ لأن الله عز وجل ذو فضل على الناس إذا ابتلاهم بالشدائد أعطاهم عليها من الأجر الكبير، وإذا هانت المصائب هان الأجر.

وإن الله إذا أحب قوم ابتلاهم، فمن رضى فله الرضا، ومن سخط فله السخط. وهذه بشرى للمؤمن إذا ابتلي بالمصيبة، فلا يظن أن الله سبحانه يبغضه، بل قد يكون هذا من علامة محبة الله للعبد، يتلوه سبحانه بالمصائب، فإذا رضى الإنسان وصبر واحتسب فله الرضا، وإن سخط فله السخط.

وفي هذا حثٌّ على أن الإنسان يصبر على المصائب حتى يكتب له الرضا من الله عز وجل، والله الموفق". (٦) وقال رحمه الله أيضًا في القول المفيد: "قد تكون المصائب أكبر من المعائب ليصل المرء بصبره أعلى درجات الصابرين، والصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد.

والمراد بالرضا الرضا بقضاء الله من حيث إنه قضاء الله، وهذا واجب بدليل قوله: "ومن سخط" فقابل الرضا بالسخط، وهو عدم الصبر على ما يكون من المصائب القدرية الكونية.

ولم يقل هنا: فعليه السخط، مع أن مقتضى السياق أن يقول فعليه، كقوله تعالى: (من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها). فقال بعض العلماء: إن اللام بمعنى على، كقوله تعالى: (أولئك لهم اللعنة وهم سواء الدار) [الرعد : ٢٥] أي: عليهم اللعنة. وقال



آخرون: إنَّ اللام على ما هي عليه، فتكون للاستحقاق، أي: صار عليه السخط باستحقاقه له، فتكون أبلغ من "على"، كقوله تعالى: (أولئك لهم اللعنة)؛ أي حَقَّت عليهم باستحقاقهم لها، وهذا أصح". (٧) وفي المعتصر: "وإذا أراد الله بعبده الشر": "عبده هنا مثل عبده الأول، لكنه المسرف على نفسه بالمعاصي. وهل معنى الحديث أن الله يريد الشر؟ وكيف نوفق بينه وبين قوله صلى الله عليه وسلم: "والشرُّ ليس إليك"؟ (٨)

هنا سمى الإمساك عن العقوبة شرًّا باعتبار العبد، وإلا باعتبار فعل الله فعدل. (٩) ومعنى: "أمسك عنه بذنبه": الممسوك عنه هي البلايا والعقوبة. بذنبه: الباء سببية، بمعنى أنه ما عاقبه بسبب ذنوبه، ولكن أمسك عنه العقوبة، وقد تكون بمعنى الاستحقاق أي مع أنه مستحق بذنبه. ونسب الذنوب إلى العبد: لأنها كسبه. وهذه الذنوب هي ما دون المكفرات. أما حتى هنا فهي لانتهاه الغاية، أي: إلى غاية أن يوافي به يوم القيامة. وهل كل مصيبة علامة خير؟ لا. إلا إن وُفِّق إلى الصبر فهي علامة خير، وإن لم يصبر فهي علامة شرّ.

وقوله: «إن عظم الجزاء»: فإذا نظرت إلى هذه الكلمة «الجزاء» وآخر الحديث تبين لك أن في هذا الحديث دلالة على أن المصائب رافعة للدرجات. «مع عظم البلاء»: المعية هنا ليست معية مقترنة، وإنما الجزاء يأتي بعد البلاء؛ لأنه مترتب عليه. وهل الجزاء مع كل بلاء مطلقاً؟

لا. ليس كل بلاء معه جزاء إلا بشرطه، وشرطه هنا: أقله اثنان وأكثره ثلاثة: إما الصبر والرضا، أو الصبر والرضا والشكر. (١٠)



وقوله: «مع عظم البلاء»: أي أن عظم البلاء معه عظم جزاء. هل هو باعتبار الكمية أو الكيفية؟ قد يكون هذا وقد يكون هذا. «وإن الله تعالى إذا أحب قومًا»: فيه إثبات أن الله يحب. والمعطلة لا يثبتون المحبة لله تعالى. وقوله «قومًا»: هنا نكرة، والمقصود بقوم: أي المؤمنين. والدليل: أن الله لا يحب الكافرين، وهؤلاء القوم محبوبون. وقوله «ابتلاهم»: أي أصابهم ببلايا ومصائب ورزقهم ما يثيبهم عليها ويثبتهم. ويدل هذا الحديث بالمفهوم أن قلة الجزاء مع قلة البلاء.

قوله «فمن رضي»: هنا ذكر الرضا فهو يدل على الصبر وزيادة. وقوله: «فله الرضا» هذا جزاء رضائه أن يرضى الله عنه، فيرتب على ذلك كثرة الثواب. «ومن سخط» أي: كره، وما تبع الكراهة من أعمال الجوارح. «فله السخط» فهذا جزاءً وفاقًا، فلما سخط سخط الله عليه، فيرتب على ذلك العقوبة. ودل الحديث على فضل الرضا، وأنه يزيد في الدرجات، ويزيد في التوحيد". (١١)

وهنا سؤال: كيف يميّز العبد في المقضي المؤلم (المصيبة) بين العقوبة والابتلاء؟

والجواب: أن بينهما عموم وخصوص، فما كان على ذنب فهو عقوبة، ومنه قول الله عز وجل: (وما أصابكم من مصيبة فيما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير) وقوله جل شأنه: (فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم) وقوله عز اسمه: (وما أصابك من سيئة فمن نفسك). وما لم يكن على سالف ذنب أو كان مغفورًا فهو محض الابتلاء، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مغفور الذنوب سالفها ولاحقها ومع هذا فقد كان من أشد الناس بلاء، وهو القائل: "أشد الناس بلاءً الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، يتلى الإنسان على



حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ صَلَابَةٌ زِيدَ فِي بَلَاءِهِ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ خُفِّفَ فِي بَلَاءِهِ".
 (١٢) وقد تكون المصيبة مستغرقة للعقوبة والابتلاء، فتستنفذ الذنب وتدخل في الابتلاء.
 وكل المصائب خير للمؤمن خلا مصيبة الدين، فالمصائب مُحَصَّصَةٌ مُكْفَرَةٌ رَافِعَةٌ
 للدرجة مقرّبة من الله، فالبلاء يجمع بين العبد وربّه، والعافية تجمع بينه وبين نفسه، ويا بن
 آدم: لقد بورك لك في حاجة أكثرت فيها من قرع باب سيدك. وصدق البستي رحمه الله إذ
 يقول:

وَكُلُّ كَسْرٍ فَإِنَّ الدِّينَ يَجْبُرُهُ ... وَمَا لِكَسْرِ قَنَاةِ الدِّينِ جُبْرَانُ

وقال الغنيان حفظه الله في قوله صلى الله عليه وسلم: "إذا أراد الله بعده الخير عجل له العقوبة في الدنيا": "أي: يصبّ عليه البلاء والمصائب؛ لما فرط من الذنوب منه فيخرج منها وليس عليه ذنب يوافي به يوم القيامة.

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: "المصائب نعمة؛ لأنها مكفرات للذنوب، وتدعو إلى الصبر، فيثاب عليها، وتقتضي الإنابة إلى الله والذل له والإعراض عن الخلق، إلى غير ذلك من المصالح العظيمة.

فنفس البلاء يكفر الله به الخطايا، وهذا من أعظم النعم، فالمصائب رحمة ونعمة في حق عموم الخلق، إلا أن يدخل صاحبها بسببها في معاصي أعظم مما كان قبل ذلك، فتكون شرّاً عليه من جهة ما أصابه في دينه، فإن من الناس من إذا ابتلي بفقر أو مرض أو وجع حصل له من النفاق والجزع ومرض القلب أو الكفر الظاهر، أو ترك بعض الواجبات وفعل بعض المحرمات ما يوجب له ضرراً في دينه، فهذا كانت العافية خيراً له من جهة ما



أورثته المصيبة لا من جهة نفس المصيبة، كما أن من أوجبت له المصيبة صبراً وطاعة كانت في حقه نعمة دينية، فهي بعينها فعل الرب عز وجل ورحمة للخلق، والله تعالى محمود عليها". (١٣)

ظاهر قول الشيخ رحمه الله أنه يرى أن المصائب تكفر الذنوب، وهذا هو الظاهر، أما حصول الثواب والأجر فهو بأسباب أخرى، كأن يكون بالصبر عليها، وكونها تحدث للإنسان إنابة إلى الله، وذل وتعلق به، ودعاء إليه، فهذا أمر آخر، أما المصيبة نفسها فهي كفارة فقط، تكفر ما وقع منه، وليس فيها أنه يكتب له فيها الثواب، وإنما يكفر عنه بها ما وقع من المعاصي، وترك الطاعات الواجبة عليه إذا اتصل بها شيء سواء كان مما يدعو إلى الإنابة والتوبة والاستغفار والدعاء فهذا أمر آخر يثاب عليه، أما إذا كانت سبباً للإعراض والتضجر والاعتراض على الله جل وعلا والسخط مما قضاه عليه، فإنها تكون مصيبة أخرى ليس له فيها كفارة، وربما وقعت منه مصيبة أكبر من المصيبة التي أصيب بها، فهذا يقع فيه كثير من الناس.

وبعض الناس يكون المرض الذي يقع فيه غير منبه له، بل يبقى على حالته التي هو عليها حتى تجده يترك الصلاة؛ لأن كونه مريضاً لا يستطيع أن يتوضأ ولا يستطيع أن يصلي، وهذا يوجد في كثير من المرضى، وهذا خطر عظيم ومعصية كبيرة، بل قد تكون كفرًا، نسأل الله العافية.

فالصلاة لا تسقط عن الإنسان بحال من الأحوال، وإذا مرض الإنسان فينبغي له أن يحرص على أداء الصلاة على حسب حاله { لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا } [البقرة: ٢٨٦]، ولكن لا يترك الصلاة، وإن استطاع أن يتوضأ وتوضأ، وإن استطاع أن يصلي قائماً صلى قائماً،



وإن لم يستطع الوضوء تيمم، فالتيمم ليس صعباً، فإذا لم يكن عنده من يوضئه ويعينه على وضوئه تيمم، فإن كان عنده من يفعل ذلك فإنه يجب عليه ذلك، أما إذا كان لا يستطيع أن يخرج فيوضع له قليل من التراب في إناء ويتيمم فيمسح وجهه ويديه، وإذا لم يستطع هو ذلك فالذي عنده يفعل به ذلك وييممه، فيأخذ بيديه ويضعها على التراب، ثم يسمح بها وجهه وكفيه، ثم يقول له: صل، فيصلي على حسب حاله ولو بالإشارة يشير برأسه، فإذا لم يستطع يومئ بعينه، فما دام العقل عنده صاحياً فلا تسقط عنه الصلاة بحال، ولا يجوز أن يترك الصلاة، فقد يموت قبل أن يشفى فيكون موته وهو تارك للصلاة، نسأل الله العافية، فهذا خطر عظيم يجب أن ينبه عليه الناس، فمثل هذا يكون المرض - وهو مصيبة - قد سبب مصيبة أخرى أكبر منها، نسأل الله العافية.

فالمسألة: أن الناس يختلفون في البلاء الذي يصيبهم، فمنهم من يرجع إلى الله بسببه وينيب، ومنهم من يتعد عن الله جل وعلا ويكون سبباً في تضجره وتسخطه على الله، ويقول: أنا لا أستحق هذا الشيء - يعني: أن الله ظلمه عياداً بالله - وأنا ما عملت شيئاً، أنا أصلي وأنا أفعل كذا، وأنا وأنا ولكن ما أدري من أين جاءت هذه المصيبة؟! هكذا نسمع بعضهم يقول! والذي لا يقول هذا بلسانه يمكن أن يقول في قلبه شيئاً من ذلك، وإذا كان في قلب الإنسان شيء من ذلك فإنه يكفي في هلاكه؛ لأن الله جل وعلا يحكم بالعدل، ولا يصاب من مصاب إلا بسبب أمر تركه أو ذنب ارتكبه، كما أخبر الله جل وعلا.

ويجب أن يتعظ الإنسان بالمصائب، فتكون المصيبة موعظة له، فيتعظ ويحاسب نفسه، ويتعد عن المعائب التي يعاب عليها ديناً، فيتعد عنها ويستغفر ربه منها، فمثل هذا تكون المصيبة قد طهرته من الذنب، وكفرت عنه ذنبه، ولهذا يوجد من الناس من إذا وقع في



مصيبة يخرج منها كأنه ليس عليه شيء، كأن لم يعمل ذنباً، كيوم ولدته أمه، وهذا من فضل الله ورحمته بالعبد، فلهذا العبد لا يسوؤه أنه يصاب بشيء، لا ينبغي أن تكون هذه السيئة تسوؤه، فليعلم أن هذا فضل من الله وعدل، ثم لينزجر ويتعظ، ويكثر الرجوع إلى الله، وليجعل ذلك سبباً لرجوعه وتعلقه بالله جل وعلا؛ لأن الإنسان ضعيف، فلو جوزي مثلاً بما يعمل أو جمع كل ما يعمل حتى يوافي به يوم القيامة فقد يهلك، يمكن أن ترجح سيئاته على حسناته فيكون من الخاسرين.

فيجب على الإنسان أن يحمد ربه، وهذه صفة المؤمن، وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "عجباً للمؤمن إن أمره كله له خير، إن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له، وإن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وليس ذلك إلا للمؤمن". (١٤) أما المنافق والكافر فهو مثل البعير الذي يُعقل ثم يُطلق عقاله، ولا يدري لماذا عقل، ولا يدري لماذا أطلق عقاله! فالمؤمن ينبغي أن يكون بهذه الصفة: إذا أصيب بشيء يكره صبر واحتسب، وصار هذا سبباً في خضوعه وذله ورجوعه إلى الله واستغفاره، وإن أصيب بنعم حمد الله وشكره وأوجب ذلك له زيادة طاعة لله جل وعلا، حيث أحدث له نعماً فيحدث لله طاعة.

قال الشارح رحمه الله (١٥): "فمن ابتلي فرزق الصبر، كان الصبر عليه نعمة في دينه، وحصل له بعدما كفر من خطايا رحمة، وحصل له بثنائه على ربه صلاة ربه عليه، قال تعالى: { أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ } [البقرة: ١٥٧]، وحصل له غفران السيئات ورفع الدرجات، فمن قام بالصبر الواجب حصل له ذلك". انتهى ملخصاً. أي: أنه يمثل الآية، كما في قوله تعالى: { الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ



{ [البقرة: ١٥٦]، ومعنى: (إنا لله) أي: نحن ملك له وعبيد له يتصرف فينا كيف يشاء، لا نملك لأنفسنا شيئاً، فإذا أصابنا بشيء فهو إليه جل وعلا، ولا يجوز لنا أن نعترض على شيء من ذلك، إنا لله ملكاً وعبيداً، يفعل بنا ما يشاء، (وإنا إليه راجعون)، أي: مرجعنا إليه فيجازينا على أعمالنا، فإن كان الإنسان شاكراً جازاه خيراً، وإن كان كافراً لا يلقى إلا جزاء عمله فقط، ولا يظلم شيئاً، والشاكرون هم الذين يقول جل وعلا: { أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ } [البقرة: ١٥٧]، وصلاة الله على عبده أن يثني عليه عند الملائكة، ومن أثنى الله عليه عند ملائكته أحبته الملائكة وصارت تدعو له بسبب بذلك، ملائكة الله جل وعلا الذين في السماء يستغفرون له ويدعون الله له، فيكتسب عملاً ما كان يعمل هو استغفار الملائكة، وهذه الصلوات صلوات الله، وأما الرحمة فأمر آخر: { أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ } [البقرة: ١٥٧]، ثم { وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ } [البقرة: ١٥٧]، هذا الذي ينبغي أن يكون عليه العبد إذا أصيب بشيء أن يقول هذا، لعله يتحصل على هذا الفضل العظيم، وهو صلاة الله ورحمته جل وعلا، ولو لم يكن في المصيبة إلا هذا لكفى أن يرتبط الإنسان به، وكون الإنسان يكون معافى دائماً ينبغي أن لا يفرح، فقد يكون دليلاً على أن الله لا ينظر إليه، وأنه معرض عنه، نسأل الله العافية! قال الشارح رحمه الله: قوله: "وإذا أراد بعبده شراً أمسك عنه بذنبه" أي: أخرج عنه العقوبة بذنبه. "حتى يوافي به يوم القيامة" وهو بضم الياء وكسر الفاء منصوباً بـ "حتى" مبنياً للفاعل، قال العزيزي: وهذه الجملة هي آخر الحديث. فأما قوله: وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "إن عظم الجزاء مع عظم البلاء" إلى آخره، فهو أول حديث آخر، لكن لما رواهما الترمذي بإسناد واحد وصحابي واحد جعلها المصنف كالحديث الواحد.



وفيه التنبيه على حسن الرجاء وحسن الظن بالله فيما يقضيه لك، كما قال تعالى: { وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ }.

الابتلاء سنة ماضية، يتلى الناس على قدر دينهم، فمن ثخن دينه اشتد بلاؤه، ومن قل دينه قل بلاؤه، وأشد الناس ابتلاء هم الأنبياء عليهم السلام، والواجب عند نزول البلاء هو الصبر والرضا وعدم التسخط، فمن صبر ورضي أجر على مصيبتته، وكفر بها من سيئاته، ومن سخط وقعت عليه مصيبتته، ولم يؤجر عليها، وليعلم أن عظم الجزاء مع عظم البلاء.

وظاهر حديث: "إن عظم الجزاء مع عظم البلاء" هو أصل المسألة التي ذكرنا: أن البلاء والمصائب عليها جزاء، فمعناه: إذا كان الإنسان ابتلاؤه أعظم فجزاؤه أعظم وأكبر، فيدل على أن المصيبة تجزي بها الإنسان.

وقد جاء صريحاً في حديث ابن مسعود: لما دخل على النبي صلى الله عليه وسلم وهو مريض، قال له: إنك لتوعك وعكاً شديداً، قال: "نعم"، أو قال: "أجل، كما يوعك اثنان منكم"، وقال: ألأن لك أجرين؟ قال: "نعم" يعني: إذا كان هذا مرضه أشد فيكون أجره أكثر، وهذا الحديث صريح في ذلك، وهذا هو الصواب أن الإنسان إذا أصيب بمصيبة إن كان له ذنوب كفرت بها، مقابل ذلك، ولا يخلو أحد من الذنوب أبداً. "كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون". (١٦) وفي الحديث الصحيح: "لو لم تذبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون ثم يستغفرون الله فيغفر لهم". (١٧) لأن الله جل وعلا من أسأته الغفار والعفو والرحيم والتواب، فلا بد أن تظهر آثار أسأته جل وعلا على خلقه، فهذا



مقتضى خلقه وأسمائه وصفاته تعالى وتقدس، فكل بني آدم والجن - وهم المكلفون - يقعون في أخطاء كثيرة، وخيرهم الذي إذا أخطأ تاب، ثم الملائكة خلقوا للعبادة، أي أنه: خلص خلقهم للعبادة وكلفوا بذلك، ولهذا لا يوجد عندهم ما عند بني آدم من العصيان: { لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ } [التحریم: ٦]، دائماً وأبداً، فهم جنس آخر من غير جنس بني آدم.

فإذا كان الإنسان خطؤه عظيماً فتكون المصيبة مقابل الخطأ، فإن كانت أكبر وأشد من خطئه صار منها ما هو مكفر ومنها ما هو في رفعة درجاته عند الله، وفي الأثر: "إن الإنسان تكون له درجة عند الله لا يبلغها بعمله، فيبتليه الله جل وعلا بالمصائب حتى يبلغ تلك الدرجة".

وهذا القول هو الصواب من أقوال العلماء: أنه يختلف الناس فيها، إذا اشتد البلاء والإنسان ليس له من الذنوب ما يقابل ذلك فإن هذا رفعة لدرجاته، وزيادة في حسناته، ولهذا فإن الأنبياء صلى الله عليهم وسلم يتلون بتكذيب قومهم وبأذيتهم وربما بقتلهم.

ومعلوم أنهم خير الخلق، فخير بني آدم هم الأنبياء والرسول: "أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الإنسان على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه، وإن كان في دينه رقة خفف في بلائه". (١٨) فتكون بلواه على حسب ما عنده من الدين، وهذا من رحمة الله جل وعلا، لأنه لو زيد في بلاء الإنسان الذي دينه ضعيف لقدم دينه دون عرضه حتى يسلم، فالله جل وعلا لطيف بعباده، وهو حسب مصالحهم، فإنه إذا أراد الخير بعبده هياً له أسباب ذلك بفعله هو، وإن لم يكن من فعله ما يصل به إلى الدرجة العالية وقد أراد الله له تلك الدرجة ابتلاه بالمصائب، سواء كانت مصائب قدرية أو مصائب



بسبب الناس، وإن كانت كلها بالقدر، فما يقع شيء إلا بقدر الله جل وعلا، ولكن الأسباب قد تكون أثرًا من آثار الناس الذين يفعلون ذلك وهم مسئولون عن أفعالهم، وإن كان أمرهم مقدرًا؛ لأن العاقل والمكلف لا بد أن يطالب بأعماله، وليس لأحد حجة بالقدر، فيقول: هذا مقدر عليّ أنا فعلت الشيء المُقَدَّر عليّ، لأن الإنسان مكلف بأعمال محددة من الطاعات، ومنهي عن أعمال محددة من المعاصي يستطيع أن يتركها، والطاعات يستطيع أن يفعلها، وقد علم بذلك وقيل له: هذا طريق الخير فاسلكه، وهذا طريق الشر فاجتنبه.

فإذا ارتكب شيئًا من المناهي بعد ذلك فاللوم عليه، وليس له أن يقول: إن الله قدّر عليّ ذلك، فهو الذي فعله، وما يدريك أنه قدر عليك قبل أن تفعل ذلك، فعليك أن تجتهد، فإذا وقعت في ذنب فلا تقل: هذا مقدر، ولكن قل: أستغفر الله وأتوب إليه، فاستغفر واسترجع، وعد على نفسك باللوم، أما إذا قال الإنسان: أنا وقعت في القدر، فمعنى ذلك: أنا أجعل اللوم على القدر لا على نفسي، يبرئ نفسه من ذلك، ويجعل اللوم على ربه، فهذا يكون مقتديًا بإبليس عندما قال لربه: { بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَزِيَنَّ هُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ } [الحجر: ٣٩] الله أغواه أك هو الذي أغوى نفسه؟ هو الذي اختار الغواية، ولما قيل له: اسجد، أبى وقال: أنا خير منه وهناك سجدت الملائكة، ولكنه أبى هو باختياره، فهو الذي غوى بفعله.

فلا يحتج بأن الله قدر ذلك، الله جل وعلا قدر كل شيء؛ لأنه هو المالك لكل شيء، ولكن أعطاك المقدر على الفعل الذي كلفك به، وأعطاك المقدر على ترك الأفعال التي حرمها عليك، فإذا امتثلت الأمر كنت موافقًا للقدر وموافقًا للشرع، وإذا لم تمتثل الأمر



كنت عاصياً، وإن كنت لا تخرج عن مقدور الله جل وعلا، فلا أحد يخرج عن مقدور الله، ولكن العقلاء كلّفوا بعدما أعطوا العقل بالشيء الذي يستطيعونه.

أمّا حديث: "إذا أحب الله قومًا ابتلاهم.." فقد قال بعض العلماء: إن المصائب يثاب عليها مع تكفير الخطايا، ورجح ابن القيم أن ثوابها تكفير الخطايا فقط، إلا إذا كانت سبباً لعمل صالح كالصبر والرضا والتوبة والاستغفار، فإنه حينئذ يثاب على ما تولد منها، وعلى هذا يقال في معنى الحديث: "إن عظم الجزاء مع عظم البلاء.." أي: إذا صبر واحتسب.

على كلّ الحديث مطلق، والأحاديث التي ذكرنا مطلقة، فكوننا نقيّد الأحاديث بشيء لم يقيدها به رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا ليس وارداً، والمفهوم شيء والمنطوق شيء آخر.

ومعلوم أن النصوص يجب أن يؤخذ بظاهرها إلا إذا جاءت نصوص أخرى تخالفها؛ لأن النصوص من كتاب الله جل وعلا ومن سنة رسوله صلى الله عليه وسلم لا تتعارض، بل يصدق بعضها بعضاً.

هذا وإن ابتلاء الأنبياء والأولياء دليل على أنهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا دفعاً، "وإن الله إذا أحبّ قومًا ابتلاهم"، (١٩) ولهذا ورد في حديث سعد: سئل النبي صلى الله عليه وسلم: أيُّ الناس أشدّ بلاءً؟ قال: "الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل.." وهذا الحديث ونحوه من أدلة التوحيد، فإذا عرف العبد أن الأنبياء والأولياء يصيبهم البلاء في أنفسهم الذي هو في الحقيقة رحمة، ولا يدفعه عنهم إلا الله؛ عرف أنهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا دفعاً، فلأن لا يملكوه لغيرهم أولى وأحرى، فيحرم قصدهم والرغبة إليهم لقضاء



حاجة أو تفريج كربة، وفي وقوع الابتلاء بالأنبياء والصالحين من الأسرار والحكم والمصالح وحسن العاقبة ما لا يحصى.

هذا واضح وجلي، فقد ابتلي بعض الناس -نسأل الله العافية- بالتعلق بدعاء المخلوق والشرك به ويوجد كثير من الناس يعبد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويعبد الأولياء، ويتلمس لذلك الأدلة، مع أن كتاب الله جل وعلا ودعوة الرسل كلها جاءت بوجوب إخلاص العبادة لله وحده، وأن الإلهية له وحده، ولكن الشيطان لا يزال بالإنسان حتى يحرف الأمور الواضحة الجليلة، فيجعل العبادة غير العبادة، ويجعل التعلق في قالب آخر، فإذا جاء الشر صريحاً صار يؤوله. (٢٠)

والمعروف أن كثيراً من الناس يتعلقون بمن يسمونهم أولياء، مع أن الولاية أمرها خفي، فقد يظهر للإنسان أن فلاناً صالح أمام الناس، وهو في نفسه فاسد ليس صالحاً، وليست المسألة مسألة ما يظهر للناس، وإنما هو الشيء الذي يكون عند الله للإنسان، فقد يري الناس مثلاً أنه مطيع ومن الفضلاء، فإذا توارى عن الناس تجراً على الله جل وعلا في المعاصي، وهذا يوجد بكثرة، وقد يكون هذا المرض واضحاً عند كثير من الناس. فكون هذا ولياً أمر لا يعلمه إلا الله، إلا أن نخبرنا الرسول صلى الله عليه وسلم عن إنسان بعينه، وكونهم مثلاً يتعلقون به أمر محرم. هذا أمر.

الأمر الثاني: أن الدين الإسلامي جاء بوجوب الإخلاص لله وحده، ووجوب متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم في مثل هذين الأمرين، فكون العبادة كلها لله خالصة ليس فيها شيء لغيره، وكون العبادة جاء بها رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تكون بالاختيار أو بالنظر أو بالاستحسان، أو بما يتعارف عليه الناس ويصطلحون عليه كالموالد وما أشبه



ذلك من الأمور التي يفعلونها ثم يبحثون عن الأدلة من بعيد، ويتعلقون بأشياء عجيبة، فيقولون: إنها مشروعة، كيف كانت مشروعة وهي أول ما أحدثت في القرن السادس؟! هل احتفل الرسول صلى الله عليه وسلم بمولده؟ وهل احتفل به أحد من صحابته؟ هذا لا يثبت إلا كذاب مكابر، فكيف يكون بعد ذلك عبادة وفيها هوى النفوس واستيلاء الجهل عليها؟! وأشياء كثيرة من هذا القبيل، وهذا مثال فقط.

ثم كون العمل مقصود به وجه الله وحده فقط، ثم إذا دخله شيء من الإرادات والمقاصد فإنه إما أن يفسد فيصبح حابطاً، وإما أن يكون ناقصاً على الأقل كما سيأتي.

وإن ذهب بعضه وبقي بعضه إذا كان شيئاً واحداً فالله لا يقبل إلا ما كان خالصاً له، وبعد هذا كله كيف يكون مخلوق مكلف خلقه الله ليتعبده كيف يكون شريكاً لله في الإلهية أو في العبادة؟ والأمور في هذا واضحة، ولكن الذين يحبون الشرك ويدعون إليه يغالطون.

الله جل وعلا لما أخبر عن الملائكة أنهم عباد مكرمون، وأنهم يفعلون ما يؤمرون ولا يعصون الله ما أمرهم قال: { وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ } [الأنبياء: ٢٩]، ماذا يكون؟ { فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ } [الأنبياء: ٢٩]، يصلى جهنم.

فالقرآن كله ودعوات الرسل كلها تصب في هذا الأصل العظيم الذي ضل عنه كثير من الناس، وصار يغالط ولا يعتمد إلا على رؤيا كقولهم: رأيت كذا وفلان رأى كذا أو على حكايات وقصص خرافية، كقولهم: إن فلاناً دعا الولي الفلاني أو تعلق به فحصل له كذا وحصل له كذا أو على أحاديث مكذوبة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو على تحريفات كتحريفات اليهود الذين حرفوا النصوص تحريفات واضحة، ثم يستاء بعد ذلك



أن يقال: إن بلوى الرسل وما يصابون به دليل على أنهم عباد، وأنهم ليس لهم من الربوبية مع الله شيء، وليس لهم من الإلهية مع الله شيء! احتج على القول لشدة الجهل والعناد، وشدة ترك ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم من بعض الناس.

ومعلوم ما وقع فيه سيد الخلق رسول الله صلى الله عليه وسلم من أعدائه، لقد أخرج من مكة ثم لم يستطع الدخول إلا بجوار رجل مشرك، وذهب إلى الطائف فرموه بالحجارة حتى أدموا عقبه صلوات الله وسلامه عليه، وردوا عليه ردًا من أسوأ ما يكون، ثم قال جاهل من ثلاثة من كبارهم وساداتهم كانوا مجتمعين فعرض عليهم أمر الله ودعاهم فقال أحدهم: ما وجد الله أحدًا غيرك حتى أرسلك؟! بهذه السخرية والتهكم، والآخر قال: إنه يسرق كسوة الكعبة إن كنت رسولاً، وهذا استهزاء صريح، والآخر قال: لا أكلمك كلمة، لئن كنت صادقاً فلأنت أعظم من أن أردّ عليك، ولئن كنت كاذباً فلأنت أحقر من أن أكلمك! أهذا جواب الذي جاء بالبينات والهدى الواضحات؟! ثم بعد ذلك يغرى به السفهاء والصبيان، فيرمونه بالحجارة ويضربون عقبه حتى يخرج منه الدم صلوات الله وسلامه عليه، ثم يخرج ولا يدري إلى أين يتجه صلوات الله وسلامه عليه، قد ذهب فكره، فلم يفق إلا وهو بقرن الثعالب الذي يسمى: السيل العالي من الطائف، وهناك رجع إلى فكره ودعا بالدعوة المعروفة المشهورة وقال فيها: "إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي، غير أن عافيتك أوسع لي". (٢١) فيقول: إلا مصيبة تصيبني بها لا أبالي ما دام أنه بأمرك ولطاعتك، فيحمد الله على ذلك.

ثم كذلك يوم بدر قالت له عائشة رضي الله عنها: يا رسول الله! هل مرّ بك يوم أشدّ من يوم أحد؟ قال: "يا عائشة؛ لقد لقيت من قومك..". (٢٢) وذكر يوم الطائف.



ويوم أحد شج في وجهه صلوات الله وسلامه عليه، وجعل الدم يسيل على وجهه وهو يقول: "كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبيهم وهو يدعوهم إلى الله؟!". (٢٣) ثم بعد ذلك أنزل الله جل وعلا عليه: { لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ } [آل عمران: ١٢٨]، فالأمر كله لله، فامتثل أمر سيدك، وامض حيث أمرت وكلفت، ثم بعد هذا يأتي قائل ويقول:

يا أكرم الخلق ما لي من ألؤذ به ... سواك عند حلول الحادث العمم

إن لم تكن في معادي آخذاً بيدي ... فضلاً فقل يا زلة القدم

ولم يضيق رسول الله جاهك بي ... إذا الكريم تجلّى باسم منتقم

يقول: إذا غضب الله يوم القيامة فأنا أستجير بك من الله! - نسأل الله العافية - ثم

يقول:

فإن من جودك الدنيا وضررتها ... ومن علومك علم اللوح والقلم

إذا كان من جملة جود النبي صلى الله عليه وسلم الدنيا والآخرة، ومن جملة علومه علم اللوح الذي كتب فيه كل شيء، والقلم الذي كتب كل شيء، فماذا بقي لله؟ ما أبقى لله شيئاً، نسأل الله العافية! ثم يصبح هذا الكلام نصّاً، ويُحفظ كما تحفظ الفاتحة؛ بل بعض الناس يقرؤه مساءً وصباحاً ويجعله ورداً كآية الكرسي والمعوذتين وما أشبه ذلك.

وليس هذا إلا انحرافاً واضحاً، وتعلّقاً بال مخلوق وتركاً للخالق جل وعلا الذي بيده أزمّة الأمور وكل شيء، ومن الذي يزين هذه الأمور؟ يزينها شياطين الجن والإنس، ويجسّونها ويجعلونها بقالب تعظيم النبي صلى الله عليه وسلم ومعرفة حقوقه.



يؤخذ خالص حق الله جل وعلا ويوضع في المخلوق، فإنه لو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مواجهًا لهم لقاتلهم أشد من قتاله لكفار قريش؛ لأنهم خالفوه صراحة، وجاءوا بما لم يأت به مشرك من المشركين، نسأل الله العافية.

وعلى العبد أن يرضى بالقضاء وبالقدر وأن يسلم أمره لله، ولا يعترض ولا يتضجر، بل يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، ما أصابنا شيء إلا بإذن ربنا، وله الحمد على ذلك، فيكون عبدًا صحيحًا، فيسلم وينقاد، لا يعترض ولا يتضجر، ولا يتوجع، ولا ينافي هذا كونه يتعالج إذا كان مريضًا، أو كونه يصف المرض ويقول: أنا عندي كذا وكذا وأجد كذا وكذا لمن يكون عنده شيء من العلاج، فهذا لا ينافي كونه يسلم وينقاد لعدم الاعتراض، كما أنه لا ينافي التسليم كونه يئن في مرضه، وبعض العلماء يقول: الأين شكاية، كما روي عن طاووس رحمه الله، ولهذا لما بلغ ذلك الإمام أحمد وهو في مرضه صار لا يئن حتى مات رحمه الله، ولكن كون المريض يجد في أنيه شيئًا من الراحة فلا بأس، وليس معناه أنه يشتكي أو يتوجع.

فالمقصود: التسليم والرضا، وهو أن يسلم وينقاد، وألا يكون قلبه متسخطًا أو متوجعًا من ربه، فإذا تعالج أو وصف مرضه فإنه لا يكون منافيًا لذلك؛ لأن العلاج سبب من الأسباب التي وضعها رب العالمين، والأسباب أمر الله جل وعلا أن نبذلها كما جاء في الحديث لما قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: هل تتداوى؟ قال: "نعم. تداواوا عباد الله، فإن الله ما وضع داءً إلا ووضع له شفاء، علمه من علمه، وجهله من جهله، إلا داءً واحدًا وهو الهرم"، وفي رواية: "الموت". (٢٤) لأن هذه الحياة لا بد أن تنتهي.



قال الشارح رحمه الله: "ويحسن الظن به، ويرغب في ثوابه، وقد يجد لذلك راحة وانبساطاً، محبةً لله وثقةً به، كما قال ابن مسعود رضي الله عنه: "إن الله بقسطه وعدله جعل الروح والفرح باليقين والرضا، وجعل الهم والحزن بالشك والسخط". (٢٥) (٢٦)

و"إنَّ الناس إذا أرسل إليهم الرسل بين أمرين: إما أن يقول أحدهم: آمنا، وإما ألا يقول ذلك، بل يستمر على السيئات والكفر. فمن قال: آمنا؛ امتحنه ربه وابتلاه وفتنه، والفتنة: الابتلاء والاختبار، ليتبين الصادق من الكاذب، ومن لم يقل آمنا فلا يحسب أنه يعجز الله ويفوته ويسبقه، فإنه إنما يطوي المراحل في يديه.

وكيف يفرّ المرء عنه بذنبه ... إذا كان تطوى في يديه المراحل

فمن آمن بالرسول وأطاعهم عاداه أعداؤهم وآذوه فابتلي بما يؤلمه، وإن لم يؤمن بهم ولم يطعمهم عوقب في الدنيا والآخرة فحصل له ما يؤلمه، وكان هذا المؤلم له أعظم ألماً وأدوم من ألم اتباعهم، فلا بد من حصول الألم لكل نفس آمنت أو رغبت عن الإيمان، لكن المؤمن يحصل له الألم في الدنيا ابتداءً ثم تكون له العاقبة في الدنيا والآخرة، والمعرض عن الإيمان تحصل له اللذة ابتداءً ثم يصير إلى الألم الدائم.

وسئل الشافعي رحمه الله: أيما أفضل للرجل أن يُمكن أو يُبتلى؟ فقال: "لا يُمكن حتى يُبتلى". والله تعالى ابتلى أولي العزم من الرسل فلما صبروا مكّنهم، فلا يظنّ أحد أنه يخلص من الألم البتة، وإنما يتفاوت أهل الآلام في العقول، فأعقلهم من باع ألماً مستمراً عظيماً بألم منقطع يسير، وأشقاهاهم من باع الألم المنقطع اليسير بالألم العظيم المستمر. فإن قيل: كيف



يختار العاقل هذا؟ قيل: الحامل له على هذا النقد والنسيئة (٢٧) والنفس مُوكلةٌ بحبِّ العاجلِ". (٢٨)

وللمؤمن الصالح موقف ثابت مع الابتلاء، فعليه أن يعلم أن المصائب والبلاء امتحانٌ من الله تعالى له، لصبره ورضاه وحمده وشكره، بل وإيمانه، وهي علامة حبِّ الله له؛ فهي كالدواء، فإنه وإن كان مُرًّا إلا أنك تسديه على مرارته لمن تحب، وتتجرّعه على كراهة مذاقه، والله المثل الأعلى. كيف وهو يلظّ حينها بياحي يا قيوم يا ذا الجلال والإكرام!

تالله ما الدعواتُ يهزمها الردى ... يوماً وفي التاريخ برّ يميني

ونزول البلاء خيرٌ للمؤمن من أن يُدَّخر له العقاب في الآخرة، - وأن كانت العافية خير - وكيف لا وفيه تُرفع درجاته وتكفر سيئاته. قال الحسن البصري رحمه الله: "لا تكثرها البلايا الواقعة، والنقمة الحادثة، فلرُبَّ أمرٍ تكرهه فيه نجاتك، ولرُبَّ أمرٍ تؤثره فيه عطبك". (٢٩) وقال الفضل بن سهل: "إن في العلل لنعماً لا ينبغي للعاقل أن يجهلها، فهي تمحيص للذنوب، وتعرض لثواب الصبر، وإيقاظ من الغفلة، وتذكير بالنعمة في حال الصحة، واستدعاء للتوبة، وحض على الصدقة".

والمؤمن يجتهد لمراضي ربه تبارك وتعالى، فهو يبحث في البلاء عن الأجر، ولا سبيل إليه إلا بالصبر، وفوقه الرضا والحمد والشكر، ولا سبيل إلى ذلك بعد توفيق الله إلا بعزيمة إيمانية وإرادة بالله قوية.

وما أجمل تلك اللحظات التي يفرّ فيها العبد إلى ربه، (ففرّوا إلى الله) ويعلم أنه وحده هو مُفرّج الكرب، (أم من يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء) وما أعظم الفرحة إذا



نزل الفرج بعد الشدة، قال الله تعالى: (وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ). وعن أم سلمة رضي الله عنها أنها قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرني في مصيبتى وأخلف لي خيراً منها؛ إلا أخلف الله له خيراً منها". قالت: فلما مات أبو سلمة قلت: أي المسلمين خير من أبي سلمة؟! أول بيت هاجر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم إنني قتلها (٢٠) فأخلف الله لي رسول الله صلى الله عليه وسلم. (٣١)

إن المؤمن يسأل ربه العافية على الدوام فإن نزل البلاء صبر ورضي وحمد وشكر، فعن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، علّمني شيئاً أسأله الله عز وجل. قال: "سل الله العافية". فمكثت أياماً ثم جئت فقلت: يا رسول الله، علّمني شيئاً أسأله الله، فقال لي: "يا عباس، يا عم رسول الله، سلوا الله العافية في الدنيا والآخرة". (٣٢)

وربّ بلاءٍ مبارك! فمن البلاء ما يكون سبباً لدخول الجنة والنجاة من النار إن وفق الله صاحبه لحسن التعامل معه ظاهراً وباطناً، قال صلى الله عليه وسلم: "يودُّ أهل العافية يوم القيامة حين يُعطى أهل البلاء الثواب، لو أن جلودهم كانت قرّضت بالمقاريض". (٣٣) وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم عاد مريضاً ومعه أبو هريرة، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أبشر، فإن الله عز وجل يقول: هي نار يأسلّطها على عبدي المؤمن في الدنيا؛ لتكون حظّه من النار في الآخرة". (٣٤)



ومن بركات البلاء ردّ العبد إلى ربه وتذكيره بمعصيته وإيقاظه من غفلته، فيكون هذا البلاء سوط للقلب يردّه لسيدته ويسوقه لمولاه ويجدوه لمغفرته، من فوائد المرض أنه يرد العبد الشارد عن ربه إليه، ويذكره بمولاه بعد أن كان غافلاً عنه، ويكفه عن معصيته بعد أن كان منهمكاً فيها.

ومن غايات الابتلاء الربانية وألطفه الرحمانية الخفية أن العبد قد تكون له منزلة عظيمة عند الله تبارك وتعالى، وليس للعبد من العمل ما يبلغ به إياها، فلا يزال ربه الرحيم يتليه بالبلاء تلو البلاء، وينزل عليه المصائب، ويتابع عليه الكربات، حتى يبلغ المنزلة بألمه وصبره، وقد يُوفّق للرضا والحمد والشكر، قال عليه الصلاة والسلام: "إنّ العبد إذا سبقت له من الله منزلة لم يبلغها بعمله، ابتلاه الله في جسده أو في ماله أو في ولده، ثم صبره على ذلك، حتى يبلغه المنزلة التي سبقت له من الله تعالى". (٣٥)

وإذا دخل أهل الجنة الجنة؛ انقطع التكليف، وزال الابتلاء، وانتهى الامتحان، وحلّ عليهم الرضوان، وأعطاهم الله ما يشتهون من ألوان النعيم، وأعظمه النظر لوجه الجميل الكريم سبحانه وبحمده، فلا إله إلا الله.

ومن نعيمهم أن أباح لهم بعض ما حرم عليهم في الدنيا ابتلاءً وحفظاً، جزاء طاعتهم وصبرهم، مع أنه لا مقارنة بين ما في الدنيا والآخرة، ومن ذلك الخمر، قال الله تعالى عن خمر الجنة: (يتنازعون فيها كأساً لا لغو فيها ولا تأثيم) [الطور: ٢٣] وقال تعالى: (بيضاء لذة للشاربين* لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون) [الصفات: ٤٦، ٤٧] وقال تعالى: (يطوف عليهم ولدان مخلدون* بأكواب وأباريق وكأس من معين* لا يصدعون عنها



ولا ينزفون). فيا أيه المبتلى تفاعل بخير ربك، وأحسن الظن بمن لا يأتيك الخير إلا من عنده، ولا يندفع الضر إلا به.

ألا وإن مواطن الابتلاء كثيرة، فهي لا تنحصر في الأمراض ونحوها من حالات الضراء، بل هناك أيضا فتنة السراء، وكما قد يتلى العبد بالضراء ليختبر أيرضى أم يسخط، فإنه قد يتلى بالسراء ليختبر ويمتحن أيشكر أم يكفر. قال تعالى: (وَنَبَلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً {الأنبياء: ٣٥}، وقال تعالى على لسان سليمان عليه السلام: (هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ)، فليس بلازم أن يتلى العبد بالضراء. وقد أخرج الترمذي عن رجل كان يخدم عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قال: "حَضَرْتُهُ أُتِيَ بِطَعَامٍ لَيْلًا، وَكَانَ ظَلَّ يَوْمَهُ صَائِمًا، فَبَكَى، وَقَالَ: "ذَهَبَ الْأَوْلُونَ، لَمْ تَكَلِّمَهُمْ (٣٦) الدنيا من حسناتهم شيئًا، وإنا ابتلينا بالضراء فصبرنا، ثم ابتلينا بالسراء فلم نصبر، (٣٧) وكفى لامرئ من الشر أن يُشار إليه بالأصابع في أمر". (٣٨)

قال ابن تيمية رحمه الله: "نعمة الضراء احتياجها إلى الصبر ظاهر، وأما نعمة السراء فتحتاج إلى الصبر على الطاعة فيها. فإن فتنة السراء أعظم من فتنة الضراء. وفي الحديث: "أعوذ بك من فتنة الفقر، وشر فتنة الغنى". (٣٩) والفقر يصلح عليه خلق كثير، والغنى لا يصلح عليه إلا أقل منهم. ولهذا كان أكثر من يدخل الجنة المساكين، لأن فتنة الفقر أهون، وكلاهما يحتاج إلى الصبر والشكر، لكن لما كان في السراء اللذة وفي الضراء الألم؛ اشتهر ذكر الشكر في السراء والصبر في الضراء، قال تعالى: {ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليئوس كفور ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني إنه لفرح فخور إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير}.



ولأن صاحب السراء أحوج إلى الشكر، وصاحب الضراء أحوج إلى الصبر، فإن صبر هذا وشكر هذا واجب إذا تركه استحق العقاب.

وأما صبر صاحب السراء فقد يكون مستحباً إذا كان عن فضول الشهوات، وقد يكون واجباً، ولكن لإتيانه بالشكر - الذي هو حسنات - يغفر له ما يغفر من سيئاته. وكذلك صاحب الضراء لا يكون الشكر في حقه مستحباً إذا كان شكراً يصير به من السابقين المقربين. وقد يكون تقصيره في الشكر مما يُغفر له لما يأتي به من الصبر. فإن اجتماع الشكر والصبر جميعاً يكون مع تألم النفس وتلذذها، يصبر على الألم ويشكر على النعم. وهذا حال يعسر على كثير من الناس.

والمقصود هنا؛ أن الله تعالى منعّم بهذا كله، وإن كان لا يظهر الإنعام به في الابتداء لأكثر الناس، فإن الله يعلم وأنتم لا تعلمون، فكل ما يفعله الله فهو نعمة منه. وأما ذنوب الإنسان فهي من نفسه، ومع هذا فهي - مع حسن العاقبة - نعمة (٤٠) وهي نعمة على غيره بما يحصل له بها من الاعتبار والهدى والإيمان. ولهذا كان من أحسن الدعاء قوله: "اللهم لا تجعلني عبرة لغيري، ولا تجعل أحداً أسعد بما علمتني مني". (٤١) وفي دعاء القرآن: { ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين } { لا تجعلنا فتنة للذين كفروا } كما فيه { واجعلنا للمتقين إماما } أي فاجعلنا أئمة لمن يقتدي بنا ويأتم. (٤٢) ولا تجعلنا فتنة لمن يضل بنا ويشقى. و "الآلاء" في اللغة: هي النعم، وهي تتضمن القدرة. قال ابن قتيبة: لما عدد الله في هذه السورة - سورة الرحمن - نعماءه وذكر عباده آلاءه ونبههم على قدرته؛ جعل كل كلمة من ذلك فاصلة بين نعمتين، ليفهم النعم ويقرّره بها.



والله تعالى يذكر في القرآن بآياته الدالة على قدرته وربوبيته، ويذكر بآياته التي فيها نعمه وإحسانه إلى عباده، ويذكر بآياته المبيّنة لحكمته تعالى، وهي كلها متلازمة. فكل ما خلق فهو نعمة ودليل على قدرته وعلى حكمته، لكن نعمة الرزق والانتفاع بالمآكل والمشرب والمسكن والملابس ظاهرة لكل أحد، فلهذا يستدل بها كما في سورة النحل، وتسمى سورة النعم، كما قاله قتادة وغيره.

وعلى هذا فكثير من الناس يقول: الحمد أعمّ من الشكر من جهة أسبابه، فإنّه يكون على نعمة وعلى غير نعمة، (٤٣) والشكر أعمّ من جهة أنواعه، فإنه يكون بالقلب واللسان واليد. (٤٤)

فإذا كان كل مخلوق فيه نعمة لم يكن الحمد إلا على نعمة، والحمد لله على كل حال، لأنه ما من حال يقضيها إلا وهي نعمة على عباده، (٤٥) لكن هذا فهم من عرف ما في المخلوقات من النعم، والجهمية والجبرية بمعزل عن هذا". (٤٦)

وقد عقد شيخ الإسلام الثاني ابن القيم فصلاً بديعاً في مفتاح دار السعادة وذكر فيه شيئاً عن حكم الله تعالى في ابتلاء أوليائه فقال: "وإذا تأملت حكمته سبحانه فيما ابتلى به عباده وصفوته بما ساقهم به إلى أجلّ الغايات وأكمل النهايات التي لم يكونوا يعبرون إليها إلا على جسر من الابتلاء والامتحان، وكان ذلك الجسر لكماله كالجسر الذي لا سبيل إلى عبورهم إلى الجنة إلا عليه، وكان ذلك الابتلاء والامتحان عين المنحة في حقهم والكرامة، فصورته صورة ابتلاء وامتحان، وباطنه فيه الرحمة والنعمة، فكم لله من نعمة جسيمة ومنّة عظيمة تُجنى من قطوف الابتلاء والامتحان (٤٧).



فتأمل حال أبينا آدم وما آلت إليه محنته من الاصطفاء والاجتباء والتوبة والهداية ورفعة المنزلة، ولولا تلك المحنة التي جرت عليه - وهي إخراجه من الجنة وتوابع ذلك - لما وصل الى ما وصل إليه، فكم بين حالته الأولى وحالته الثانية في نهايته.

وتأمل حال أبينا الثاني نوح صلى الله عليه وسلم وما آلت اليه محنته وصبره على قومه تلك القرون كلها، حتى أقر الله عينه وأغرق أهل الارض بدعوته، وجعل العالم بعده من ذريته، وجعله خامس خمسة وهم أولو العزم الذين هم أفضل الرسل، وأمر رسوله ونبيه محمداً صلى الله عليه وسلم أن يصبر كصبره، وأثنى عليه بالشكر فقال: (إنه كان عبداً شكوراً) فوصفه بكمال الصبر والشكر.

ثم تأمل حال أبينا الثالث (٤٨) إبراهيم صلى الله عليه وسلم إمام الحنفاء وشيخ الأنبياء وعمود العالم (٤٩) و خليل رب العالمين من بني آدم، وتأمل ما آلت إليه محنته وصبره وبذله نفسه لله، وتأمل كيف آل به بذله لله نفسه ونصره دينه إلى أن اتخذ الله خليلاً لنفسه، وأمر رسوله و خليله محمداً صلى الله عليه وسلم أن يتبع ملته.

وأنبئك على خصلة واحدة مما أكرمه الله به في محنته بذبح ولده (٥٠) فإن الله تبارك وتعالى جازاه على تسليمه ولده لأمر الله بأن يبارك في نسله وكثره حتى ملأ السهل والجبل.

فإن الله تبارك وتعالى لا يتكرم عليه أحد، وهو أكرم الأكرمين، فمن ترك لوجهه أمراً أو فعله لوجهه بذل الله له أضعاف ما تركه من ذلك الأمر أضعافاً مضاعفة، و جازاه بأضعاف ما فعله لأجله أضعافاً مضاعفة، فلما أمر إبراهيم بذبح ولده فبادر لأمر الله



ووافق عليه الولد أباه رضاءً منها وتسليماً، وعلم الله منها الصدق والوفاء فداه بذبح عظيم، وأعطاهما ما أعطاهما من فضله.

وكان من بعض عطاياه أن بارك في ذريتها حتى ملؤوا الأرض، فإن المقصود بالولد إنما هو التناسل وتكثير الذرية، ولهذا قال إبراهيم: (رب هب لي من الصالحين)، وقال: (رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي). فغاية ما كان يحذر ويخشى من ذبح ولده انقطاع نسله، فلما بذل ولده لله وبذل الولد نفسه ضاعف الله له النسل وبارك فيه وكثر حتى ملؤوا الدنيا، وجعل النبوة والكتاب في ذريته خاصة، وأخرج منهم محمداً صلى الله عليه وسلم. ثم تأمل حال الكليم موسى عليه السلام وما آلت إليه محنته وفتونه من أول ولادته إلى منتهى أمره، (٥١) حتى كلمه الله تكليماً، وقربه منه، وكتب له التوراة بيده، ورفعته إلى أعلى السماوات، واحتمل له ما لا يحتمل لغيره، فإنه رمى الألواح على الأرض حتى تكسرت، وأخذ بلحية نبي الله هارون وجره إليه، ولطم وجهه ملك الموت ففقد عينه.. وربّه يجبه على ذلك كله، ولا سقط شيء منه من عينه، ولا سقطت منزلته عنده، بل هو الوجيه عند الله القريب، ولولا ما تقدم له من السوابق وتحمل الشدائد والمحن العظام في الله، ومقاسات الأمر الشديد بين فرعون وقومه، ثم بني إسرائيل وما آذوه به، وما صبر عليهم لله، لم يكن ذلك.

ثم تأمل حال المسيح صلى الله عليه وسلم، وصبره على قومه، واحتماله في الله وما تحمله منهم، حتى رفعه الله إليه وطهره من الذين كفروا، وانتقم من أعدائه وقطعهم في الأرض ومزقهم كل ممزق، وسلبهم ملكهم وفخرهم إلى آخر الدهر.



فإذا جئت إلى النبي صلى الله عليه وسلم وتأملت سيرته مع قومه وصبره في الله واحتماله ما لم يحتمله نبيّ قبله، وتلوّن الأحوال عليه؛ من سِلْمٍ وخوف، وغنى وفقر، وأمن وإقامة في وطنه وظعن عنه وتركه لله، وقتل أحبابه وأوليائه بين يديه، وأذى الكفار له بسائر أنواع الأذى من القول والفعل والسحر والكذب والافتراء عليه والبهتان، وهو مع ذلك كله صابر على أمر الله، يدعو إلى الله، فلم يُؤذَنبي ما أؤذي، ولم يحتمل في الله ما احتمله، ولم يُعط نبي ما أعطيه، فرفع الله له ذكره، وقرن اسمه باسمه، وجعله سيد الناس كلهم، وجعله أقرب الخلق إليه وسيلة، وأعظمهم عنده جاهًا، وأسمعهم عنده شفاعة. وكانت تلك المحن والابتلاء عين كرامته، وهي مما زاده الله بها شرفًا وفضلًا، وساقه بها إلى أعلى المقامات.

وهذا حال ورثته من بعده الأمثل فالأمثل، كلُّ له نصيب من المحنة يسوقه الله به إلى كماله بحسب متابعتة له، ومن لا نصيب له من ذلك فحظّه من الدنيا حظٌّ من خُلِق لها وخُلِقَتْ له، وجُعِل خلاقه ونصيبه فيها! فهو يأكل منها رغدًا، ويتمتع فيها حتى يناله نصيبه من الكتاب.

يُمتحنُ أولياء الله وهو في دعة وخفض عيش، ويخافون وهو آمن، ويحزنون وهو في أهله مسرور، له شأن ولهم شأن، وهو في واد وهم في واد. همُّه ما يقيم به جاهه ويسلم به ماله وتُسمع به كلمته، لزم من ذلك ما لزم، ورضي من رضي، وسخط من سخط.

وهمّ المؤمنين إقامة دين الله وإعلاء كلمته وإعزاز أوليائه وأن تكون الدعوة له وحده، فيكون هو وحده المعبود لا غيره، ورسوله المطاع لا سواه، فله سبحانه من الحكم في



ابتلائه انبياءه ورسله وعباده المؤمنين ما تتقاصر عقول العالمين عن معرفته، وهل وصل من وصل إلى المقامات المحموده والنهايات الفاضلة إلا على جسر المحنة والابتلاء؟!

كذا المعالي إذا ما رُمتَ تدركُها... فاعبر إليها على جسرٍ من التعبِ

وإذا تأملت الحكمة الباهرة في هذا الدين القويم والملة الحنيفة والشريعة المحمدية التي لا تنال العبارة كمالها، ولا يدرك الوصف حسنها، ولا تقترح عقول العقلاء ولو اجتمعت وكانت على أكمل عقل رجل منهم فوقها، وحسب العقول الكاملة الفاضلة إن أدركت حسنها، وشهدت بفضلها، وأنه ما طرق العالم شريعة أكمل ولا أجل ولا أعظم منها، فهي نفسها الشاهد والمشهود له، والحجة والمحتج له، والدعوى والبرهان، ولو لم يأت الرسول ببرهان عليها لكفى بها برهاناً وآية وشاهداً على أنها من عند الله، وكلها شاهدة له بكمال العلم وكمال الحكمة وسعة الرحمة والبر والإحسان والإحاطة بالغيب والشهادة والعلم بالمبادئ والعواقب، وأنها من أعظم نعم الله التي أنعم بها على عباده، فما أنعم عليهم بنعمة أجل من أن هداهم لها، وجعلهم من أهلها، وممن ارتضاهم لها، فلهذا امتنَّ على عباده بأن هداهم لها، قال تعالى: (لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من انفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين) وقال معرفاً لعباده ومذكراً لهم عظيم نعمته عليهم مستدعياً منهم شكره على أن جعلهم من أهلها: (اليوم اكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً).

وتأمل كيف وصف الدين الذي اختاره لهم بالكمال والنعمة التي أسبغها عليهم بالتمام، إيذاناً في الدين بأنه لا نقص فيه ولا عيب ولا خلل ولا شيء خارجاً عن الحكمة



بوجه، بل هو الكامل في حسنه وجلالته، ووَصَفَ النعمة بالتمام إيدانًا بدوامها واتصالها، وأنه لا يسلبهم إياها بعد إذ أعطاهمها، بل يتمها لهم بالدوام في هذه الدار وفي دار القرار. وتأمل حسن اقتران التمام بالنعمة، وحسن اقتران الكمال بالدين، وإضافة الدين إليهم إذ هم القائمون به المقيمون له، وأضاف النعمة إليه إذ هو وليها ومسديها والمنعم بها عليهم، فهي نعمته حقًا، وهم قابلوها. وأتى في الكمال باللام المؤذنة بالاختصاص، وأنه شيء خُصَّوا به دون الأمم، وفي إتمام النعمة بعلی المؤذنة بالاستعلاء والاشتغال والإحاطة، فجاء: (أتمت) في مقابلة: (أكملت) و(عليكم) في مقابلة (لكم) و(نعمتي) في مقابلة (دينكم).

وأكد ذلك وزاده تقريرًا وكمالًا وإتمامًا للنعمة بقوله: (ورضيت لكم الاسلام دينا) وكان بعض السلف الصالح يقول: يا له من دينٍ لو أنّ له رجالًا". (٥٢)

هذا؛ وإن في صبر النبي صلى الله عليه وسلم على أذى المشركين أمثلة رائعة يجدر بالدعاة إلى الله تعالى بل بعموم المسلمين أن يقفوا عندها ويتأملوها، ليتأسسوا بالنبي صلى الله عليه وسلم، فهو خير أسوة لخير أمة، ومن ذلك: ما كان مشركو مكة يُلقون على عتبه صلى الله عليه وسلم من الأنتان والأقذار، وقد كان صابراً محتسباً، وما كان يزيد على قوله: "يا بني عبد مناف؛ أيّ جوار هذا؟!". (٥٣) وبعد أن اشتدّ أذى قريش للنبي صلى الله عليه وسلم عقب وفاة عمه أبي طالب، خرج النبي صلى الله عليه وسلم إلى الطائف للدعوة وطلب النصر من ثقيف، ولكنهم لم يستجيبوا له، بل كفروا به، وأمروا صبيانهم وسفهاءهم أن يصطفوا على الطريق صفيين، وأن يرموه بالحجارة، فرجموه صلى الله عليه وسلم بالحجارة حتى أدموا عقبه الشريف. قال ابن إسحاق رحمه الله: "ولما هلك أبو



طالب نالت قريش من رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأذى ما لم تكن تنال منه في حياة عمه أبي طالب، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الطائف يلتمس النصرة من ثقيف والمنعة بهم من قومه، ورجاء أن يقبلوا منه ما جاءهم به من الله عز وجل، فخرج إليهم وحده.

تالله ما الدّعوات يهزمها الردى ... يوماً وفي التاريخ برُّ يميني

ضع في يدي القيد، ألهب أضلعي ... بالسوط، ضع عنقي على السكين

لن تستطيع حصار فكري ساعة ... أو نزع إيماني ونور يقيني

فالنور في قلبي، وقلبي في يدي ... ربّي، وربّي نصري ومعيني

سأعيش معتصماً بحبل عقيدتي ... وأموت مبتسماً ليحيا ديني

ولما انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الطائف عمد إلى نفر من ثقيف هم يؤمئذ سادته ثقيف وأشرافهم، وهم إخوة ثلاثة عبدُ ياليل بن عمرو ومسعود بن عمرو وحبیب بن عمرو، وعند أحدهم امرأة من قريش من بني جمح، فجلس إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعاهم إلى الله، وكلمهم بما جاءهم له من نصرته على الإسلام، والقيام معه على من خالفه من قومه. فقال له أحدهم: هو (٥٤) يمرط ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك، وقال الآخر: أما وجد الله أحداً يرسله غيرك؟ وقال الثالث: والله لا أكلمك أبداً، لئن كنت رسولاً من الله كما تقول لأنت أعظم خطراً من أن أردد عليك الكلام، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي لي أن أكلمك. فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من عندهم وقد يئس من خير ثقيف وقد قال لهم - فيما ذكر لي - : "إذا فعلتم ما



فعلتم فاكنتموا عني". وكره رسول الله صلى الله عليه وسلم يبلغ قومه عنه فيذئتهم ذلك عليه.

فلم يفعلوا واغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونهم ويصيحون به، حتى اجتمع عليه الناس، وألجئوه إلى حائط لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وهما فيه، ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه، فعمد إلى ظل حبلّة من عنب فجلس فيه وابنا ربيعة ينظران إليه ويريان ما لقي من سفهاء أهل الطائف.

فلما اطمأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربّي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني، أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبالي، غير أن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن ينزل بي غضبك، أو يحل عليّ سخطك، لك العتبي حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك". (٥٥)

فلما رآه ابنا ربيعة عتبة وشيبة وما لقي تحركت له رحمهما؛ فدعوا غلامًا لهما نصرانيًا يقال له عدّاس، فقالا له: خذ قطعًا من هذا العنب فضعه في هذا الطبق، ثم اذهب به إلى ذلك الرجل فقل له يأكل منه، ففعل عدّاس، ثم أقبل به حتى وضعه بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم قال له: كل، فلما وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه يده قال: "باسم الله" ثم أكل، فنظر عدّاس في وجهه ثم قال: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد! فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ومن أهل أيّ البلاد أنت يا عدّاس، وما دينك؟" قال: نصراني، وأنا رجل من أهل نينوى، فقال رسول الله صلى الله عليه



وسلم: "من قرية الرجل الصالح يونس بن متى" فقال له عداس: وما يدريك ما يونس بن متى؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ذاك أخي، كان نبياً وأنا نبي". فأكّب عدّاس على رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل رأسه ويديه وقدميه.

قال: يقول ابنا ربعة أحدهما لصاحبه: أمّا غلامك فقد أفسده عليك! فلما جاءهما عدّاس قالوا له: ويلك يا عدّاس! ما لك تقبّل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه؟ قال: يا سيدي؛ ما في الأرض شيء خير من هذا، لقد أخبرني بأمر ما يعلمه إلا نبي. قالوا له: ويحك يا عدّاس، لا يصرفنك عن دينك، فإن دينك خير من دينه.

قال: ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم انصرف من الطائف راجعاً إلى مكة حين يئس من خير ثقيف، حتى إذا كان بنخلة قام من جوف الليل يصلي، فمرّ به النفر من الجنّ الذين ذكرهم الله تبارك وتعالى، وهم فيما ذكر لي سبعة نفر من جنّ أهل نصيبين، فاستمعوا له، فلما فرغ من صلاته ولّوا إلى قومهم منذرين قد آمنوا وأجابوا إلى ما سمعوا، فقصّ الله خبرهم عليه صلى الله عليه وسلم، قال الله عز وجل: (وإذ صرفنا إليك نفر من الجنّ يستمعون القرآن) إلى قوله تعالى: (ويجركم من عذاب أليم). وقال تبارك وتعالى: (قل أوحى إلي أنه استمع نفر من الجن) إلى آخر القصة من خبرهم في هذه السورة. (٥٦)

فصلى الله وملائكته وصالح عباده وسلّم وبارك على هذا النبي الشفيق الكريم، وقد أحسن جهاد جحا حينما أنشد:

وَلَرُبَّ حَاجَاتٍ تَعَسَّرَ نَيْلُهَا ... وَالْحَيْرُ كُلُّ الْحَيْرِ فِي تَعْسِيرِهَا

كُنْ وَاثِقًا بِاللَّهِ فِيمَا قَدْ قَضَى ... وَاتْرُكْ أُمُورًا قَدْ دَعَاكَ لِغَيْرِهَا



واجعل حياتك كلها بيد الذي ... لولاه لئن تقوى على تدبيرها
 واترك هواك لأمر ربك واحتسب ... لا تلتفت للنفس عند زئيرها
 من يتق الرحمن يلق سعادة ... يعيا لسان الخلق عن تفسيرها

"وكلما قوي طمع العبد في فضل الله ورحمته ورجائه لقضاء حاجته ودفع ضرورته؛ قويت عبوديته له وحرّيته مما سواه؛ فكما أنّ طمعه في المخلوق يوجب عبوديته له، فيأسه منه يوجب غنى قلبه عنه. كما قيل: استغن عن من شئت تكن نظيره، وأفضل على من شئت تكن أميره، واحتج إلى من شئت تكن أسيره. فكذلك طمع العبد في ربه ورجاؤه له يوجب عبوديته له، وإعراض قلبه عن الطلب من غير الله والرجاء له يوجب انصراف قلبه عن العبودية لله، لا سيّما من كان يرجو المخلوق ولا يرجو الخالق، بحيث يكون قلبه معتمداً إما على رئاسته وجنوده وأتباعه ومماليكه، وإما على أهله وأصدقائه، وإما على أمواله وذخائره، وإما على ساداته وكبرائه، كما لكة وملكه وشيخه ومخدومه وغيرهم، ممن هو قد مات أو يموت، قال تعالى: { وتوكل على الحي الذي لا يموت وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيراً }. (٥٧)

ومن جميل ما هتفت به يراعة الشاعر الأندلسي أبي الفضل يوسف بن محمد المعروف بابن النحوي المتوفى سنة ٥١٣ هـ وتسمّى "القصيدة المنفرجة" وهي على روي منفرجة الغزالي الأنفة، قال ابن النحوي رحمه الله:

اشتدّي أزمة تنفرجي ... قد آذن ليك بالبلح
 وظلام الليل له سرج ... حتى يغشاه أبو السرج



وَسَحَابُ الْخَيْرِ لَهَا مَطَرٌ ... فَإِذَا جَاءَ الْإِبَانُ تَجِي
 وَفَوَائِدُ مَوْلَانَا جُمَّلٌ ... لِسُرُوحِ الْأَنْفُسِ وَالْمُهْجِ
 وَلَهَا أَرْجٌ مُحِي أَبْدَا ... فَاقْصِدْ مَحْيَا ذَاكَ الْأَرْجِ
 فَلَرَبِّمَا فَاضِ الْمَحْيَا ... بِبِحُورِ الْمَوْجِ مِنَ اللَّجَجِ
 وَالْخَلْقُ جَمِيعًا فِي يَدِهِ ... فَذُوو سِعَةٍ وَذُوو حَرَجِ
 وَنَزْوَهُمْ وَطَلُوْعُهُمْ ... فَعَلَى دَرْكِ وَعَلَى دَرَجِ
 وَمَعَائِشُهُمْ وَعَوَاقِبُهُمْ ... لَيْسَتْ فِي الْمَشِيِّ عَلَى عِوَجِ
 وَرِضًا بِقَضَاءِ اللَّهِ حِجِي ... فَعَلَى مَرَكُوزَتِهِ فَعُجِ
 وَإِذَا انْفَتَحَتْ أَبْوَابُ هُدَى ... فَاعْجَلِ لِحَزَائِنِهَا وَلِجِ
 وَمَعَاصِي اللَّهِ سَمَاجَتُهَا ... تَزْدَانُ لِيذِي الْخُلُقِ السَّمِجِ
 وَلِطَاعَتِهِ وَصَبَاحَتِهَا ... أَنْوَارُ صَبَاحِ مُنْبَلَجِ
 وَاتْلُ الْقُرْآنَ بِقَلْبٍ ذِي ... حَزْنٍ وَبِصَوْتٍ فِيهِ شَجِي
 وَصَلَاةُ اللَّيْلِ مَسَافَتُهَا ... فَاذْهَبِ فِيهَا بِالْفَهْمِ وَجِي
 وَتَأَمَّلْهَا وَمَعَانِيهَا ... تَأْتِ الْفِرْدَوْسَ وَتَنْفَرَجِ
 وَكِتَابُ اللَّهِ رِيَاضَتُهُ ... لِيَقُودَ الْخُلُقِ بِمُنْدَرَجِ
 وَخِيَارُ الْخُلُقِ هُدَايُهُمْ ... وَسِوَاهُمْ مِنْ هَمَجِ الْهَمَجِ



وإذا كنت المقدام فلا ... تجزع في الحرب من الرهج

.....

١. الترمذي (٢٣٩٦) وصححه الألباني.
٢. الطبراني في الكبير (١٩٣)
٣. البخاري (٢٩٩٦)
٤. الموافاة هنا هي الاستيفاء، أي أخذ الحق كاملاً مستوفياً، والمراد: أي لا يجازيه بذنبه في الدنيا حتى يجيء في الآخرة مستوفراً الذنوب وافيها، فيستوفي ما يستحقه من العقاب، عياداً بالله تعالى.
٥. الترمذي (٢٣٩٦) وقال حديث حسن وصححه الألباني في صحيح الترمذي. وأخرجه ابن ماجه (٤٠٣١) باللفظ الثاني فقط. قال ابن القيم رحمه الله تعالى في الزاد (٣/٥٠٦): "يؤدب الله عبده المؤمن الذي يجبه وهو كريم عنده بأدنى زلة وهفوة، فلا يزال مستيقظاً حذراً، وأما من سقط من عينه، وهان عليه فإنه يخلي بينه وبين معاصيه، وكلما أحدث ذنباً أحدث الله له نعمة، والمغرور يظن أن ذلك من كرامته عليه، ولا يعلم أن ذلك عين الإهانة، وأنه يريد به العذاب الشديد، والعقوبة، التي لا عافية معها".
٦. شرح رياض الصالحين للعثيمين (١ / ٤٨)
٧. القول المفيد على كتاب التوحيد (٢ / ٧٩)
٨. أحمد في المسند (٨٠٣) ومسلم (١ / ٢١٥)
٩. قال الشيخ صالح آل الشيخ حفظه الله: حديث: "والشر ليس إليك" يعني أن أفعال الله تعالى لا توصف بالشر؛ بل كلها عدل أو فضلٌ وخير، لما فيها من الغايات المحموده؛ لكن ما يُصَافُ للعبد يكون شرّاً بالنسبة له؛ لكن بالنسبة للقدر هو خير.

مثلاً: أصيب فلان بفقد والده، أصيب بفقد ماله؛ فهذا بالنسبة له سوء وشر؛ لكن بالنسبة إلى القدر وفعل الله تعالى هو خير؛ لأنه لا يُنظرُ إلى المسألة بمجرد ما؛ بل إلى الغاية المحموده من ورائها، والغاية المحموده من ورائها أن يبتلي العباد بذلك، يبتلي الحي، يبتلي الميت (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيُبْلُوَكُمْ أَنِ كُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) [الملك: ٢]. فإذا



أفعال الله تعالى كلها خير، وأما ما يضاف إلى العبد فينقسم إلى الخير والشر". إتحاف السائل بما في الطحاوية من مسائل (١٧ / ٣٨)

١٠. الأظهر أن أقله واحد وهو الصبر، لأنه واجب، والعبد مستحق للأجر بأداء الواجب، أما الرضا ففضيلة، وأعني به الرضا بالمقضي. أما أكثره فأربعة بزيادة الحمد لأن الحمد غير الشكر فالحمد أعم من جهة أسبابه والشكر أعم من جهة أنواعه، والحمد عبادة جليلة وهي داخلة في هذا الباب دخولاً أولياً، والله أعلم.

١١. المعتصر شرح كتاب التوحيد للخضير (١ / ٢١٩) باختصار وتصرف يسيرين.

١٢. أحمد (١٤٩٤) وحسنه محققوه من أجل عاصم بن بهدله. وصححه الألباني في صحيح الجامع (٩٩٦)

١٣. انظر: مجموع الفتاوى (١٠ / ٤١، ٢٨ / ٤٦٠)

١٤. مسلم ٢٢٧/٨ (٢٩٩٩)

١٥. أي صاحب فتح المجيد شرح كتاب التوحيد وهو عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ رحمه الله تعالى. (ت: ١٢٨٥)

١٦. الترمذي (٢٤٩٩)، وابن ماجه (٢٤٥١). وحسنه الألباني.

١٧. مسلم ٩٤/٨ (٢٧٤٩) (١١) وفيه قد ابتدأ الخبر بالقسم فقال: "والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا..".

١٨. أحمد (١٤٩٤) وحسنه محققوه من أجل عاصم بن بهدله. وصححه الألباني في صحيح الجامع (٩٩٦)

١٩. البخاري ١٠٩/٧ (٥٤٧٠) ومسلم ١٧٤/٦ (٢١٤٤) (٢٣)

٢٠. تأمل ثناء الله تعالى في سورة الأنعام على ثمانية عشر رسولاً ونبياً في سياق واحد مُتَّصِل، ثم خُتِم الثناء العظيم بقوله الحاسم: (ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون) وقال في سورة الإخلاص الكبرى "الزمر" للنبي الخاتم صلى الله عليه وسلم: (لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين) فلا مسامحة في



نقض التوحيد. فالشرك ينقض العمل كله: (إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار).

٢١. الطبراني في الكبير (١٣/٧٣/١٨١) وضعفه الألباني في السلسلة (٦/٤٨٧) من جهة تدليس وعنونة ابن إسحاق.

٢٢. البخاري ١٣٩/٤ (٣٢٣١) ومسلم ١٨١/٥ (١٧٩٥) (١١١) وتامه: عن عائشة رضي الله عنها: أنها قالت للنبي صلى الله عليه وسلم: هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ قال: "لقد لقيت من قومك، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي، وإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل عليه السلام، فناداني، فقال: إن الله تعالى قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم. فناداني ملك الجبال، فسلم عليّ، ثم قال: يا محمد، إن الله قد سمع قول قومك لك، وأنا ملك الجبال، وقد بعثني ربي إليك لتأمرني بأمرك، فما شئت، إن شئت أطبقت عليهم الأخشبين". فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً".

٢٣. البخاري (٤٠٦٨) ومسلم (١٧٩١) بنحوه.

٢٤. ابن ماجه (٣٤٢٧) وصححه الألباني. وأحمد (١٨٤٥٥) بلفظ: "إلا الموت والهزم". وحسنه محققوه.

٢٥. شعب الإيمان (١٧٦/١) والحلية (١٢٢/٣) وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٢٠٠٩)

٢٦. شرح فتح المجيد شرح كتاب التوحيد للغنيمان (٩٤-١٠٣/١) مختصراً.

٢٧. النقد هو العاجلة أي متاع الدنيا الزائل، أما النسيئة فهي التأخير، والمراد الآجلة وهو أجر الآخرة.

٢٨. زاد المعاد (٣/١١)

٢٩. أي: هلاكك.



٣٠. اتباعاً للسنة فحقق الله لها أعظم ما لم يخطر ببالها، ليقينها وتصديقها وحسن ظنّها بربّها سبحانه.
٣١. مسلم (٩١٨)
٣٢. الترمذي (٣٥١٤) وقال حديث صحيح، وكذلك صححه الألباني.
٣٣. الترمذي (٢٤٠٤) وحسنه الألباني (٢٨٧/٢)
٣٤. أحمد (٩٦٧٦) وجود إسناده محققوه. وأبو داود (٣٠٩٢) وصححه الألباني في الجامع (٣٢)
٣٥. أبو داود (٣٠٩٢) وصححه الألباني.
٣٦. الكلم: الجرح، والمراد لم تخدش الدنيا دينهم.
٣٧. قالها إزرء على نفسه وتواضعاً، لأنّه قارن حاله بأخرّة بحاله مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإلا فهو مشهود له بالبرّ والشكر والإحسان رضي الله عنه.
٣٨. الترمذي (٢٤٦٤) وحسنه.
٣٩. البخاري (٦٣٧٧) من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول: "اللهم إني أعوذ بك من فتنة النار وعذاب النار وفتنة القبر وعذاب القبر وشرّ فتنة الغنى وشرّ فتنة الفقر".
٤٠. نعمة في حقّ من أورثته توبة وإنابة، فأبدلها بالحسنات الماحية والطاعات الوازنة، فأدم عليه السلام ارتفع مقامه بعد توبته فصار بعد التوبة خيراً منه قبل الذنب.
٤١. ذكره ابن بطة في الإبانة من دعاء مطرف بن عبد الله. قال: كان مطرف بن عبد الله بن الشخير يدعو بهؤلاء الدعوات الخمس الكلمات: "اللهم إني أعوذ بك من شرّ الشيطان، ومن شرّ السلطان، ومن شرّ ما تجري به الأقاليم، وأعوذ بك من أن أقول حقاً هو لك رضى أبغني به حمد سواك، وأعوذ بك من أن أتزين للناس بشيء يُشيني عندك، وأعوذ بك أن تجعلني عبدة لغيري، وأعوذ بك أن يكون أحد هو أسعد بما علّمتني مني". الإبانة (٢/ ١١/ ٢٨٠ / ١٩١٥). وهو دعاء لتحصيل التحصين من خيبة العمل، وهو دعاء حسن جامع.
٤٢. وهي إمامة الدين والقدوة الحسنة.



٤٣. لأن الحمد هو الثناء على من يستحق الثناء لجمال صفاته، حتى وإن لم يُحسن إلى الحامد، أما الشكر فهو الثناء على من أحسن إلى الشاكر.

٤٤. كما قيل:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة ... يدي ولساني والضمير المحجبا

٤٥. فكل قضاء الله لعبده خير ما لم يعده عنه.

٤٦. مجموع الفتاوى (١٤ / ٣٠٦ - ٣٠٨) باختصار. وقد بين رحمه الله سبب ضلال الجهمية

والجبرية والقدرية هنا فقال إتماماً لما سبق: "والجهمية والجبرية بمعزل عن هذا، وكذلك القدرية الذين يقولون: لا تعود الحكمة إليه؛ بل ما ثم إلا نفع الخلق، فما عندهم إلا شكر، كما ليس عند الجهمية إلا قدرة، والقدرة المجردة عن نعمة وحكمة لا يظهر فيها وصف حمد، وحقيقة مذهبهم أنه لا يستحق الحمد؛ فله ملك بلا حمد، كما أن عند المعتزلة له نوع من الحمد بلا ملك، وعند السلف له الملك والحمد تامين، قال تعالى: {شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم} فله الوحدانية في إلهيته، وله العدل وله العزة والحكمة، وهذه الأربعة إنما يثبتها السلف وأتباعهم، فمن قصر عن معرفة السنة نقص الرب بعض حقه.

والجهمي الجبري لا يُثبت عدلاً ولا حكمة، ولا توحيد إلهيته، بل توحيد ربوبيته، والمعتزلي لا يثبت توحيد إلهيته، ولا عدلاً ولا عزة ولا حكمة، وإن قال: إنه يثبت حكمة ما، معناها يعود إلى غيره، فتلك لا تكون حكمة، فمن فعل لا أمر يرجع إليه، بل لغيره؛ فهذا عند العقلاء قاطبة ليس بحكيم. وإذا كان الحمد لا يقع إلا على نعمة فقد ثبت أنه رأس الشكر، فهو أول الشكر والحمد. وإن كان على نعمة وعلى حكمة فالشكر بالأعمال هو على نعمته، وهو عبادة له لإلهيته التي تتضمن حكيمته، فقد صار مجموع الأمور داخلاً في الشكر.

ولهذا عظم القرآن أمر الشكر، ولم يُعظم أمر الحمد مجرداً إذ كان نوعاً من الشكر، وشرع الحمد الذي هو الشكر مقولاً أمام كل خطاب مع التوحيد، ففي الفاتحة الشكر مع التوحيد، والخطب الشرعية لا بد فيها من الشكر والتوحيد. والباقيات الصالحات نوعان: فسبحان الله وبحمده فيها الشكر والتنزيه والتعظيم، ولا إله إلا الله والله أكبر فيها التوحيد والتكبير، وقد قال تعالى: {فادعوا الله مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين}. " مجموع الفتاوى (٨ / ٢١١ - ٢١٢) وعليه فقد رجع الحمد إلى الشكر، ونسأل الله تعالى أن يجعلنا جميعاً من الحامدين الشاكرين المُقرّبين السابقين، وبالله التوفيق.



.٤٧

وكم لله من لطفٍ خفيٍّ ... يَدِقُّ خَفَاهُ عَنْ فَهْمِ الذَّكِيِّ
 وَكَمْ يُسِرُّ أَمْرِي مِنْ بَعْدِ عُسْرِ ... فَفَرَّجَ كُرْبَةَ الْقَلْبِ الشَّجِيِّ
 وكم أمرٍ تساءُ به صباحًا ... وَتَأْتِيكَ الْمَسْرَّةُ بِالْعَشِيِّ
 إذا ضاقت بك الأحوال يومًا ... فَتَقُ بِالْوَالِدِ الْفَرْدِ الْعَلِيِّ

.٤٨ قال تعالى: (ملة أبيكم إبراهيم) فإبراهيم عليه السلام أبٌ للعرب الإسماعيليين من جهة النسب وأب للمسلمين كافة من جهة أبوة النبوة، وأبوة النبوة هي لنبينا أصالة وللمرسلين تبع، وهي بمعنى أبوة الروح، وهي أعظم من أبوة الجسد والنسل، وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله في تفسيره (٦ / ٣٨١): "رُوي عن أبي كعب، وابن عباس أنها قرأ: "النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم"، وروي نحو هذا عن معاوية، ومجاهد، وعكرمة، والحسن: وهو أحد الوجهين في مذهب الشافعي. حكاه البغوي وغيره، واستأنسوا عليه بالحديث الذي رواه أبو داود عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أعلمكم..". رواه أبو داود (٨) والحاكم (٣٥٥٦) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لتكوننَّ هجرة بعد هجرة إلى مهاجر أبيكم إبراهيم..". رواه أحمد (٢/٨٤) وجود سنده الحافظ في الفتح (١١/٣٨٠).

قال ابن القيم رحمه الله: "لا بد من الولادة مرتين، كما قال المسيح للحواريين: "إنكم لن تلجوا ملكوت السماء حتى تولدوا مرتين" ولذلك كان النبي أباً للمؤمنين كما في قراءة أبي: "النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أب لهم" ولهذا تفرع على هذه الأبوة أن جعلت أزواجه أمهاتهم، فإن أرواحهم وقلوبهم ولدت به ولادةً أخرى غير ولادة الأمهات، فإنه أخرج أرواحهم وقلوبهم من ظلمات الجهل والضلال والغي إلى نور العلم والإيمان وفضاء المعرفة والتوحيد، فشاهدت حقائق آخر وأمرًا لم يكن لها بها شعور قبله، قال تعالى: (الر . كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم) وقال: (هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين) طريق المهجرتين (١ / ٣٥)

.٤٩ بمعنى أن العالم ليس له قيام بدون الملة المنسوبة إليه وهي الحنيفية، كما قال تعالى: (ملة أبيكم إبراهيم).

.٥٠ قال الشريبي رحمه الله: "وقد اجتمعت فيه خصال لم تجتمع في غيره:



أولها: أنه اعتزل عن الخلق على ما قال: {وأعتزل لكم وما تدعون من دون الله} فلا جرم بارك الله له في أولاده فقال: {ووهبنا له إسحق ويعقوب وكلا جعلنا نبياً}.

ثانيها: أنه تبرأ من أبيه كما قال عز وجل: {فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه}. لا جرم سماه الله أباً المسلمين فقال: (ملة أبيكم إبراهيم).

ثالثها: تلّ ولده للجبين ليذبحه في الله على ما قال تعالى: {وتله للجبين}. لا جرم فداه الله تعالى على ما قال: {وفديناه بذبح عظيم}.

رابعها: أسلم نفسه فقال: {أسلمت لرب العالمين} فجعل الله تعالى النار برداً وسلاماً عليه فقال: {يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم}.

خامسها: أشفق على هذه الأمة فقال: {ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم}. لا جرم أشركه الله تعالى في الصلوات في دعائهم: "كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم".

سادسها: وفي قوله تعالى: {وإبراهيم الذي وفي} لا جرم جعل موطن قدميه مباركاً {واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى}.
سابعها: عادى كل الخلق في الله فقال: {فإنهم عدوّي إلا رب العالمين} فاتخذه الله خليلاً كما قال: {واتخذ الله إبراهيم خليلاً}. تفسير السراج المنير (٢ / ٣٤١) باختصار يسير. وأصلها من تفسير الرازي (١ / ٢٩٩١)

٥١. قال شيخ المفسرين أبو جعفر الطبري رحمه الله في تفسيره: "واختلف أهل التأويل في تأويل قوله: {وفتناك فتونا} فقال بعضهم: ابتليناك ابتلاءً واختبرناك اختباراً. قال ابن عباس في قوله: {وفتناك فتونا} يقول: اختبرناك اختباراً. وقال: ابتليت بلاء. وعن قتادة: ابتليناك بلاء. وقال الضحاك: هو البلاء على إثر البلاء. وقال آخرون: معنى ذلك: أخلصناك. وعن مجاهد {وفتناك فتونا}: أخلصناك إخلاصاً. وكذلك عن سعيد بن جبير. قال أبو جعفر: وقد بينا فيما مضى من كتابنا هذا معنى الفتنة، وأنها الابتلاء والاختبار". تفسير الطبري (١٨ / ٣٠٦، ٣١٠، ٣١١) مختصراً.

وقال السعدي: {وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا} "أي: اختبرناك، وبلوناك، فوجدناك مستقيماً في أحوالك أو نقلناك في أحوالك، وأطوارك، حتى وصلت إلى ما وصلت إليه" تفسير السعدي (١ / ٥٠٤) وقال البيضاوي: { وفتناك فتونا } "وابتليناك ابتلاءً أو أنواعاً من الابتلاء، على أنه جمع فتن أو فتنة على ترك الاعتماد بالتاء كحجوز وبدور في حجة



وبدرة، فخلصناك مرة بعد أخرى، وهو إجمال لما ناله في سفره من الهجرة عن الوطن ومفارقة الألف، والمشى راجلاً على حذر، وفقد الزاد، وأجر نفسه.. إلى غير ذلك". تفسير البيضاوي (١ / ٥٠) وقال الشربيني في تفسير السراج المنير (٢ / ٥٠١): "فإن قيل: إنه تعالى عدّد أنواع مننه على موسى في هذا المقام، فكيف يليق بهذا الموضوع: (وفتناك فتونا)؟ أجيب بجوابين:

الأول: فتناك أي: خلصناك تخلصاً، من قولهم: فتنّت الذهب إذا أردت تخلصه من الفضة أو نحوها.

الثاني: أن الفتنة تشديد المحنة، يقال: فتن فلان عن دينه، إذا اشتدت عليه المحنة حتى رجع عن دينه، قال تعالى: {فإذا أوذى في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله}، وقال تعالى: {ألم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمنّ الله الذين صدقوا وليعلمنّ الكاذبين}. ولما كان التشديد في المحنة يوجب كثرة الثواب عدّه الله تعالى من جملة النعم.

فإن قيل: هل يصح إطلاق الفتان على الله تعالى اشتقاقاً من قوله تعالى: (وفتناك فتونا)؟ أجيب: بأنه لا يصح، لأنّه صفة ذم في العرف، وأسماء الله تعالى توقيفية، لا سبياً فيما يوهم ما لا ينبغي". أه.

هذا وحديث الفتون حديث مشهور وفيه عبر لكل مؤمن، وقد رأيت إيراده لمناسبته حال المؤمن في رضاه عن ربّه تعالى وهو يقلبه بين ثنايا قدره ورحمته وأعطاف قضائه، وحكمته وأكناف لطفه وبرّه. وهو موقوف على ابن عباس رضي الله عنهما ولعله نقل كثيراً منه عن كعب الأحبار مما أورده عن بني إسرائيل مما لم يكذّبه شرعنا، فعند أحمد (١٠١٣٠) عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج". وقال الإمام الشافعي رحمه الله في ذلك: "من المعلوم أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يجوز التحديث بالكذب، فالمعنى: حدثوا عن بني إسرائيل بما لا تعلمون كذبه، وأما ما تجوزونه فلا حرج عليكم في التحديث به عنهم، وهو نظير قوله: "إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدّقوهم، ولا تكذبوهم". نقله عنه الحافظ في فتح الباري: (٦ / ٣٨٨).

وبما أن السند لابن عباس جيّد فابن عباس حبرٌ بحرٌ يعلم النافع فيرويه وغيره فيطويه وهو الناصح العليم والناقد البصير رضي الله عنه، وحديث الفتون قد أخرجه الإمام النسائي في السنن الكبرى (١١٣٢٦) والإمام الطبري (١٢٥ / ١٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما، وقد صحح سنده البوصيري في إتحاف الخيرة المهرة (٢٣٤ / ٦) وصححه سليم الهلالي في صحيح الأنباء (٤٩٨ / ٢) وقال الهيثمي في المجمع (٦٦ / ٧): "رواه أبو يعلى، ورجاله رجال الصّحيح غير أصبغ بن زيد والقاسم بن أبي أيوب وهما ثقتان". وقال الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٢ / ١٩٦) وبنحوه في تفسيره بعد سياق الحديث بطوله: "هكذا ساق هذا الحديث الإمام النسائي، وأخرجه ابن جرير،



وابن أبي حاتم، في تفسيرهما من حديث يزيد بن هارون. والأشبه والله أعلم أنه موقوف، وكونه مرفوعاً فيه نظر، وغالبه متلقى من الإسرائيليات وفيه شيء يسير مصرح برفعه في أثناء الكلام، وفي بعض ما فيه نظر ونكارة، والأغلب أنه من كلام كعب الأحبار. وقد سمعت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزني يقول ذلك أيضاً، والله أعلم.

والحديث بطوله عن سعيد بن جبير رحمه الله قال: سألت عبد الله بن عباس رضي الله عنهما عن قول الله عز وجل لموسى صلى الله عليه وسلم: {وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا} [طه: ٤٠]، فسألتهم عن الفتون؟ فقال: استأنف النهار يا ابن جبير؛ فإن لها حديثاً طويلاً. قال: فغدوت على ابن عباس لأتجز ما وعدني من حديث الفتون، فقال:

تذاكر فرعون وجلساؤه ما كان الله عز وجل وعد إبراهيم صلى الله عليه وسلم من أن يجعل في ذريته أنبياء ومملوكاً؛ فقال بعضهم: إن بني إسرائيل لينتظرون ذلك ما يشكون فيه، وقد كانوا يظنون أنه يوسف بن يعقوب عليها الصلاة والسلام، فلما هلك قالوا: ليس هكذا كان، إن الله عز وجل وعد إبراهيم صلى الله عليه وسلم. قال فرعون: فكيف ترون؟ فاستمروا، واجتمعوا أمرهم على أن يبعث رجالاً بالشفار، يطوفون في بني إسرائيل، فلا يجدون مولوداً ذكراً إلا ذبحوه، ففعلوا ذلك، فلما أن رأوا أن الكبار في بني إسرائيل يموتون بأجلهم، والصغار يُذبحون، قالوا: أتوشكون أن تُفنون بني إسرائيل، فتصيروا إلى أن تُبشروا من الأعمال والخدمة التي كانوا يكفونكم؟ فاقتلوا عاماً كل مولود ذكراً، فيقتل نبياتهم، ودعوا عاماً، فلا تقتلوا منهم أحداً، فيشيب الصغار مكان من يموت من الكبار، فإنهم لن يكثروا بمن تستحيون، فتخافوا مكاثرهم إياكم، ولن ينفوا بمن تقتلون، فتحتاجون إليهم، فأجمعوا أمرهم على ذلك، فحملت أم موسى بهارون عليها السلام العام الذي لا يُذبح فيه الغلمان، فولدته علانيةً، فلما كان من قابل حملت موسى عليه السلام، فوقع في قلبها من الهم والحزن. فذلك من الفتون يا ابن جبير، ما دخل عليه في دهر بطن أمه مما يراؤ به، فأوحى الله تعالى إليها: {وَلَا تَحْزَنِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ} [القصص: ٧].

وأمرها أن إذا ولدت أن تجعله في تابوت، ثم تُلقيه في اليم، فلما ولدت فعلت ذلك به، فألقته في اليم، فلما توارى عنها ابنها أتاها الشيطان، فقالت في نفسها: ما فعلت بابني؟! لو ذبح لبث عندي فرأيتُه وكفنته كان أحب إلي من أن ألقيه بيدي إلى دواب البحر وحيتانه، وانتهى الماء به حتى أرفأ به عند فُرْضَة مُسْتَقَى جوارى امرأة فرعون، فلما رأته أخذته، فهممن أن يفتحن التابوت، فقالت بعضهن: إن في هذا مالا، وإننا إن فتحناه لم تُصدقنا امرأة الملك بما وجدنا فيه، فحملته بهيئة لم يحركن منه شيئاً، دفعته إليها، فلما فتحته رأته فيه غلاماً، فألقته عليه منها محبةً لم تلق مثلها على البشر قط، وأصبح فرأى أم موسى فارغاً من ذكر كل شيء إلا من ذكر موسى عليه السلام، فلما سمع



الذابحون بأمره أقبلوا بشفارهم إلى امرأة فرعون ليذبوه - وذلك من الفتون يا ابن جبير - فقالت للذباحين: أقرؤه؛ فإن هذا الواحد لا يزيد في بني إسرائيل حتى آتي فرعون فأستوهبه منه، فإن وهبه لي كنتم قد أحسنتم وأجملتم، وإن أمر بذبجه لم أملككم، فأتت به فرعون، فقالت: قرّة عين لي ولك، قال فرعون: يكون لك، فأما لي فلا حاجة لي في ذلك. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "والذي أحلف به، لو أقر فرعون بأن يكون له قرّة عين كما أقرت امرأته، لهداه الله به كما هدى به امرأته، ولكن الله حرّمه ذلك".

فأرسلت إلى من حولها، من كل امرأة لها لبن، تختار لها ظئراً، فجعلت كلما أخذته امرأةً منهنّ، فترضعه، لم يقبل ثديها، حتى أشفقت عليه امرأة فرعون أن يمتنع من اللبن فيموت، فأخزنها ذلك، فأمرت به، فأخرج إلى السوق وتجمّع الناس، تراجوا أن تجد له ظئراً يأخذ منها، فلم يقبل، وأصبحت أم موسى والهة، فقالت لأختها: قصيه - يعني: أثره - واطلبيه، هل تسمعين له ذكراً؟ أحيى ابني أم قد أكلته الدواب؟ ونسيت ما كان الله عز وجل وعدّها فيه، فبصرت به أخته عن جنب وهم لا يشعرون، والجنب: أن يبصر الإنسان إلى الشيء البعيد وهو إلى جنبه لا يشعر به، فقالت من الفرح حين أعياهم الظوار: أنا {أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون} [القصص: ١٢]، فأخذوها فقالوا: ما يدريك ما نضحهم له؟ هل يعرفونه؟ حتى شكوا في ذلك - فذلك من الفتون يا ابن جبير - فقالت: نصيحتهم له وشفقتهم عليه رغبة في صهر الملك، ورجاء منفعته، فأرسلوها، فانطلقت إلى أمها فأخبرتها الخبر، فجاءت أمه، فلما وضعت في حجرها، نزا إلى ثديها، فمصّه حتى امتلأ جنباه رياً، وانطلق البشير إلى امرأة فرعون: أن قد وجدنا لابنك، فأرسلت إليها، فأوتيت بها وبه، فلما رأت ما يصنع، قالت لها: امكثي عندي؛ ترضعي ابني هذا، فإنني لم أحجبه شيئاً قط، فقالت أم موسى: لا أستطيع أن أدع بيتي وولدي، فيضيع، فإن طابت نفسك أن تُعطينه، فأذهب به إلى منزلي، فيكون معي لا آله خيراً فعلت، وإلا فإنني غير تاركة بيتي وولدي، وذكرت أم موسى عليه السلام ما كان الله عز وجل وعدّها، فتعاسرت على امرأة فرعون، وأيقنت بأن الله عز وجل ينجز موعوده، فرجعت إلى بيتها بابنها من يومها، فأنبته الله نبأً حسناً، وحفظه لما قد قضى فيه، فلم يزل بنو إسرائيل وهم في ناحية القرية ممتنعين يمتنعون به من السخرة ما كان فيهم.

فلما ترعرع قالت امرأة فرعون لأم موسى: أريد أن تُريني ابني، فوعدها يوماً تُريها فيه إياه، فقالت امرأة فرعون لحزّانها، وظهورتها، وقهارمتها: لا يبقين أحد منكم إلا استقبل ابني اليوم بهديّة وكرامة؛ لأرى ذلك فيه، وأنا باعثة أميناً يُحصي ما يصنع كل إنسان منكم، فلم تزل الهدايا والكرامة والنحلة، تستقبله من حين خرج من بيت أمه إلى أن دخل على امرأة فرعون، فلما دخل عليها بجلته، وأكرمته، وفرحت به، وأعجبها، ونحلت أمه؛ لحسن أثره، ثم قالت:



لَاتِيَنَّ بِهِ فِرْعَوْنَ، فليُنْحَلَنَّ، وليُكْرِمَنَّه، فلَمَّا دَخَلَتْ بِهِ عَلَيْهِ، جَعَلَهُ فِي حِجْرِهِ، فتناولَ موسىَ حِيةَ فرعونَ، فمدَّها إلى الأرضِ، فقال الغواةُ من أعداءِ الله لفرعونَ: ألا ترى إلى ما وعدَ اللهُ عزَّ وجلَّ إبراهيمَ نبيَّه عليه السَّلامُ أَنَّهُ يَرِيْتُكَ، ويَعْلُوكَ، ويَصْرَعُكَ، فأرسلَ إلى الذَّبَّاحِينَ، وذلك من الفُتُونِ يا ابنَ جُبَيْرٍ، بعدَ كُلِّ بلاءٍ ابْتُلِيَ بِهِ، أو أُرِيدَ بِهِ فُتُونًا. فجاءت امرأةُ فرعونَ تَسْعَى إلى فرعونَ، فقالت: ما بدا لك في هذا الغلامِ الَّذي وهبته لي؟ قال: ألا ترى أنه يزعم أَنَّهُ يصْرَعُنِي وَيَعْلُونِي؟ قالت: اجْعَلْ بيني وبينك أمرًا تعرفُ فيه الحقَّ؛ انْتِ بِجَمْرَتَيْنِ وَلَوْلُؤَتَيْنِ، ففَرَّبَهُمَا إِلَيْهِ، فَإِنْ بَطَشَ بِاللُّؤْلُؤَتَيْنِ وَاجْتَنَبَ الْجَمْرَتَيْنِ، عَرَفْتَ أَنَّهُ يَعْقِلُ، وَإِنْ تَنَاوَلَ الْجَمْرَتَيْنِ وَلَمْ يُرِدِ اللَّؤْلُؤَتَيْنِ، عَلِمْتَ أَنَّ أَحَدًا لَا يُؤَثِّرُ الْجَمْرَتَيْنِ عَلَى اللَّؤْلُؤَتَيْنِ وَهُوَ يَعْقِلُ، ففُتِّبَ ذَلِكَ إِلَيْهِ، فتناولَ الجَمْرَتَيْنِ، فانتزَعَهُمَا مِنْ يَدِهِ، وخافت أن يحرقَ يَدَيْهِ، فقالت المرأةُ: ألا ترى؟! فصرَفَهُ اللهُ عنه بعدما كان قد همَّ به، وكان اللهُ عزَّ وجلَّ بالغًا فيه أمره.

فلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وصار من الرِّجالِ، لم يكن أحدٌ من آلِ فرعونَ يَخْلُصُ إلى أحدٍ من بني إسرائيلٍ معه بظلمٍ ولا سُخرة، حتَّى امتنعوا كُلَّ الامتناعِ. فبينما موسى عليه السَّلامُ يَمْشِي فِي نَاحِيَةِ الْمَدِينَةِ، إِذْ هُوَ بِرَجُلَيْنِ يَتَقَتَّلَانِ؛ أَحَدُهُمَا فرعونيٌّ، وَالْآخَرُ إِسْرَائِيلِيٌّ، فاستغاثه الإسرائيليُّ على الفرعونيِّ، فغَضِبَ موسى عليه السَّلامُ غضبًا شديدًا؛ لِأَنَّهُ تَنَاوَلَ وَهُوَ يَعْلَمُ مَنْزِلَةَ موسى عليه السَّلامُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَحَفِظَهُ لَهُمْ، لَا يَعْلَمُ النَّاسُ إِلَّا إِنَّمَا ذَلِكَ مِنَ الرَّضَاعِ إِلَّا أُمُّ موسى، إِلَّا أَنْ يَكُونَ اللهُ عزَّ وجلَّ أَطْلَعَ موسى عليه السَّلامُ مِنْ ذَلِكَ عَلَى مَا لَمْ يُطْلَعِ عَلَيْهِ غَيْرُهُ. فوكَّزَ موسى عليه السَّلامُ الفرعونيِّ، فقتلَهُ، وليس يراهما أحدٌ إِلَّا اللهُ عزَّ وجلَّ، فقال موسى عليه السَّلامُ حينَ قَتَلَ الرَّجُلَ: هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ؛ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ، ثُمَّ قَالَ: {رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ}، إِلَى قَوْلِهِ: {إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} [القصص: ١٦]. {فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ} [القصص: ١٨] الْأَخْبَارَ، فَأَتَى فرعونُ فَقِيلَ: إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ قَتَلَتْ رَجُلًا مِنْ آلِ فرعونَ، فَخُذْ لَنَا بِحَقِّنَا، وَلَا تُرْخِصْ لَهُمْ، فقال: ابْغُونِي قَاتِلَهُ وَمَنْ شَهِدَ عَلَيْهِ؛ فَإِنَّ الْمَلِكَ وَإِنْ كَانَ صَفْوُهُ مَعَ قَوْمِهِ، لَا يَسْتَقِيمُ لَهُ أَنْ يُقَيَّدَ بِغَيْرِ بَيِّنَةٍ، وَلَا تَبَتَّ، فَانظُرُوا فِي عِلْمِ ذَلِكَ أَحْذُ لَكُمْ بِحَقِّكُمْ، فبينما هم يَطُوفُونَ لَا يَجِدُونَ شَيْئًا، إِذَا موسى عليه السَّلامُ قَدْ رَأَى فِي الْغَدِ ذَلِكَ الْإِسْرَائِيلِيَّ يَقْتُلُ رَجُلًا مِنْ آلِ فرعونَ آخَرَ، فاستغاثه الإسرائيليُّ على الفرعونيِّ، فصادَفَ موسى عليه السَّلامُ قَدْ نَدِمَ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ، فَكَّرَ الَّذِي رَأَى، فغَضِبَ الإسرائيليُّ وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَبْطِشَ بِالفرعونيِّ، فقال للإسْرَائِيلِيَّ -لَمَّا فَعَلَ أَمْسَ وَالْيَوْمَ-: {إِنَّكَ لَعَوِيٌّ مُبِينٌ} [القصص: ١٨]. فنظَرَ الإسرائيليُّ إلى موسى عليه السَّلامُ بعدما قال له ما قال، فإذا هو غضبانٌ كغضبه بالأمس الَّذي قَتَلَ بِهِ الفرعونيِّ، فخاف أن يكون بعدما قال له: {إِنَّكَ لَعَوِيٌّ مُبِينٌ} إِيَّاهُ أَرَادَ، وَلَمْ يَكُنْ أَرَادَهُ، إِنَّمَا أَرَادَ الفرعونيِّ، فخاف الإسرائيليُّ، فحاجَزَ الفرعونيِّ، فقال: {يَا موسى أتريدُ أن تقتلني كما قتلتَ نفسًا بالأمسِ} [القصص: ١٩]؟ وَإِنَّمَا قَالَ ذَلِكَ؛ مَخَافَةَ أَنْ يَكُونَ إِيَّاهُ أَرَادَ موسى عليه السَّلامُ أَنْ يَقْتُلَهُ، فتنازَعَا. فانطلقَ الفرعونيُّ إلى قومه، فأخبرهم بما سمعَ مِنَ الإسرائيليِّ



من الخبر حين يقول: {أَتْرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ} [القصص: ١٩]، فأرسل فرعونُ الذَّابِحِينَ لِيَقْتُلُوا موسى عليه السَّلامُ، فأخذَ رُسُلُ فرعونَ الطَّرِيقَ الأعظمَ يَمْشُونَ على هَيْئَتِهِمْ يَطْلُبُونَ موسى عليه السَّلامُ، وهم لا يخافون أن يفوتهم، فجاء رجلٌ من شِيعَةِ موسى عليه السَّلامُ من أقصى المدينة، فاختصرَ طريقًا قريبًا حتَّى سبقهم إلى موسى عليه السَّلامُ فأخبره. فذلك من الفتونِ يا ابنَ جُبَيْرٍ.

فخرجَ موسى عليه السَّلامُ متوجِّهًا نحوَ مدينَ لم يلقَ بلاءً قبلَ ذلك، وليس له علمٌ بالطَّرِيقِ إِلَّا حُسْنَ الظَّنِّ برَبِّه عَزَّ وَجَلَّ، فإنَّه قال: {عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ} [القصص: ٢٢]. {وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ} إلى {تَذُودَانِ} [القصص: ٢٣]، يعني بذلك: حابستينَ غنمهما، فقال لهما: ما خطبكما مُعْتزِلَتَيْنِ لا تَسْقِيَانِ مع النَّاسِ؟ قالتا: ليس لنا قُوَّةٌ نُرَاحِمُ القومَ، وإِنَّمَا نَنْتَظِرُ فُضُولَ حِيَاضِهِمْ، فسقى لهما، فجعلَ يغرِفُ بالدَّلْوِ ماءً كثيرًا، حتَّى كانتا أوَّلَ الرِّعَاءِ فراغًا، فانصرَفتا بغيرِهما إلى أبيهما، وانصرَفَ موسى عليه السَّلامُ، فاستظلَّ بشجرة، وقال: {رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ} [القصص: ٢٤]، فاستنكرَ أبوهما سُرعَةَ صُدُورِهما بغيرِهما حُفَلًا بطانًا، فقال: إِنَّ لَكُمَا اليومَ لَشَأْنًا، فأخبرتهَا بما صنعَ موسى عليه السَّلامُ، فأمرَ إحداهما أن تدعوه له، فأتت موسى عليه السَّلامُ فدعته، فلمَّا كلمه قال: {لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} [القصص: ٢٥]، ليس لفرعونَ ولا لقومه علينا سُلطانٌ، ولسنا في مملكتِهِ.

قال: فقالت إحداهما: {يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ} [القصص: ٢٦]، فاحتملته الغيرةُ على أن قال: وما يدريك ما قُوَّتُهُ؟ وما أمانتُهُ؟ قالت: أمَّا قُوَّتُهُ: فما رأيتُ في الدَّلْوِ حين سقى لنا، لم أرَ رجلًا قطُّ في ذلك المَسْقَى أقوى منه، وأمَّا أمانتُهُ: فإنَّه نظرَ إليَّ حين أقبلتُ إليه وشخصتُ له، فلمَّا علمَ إِنِّي امرأةٌ، صوبَ رأسه لم يرفعه، ولم ينظرَ إليَّ حتَّى بلغته رسالتك، ثمَّ قال لي: امشي خلفي، وانعتي لي الطَّرِيقَ، لم يفعلَ هذا إِلَّا وهو أمينٌ، فسرَّي عن أبيها وصدقها، وظنَّ به الَّذي قالت له. فقال له: هل لك {أَنْ أَنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ}، إلى قوله: {مِنَ الصَّالِحِينَ} [القصص: ٢٧]، ففعلَ، فكانت على نبيِّ الله موسى عليه السَّلامُ ثمانيَ سنينَ واجبةً، وكانت ستانِ عِدَّةً منه، فقضى اللهُ عزَّ وجلَّ عنه عِدَّتَهُ فأتمَّها عشرًا. قال سعيدٌ: فلقيتُ رجلًا من أهلِ النَّصرانيةِ من علمائهم، فقال: هل تدري أيَّ الأجلينَ قضى موسى عليه السَّلامُ؟ قلتُ: لا، وأنا يومئذٍ لا أدري، فلقيتُ ابنَ عباسٍ، فذكرتُ ذلك له، فقال: أمَّا علمتُ أن ثمانياً كانت على نبيِّ الله عليه السَّلامُ واجبةً، لم يكنُ نبيُّ الله ليُنْقِصَ منها شيئًا، وتعلمُ أن الله عزَّ وجلَّ كان قاضيًا عن موسى عليه السَّلامُ عِدَّتَهُ التي وعدَ، فإنَّه قضى عشرَ سنينَ. فلقيتُ النَّصرانيَّ، فأخبرتهُ بذلك، فقال: الَّذي سألتَهُ فأخبرَكَ أعلمُ منك بذلك؟ قلتُ: أجل، وأولى.



فلما سار موسى عليه السلام بأهله كان من أمر النار ما قص الله عليك في القرآن، وأمر العصا ويده، فشكا إلى ربه عز وجل ما يتخوف من آل فرعون في القتل، وعقدة لسانه، فاتاه الله عز وجل سؤله، وحل عقدة من لسانه، وأوحى الله عز وجل إلى هارون عليه السلام، وأمره أن يلقاه، واندفع موسى عليه السلام بعصاه، حتى لقي هارون عليه السلام، وانطلقا جميعا إلى فرعون، فأقاما حيناً على بابه لا يؤذن لهما، فقالا: إنا رسولا ربك، قال: فمن ربكما يا موسى؟ فأخبراه بالذي قص الله عز وجل عليك في القرآن، قال: فما تريدان؟ وذكره القتل، واعتذر بما قد سمعت، وقال: أريد أن تؤمن بالله، وأن ترسل معي بني إسرائيل، فأبى عليه، وقال: ائت بآية إن كنت من الصادقين، فألقى عصاه فإذا هي حية عظيمة، فازعة، فاغرة فاهها، مسرعة إلى فرعون، فلما رآها فرعون قاصدة إليه خافها، فارتحمت عن سريره، واستغاث بموسى عليه السلام أن يكفها عنه، ففعل، ثم أخرج يده من جيبه، فراها بيضاء من غير سوء، يعني: من غير برص، فردها، فعادت إلى لونها الأول.

فاستشار الملائكة حوله فيما رأى، فقالوا له: {إِنَّ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكَ مِنْ أَرْضِكَ} [طه: ٦٣] الآية، والمثلى: ملكتهم الذي هم فيه والعيش. فأبوا على موسى عليه السلام أن يعطوه شيئاً مما طلب، وقالوا له: اجتمع لهما السحرة؛ فإنهم بأرضك كثير، حتى نغلب سحرهما، وأرسل في المدائن، فحشر له كل ساحر متعالم، فلما أتوا على فرعون، قالوا: ما يعمل هذا الساحر؟ قالوا: يعمل الحيات، قالوا: فلا والله ما أحد في الأرض يعمل السحر والحيات والحبال والعصي الذي نعمل، فما أجرنا إن نحن غلبنا؟ قال لهم: أنتم أقاربي وخاصتي، وأنا صانع إليكم كل شيء أحببتهم، فتواعدوا يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى.

قال سعيد: فحدثني ابن عباس: أن يوم الزينة اليوم الذي أظهر الله عز وجل فيه موسى عليه السلام على فرعون والسحرة هو يوم عاشوراء. فلما اجتمعوا في صعيد، قال الناس بعضهم لبعض: انطلقوا، فتنخبز هذا الأمر، {لَعَلَّنَا نَتَّبِعَ السَّحْرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ} [الشعراء: ٤٠]، يعنون موسى وهارون عليهما السلام؛ استهزاءً بهما، فقالوا: يا موسى - لقدرتهم في أنفسهم بسحرهم - إما أن تلقى، وإما أن نكون نحن الملقين، قال: بل ألقوا. {فَأَلْقَوْا حِبَاهُمْ وَعَصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ} [الشعراء: ٤٤]، فرأى موسى عليه السلام من سحرهم ما أوجس في نفسه خيفة، فأوحى الله عز وجل إليه: أن ألق عصاك، فلما ألقاها، صارت ثعباناً عظيماً فاغرة فاهها، فجعلت العصى بدعوة موسى عليه السلام تلتبس بالحبال، حتى صارت جُرُزاً إلى الثعبان تدخل فيه، حتى ما أبقت عصاً ولا حبلاً إلا ابتلعته. فلما عرف السحرة ذلك، قالوا: لو كان هذا سحر لم يبلغ من سحرنا كل هذا، ولكنه أمر من الله، آمننا بالله ربنا وما جاء به موسى عليه السلام، ونبؤ إلى الله عز وجل مما كنا عليه. وكسر الله ظهر فرعون



في ذلك الموطن وأشياعه، وأظهر الحق، وبطل ما كانوا يعملون، فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين. وامرأة فرعون بارزة متبدلة تدعو بالنصر لموسى عليه السلام على فرعون، فمن رآها من آل فرعون ظن أنها إنما تبدلت للشفقة على فرعون وأشياعه، وإنما كان حزنها وهمها لموسى عليه السلام.

فلما طال مكث موسى عليه السلام لمواعيد فرعون الكاذبة، كلما جاءه بآية وعده عندها أن يرسل معه بني إسرائيل، فإذا مضت أخلف موعده، وقال: هل يستطيع ربك أن يصنع غير هذا؟ فأرسل الله عليه وعلى قومه الطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، آيات مفصلات، كل ذلك يشكو إلى موسى عليه السلام، ويطلب إليه أن يكفها عنه، ويؤايقه على أن يرسل معه بني إسرائيل، فإذا كف ذلك عنه، أخلف موعده ونكث عهده. فأمر موسى عليه السلام بالخروج بقومه، فخرج بهم ليلاً، فلما أصبح فرعون ورأى أنهم قد مضوا، أرسل في المدائن حاشرين، فتبعهم بجنود عظيمة كثيرة، وأوحى الله عز وجل إلى البحر: أن إذا ضربك موسى بعصاه، فانفرق له عشرة فرقة، حتى يجوز موسى عليه السلام ومن معه، ثم التتم على من بقي بعد من فرعون وأشياعه، فنبى موسى عليه السلام أن يضرب البحر بالعصا، فأنتهى إلى البحر وله قصيف؛ مخافة أن يضربه موسى عليه السلام وهو غافل، فيصير عاصياً لله عز وجل.

فلما تراءى الجمعان وتقاربا، قال أصحاب موسى: إنا لمدركون، افعل ما أمرك به ربك عز وجل؛ فإنك لم تكذب ولم تكذب، فقال: وعدني ربي عز وجل إذا أتيت البحر، انفرق لي اثنتي عشرة فرقة حتى أجوزه، ثم ذكر بعد ذلك العصا، فضرب البحر بعصاه حين دنا أوائل جند فرعون من أواخر جند موسى عليه السلام، فانفرق البحر كما أمره الله عز وجل، وكما وعد موسى عليه السلام، فلما أن جاوز موسى عليه السلام وأصحابه البحر، ودخل فرعون وأصحابه، التقى عليهم البحر كما أمر.

فلما جاوز موسى عليه السلام البحر، قال أصحابه: إنا نخاف ألا يكون فرعون قد غرق، فلا نؤمن بهلاكه، فدعا ربه عز وجل، فأخرج له ببدنه حتى استيقنوا بهلاكه. ثم مروا بعد ذلك {على قوم يعكفون على أصنامهم} قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما هم آلهة {الأعراف: ١٣٨}، إلى {وباطل ما كانوا يعملون} {الأعراف: ١٣٩}، قد رأيتم من العبر، وسمعتم ما يكفيكم، ومضى.

فأنزلهم موسى عليه السلام منزلاً، ثم قال لهم: أطيعوا هارون عليه السلام؛ فإنني قد استخلفتكم عليكم، وإني ذاهب إلى ربي عز وجل، وأجلهم ثلاثين يوماً أن يرجع إليهم فيها، فلما أتى ربه وأراد أن يكلمه ثلاثين يوماً، وقد صامهن: ليلهن ونهارهن، وكره أن يكلم ربه عز وجل وريح فمه ريح فم الصائم، فتناول موسى عليه السلام من



نبات الأرض شيئاً فمضغَه، فقال له ربُّه عزَّ وجلَّ حين لقاها: لمْ أَفْطَرْتَ؟ - وهو أعلمُ بالَّذي كان - قال: يا ربِّ، إنِّي كَرِهْتُ أَنْ أَكَلِّمَكَ إِلَّا وَفِيَّ طَيْبُ الرِّيحِ، قال: أو ما عَلِمْتَ يا مُوسَى أَنْ رِيحَ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدِي مِنْ رِيحِ المِسْكِ؟ ارجعْ حتَّى تصومَ عَشْرًا ثُمَّ ائْتِنِي، ففعلَ مُوسَى عليه السَّلَامُ ما أَمَرَ به.

فلَمَّا رَأَى قَوْمُ مُوسَى عليه السَّلَامُ أَنَّهُ لم يَرْجِعْ إِلَيْهِمْ لِلاَجْلِ سَاءَهُمْ ذَلِكَ، وكان هَارُونَ عليه السَّلَامُ قد خَطَبَهُمْ، فقال لهم: خَرَجْتُمْ مِنْ مِصْرَ وَلِقَوْمِ فرعونَ عِنْدِي عَوَارِي وَوَدَائِعُ، وَلَكُمْ فِيهِمْ مِثْلُ ذَلِكَ، وَأَنَا أَرَى أَنْ تَحْتَسِبُوا مَا لَكُمْ عِنْدَهُمْ، وَلَا أَحَلَّ لَكُمْ وَدِيعَةً اسْتَوْدِعْتُمُوهَا، وَلَا عَارِيَةً، وَلَسْنَا بِرَادِّينَ إِلَيْهِمْ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ، وَلَا مُسْكِيهِ لِأَنْفُسِنَا، فَحَفَرَ حَفِيرًا، وَأَمَرَ كُلَّ قَوْمٍ عَلَيْهِمْ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ؛ مِنْ مَتَاعٍ أَوْ حِلْيَةٍ أَنْ يَقْدِفُوهُ فِي ذَلِكَ الحَفِيرِ، ثُمَّ أَوْقَدَ عَلَيْهِ النَّارَ، فَأَحْرَقَهُ، فقال: لَا يَكُونُ لَنَا، وَلَا لَهُمْ.

وكان السَّامِرِيُّ رَجُلًا مِنْ قَوْمِ يَعْبُدُونَ البقرَ جِرَانٍ لَهُمْ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَاحْتَمَلَ مَعَ مُوسَى عليه السَّلَامُ وَبَنِي إِسْرَائِيلَ حِينَ احْتَمَلُوا، فَفُضِيَ لَهُ أَنْ رَأَى أَثْرًا، فَأَخَذَ مِنْهُ بِقَبْضَتِهِ، فَمَرَّ بِهَارُونَ، فقال له هَارُونَ عليه السَّلَامُ: يا سامريُّ، أَلَا تُتَلَّقِي مَا فِي يَدَيْكَ؟ وَهُوَ قَابِضٌ عَلَيْهِ لَا يَرَاهُ أَحَدٌ طَوَالَ ذَلِكَ، فقال: هَذِهِ قَبْضَةٌ مِنْ أَثْرِ الرَّسُولِ الَّذِي جَاوَزَ بِكُمْ البَحْرَ، وَلَا أُلْقِيهَا لِشَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَدْعُو اللَّهَ إِذَا أُلْقِيَتْهَا أَنْ تَكُونَ مَا أُرِيدُ، فَأَلْقَاهَا، وَدَعَا اللَّهَ هَارُونَ عليه السَّلَامُ، فقال: أُرِيدُ أَنْ يَكُونَ عِجْلًا، وَاجْتَمَعَ مَا كَانَ فِي الحُفْرَةِ مِنْ مَتَاعٍ لَهُ، أَوْ حِلْيَةٍ، أَوْ نَحَاسٍ، أَوْ حَدِيدٍ، فَصَارَ عِجْلًا أَجُوفَ لَيْسَ فِيهِ رُوحٌ، لَهُ خُوارٌ. قال ابنُ عَبَّاسٍ: لَا وَاللَّهِ مَا كَانَ لَهُ صَوْتُ قَطُّ، إِنَّهَا كَانَتْ الرِّيحُ تَدْخُلُ مِنْ دُبُرِهِ وَتَخْرُجُ مِنْ فَمِهِ، فَكَانَ ذَلِكَ الصَّوْتُ مِنْ ذَلِكَ.

فَتَفَرَّقَ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِرْقًا؛ فَقَالَتْ فِرْقَةٌ: يا سامريُّ، ما هَذَا فَأَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ؟ قال: هَذَا رَبُّكُمْ عَزَّ وَجَلَّ، وَلَكِنَّ مُوسَى عليه السَّلَامُ أَضَلَّ الطَّرِيقَ. وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: لَا تُكذِّبْ بِهَذَا حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى، فَإِنْ كَانَ رَبَّنَا لَمْ نَكُنْ ضَيِّعًا وَعَجْزًا فِيهِ حِينَ رَأَيْنَاهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ رَبَّنَا، فَإِنَّا نَتَّبِعُ قَوْلَ مُوسَى عليه السَّلَامُ. وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: هَذَا عَمَلُ الشَّيْطَانِ، وَلَيْسَ بِرَبَّنَا، وَلَا نُؤْمِنُ، وَلَا نُصَدِّقُ. وَأَشْرَبَ فِرْقَةٌ فِي قُلُوبِهِمُ التَّصَدِيقَ بِمَا قَالَ السَّامِرِيُّ فِي العَجَلِ، وَأَعْلَنُوا التَّكْذِيبَ، فقال لهم هَارُونَ عليه السَّلَامُ: {يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ} [طه: ٩٠]، وَإِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ هَكَذَا، قالوا: فما بالُ مُوسَى عليه السَّلَامُ؛ وَعَدْنَا ثَلَاثِينَ يَوْمًا ثُمَّ أَخْلَفْنَا، فَهَذِهِ أَرْبَعُونَ قَدْ مَضَتْ؟! فقال سُفْهَاءُؤُهُمْ: أَخْطَأَ رَبَّهُ، فَهُوَ يَطْلُبُهُ وَيَتْبَعُهُ.

فلَمَّا كَلَّمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مُوسَى عليه السَّلَامُ وَقَالَ لَهُ مَا قَالَ، أَخْبَرَهُ بِمَا لَقِيَ قَوْمَهُ بَعْدَهُ. {فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسْفًا} [طه: ٨٦]، وَقَالَ لَهُمْ مَا سَمِعْتُمْ فِي القُرْآنِ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ، وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ مِنَ الغَضَبِ، ثُمَّ عَذَرَ أَخَاهُ بَعْدَرَهُ، وَاسْتَغْفَرَ لَهُ، وَانصَرَفَ إِلَى السَّامِرِيِّ، فقال له: ما حَمَلَكَ عَلَى ما صَنَعْتَ؟ قال: قَبِضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثْرِ



الرَّسُولِ وَفَطِنْتُ لَهَا، وَعُمِّيتُ عَلَيْكُمْ، فَقَدَفْتُهُا؛ وكذلك سَوَّلْتُ لِي نَفْسِي. قال: {اذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ نُحْلِفَهُ وَانظُرْ إِلَى إِلْهِكَ} إلى قوله: {نَسْفًا} [طه: ٩٧]، ولو كان إلهًا لم يُخْلِصَ إلى ذلك منه. فاستيقن بنو إسرائيل بالفتنة، واعتبط الَّذِينَ كان رأيهم فيه مثل رأي هارون عليه السَّلام، فقالوا بجماعتهم لموسى عليه السَّلام: سَلْ لَنَا رَبَّكَ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَفْتَحَ لَنَا بَابَ تَوْبَةٍ نَصْنَعُهَا؛ فَيَكْفِرَ عَنَّا مَا عَمِلْنَا، فَاخْتَارَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لَدُنْكَ - لَا يَأْلُو الْخَيْرَ - خِيَارَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَمَنْ لَمْ يُشْرِكْ فِي الْعَجْلِ.

فانطلق بهم ليسأل لهم التَّوبَةَ، فَرَجَفَتْ بِهِمِ الْأَرْضُ، فاستحيا نبيُّ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ قَوْمِهِ وَوَفِدِهِ حِينَ فَعَلَ بِهِمْ مَا فَعَلَ، فقال: {رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَآيَا أَتَاهَا فَمَا فَعَلْتَ السَّمْعَاءُ مِنَّا} [الأعراف: ١٥٥]، وفيهم مَنْ قَدَ كان اللهُ عَزَّ وَجَلَّ اطَّلَعَ عَلَى مَا أُشْرِبَ قَلْبُهُ مِنْ حُبِّ الْعَجْلِ وَإِيْمَانِهِ بِهِ؛ فَلِذَلِكَ رَجَفَتْ بِهِمِ الْأَرْضُ. فقال: {وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَاكُنْتُمُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ} [الأعراف: ١٥٦] إلى: {فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ} [الأعراف: ١٥٧]، فقال: رَبِّ سَأَلْتُكَ التَّوْبَةَ لِقَوْمِي، فَقُلْتَ: إِنَّ رَحْمَتِي كَتَبْتُهَا لِقَوْمٍ غَيْرِ قَوْمِي، فَلَيْتَكَ أَخَّرْتَنِي حِينَ تُخْرِجُنِي حَيًّا فِي أُمَّةٍ ذَلِكَ الرَّجُلِ الْمَرْحُومَةِ، فقال اللهُ له: إِنَّ تَوْبَتَهُمْ أَنْ يُقْتَلَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ مَنْ لَقِيَ مِنَ الْوَالِدِ أَوْ الْوَالِدِ، فَيُقْتَلَ بِالسَّيْفِ لَا يُبَالِي مَنْ قَتَلَ فِي ذَلِكَ الْمَوْطِنِ، وَتَابَ أَوْلَئِكَ الَّذِينَ كَانُوا خَفِيًّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ مَا اطَّلَعَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ ذُنُوبِهِمْ، فاعترفوا بها، وفعلوا ما أمروا، وغفر اللهُ لِلْقَاتِلِ وَالْمَقْتُولِ.

ثمَّ سار بهم موسى عليه السَّلامُ مُتَوَجِّهًا نَحْوَ الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ، وَأَخَذَ الْأَلْوَاحَ بَعْدَ مَا سَكَتَ عَنْهُ الْغَضَبُ، وَأَمَرَهُم بِالَّذِي أَمَرَ بِهِ أَنْ يُبَلِّغَهُمْ مِنَ الْوِظَائِفِ، فَثَقُلَ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، وَأَبُوا أَنْ يُفَرِّقُوا بِهَا، فَتَنَّقَى اللهُ عَلَيْهِمُ الْجَبَلَ كَأَنَّهُ ظِلَّةٌ، وَدَنَا مِنْهُمْ حَتَّى خَافُوا أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِمْ، فَأَخَذُوا الْكِتَابَ بِأَيْمَانِهِمْ وَهُمْ يَصْغُونُ يَنْظُرُونَ إِلَى الْجَبَلِ وَالْأَرْضِ، وَالْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ وَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَى الْجَبَلِ؛ مَخَافَةَ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِمْ، ثُمَّ مَضُوا إِلَى الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ، فَوَجَدُوا مَدِينَةَ قَوْمِ جَبَّارِينَ خَلَقَهُمْ مُنْكَرًا، وَذَكَرَ مِنْ ثَمَارِهِمْ أَمْرًا عَجَبًا مِنْ عِظَمِهَا، فَقَالُوا: يَا مُوسَى، إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِمْ، وَلَا نَدْخُلُهَا مَا دَامُوا فِيهَا، فَإِنْ يُخْرِجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ، قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ مِنَ الْجَبَّارِينَ: آمَنَّا بِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَخَرَجَا إِلَيْهِ، فَقَالَا: نَحْنُ أَعْلَمُ بِقَوْمِنَا، إِنَّ كُنْتُمْ إِنَّمَا تَخَافُونَ مَا رَأَيْتُمْ مِنْ أَجْسَامِهِمْ وَعَدَدِهِمْ، فَإِنَّهُمْ لَا قُلُوبَ لَهُمْ، وَلَا مَنَعَةَ عِنْدَهُمْ، فَادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ، فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ. وَيَقُولُ أَنَا: إِنَّهَا مِنْ قَوْمِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ. وَزَعَمَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ أَنَّهَا مِنَ الْجَبَّارِينَ آمَنَّا بِمُوسَى، بِقَوْلِهِ: {مَنْ الَّذِينَ يَخَافُونَ} [المائدة: ٢٣]: إِنَّمَا عَنَى بِذَلِكَ: مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ بَنِي إِسْرَائِيلَ. {قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ} [المائدة: ٢٤]، فَأَغْضَبُوا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَدَعَا عَلَيْهِمْ، وَسَمَّاهُمْ فَاسِقِينَ، وَلَمْ



يدع عليهم قبل ذلك؛ لما رأى منهم من المعصية وإساءتهم حتى كان يومئذ، فاستجاب الله عز وجل له، فسماهم كما سماهم موسى عليه السلام فاسقين، فحرّمها عليهم أربعين سنةً يتيهون في الأرض؛ يُصّبِحون كلَّ يومٍ، فيسيرون ليس لهم قرارٌ، ثمَّ ظلَّل عليهم الغمام في التيه، وأنزل عليهم المن والسلوى، وجعل لهم ثيابًا لا تبلى، ولا تتسخ، وجعل بين ظهرهم حجرًا مُربَّعًا، وأمر موسى عليه السلام فضرَّبه بعصاه، فانفجر منه اثنتا عشرة عينًا، في كلِّ ناحيةٍ ثلاثة أعين، وأعلم كلَّ سبطٍ عينهم التي يشربون منها، فلا يترحلون من منزلٍ إلاَّ وجدوا ذلك الحجرَ منهم بالمكان الذي كان منه أمس".

٥٢. مفتاح دار السعادة (١/ ٣٠١ - ٣٠٤) مختصرًا.

٥٣. سيرة ابن هشام، (١/ ٤١٦) وتاريخ الطبري، (٢/ ٣٤٣)

٥٤. يعني نفسه، ولكن لورع الراوي وإجلالاً للكعبة أن يذكر ما يوهم السوء على نفسه حياها لم يذكرها كما قالها، بل قال "هو" بدلاً من "أنا"، ومثل هذا رواية وفاة أبي طالب حينما روى الراوي قوله: "أنا" إلى "هو على ملة عبد المطلب". رواه البخاري (٢/ ١١٩). وهذا دارج سائغ جميل.

٥٥. وكذلك رواه الطبراني ورجاله ثقات، غير ابن إسحاق وهو مدلس وقد عنعن. وابن إسحاق إمام في المغازي ضعيف في الحديث، فإن أخذت الخبر كسائر أخبار السيرة المرسله فهو كما ترى، أما إن أعملت الصنعة الحديثية ففي صحته كلام. والحديث قد روي مرسلًا عن محمد بن كعب القرظي، وعن الزهري. وضعفه الألباني في فقه السيرة (١ / ١٢٥) وانظر: السيرة النبوية (٢/ ٧١)، مجمع الزوائد (٦/ ٣٥)، تاريخ الطبري (١/ ٣٤٥). وكان ابن تيمية وابن القيم يذكرانه من ضمن أدعية النبي صلى الله عليه وسلم، وهو دعاء عظيم المعاني جليل الفوائد عليه أنوار النبوة. وانظر: العبودية (١ / ٨٦) ومجموع الفتاوى (٦ / ٣٨٧) وزاد المعاد في هدي خير العباد (٣ / ٣١)

٥٦. تهذيب سيرة ابن هشام (١ / ١٢٣ - ١٢٤)

٥٧. العبودية، ابن تيمية (١ / ٨٧)



هل الأفضل الدعاء برفع بلاء الدنيا، أم الرضا والتسليم؟

اعلم. رحمني الله وإياك. إن السؤال هنا محدد محصور، وهو بصيغة أخرى: أيهما أفضل الدعاء برفع البلاء الدنيوي لا الديني، أم ترك الدعاء برفعه، والسباحة في بحر الرضا؟ مثاله: من نزل به مرض أو سُلب مال، أو أصيب بجائحة، أو ظُلم بمظلمة.. ونحو ذلك من خطوب الفانية؛ هل يدعو أو يكف؟

علمًا أن الدعاء ليس كالتداوي - وإن جامعَه بطلب الاستشفاء - لأن الدعاء عبادة محضة، وطلب الاستشفاء به تبع لها، ومن ذلك رقية الانسان نفسه، أما التداوي الحسي فامر خارج عن ذلك، لذلك لا يدخل ترك الدعاء في مسألة أفضلية ترك التداوي رضاء بالقضاء، والله أعلم.

وهذه المسألة دقيقة، بل إنها في الغاية من الدقة، وإنك إن تأملتها وجدت أن السؤال فاسد في الأصل! ومكمن فساد السؤال هو في افتراضه وجود الشيء ونقيضه أو نقيضه هنا، أي أنه افتراض مسبقًا استحالة الجمع بينهما على صفة الوجود أو الكمال، وليس الأمر كذلك، فلا مانع من اجتماعهما على صفة الكمال، ونعم خُلق المؤمن الرضا، ونعم ملاذ المؤمن الدعاء.

وعليه؛ فيتصوّر امتلاء القلب بالرضا والتسليم واتساعه ببرد الحمد واليقين مع لهجه برفع البلاء، فهذا شيء وذاك شيء، فليس الرضا بالبلاء ملازم لعدم الدعاء برفعه، ذلك أن كليهما عبادة مستقلة منفردة عن الأخرى. نعم؛ قد يرى - ببادي الرأي - تلازم



الأمرين بسبب أن طلب الرفع مناقض - أو منقصر - للرضا به، وهذا متصوّر في أمور العباد فيما بينهم، لكنه ليس كذلك في أعمال قلوب المؤمنين مع ربهم، ذلك أن بحر الرضا واسع جداً فتغمس فيه جميع أنواع وأفراد بلاءات الدنيا، فحين تصيب النازلة والرزية قلباً هذا حاله فإنها تنقلب برداً وسلاماً على ذِيَاك القلب المؤمن الراضي، بيد أنه ببصيرته وعلمه يتلمّح ركن التعلّق الأعظم وهو الدعاء، فيدعو مَنْ أمره بالدعاء، ويوقن أن مَنْ أمره بالرضا بالقضاء هو من أمره بالحاح الدعاء، وأنه ابتلاه لحِكْمٍ عظيمة لعل منها أن يكسر صولة نفسه، ويسمع ضراوته ومسكته، ويملاً قلبه وجوانحه بخالص عبادة الدعاء والرجاء، وتلتذّ نفسه الراضية المسلمة بالانغماس المطمئن الساكن في جريان المقدور، فيدعو المؤمن الراضي المُبتلى ضارعاً ربه أن يختار له الخيرة حيثما توجّهت، لعلمه أن الغيب سرّ مكتوم، وأن الخيرة معلقة بلطف الله وعلمه وحكمته وتدييره وكرمه ورحمته ورفقه وبرّه، فلا خير في العجلة، ولا عجلة في الخير.

فهو يدعو بكل قلبه مُضمّناً توكله - ومن أفراد توكله تفويض أزمة الأمور وطلب خيرها إليه سبحانه - وهذا عين تضمين الدعاء الملحّ بخير الأمر وحسن العاقبة، حينها يملأ صدره بدفء وسكينة الرضا، وقلبه بيّمين وغنيمة الدعاء، فيحرس الذخيرتين، ويجوز الغنيمتين، ويُجرز الفضيلتين، ويعود بالأجرين: الرضا والدعاء.

وبالجملة؛ فعلى المؤمن أن يدعو برفع البلية في دنياه مُضمّناً دعوته بقلبه - وإن شاء بلسانه كذلك - تفويض الخيرة إليه، فيدعو ربه أن يكشف البلوى إن كان في ذلك خير لدينه، مع تذكّر فضل البلاء بغير الدين من التكفير والأجر والذخر ونحو ذلك. وتشتدّ أهميّة تفويض الخيرة برفع البلاء عند اشتباه الأمور أو استغلاق النفوس، فعند الشيخين



(١) عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا يتمنين أحدكم الموتَ لضرٍّ ينزل به، فإن كان لا بد متمنياً فليقل: اللهم أحييني ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي". وبهذا تجتمع النصوص ولا تتعارض البتة، والحمد لله رب العالمين.

قال ابن القيم رحمه الله: "والعاقل خصم نفسه، والجاهل خصم أقدار ربه، فاحذر كل الحذر أن تسأله شيئاً مُعَيَّنًا خيره وعاقبته مغيبه عنك، وإذا لم تجد من سؤاله بدءاً فعلقه على شرط علمه تعالى فيه الخيرة (٢)، وقدم بين يدي سؤالك الاستخارة، ولا تكن استخارة باللسان بلا معرفة، بل استخارة من لا علم له بمصالحه، ولا قدرة له عليها، ولا اهتداء له إلى تفاصيلها، ولا يملك لنفسه ضرراً ولا نفعاً، بل إن وكل إلى نفسه هلك كل الهلاك، وانفرط عليه أمره. وإذا أعطاك ما أعطاك بلا سؤال: تسأله أن يجعله عوناً على طاعته، وبلاغاً إلى مرضاته، ولا يجعله قاطعاً لك عنه، ولا مبعداً عن مرضاته". (٣)

والنبي صلى الله عليه وسلم وهو سيد الراضين وإمام المسلمين لأمر الله رب العالمين كان يسأل الله العافية ويدعو بكشف البلية عن نفسه، كما قد علم أمته ذلك، فمن دعائه: "اللهم إني أسألك العافية". (٤) وقال: "سَلُوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ". (٥) وتأمل حديث عائشة رضي الله عنها قالت: سُحِرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى كَانَ يُحَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ يَفْعَلُ الشَّيْءَ وَمَا يَفْعَلُهُ، (٦) حتى كان ذات يوم دعا ودعا، ثم قال: "أشعرت (٧) أن الله أفتاني فيما فيه شفائي (٨) أتاني رجلان فقعد أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي، فقال أحدهما للآخر: ما وجع الرجل؟ قال: مطبوب (٩) قال: ومن طبه؟ (١٠) قال: لبيد بن الأعصم، (١١) قال: فيما ذا؟ قال: في مشطٍ ومشاقة وجفّ طلعة ذكر (١٢) قال: فأين هو؟ قال: في بئر



ذروان". فخرج إليها النبي صلى الله عليه وسلم، ثم رجع فقال لعائشة حين رجع: "نخلها كأنه رؤوس الشياطين!" فقلت: استخرجته؟ فقال: "لا، أما أنا فقد شفاني الله، وخشيت أن يثير ذلك على الناس شرًا"، ثم دفنت البئر". (١٣) وفي رواية: "فذهب النبي صلى الله عليه وسلم في أناس من أصحابه إلى البئر فنظر إليها، وعليها نخل، قال: ثم رجع إلى عائشة، فقال: "والله لكأن ماءها نقاعة الحنّاء، ولكأن نخلها رؤوس الشياطين"، قلت: يا رسول الله، أفأخرجته؟ قال: "لا، أما أنا فقد عافاني الله وشفاني، وخشيت أن أثور على الناس منه شرًا"، وأمر بها فدفنت.

فتأمل وصف عائشة له بالحاحه صلى الله عليه وسلم على ربه بشفائه بقولها: "دعا ودعا". وهذا الحديث في الصحيحين قاطع في المسألة، وحاسم لموارد نزاعها، فهو صريح في إلحاحه صلى الله عليه وسلم على ربه في طلب شفائه، مع كونه إمام الراضين المسلمين الحامدين ربهم قاطبة صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

ولا يرد علينا أن هذا البلاء في الدين، لأن الرسل معصومون من جهة البلاغ، فيستحيل أن يبلغ السحر فيه لمواطن البلاغ من العلم والإرادة والجوارح السالمة من خلل التأدية الكاملة، مع ضميمة تصريح أم المؤمنين بحصر ذلك في أمر إتيان النساء.

وكان من هديه صلى الله عليه وسلم عند عيادة المريض أن يقول: "اللَّهُمَّ أَذْهِبِ الْبَأْسَ رَبِّ النَّاسِ، وَاشْفِ فَإِنَّتَ الشَّافِي، لَا شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ، شِفَاءٌ لَا يُغَادِرُ سَقَمًا". (١٤) وقال لعثمان بن أبي العاص لما جاءه يشكو ألمًا يجده في بدنه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ضَعْ يَدَكَ عَلَى الَّذِي تَأَلَّمَ مِنْ جَسَدِكَ، وَقُلْ: بِاسْمِ اللَّهِ، ثَلَاثًا، وَقُلْ سَبْعَ مَرَّاتٍ: أَعُوذُ بِاللَّهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ وَأُحَاذِرُ". (١٥)



والدعاء برفع البلاء جادة المرسلين والأنبياء والصالحين، قال الله تعالى في شأن موسى عليه السلام: (فخرج منها خائفاً يترقب قال رب نجني من القوم الظالمين)، وقال عن داود عليه السلام: (وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ . فَاسْتَجَبْنَا لَهُ)، وقال تعالى عن يونس عليه السلام: (وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ . فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ)، والمرأة الصالحة آسية جارت لربها: (ونجني من فرعون). فهذه جادة عباد الرحمن.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في كلامه على حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يُسْتَجَابُ لِأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ؛ يَقُولُ دَعْوَتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي" (١٦): "في هذا الحديث أدب من آداب الدعاء؛ وهو أنه يلازم الطلب، ولا ييأس من الإجابة؛ لما في ذلك من الانقياد والاستسلام وإظهار الافتقار، حتى قال بعض السلف: "لأننا أشد خشية أن أحرم الدعاء من أن أحرم الإجابة".

قال الداودي رحمه الله: "يُخْشَى عَلَى مَنْ خَالَفَ وَقَالَ: قَدْ دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي؛ أَنْ يُحْرَمَ الْإِجَابَةَ وَمَا قَامَ مَقَامَهَا مِنَ الْأَذْخَارِ وَالتَّكْفِيرِ!" وإلى ذلك أشار ابن الجوزي بقوله: "اعلم أن دعاء المؤمن لا يُرَدُّ، غير أنه قد يكون الأولى له تأخير الإجابة، أو يعوّض بما هو أولى له عاجلاً أو آجلاً، فينبغي للمؤمن أن لا يترك الطلب من ربه، فإنه مُتَعَبَّدٌ بالدعاء، كما هو متعبد بالتسليم والتفويض". (١٧) وتأمل آخر جملة من حروف ابن الجوزي رحمنا الله وإياه.



والمقصود؛ أن الله تعالى قد أمرنا بدعائه والتضرع إليه لكشف الكروب: (أم من يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء)، ودعاؤه عبادة، قال الله تعالى: (وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ)، (وإذا سألك عبادي عني فإني قريب)، والآيات في هذا المعنى كثيرة جدًا. وشاهد الكلام أن الله تعالى قد أمرنا بالدعاء وبالصبر والرضا، ووعد المثوبة للصابرين فقال: (إِنَّمَا يُوفِي الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ).

وبالجملة؛ فليس الملح على ربه بكشف كربه بمعارض على قدره ولا بناقض الرضا بتدبيره، فالذي قضى هو من أمر بالدعاء، وهو من أمر باتخاذ الأسباب المشروعة، وهو من جعل الدعاء سبباً موصلاً لمرضاته ولإعطاء عبده رغيته طلباً أو هرباً أو دفعاً أو رفعاً أو جلباً أو إعصاماً، فالأمر أمره، والخلق خلقه، والعبد عبده، والدين دينه، (لا يسأل عما يفعل وهم يسألون).

فالدعاء ثبات على طريق بلوغ المراد ضمن الأسباب المشروعة، والدعاء أحدها، بل من أعظمها وأقواها، وهو سيما العبودية، وختم الإيوان. والدعاء شفاء، قال ابن القيم رحمه الله: "من أنفع الأدوية: الإلحاح في الدعاء". (١٨)

وعليه؛ فليس بين الرضا بالبلاء والدعاء برفعه تعارض حتى يلجأ فيه إلى الترجيح، فالسؤال فاسد أصلاً، لأن جهتي الأمرين في الحكم منفكتان، فيمكن للعبد الدعاء لرفع البلاء مع رضاه التام به. ولكن هذا يحتاج لسعة نظر وجمال تأمل، لأنه مشتبه على كثير من الناس، ومن هنا جيء بالسؤال - على ما فيه - لاشتباهه، ومن ثم الإجابة عليه.



ونزيد التوضيح فنقول: لا تعارض في الحقيقة بينهما، لأن المؤمن مأمور بتحصيل خيري الدنيا والآخرة ودفع شرِّهما عن نفسه، كما أننا قد أمرنا بالأخذ بالأسباب، ومن أعظمها التوكل والدعاء، فهما قطبي التحصيل بإذن الله، وهما سرِّي نفوذ البركة لأصحابهما بإذن الله، ويدخل في ذلك الدعاء برفع النازلة الخاصة والإلحاح فيها خاصة إن خاف أن تشوَّش عليه جمعِيَّة قلبه مع ربه تبارك وتعالى.

وتزيد أرجحِيَّة الدعاء برفع النازلة الخاصة في حال مزاحمة حملها للدين، أو تشويش الجمعِيَّة، أو إشغالها عن أمور يظن المُبتَلَى أنها خير له من مجرد الرضا بالنازلة، كمن يدعو بشفاء جسده ليجاهد في سبيل الله، أو لإعانتته على تذوق حلاوة التهجد والمناجاة، أو ليقوم على والديه المحتاجين له، أو نفع الناس في دينهم ودنياهم، ونحو ذلك، مع الرضا التام والتسليم المطلق؛ لأنه يعلم أنه بعَيْنٍ من يعلم العواقب ويرحم عبده ويفرق ويلطف به ويختار خيرته، لذا: فأحبه إليه أحبه إلى الله عز وجل، كما جاء عن عمران بن حصين رضي الله عنهما وغيره، ولعل عمران قد قصد بذلك تعليق الدعاء لشفائه بالخَيْرَة، قال الحسن: "وكان في مرضه تسلَّم عليه الملائكة، فاكتمى ففقد التسليم، ثم عادت إليه، وكان به استسقاء فطال به سنين كثيرة وهو صابر عليه، وشُقَّ بطنه وأخذ منه شحم، وثقب له سرير، فبقي عليه ثلاثين سنة، ودخل عليه رجل (١٩) فقال: يا أبا نجيد، والله إنه ليمنعني من عيادتك ما أرى بك! فقال: يا ابن أخي فلا تجلس، (٢٠) فوالله إن أحبَّ ذلك إليَّ أحبه إلى الله عز وجل". (٢١)



مع التنبيه إلى أن الدعاء يكون بالثناء - وهو الأشرف - وبالسؤال، وكلاهما عبادة مقصودة. علمًا بأن المؤمن عند النازلة لا يكتفي بالدعاء برفعها فقط، بل يدعو ويدعو ويتفنن في طرائق الدعاء، لأمر:

الأول: أن كثيرًا من الدعاء هو دعاء الثناء كالحمد والشكر والتسبيح والتكبير والقرآن ونحو ذلك. قال في مرقاة المفاتيح: (٢٢): "وقال أمية بن الصلت في مدح عبد الله بن جدعان:

أذكرُ حاجتي أم قد كفاني ... حِبَاءُكَ إن شيمتك الحِبَاءُ

إذا أثنى عليك المرأُ يومًا ... كفاهُ من تعرضكُ الثناءُ

قال سفيان بن عيينة: "فهذا مخلوق حين نُسب إلى الكرم اكتفى بالثناء عن السؤال، فكيف بالخالق!" والدعاء قد يكون صريحًا، وقد يكون تعريضًا، فإن الثناء على الكريم يتضمن الدعاء، والسؤال تعريضًا باللفظ إيهاء كمدح السائل والشاعر". (٢٣)

الثاني: أن دعاء المسألة وبخاصة جوامع الدعاء يستغرق صلاح الدين والدنيا - ومن ضمنه كشف تلك النازلة - وصلاح العاقبة بالمغفرة والرحمة والرضا والجنة وما إلى ذلك. فتأمل دعوة المؤمن بقوله: "ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار". (٢٤) وقوله: "اللهم إني أسألك من الخير كله عاجله وآجله ما علمت منه وما لم أعلم، وأعوذ بك من الشر كله، عاجله وآجله، ما علمت منه وما لم أعلم. اللهم إني أسألك من خير ما سألك عبدك ونبيك، وأعوذ بك من شر ما عاذ به عبدك ونبيك، اللهم إني أسألك الجنة وما قرب إليها من قول أو عمل، وأعوذ بك من النار وما قرب منها من قول أو عمل،



وأسألك أن تجعل كل قضاء قضيتَه لي خيرًا، اللهم إني أسألك من الخير كله، وأعوذ بك من الشر كله". (٢٥) وقوله: "اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة، اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي، اللهم استر عوراتي، وآمن روعاتي، اللهم احفظني من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي، وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي". (٢٦) وقوله: "اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، والعجز والكسل، والبخل والجبن، وضلع الدين وغلبة الرجال". (٢٧) ونحو تلك الجوامع الدعائية.

ومما يلحق بذلك: أنه لا حرج على من ترك الدعاء برفع بليَّة الدنيا تسليماً للقضاء، ولكنه خلاف الأفضل، فهو وإن حاز مرتبة الرضا لكنه قد فوّت على نفسه حظها من دعاء العبيد ربه في شؤون دنياهم، فالله تعالى حيٌّ قيُّوم صَمَدٌ يقوم بمصالح عباده ويصمد لهم بقضاء حوائجهم، وهذا من مقتضيات ربوبيته تبارك وتعالى. والدعاء داخل في توحيدَيّ الربوبية والعبادة، فالربوبية من جهة أن دعاءه متضمّن الإيمان بمُلك الله المطلق وتديره التام الذي لا يشاركه فيه غيره، والعبادة من جهة استجابته لأمر ربه جل وعلا: (وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين). وعن أبي ذر جندب بن جنادة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يروي عن الله تبارك وتعالى أنه قال: "يا عبادي، كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم. يا عبادي، كلكم عارٍ إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم". (٢٨) قال الحافظ ابن رجب: "الله يحب أن يسأله العباد جميع مصالح دينهم ودنياهم من الطعام والشراب والكسوة وغير ذلك كما يسألونه الهداية والمغفرة، وفي الحديث: "ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها



حتى شسع نعله إذا انقطع" (٢٩) وكان بعض السلف يسأل الله في صلاته كل حوائجه حتى ملح عجينه وعلف شاته.. فإن كل ما يحتاج العبد إليه إذا سأله من الله فقد أظهر حاجته فيه وافتقاره إلى الله، وذاك يحبه الله، وكان بعض السلف يستحي من الله أن يسأله شيئاً من مصالح الدنيا، والافتداء بالسنة أولى". (٣٠) أي أن السنة سؤال الله تعالى كل أمور الآخرة والدنيا. وسؤال الله تعالى أمور الدنيا معين على أمور الآخرة، كما قال سبحانه: (ولا تنس نصيبك من الدنيا)، ولكن عند المزاخرة في الدعاء كحال الصلاة أو أوقات الإجابة المضيئة فينبغي أن يتوجه العبد لرغائب الآخرة دون الدنيا، إلا ما كان مُلِحًّا عليه أو مشوّشاً لجمعية قلبه على ربه ونحو ذلك. قال ابن تيمية رحمه الله في شأن ترك الأسباب المشروعة: "ولهذا تجد عامة هذا الضرب التاركين لما أمروا به من الأسباب يتعلقون بأسباب دون ذلك.

فإما أن يعلقوا قلوبهم بالخلق رغبة ورهبة، وإما أن يتركوا لأجل ما تبتلوا له من الغلو في التوكل واجبات أو مستحبات أنفع لهم من ذلك، كمن يصرف همته في توكله إلى شفاء مرضه بلا دواء، أو نيل رزقه بلا سعي، فقد يحصل ذلك، لكن كان مباشرة الدواء الخفيف والسعي اليسير، وصرف تلك المهمة، والتوجه في علم صالح أنفع له، بل قد يكون واجب عليه من تبتله لهذا الأمر اليسير الذي قدره درهم أو نحوه". (٣١) ومقصوده رحمه الله أن أولوية صرف المهمة القلبية من التوكل ونحوه للأمور الكبار أولى مما سواها؛ ذلك أن للنفس قدر محدود من الطاقة مهما كانت قوتها، ومتى صرف شيء من الهم القلبي لغير الأمور الكبار تشتت قوة همته وطاقة قلبه، ونقص عمل قلبه ذلك - أيًا كان - بقدر ما صرف من تشتت طاقته، فإذا صرف كل همته قلبه علمًا وعملاً وأعملها في مصالح آخرته



صفت قوته من كدر الأمور اليسيرة، فصار كل توجهه لتحصيل عمارة قلبه بالإيمانيات وأخرته برفيع الدرجات، ثم انتظمت له مع هذا النعيم سائر أمور حياته صغيرها وكبيرها، لأن الله وليه وكافيه تبارك وتعالى.

وبعد هذا؛ فالمحصلة أن القسمة رباعية: فالأكمل: الرضا والدعاء - علمًا أن الدعاء لا يُنقص الرضا-، ويليه الرضا وترك الدعاء برفع النازلة المعينة، ويليهما الدعاء برفعها مع نقص الرضا بالقضاء، وأما الرابعة فمرتبة المخدولين فلا رضا ولا دعاء.

وسبب تقديم الرضا في المرتبة الثانية على الدعاء برفع النازلة (وهي المرتبة الثالثة) لأن الرضا عبادة مقصودة لذاتها، وهو من أصول الإيمان ومن مكملاته كذلك التي لا ينفك عنها بحال، فوجوده أصل في الدين وكماله من كمالاته، أما الدعاء برفع النازلة المعينة فهي - وإن كانت في مرتبة عالية في الدين والإيمان - إلا أنها مرجوحة هنا إن وزنت بالرضا لأنها دعاءٌ لتحصيل دنيا، وزوال الرضا بالقضاء هنا محرم، (٣٢) أما ترك الدعاء برفعه فالعبد فيه بالخيار؛ إن شاء دعا وهو الأفضل والأكمل، وإن شاء اكتفى بالرضا مع تفويض الأمر كله لله.

علمًا أن الدعاء بحد ذاته هو عبادة شريفة من أجل العبادات، وهذا ملحظ عظيم فالداعي لكشف الكرب عليه أن يحرك قلبه بتنبهه لشأن عبادة الدعاء مع رجاء كشف الضراء، فعلى المرء أن يتذكر أن دعاءه عبادة بذاتها، فليذكر قلبه بذلك عند رفع يديه ضراعةً لخالقه لطلب رغبته وكشف ضره، قال العلامة السعدي رحمه الله تعالى: "وينبغي لمن دعا ربه في حصول مطلوب أو دفع مهروب، ألا يقتصر في قصده ونيته في حصول مطلوبه الذي دعا لأجله، بل يقصد بدعائه التقرب إلى الله بالدعاء وعبادته التي هي أعلى الغايات،



فيكون على يقين من نفع دعائه، وأن الدعاء مخ العبادة وخلصتها، فإنه يجذب القلب إلى الله، وتلجئه حالته للخضوع والتضرع لله الذي هو المقصود الأعظم في العبادة.

ومن كان قصده في دعائه التقرب إلى الله بالدعاء وحصول مطلوبه فهو أكمل بكثير ممن لا يقصد إلا حصول مطلوبه فقط كحال أكثر الناس، فإن هذا نقص وحرمان لهذا الفضل العظيم، وفي مثل هذا فليتنافس المتنافسون. وهذا من ثمرات العلم النافع، فإن الجهل منع الخلق الكثير من مقاصد جليلة ووسائل جميلة، لو عرفوها لقصدوها، ولو شعروا بها لتوسلوا إليها، والله الموفق". (٣٣)

مسألة: هل ينسحب هذا التقرير على الدعاء للغير برفع نازلة دنياهم؟ أي هل يدخل في ذلك الدعاء برفع البلاء عن الغير.

الجواب: نعم، مثلاً بمثل سواء بسواء، بيد أن الدعاء برفع البلاء عن النفس تكون فيه معاني العبودية - غالباً - كالرضا والإخلاص والاضطرار والتعلق أظهر وأشد، أما الدعاء برفع البلاء عن الغير فإن فيه مزيد الإحسان للناس وهي عبادة لله محبوبة، ففي الدعاء للغير تحقيق محض النصيح له ومحبته، وهما من حقوق الإسلام وأخلاق أهل الإيثار، فالدين النصيحة، فعن تميم الداري رضي الله عنه قال: قال صلى الله عليه وسلم: "الدين النصيحة" ثلاثاً. قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال: "لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم". (٣٤) ومن مكملات الإيثار محبة أهله، فعن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه". (٣٥) كما يتبع ذلك دعاء الملائكة للداعي بمثل ما دعى به، فعن أبي الدرداء رضي الله عنه: أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "ما من عبد مسلم يدعو لأخيه بظهر الغيب إلا



قال الملك: ولك بمثل". (٣٦) وهم خلقٌ كرام على الله تعالى محبوبون له حريون أن يُستجاب لهم. وبالله التوفيق ومنه الهدى. وقد أحسن الشاعر فاضل أصفر حين صدح:

وأصعبُ الجرحِ جرحُ الروحِ أحسبُهُ ... وأهونُ الجرحِ سيالُ ببعضِ دمِ

وأعظمُ الصبرِ صبرُ المرءِ يتبعُهُ ... حمدٌ وشكرٌ وتسليمٌ لذي الكرمِ

كم من فقيرٍ صحيحٍ طابَ مرقدُهُ ... وكم ثريٍّ من الأوجاعِ لم ينمِ

وكسرةُ الخبزِ في أكنافِ عافيةٍ ... ألدُّ طعامًا من السلوى مع السقمِ

وسائلُ الناسِ متروكٌ لخبثتهِ ... وسائلُ الله لم يُجرَم من النعمِ

.....

١. البخاري (٥٦٧١)، ومسلم (٢٦٨٠)

٢. الخيرة: بسكون الياء من الخير، وهي المقصودة هنا، أما بفتح الياء فهي من الخيار، ومنه قوله تعالى: (ما كان لهم الخيرة).

٣. مدارج السالكين (١/ ١٦٩)

٤. مسلم (٢٧١٢)

٥. البخاري (٧٢٣٧) ومسلم (١٧٤٢)

٦. أي: إتيان النساء. ففي رواية أخرى للبخاري، وفيها: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم سُجِرَ، حتى كان يرى أنه يأتي النساء ولا يأتينهن". قال سفيان: وهذا أشدُّ ما يكون من السحر إذا كان كذا.

٧. أشعرت: أي هل علمت، وهو أسلوب تنبيه ليعي المُخاطَب ما سيُقال له بعدُ.

٨. وفي لفظ: "فيما استفتيته" وكلاهما بمعنى، أي شفاني حين دعوته بالشفاء.



٩. أي مسحور. سمي بذلك تفاعلاً بالطب الذي هو العلاج، كما قيل للديغ: سليم، تفاعلاً بالسلامة، وللصحراء الشاسعة مفازة تفاعلاً بالفوز بتجاوزها بالسلامة، وللمسافرين الكثر على الجمال قافلة تفاعلاً بالقفول وهو الرجوع.. وهكذا.

١٠. أي: من سحره؟

١١. وفي رواية: أنه رجل من بني زريق حليف لليهود، وكان منافقاً. وقيل: بل هو يهودي. وقال الحافظ في فتح الباري (١ / ٣٢٩) "حديث عائشة: سحر رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من بني زريق يقال له لبيد بن الأعصم، ذكر ابن سعد في الطبقات أن متولي السحر أخوات لبيد، وكُنَّ أسحر منه، وأنه هو الذي دفنه. وفيه: "أتاني رجلان" في رواية الطبراني بلفظ: "أتاني ملكان" ويحتمل أن يكونا جبريل وميكائيل عليهما الصلاة والسلام كما في حديث سعد بن أبي وقاص".

١٢. وفي رواية: "ومُشاطة" بدلاً من "ومشاقة" وكلاهما بمعنى. قال ابن بطال في شرح صحيح البخاري (٩ / ٤٤١): "قال الليث وابن عيينة عن هشام: "في مشط ومشاقة" قال أبو عبد الله -وهو البخاري-: يقال المُشاطة ما يخرج من الشعر إذا مشط، والمشاقة من مشاقة الكتان. قال المهلب: والجُفّ: غشاء الطلع، وقال أبو عمرو الشيباني: الجف: شيء ينقر من جذوع النخل".

فالجف: وعاء طلع النخيل وغشاؤه الذي يُكِنُّه، ويسمى في زماننا: الكُمّ. والمقصود أن الساحر الفاجر قد عَقَدَ عَقَدَ السحر بشعرات رسول الله صلى الله عليه وسلم التي كانت تتساقط وتجتمع في المشط من تسريجه لشعره، ثم جعل ذلك في داخل الجف، ثم وضع الجف تحت راعوفة بئر ذروان. وذروان: بئر في بني زريق، والراعوفة: صخرة تترك في أسفل البئر إذا احتُفرت، توضع ليجلس عليها مستقي الماء حين يمتحه ويغرفه من قاع البئر، كذلك إذا أرادوا تنقيتها فيجلس المُتَّقِي عليها. وكل ذلك إمعاناً في إخفاء سحره وشره، ولعل في تعمده جعل السحر قريباً من مجرى الماء الأسفل في الأرض سرّاً شيطانياً يختص به السحرة، قاتلهم الله. فكبيرهم إبليس يضع عرشه على الماء مضاهاة لرب العزة جل جلاله، وأتى له ذلك، وتعالى الله وتبارك وتقدس.

والسحر قد يتسلط على العقول فيخيل لها أشياء على غير حقيقتها، وقد يتسلط على الأبدان فيمرض ويقتل، لكنه لا يحيل الذوات لغيرها، كأن يقلب الرجل لحيوان، أو الخشب لذهب ونحو ذلك، فهذا محال، وهو من خصائص الربوبية لله تعالى، قال سبحانه: (أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون). قال شيخنا عيسى السعدي حفظه الله: لا شك في حقيقة السحر، وأنه ليس مجرد تخيل، ولكن لا يمكن أن يصل تأثيره إلى درجة إحالة الذات



إلى ذات أخرى؛ لأن قلب الأعيان لا يقدر عليه أحد إلا الله؛ قال تعالى: (إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له)، وفي الصحيح: "قال الله عز وجل: ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي، فليخلقوا ذرة، أو ليخلقوا حبة أو شعيرة". رواه البخاري: (٧٥٥٩)

١٣. البخاري (٣٢٦٨) واللفظ له، ومسلم (٢١٨٩)
١٤. الترمذي (٣٥٦٥) وصححه الألباني.
١٥. مسلم (٢٢٠٢)
١٦. البخاري (٦٣٤٠) ومسلم (٢٧٣٥)
١٧. فتح الباري (١١ / ١٤١) باختصار.
١٨. الجواب الكافي (٢٥)
١٩. وهو مطرف بن عبد الله رحمه الله، وكان من خاصته رضي الله عنه.
٢٠. أي لا تجلس في بيتك تاركًا عيادتي.
٢١. أسد الغابة، لابن الأثير (١ / ٨٦٩) (١٣١٤)
٢٢. المرقاة (٨ / ٣٥٢)
٢٣. أما حديث: "من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين". فالأكثر على تضعيفه. قال الحافظ في الفتح (٩ / ٦٦): "رجاله ثقات إلا عطية العوفي ففيه ضعف". وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٦٤٣٥)
٢٤. البخاري (٦٣٨٩) واللفظ له، ومسلم (٢٦٩٠) عن أنس قال: كان أكثر دعاء النبي صلى الله عليه وسلم: "اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار".
٢٥. ابن ماجه (٣٨٤٦) عن عائشة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم علّمها هذا الدعاء. ورواه ابن حبان (٨٦٩)، والحاكم (١ / ٥١٢ - ٥٢٢) وصححه الألباني.
٢٦. أبو داود (٥٠٧٤) وأحمد (٢ / ٢٥) (٤٧٨٥) وصححه الألباني.



٢٧. البخاري (٢٨/٤، ٩٨/٨) ومسلم (٧٥/٨) عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي طلحة: "التمس غلامًا من غلمانكم يخدمني". فخرج أبو طلحة يردفني وراءه، فكنت أخدم رسول الله صلى الله عليه وسلم كلما نزل، فكنت أسمعه يكثر أن يقول: "اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، والعجز والكسل، والبخل والجبن، وضلع الدين وغلبة الرجال". ومعنى ضلع الدين: الضلع: الاعوجاج، والمقصود ثقل الدين حتى يميل صاحبه عن الاستواء. وقال النووي في شرح صحيح مسلم (٢٦/٩): "الكسل: هو عدم انبعاث النفس للخير وقلة الرغبة مع إمكانه. وأما العجز: فعدم القدرة عليه، وقيل: هو ترك ما يجب فعله، والتسوية به، وكلاهما تستحب الاستعاذة منه.. وأما استعاذته من الجبن والبخل، فلما فيهما من التقصير عن أداء الواجبات والقيام بحقوق الله تعالى وإزالة المنكر.. وبالسلمة من البخل يقوم بحقوق المال وينبثق للإنفاق والجود ولمكارم الأخلاق". وقال الحافظ ابن حجر في الفتح (٢٠٧/١١): "الضلع هو الاعوجاج، والمراد به هنا ثقل الدين وشدته، وغلبة الرجال: أي شدة تسلطهم كاستيلاء الرعاع هرجًا ومرجًا". وقال ابن القيم في بدائع الفوائد (٢ / ٤٣٣) "فاستعاذ من ثمانية أشياء كل اثنين منها قرينان؛ فالهم والحزن قرينان، وهما من آلام الروح ومعذباتها، والفرق بينهما أن الهم توقع الشر في المستقبل والحزن التألم على حصول المكروه في الماضي أو فوات المحبوب، وكلاهما تألم وعذاب يرد على الروح، فإن تعلق بالماضي سمي حزنًا وإن تعلق بالمستقبل سمي همًا. والعجز والكسل قرينان، وهما من أسباب الألم لأنهما يستلزمان فوات المحبوب؛ فالعجز يستلزم عدم القدرة، والكسل يستلزم عدم إرادته، فتتألم الروح لفواته بحسب تعلقها به والتذاذها بإدراكه لو حصل. والجبن والبخل قرينان، لأنهما عدم النفع بالمال والبدن وهما من أسباب الألم؛ لأن الجبان تفوته محبوبات ومفرحات وملذوذات عظيمة لا تنال إلا بالبذل والشجاعة، والبخل يحول بينه وبينها أيضًا، فهذان الخلقان من أعظم أسباب الآلام. وضلع الدين وقهر الرجال قرينان، وهما مؤلمان للنفس معذبان لها، أحدهما قهر بحق وهو ضلع الدين، والثاني قهر بباطل وهو غلبة الرجال، وأيضًا فضلع الدين قهر بسبب من العبد في الغالب، وغلبة الرجال قهر بغير اختياره".

٢٨. مسلم (٢٥٧٧)

٢٩. الترمذي (٣٦٨٢) وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٤٩٤٩)

٣٠. جامع العلوم والحكم (١ / ٢٢٥)

٣١. الفتاوى الكبرى (١ / ١٠٩)



٣٢. فالرضا بالقضاء واجب وفريضة، وهو أحد أركان الإيمان التي لا يصح إلا بها. أما الرضا بالمقضي فمستحب. والمقضي هو مفعولات الله تعالى بعبده، فليس المراد هنا فعل الله بل المقصود مفعوله، أي ليس صفة الله التي هي الخلق والتقدير، بل هو مخلوق الله تعالى الذي هو نفس المصيبة. فالقضاء أمر الله والمقضي خلقه، والقدر أمر الله والمقدور خلقه، مثاله: المرض، فالمرض يكتنفه جانبان: الأول: من جهة أن الله هو الذي قدره؛ فهذا هو النوع الأول وهو القضاء والقدر، الثاني: من جهة ذات المرض والإحساس به والتألم منه، فهذا هو المراد هنا، فهو المقضي والمقدور.

وهذا النوع - أي الرضا بالمقضي - قد اختلف العلماء في حكمه بين الوجوب إلحاقاً بالنوع الأول، لأنها في النهاية راجعة إلى قضاء الله تعالى، والاستحباب لانفكاك جهته تصوُّراً في الذهن، لأنه مخلوق من جملة المخلوقات، وليس هو ذات القضاء والقدر، كذلك لمشقة هذا النوع على أكثر الناس، وربما يكون فيه نوع حرج على كثير منهم، والشيعة لا تأتي بالحرج بل برفعه، (ما جعل عليكم في الدين من حرج)، (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها).

٣٣. الفتاوى السعدية (١٥)

٣٤. مسلم (٥٥)

٣٥. البخاري ١٠/١ (١٣)، ومسلم ٤٩/١ (٤٥) (٧١)

٣٦. مسلم ٨/٨٦ (٢٧٣٢) (٨٦) ومعنى بمثل: أي أعطاك الله مثل ما دعوت لأخيك.



(والله يعلم وأنتم لا تعلمون)

الخير كل الخير في الثقة بالله تعالى والتسليم لأمره والرضا بتدبيره، ومن سعادة المؤمن أن يقول كل صباح ومساءً ثلاثاً: رضيت بالله ربّاً وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً. وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ونبيه ورسوله وصفيه وخليله وكليمه، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان. أما بعد يا عباد الله: اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون.

إيها المؤمن: إن مما يعين على الثقة والرضا والتسليم؛ اليقين بأن تدبير الله للعبد أجدى وأنفع من تدبير العبد لنفسه، وأن العاقبة غيب لا يعلمه إلا مولاه، فخير له أن يرضى بتدبير من هو أرحم به من نفسه.

وتدبر راشداً قصة الخضر مع موسى عليهما السلام في السفينة والغلام والجدار، وما تحتها من معان عظيمة في الرضا والتسليم والحمد والشكر لله رب العالمين، وهي قصة تختصر كثيراً من معاني القدر الجميلة، فتارة يُبتلى المرء بمصيبة تكون دافعة لمصيبة أشدّ وأشق وأعظم كأصحاب السفينة، فلولا كسرهما لصودرت ونهبت وربما قُتل أصحابها، وتارة يُبتلى العبد بمصيبة - ظاهراً - لكنها في الحقيقة هي الباب الذي يؤدي إلى منح ونعم وألطف ودفع بأس كقتل الغلام الذي لو بقي لأرهب والداه بكفره وطغيانه، ولكن رحيله كان رحمة به أولاً، ثم بوالديه ثانياً لأنهم عُوْضوا عنه بذرية طيبة صالحة حتى ورد أنها كانت بنتاً فتزوجها نبيٌّ فولدت له نبياً! ولو بقي أخوها لاختلف الحال، وثالثاً رحمة بالذرية



الجديدة، فالحمد لله على كل حال في حكمته ولطفه ورحمته وعلمه وتديبه، وله الحكمة البالغة واللطف التام والعلم الشامل والمنة الكاملة على كل خلقه.

وتارة يلطف الله تعالى بعبده وينعم ويرفق ويرزق ويكرم ويدفع بلاءات عديدة بدون مس عبده بمصيبة من تلك الجهة كجدار الغلامين، وهذا هو الأكثر والأغلب والأعم من فعل الله تعالى بعباده، (الله لطيف بعباده)، فهم محوطون بنعم لا يحصونها ولا ينتبهون لها ولا يعلمونها مع أنهم منغمسون فيها (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم). وسيأتي تفصيلها في كتاب الشكر بإذن الله تعالى. وسنذكر ما تيسر من أخبار وفوائد تلك القصة الهائلة مع شرح الإمام البغوي لها في تفسيره القيم، قال في قوله تعالى: (فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخْرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا)، "قال: { فَانْطَلَقَا } يمشيان على الساحل يطلبان سفينة يركبانها، فوجدا سفينة فركباها، وعن أبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم: "مرّت بهم سفينة فكلموهم أن يحملوهم فعرفوا الخضر فحملوهم بغير نولٍ (١) فلما لججوا البحر أخذ الخضر فأسا فخرق لوحًا من السفينة"، (٢) فذلك قوله تعالى: { حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ } له موسى: { أَخْرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا } أي: منكرًا، والإمر في كلام العرب: الداهية، وأصله: كل شيء شديد كثير. وقال القتيبي: { إِمْرًا } أي: عجبًا. وروي أن الخضر لما خرق السفينة لم يدخلها الماء. وروي أن موسى لما رأى ذلك أخذ ثوبه فحشى به الخرق.

{ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٢) قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا (٧٣) فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيََا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا (٧٤) }، قال أبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم: "كانت



الأولى من موسى نسياناً، والوسطى شرطاً، والثالثة عمدًا". (٣) { فَأَنْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا } في القصة أنهما خرجا من البحر يمشيان، فمرا بغلمان يلعبون، فأخذ الخضر غلامًا ظريفًا وضيء الوجه، فأضجعه ثم ذبحه بالسكين. قال السدي: كان أحسنهم وجهًا، وكان وجهه يتوقد حسنًا. قال ابن عباس: كان غلامًا لم يبلغ الحنث. وهو قول الأكثرين. قال ابن عباس: لم يكن نبي الله يقول: (أقتلت نفسا زكية) إلا وهو صبي لم يبلغ. وعن أبي بن كعب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الغلام الذي قتله الخضر طبع كافرًا، ولو عاش لأرهق أبويه طغيانًا وكفرًا". (٤) { لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا } أي: منكرًا. قال قتادة: النكر أعظم من الإمر؛ لأنه حقيقة الهلاك، وفي خرق السفينة كان خوف الهلاك.

قوله عز وجل: { وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنِينَ فَخَشِينَا } أي: فعلمنا { أَنْ يُرْهِقَهُمَا } يغشيها { طُغْيَانًا وَكُفْرًا } قال سعيد بن جبیر: فخشنا أن يحملها حبه على أن يتابعه على دينه. { فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِيَهُمَا رُءُوسَهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً } أي: صلاحًا وتقوى { وَأَقْرَبَ رُحْمًا }، قال قتادة: أي: أوصل للرحم وأبرّ بوالديه. قال الكلبي: أبدلها الله جارية، فتزوجها نبي من الأنبياء، فولدت له نبيًا فهدى الله على يديه أمة من الأمم.

قال مطرف: فرح به أبواه حين وُلد، وحزنا عليه حين قتل. ولو بقي لكان فيه هلاكهما، فليرض امرؤ بقضاء الله تعالى، فإن قضاء الله للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه فيما يحب. وقال عز وجل: { وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا }. (٥)



ومن هذا الباب الجليل الشريف قد ذكر ابن القيم رحمه الله فائدة نفيسة في قوله تعالى: (كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون) وقوله عز وجل: (وان كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً)، قال رحمه الله تعالى: "فآية الأولى في الجهاد الذي هو كمال القوة الغضبية، والثانية في النكاح الذي هو كمال القوة الشهوانية. فالعبد يكره مواجهة عدوه بقوته الغضبية خشية على نفسه منه، وهذا المكروه خير له في معاشه ومعاده، ويجب المواجهة والمتاركة وهذا المحبوب شرّ له في معاشه ومعاده، وكذلك يكره المرأة لو وصف من أوصافها وله في إمساكها خير كثير لا يعرفه، ويجب المرأة لو وصف من أوصافها وله في إمساكها شرّ كثير لا يعرفه!

فالإنسان كما وصفه به خالقه ظلوم جهول، فلا ينبغي أن يجعل المعيار على ما يضره وينفعه ميله وحبه ونفرته وبغضه، بل المعيار على ذلك ما اختاره الله له بأمره ونهيه.

فأنفع الأشياء له على الإطلاق طاعة ربه بظاهره وباطنه، وأضرّ الأشياء عليه على الإطلاق معصيته بظاهره وباطنه، فإذا قام بطاعته وعبوديته مخلصاً له؛ فكل ما يجري عليه مما يكرهه يكون خيراً له، وإذا تخلى عن طاعته وعبوديته؛ فكل ما هو فيه من محبوب هو شرّ له.

فمن صحت له معرفة ربه والفقّه في أسماؤه وصفاته علم يقيناً أن المكروهات التي تصيبه والمحن التي تنزل به فيها ضروب من المصالح والمنافع التي لا يحصيها علمه ولا فكرته، بل مصلحة العبد فيما يكره أعظم منها فيما يحب. فعامة مصالح النفوس في مكروهاتها، كما أن عامة مضارّها وأسباب هلكتها في محبوباتها.



فانظر إلى غارس جنة من الجنات خبير بالفلاحة غرس جنة وتعاهد بها بالسقي والإصلاح، حتى إذا أثمرت أشجارها أقبل عليها يُفصّل أوصالها ويقطع أغصانها لعلمه أنها لو خلّيت على حالها لم تطب ثمرتها، فيُطعمها من شجرة طيبة الثمرة حتى إذا التحمت بها واتحدت وأعطت ثمرتها أقبل يقلّمها ويقطع أغصانها الضعيفة التي تذهب قوتها، ويذيقها ألم القطع والحديد لمصلحتها وكما لها، لتصلح ثمرتها أن تكون بحضرة الملوك.

ثم لا يدعها ودواعي طبعها من الشرب كل وقت، بل يعطّشها وقتاً ويسقيها وقتاً، ولا يترك الماء عليها دائماً وإن كان ذلك أنضر لورقها وأسرع لنباتها. ثم يعمد إلى تلك الزينة التي زيّنت بها من الأوراق فيلقي عنها كثيراً منها لأن تلك الزينة تحول بين ثمرتها وبين كمال نضجها واستوائها، كما في شجر العنب ونحوه، فهو يقطع أعضائها بالحديد ويلقي عنها كثيراً من زيتها وذلك عين مصلحتها، فلو أنها ذات تمييز وإدراك كالحیوان لتوهّمت أن ذلك إفساد لها وإضرار بها، وإنما هو عين مصلحتها.

وكذلك الأب الشفيق على ولده، العالم بمصلحته، إذا رأى مصلحته في إخراج الدم الفاسد عنه بضع جلده وقطع عروقه وأذاقه الألم الشديد، وإن رأى شفاؤه في قطع عضو من أعضائه أبانه عنه، وكان ذلك رحمة به وشفقة عليه. وإن رأى مصلحته في أن يمسك عنه العطاء لم يعطه ولم يوسع عليه؛ لعلمه أن ذلك أكبر الأسباب إلى فسادِه وهلاكه، وكذلك يمنعه كثيراً من شهواته حمية له ومصلحة، لا بخلاً عليه.

فأحكم الحاكمين وأرحم الراحمين وأعلم العالمين الذي هو أرحم بعباده منهم بأنفسهم ومن آبائهم وأمهاتهم إذا أنزل بهم ما يكرهون؛ كان خيراً لهم من أن لا ينزله بهم، نظراً منه لهم وإحساناً إليهم ولطفاً بهم، ولو مُكّنوا من الاختيار لأنفسهم لعجزوا عن



القيام بمصالحهم علمًا وإرادة وعملاً، لكنه سبحانه تولى تدبير أمورهم بموجب علمه وحكمته ورحمته، أحبوا أم كرهوا.

فعرف ذلك الموقنون بأسمائه وصفاته فلم يتهموه في شيء من أحكامه، وخفي ذلك على الجهلة به وبأسمائه وصفاته فنازعوه تدبيره وقدحوا في حكمته ولم ينقادوا لحكمه، وعارضوا حكمه بعقولهم الفاسدة وآرائهم الباطلة وسياساتهم الجائرة، فلا لربهم عرفوا، ولا لمصالحهم حصلوا" (٦) والله الموفق.

ومتى ظفر العبد بهذه المعرفة سكن في الدنيا قبل الآخرة في جنة لا يشبهها فيها إلا نعيم الآخرة، فإنه لا يزال راضياً عن ربه. والرضا جنة الدنيا ومستراح العارفين، فإنه طيب النفس بما يُجري عليه من المقادير التي هي عين اختيار الله له، وطمأنينته إلى أحكامه الدينية، وهذا هو الرضا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلم رسولاً. وما ذاق طعم الإيمان من لم يحصل له ذلك.

ثم ليعلم أن اختيار الله عز وجل له خير من اختياره لنفسه. فربما سأل سيلاً سأل به! وروي أن أحد السلف كان يسأل الله عز وجل أن يرزقه الجهاد فهتف به هاتف (٧): "إنك أن غزوت أسرت، وإن أسرت تنصرت".

فإذا سلم العبد تحكيماً لحكمته وحكمه، وأيقن أن الكل ملكه؛ طاب قلبه، قُضيت حاجته أو لم تقض. فإذا رأى يوم القيامة أن ما أُجيب فيه قد ذهب، وما لم يُجيب فيه قد بقي ثوابه، قال: ليتك لم تجب لي دعوة قط. فافهم هذه الأشياء، وسلم قلبك من أن يختلج فيه ريب أو استعجال". (٨) والحمد لله رب العالمين.



.....

١. أي: مجَّانًا بلا أجره.

٢. البخاري (١ / ٢١٨)

٣. البخاري: (٥ / ٣٢٦)، مسلم (٤ / ١٨٤٧-١٨٥٠)

٤. مسلم (٢٦٦١)

٥. تفسير البغوي (٥ / ١٩٠-١٩٤) باختصار.

٦. الفوائد (١ / ٩١-٩٤)

٧. الهاتف: صوت غير مُشاهد، وقد يكون في النفس وقد يكون في الخارج، وقد يكون ملكًا وقد يكون من الجنّ، ولا يؤخذ منه يقين، لكنه يستفيد منه من كان خبيرًا في ذلك، غير متهاكٍ على تَطَلُّبِ الكرامات، ولا منخدعٍ بخداع ومكر الشياطين، وقد أشار شيخ الإسلام لذلك في كلامه عن أنواع الوحي في الكيلانية (١ / ٥٠) ومجموع الفتاوى (١٢ / ٣٩٨). قال رحمه الله تعالى: "الوحي هو الإعلام السريع الخفي: إمَّا في اليقظة، وإمَّا في المنام. فإن رؤيا الأنبياء وحيٌّ، ورؤيا المؤمنين جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة، كما ثبت ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم في الصحاح. وقال عبادة بن الصامت - ويروى مرفوعًا -: "رؤيا المؤمن كلامٌ يكلمُّ به الربُّ عبدهُ في المنام". وكذلك في اليقظة، فقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "قد كان في الأمم قبلكم مُحدِّثون، فإن يكن في أمتي فعمر"، وفي رواية في الصحيح: "مُكَلَّمُونَ". وقد قال تعالى: (وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي)، وقال تعالى: (وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه). بل قد قال تعالى: (وأوحى في كل سماء أمرها)، وقال تعالى: (وأوحى ربك إلى النحل). فهذا الوحي يكون لغير الأنبياء، ويكون يقظةً ومنامًا.

وقد يكون بصوتٍ هاتِفٍ، يكونُ الصوتُ في نفس الإنسان ليس خارجًا عن نفسه يقظةً ومنامًا، كما قد يكون النُّور الذي يراه أيضًا في نفسه. فهذه الدرجة من الوحي التي تكون في نفسه من غير أن يسمع صوتَ مَلَكٍ في أدنى المراتب وآخرها، وهي أولها باعتبار السالك". أهـ. وانظر تفصيل الشيخ في المكاشفات والمشاهدات في مجموع الفتاوى (١١ / ٦٣٦) في كلام متين مركز.



ومن جميل الأخبار في هواتف الجنّ ما ذكره الشيخ في الصارم المسلول (١ / ١٥٦) في بيان انتقام بعض صالحى الجن من جنّي فاجر قد سبّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال رحمه الله تعالى: "وقد ذكروا أنّ الجن الذين آمنوا به كانت تقصد من سبّه من الجنّ الكفّار فتقتله، قبل الهجرة وقبل الإذن في القتال لها وللإنس. فيُقَرّها على ذلك، ويشكر ذلك لها. قال سعيد بن يحيى الأموي في مغازيه: حدثني محمد بن سعيد. يعني عمه قال: قال محمد بن المنكدر: إنّ ذكر له عن ابن عباس أنّه قال: هَتَفَ هَاتِفٌ مِنَ الْجِنِّ عَلَى جَبَلِ أَبِي قَبِيْسٍ فَقَالَ:

فَبَحَّ اللَّهُ رَأْيَكُمْ أَلْ فِيهِرٍ ... مَا أَدَقَّ الْعُقُولَ وَالْأَحْلَامَ

حِينَ تُغْضِي لِمَنْ يَعِيبُ عَلَيْهَا ... دِينَ آبَائِهَا الْحِمَاةَ الْكِرَامِ

حَالَفَ الْجِنُّ جِنَّ بُصْرَى عَلَيْكُمْ ... وَرَجَالَ النَّخِيلِ وَالْأَطَامِ

تُوشِكُ الْخَيْلَ أَنْ تَرَوْهَا نَهَارًا ... تَقْتُلُ الْقَوْمَ فِي بِلَادِ التَّهَامِ

هَلْ كَرِيمٌ مِنْكُمْ لَهُ نَفْسٌ حُرٌّ ... مَا جُدَّ الْجَدَّتَيْنِ وَالْأَعْمَامِ

ضَارِبًا ضَرْبَةً تَكُونُ نَكَالًا ... وَرَوَاحًا مِنْ كُرْبَةٍ وَاعْتِمَامِ

قال ابن عباس: فأصبح هذا الشعر حديثًا لأهل مكة يتناشدونه بينهم. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "هذا شيطانٌ يُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْأَوْثَانِ، يُقَالُ لَهُ مِسْعَرٌ، وَاللَّهُ مُخْزِيهِ". فمكثوا ثلاثة أيام، فإذا هاتِفٌ يهتِفُ عَلَى الْجَبَلِ يَقُولُ:

نَحْنُ قَتَلْنَا فِي ثَلَاثِ مِسْعَرًا ... إِذْ سَفَّهَ الْحَقَّ وَسَنَّ الْمُنْكَرَا

فَنَعْنَتْهُ سَيْفًا حُسَامًا مُبْتَرًا ... بِسْتَمِهِ نَبِيَّنَا الْمُطَهَّرَا

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "هذا عفريتٌ من الجنّ اسمه سمحج. آمن بي، سمّيته عبد الله. أخبرني أنّه في طلبه منذ ثلاثة أيام". فقال عليّ: جزاه الله خيرًا يا رسول الله. وانظره أيضًا في الدلائل لأبي نعيم (١ / ٣٠) كما ذكره الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٢ / ٣٤٨). والشيء بالشيء يذكر؛ فمن جميل الهواتف الجنيّة ما روته أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما فيما نقله السهيلي رحمه الله تعالى في الروض الأنف (٤ / ١٨٥): "قال ابن إسحاق: فحدّثت عن أسماء بنت أبي بكر أنّها قالت: لما خرج رسول الله ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه، أتانا نفرٌ من قريش، فيهم أبو جهل بن هشام، فوقفوا على باب أبي بكر، فخرجت إليهم؛ فقالوا: أين أبوك يا بنت أبي بكر؟ قالت: قلت:



لا أدري والله أين أبي. قالت: فرفع أبو جهل يده، وكان فاحشاً خبيثاً، فلطم خدي لكمة طرح منها قرطى. قالت: ثم انصرفوا. فمكثنا ثلاث ليالٍ، وما ندري أين وجه رسول الله ﷺ، حتى أقبل رجل من الجن من أسفل مكة، يتغنى بأبيات من شعر غناء العرب، وإن الناس ليتبعونه، يسمعون صوته وما يرونه، حتى خرج من أعلى مكة وهو يقول:

جزى الله رب الناس خير جزائه ... رقيقين حلاً خيمتي أم معبد

هما نزلا بالبر ثم تروحا ... فأفلح من أمسى رقيق محمد

ليهن بني كعب مكان فتاتهم ... ومقعدتها للمؤمنين بمرصد

فلما سمعنا قوله عرفنا حيث وجه رسول الله ﷺ، وأن وجهه إلى المدينة."

٨. الفوائد (١ / ٩١ - ٩٤)



(كذلك كجنا ليوسه)

في البلايا من النعم خفايا، وفي الأقدار عجائب الأسرار، ومستودعات الألفاظ والرحمات، وفي الرضا بالحكيم العلام معارج لا يرقى لها فهم الأنام، فقدّره أوسع من حديد عقولهم، وقضاؤه أرفع من جميع علومهم، فإليهم الرحمة والتكريم، وعليهم الإيمان والتسليم، (إنّا كل شيء خلقناه بقدر . وما أمرنا إلا واحدة كلمح البصر). إن المتأمل لتلك القصة العجيبة التي استهل الله تعالى لها أجمل استهلال بقوله الأعز الأكرم: (نحن نقص عليك أحسن القصص). إنها قصة كاملة جميلة لذيدة، لها صوت حزين، ووصايا جلييلة، وقلوب بالله واثقة، ونتائج بفضل الله سعيدة، لها خاتمة للآي شهية للقلوب، رائقة للأرواح. ابتدأت بحلم وانتهت بتعبيره عبر سنين طويلة، إنها سورة الفرج بعد الشدة، واليسر بعد العسر. فيها تبيان عظمة التوحيد، وشرف الصبر، وقيمة الرضا، وعزّ الحمد، وثمره الشكر. فيها إعلاء معالي الأمور، وأطراح سفسافها. فيها نبل الأخلاق، ومعالي الشيم. فيها إظهار رفق الله تعالى بأوليائه، ورعايته وعنايته ورحمته ولطفه لهم. فيها حوارات أنبياء، ودمعات أصفياء، وابتهالات لسادة الأولياء، ومصابرة لأواء. فيها مجاهدة نفوس بالسوء أمارة، ومرابطة على حدّ العفاف والفضيلة، ورفعة للصابرين الراضين الحامدين الشاكرين. فيها مشاهد جمال، وألطف من رب السماء تنهال، فيها عقد قصة للعين مبكية، لكنها لا تلبث أن تتبع دمع السخونة ابتزادًا بالفرح، فتقلب البرحاء راحة، والحزن سرورًا، والكرب فرجًا، والخاتمة ضراعة نبي كريم إلى ملك الملوك ورب الأرباب أن يلحقه في الذين مضوا على الخير من سادة الصالحين، فلا إله إلا الله كم في هذه السورة



من صورة، وكم بين ثناياها من خفقاتٍ للقلب ترقبًا وتأثرًا وشوقًا وفرحًا وسرورًا. (نحن نقص عليك أحسن القصص).

لو تدرّ فيم عدلتني لعدرتني ... خفض عليك وخلصني وطريقي

إنّ لأخبار المرسلين شوق ولهفة، إذ في جنبات طريقها تنبت عروق البرّ، وتزهّر أغصان الإيمان، وتغسل أدران الخطايا ونجاسات الذنوب، ويرقع بتأملها واستشعارها واتباعها ما اخلوق من ثوب الإيمان، وتبنى بها في الفؤاد مدينة الإحسان.

وأذكر أيام الحمى ثم أنثني ... على كيدي من خشية أن تصدعا

قال الله تعالى: (كذلك كدنا ليوسف)، (١) فمهما فكر البشر وقدروا ثم فكروا وقدروا فغايتهم الفشل والخيبة ما لم يأخذ الله تعالى بأيديهم تبارك وتعالى. والسعيد من كان الله معه. وتدبر قوله تعالى في شأن يوسف عليه السلام كيف كفاه أمره، (أليس الله بكاف عبده ويخوفونك بالذين من دونه)، وقال سبحانه: (كذلك كدنا ليوسف).

قال الرازي الجصاص: "وفيما حكى الله تعالى من أمر يوسف وما عامل به إخوته في قوله ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ﴾ [يوسف ٧٠] إلى قوله ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ [يوسف ٧٦] دلالة على إجازة الحيلة في التوصل إلى المباح واستخراج الحقوق؛ لأن الله تعالى رضي ذلك من فعله ولم ينكره، وقال في آخر القصة ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ [يوسف ٧٦]. ومن نحو ذلك قوله تعالى ﴿وَأَخَذَ بِيَدِكَ صِغْتًا فَاصْرَبْ بِهِ وَلَا تَحْنُثْ﴾ وكان حلف أن يضربها عددًا، فأمره تعالى بأخذ الصغث، (٢) وضربها به ليبر في يمينه من غير إيصال ألم كبير إليها. ومن نحوه: النهي عن التصريح بالخطبة وإباحة التوصل إلى إعلامها رغبته



بالتعويض". (٣) وقال القاسمي رحمه الله تعالى في قوله تعالى: (فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ تَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ): "فَبَدَأَ أَي فَتَى يَوْسُفَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ، أَي فَفْتَشَهَا قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ، أَي بِنِيَامِينَ، نَفِيًّا لِلتَّهْمَةِ، ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا، أَي السَّقَايَةَ، مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ. (كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ) أَي دَبَّرْنَا لِتَحْصِيلِ غَرَضِهِ، (مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ) أَي: شَرَعَهُ وَقَانُونَهُ. وَالْجُمْلَةُ اسْتِثْنَاءٌ وَتَعْلِيلٌ لِذَلِكَ الْكَيْدِ وَصَنْعِهِ. أَي: مَا صَحَّ لَهُ أَنْ يَأْخُذَ أَخَاهُ فِي قَضَاءِ الْمَلِكِ، فَدَبَّرَ تَعَالَى مَا حَكَمَ بِهِ إِخْوَةَ يَوْسُفَ عَلَى السَّارِقِ، لِإِيصَالِ يَوْسُفَ إِلَى إِرْبِهِ، رَحْمَةً مِنْهُ وَفَضْلًا. وَفِيهِ إِعْلَامٌ بِأَنَّ يَوْسُفَ مَا كَانَ يَتَجَاوَزُ قَانُونَ الْمَلِكِ، وَإِلَّا لَاسْتَبَدَّ بِمَا شَاءَ، وَهَذَا مِنْ وَفُورِ فُطْنَتِهِ وَكَمَالِ حِكْمَتِهِ، وَيَسْتَدَلُّ بِهِ عَلَى جَوَازِ تَسْمِيَةِ قَوَانِينِ مَلَلِ الْكُفْرِ (دِينًا) لَهَا، وَالْآيَاتُ فِي ذَلِكَ كَثِيرَةٌ.

وقوله تعالى: (إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ) يعني: أَنْ ذَلِكَ الْأَمْرُ كَانَ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ وَتَدْبِيرِهِ، لِأَنَّ ذَلِكَ كَلَهُ كَانَ إِلْهَامًا مِنَ اللَّهِ لِيُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ، حَتَّى جَرَى الْأَمْرُ وَفُقَ الْمَرَادُ". (٤) وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ (٧٣) قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ (٧٤) قَالُوا جَزَاؤُهُ مِنْ وَجَدِ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٧٥) فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ تَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦): "عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: { صَوَاعِ الْمَلِكِ } قَالَ: كَانَ مِنْ فِضَّةٍ يَشْرَبُونَ فِيهِ، وَكَانَ مِثْلَ الْمَكْوَكِ، وَكَانَ لِلْعَبَّاسِ مِثْلَهُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَوَضَعَهَا فِي مَتَاعِ بِنِيَامِينَ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُ أَحَدٌ، ثُمَّ نَادَى مُنَادٌ بَيْنَهُمْ: { أَيُّهَا الْعَيْرُ إِنَّكُمْ لِسَارِقُونَ }



فالتفتوا إلى المنادي وقالوا: { ماذا تفقدون قالوا نفقد صواع الملك } أي: صاعه الذي يكيل به، { ولمن جاء به حمل بعير } وهذا من باب الجعالة، { وأنا به زعيم } وهذا من باب الضمان والكفالة. ولما اتهمهم أولئك الفتيان بالسرقة، قال لهم إخوة يوسف: { تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين } أي: لقد تحققتم وعلمتم منذ عرفتمونا، لأنهم شاهدوا منهم سيرة حسنة، أنا ما جئنا للفساد في الأرض، وما كنا سارقين، أي: ليست سجايانا تقتضي هذه الصفة، فقال لهم الفتيان: { فما جزاؤه } أي: السارق، إن كان فيكم { إن كنتم كاذبين } أي: أي شيء يكون عقوبته إن وجدنا فيكم من أخذه؟ { قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه كذلك نجزي الظالمين }. وهكذا كانت شريعة إبراهيم: أن السارق يُدفع إلى المسروق منه. وهذا هو الذي أراد يوسف عليه السلام؛ ولهذا بدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه، أي فتشها قبله تورية، { ثم استخرجها من وعاء أخيه } فأخذه منهم بحكم اعترافهم والتزامهم وإلزاماً لهم بما يعتقدونه؛ ولهذا قال تعالى: { كذلك كدنا ليوسف } (٥) وهذا من الكيد المحبوب المراد الذي يحبه الله ويرضاه، لما فيه من الحكمة والمصلحة المطلوبة.

وقوله: { ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك } أي: لم يكن له أخذه في حكم ملك مصر، قاله الضحاك وغيره. وإنما قيض الله له أن التزم له إخوته بما التزموه، وهو كان يعلم ذلك من شريعتهم؛ ولهذا مدحه تعالى فقال: { نرفع درجات من نشاء } كما قال تعالى: { يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير }. { وفوق كل ذي علم عليم } قال الحسن البصري: ليس عالمٌ إلا فوَّقه عالم، حتى ينتهي إلى الله عز وجل. وكذا روي عن سعيد بن جبير. { قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل فأسرها يوسف



في نفسه ولم يبيدها لهم قال أنتم شر مكانا والله أعلم بما تصفون (٧٧) {، وقال إخوة يوسف لما رأوا الصواع قد أُخرج من متاع بنيامين: { إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل {، يتصلون إلى العزيز من التشبه به، ويذكرون أن هذا فعل كما فعل أخ له من قبل، يعنون به يوسف عليه السلام.

وقوله: { فأسرها يوسف في نفسه {، يعني: الكلمة التي بعدها، وهي قوله: { أنتم شر مكانا والله أعلم بما تصفون { أي: تذكرون. قال هذا في نفسه، ولم يبيده لهم، وهذا من باب الإضمار قبل الذكر، وهو كثير، وله شواهد كثيرة في القرآن والحديث واللغة في منشورها وأخبارها وأشعارها. قال العوفي، عن ابن عباس: { فأسرها يوسف في نفسه { قال: أسر في نفسه: { أنتم شر مكانا والله أعلم بما تصفون {". (٦)

ولابن تيمية استنباطات لطيفة من هذه القصة الجميلة الجليلة، ومن كيد الله تعالى لوليه ونبيه يوسف عليه السلام فقال: "فكاد الله ليوسف بأن جمع بينه وبين أخيه، وأخرجه من أيدي إخوته بغير اختيارهم كما أخرجوا يوسف من يد أبيه بغير اختياره. وكيد الله سبحانه وتعالى لا يخرج عن نوعين:

أحدهما: هو الأغلب؛ أن يفعل سبحانه فعلاً خارجاً عن قدرة العبد الذي كاد له، فيكون الفعل قدراً محضاً ليس هو من باب الشرع، (٧) كما كاد الذين كفروا بأن انتقم منهم بأنواع العقوبات. وكذلك كانت قصة يوسف؛ فإن يوسف أكثر ما قدر أن يفعل أن ألقى الصواع في رحل أخيه وأذن المؤذن بسرقتهم، فلما أنكروا { قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين { أي جزاء السارق { قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه { أي جزاؤه نفس نفس السارق يستعبده المسروق إما مطلقاً أو إلى مدة، وهذه كانت شريعة آل يعقوب، وقوله:



(من وجد في رحله) فيه وجهان: أحدهما: أنه هو خبر المبتدأ، وقوله بعد ذلك: (فهو جزاؤه) جملة ثانية مؤكدة للأولى. والتقدير في جزاء هذا الفعل نفس من وجد في رحله، فإن ذلك هو الجزاء في ديننا كذلك يجزي الظالمين. والثاني: أن قوله { من وجد في رحله فهو جزاؤه } جملة شرطية هي خبر المبتدأ، والتقدير جزاء السارق هو أنه من وجد الصاع في رحله كان هو الجزاء، كما تقول جزاء السرقة ممن سرق قطع يده، وإنما احتمل الوجهين لأن الجزاء قد يراد به نفس الحكم باستحقاق العقوبة، وقد يراد به نفس العقوبة، وقد يراد به نفس الألم الواصل إلى المعاقب. فلما تكلموا بهذا الكلام كان إلهام الله لهم هذا كيداً ليوسف خارجاً عن قدرته، إذ قد كان يمكنهم أن يقولوا: ألا جزاء عليه حتى يثبت أنه هو الذي سرق، فإن مجرد وجوده في رحله لا يوجب حكم السارق. وقد كان يوسف عليه السلام عادلاً لا يمكنه أن يأخذهم بغير حجة، أو يقولون: جزاؤه أن يفعل به ما تفعلون بالسراق في دينكم، وقد كان من دين ملك مصر فيما ذكره المفسرون أن السارق يُضرب ويغرم قيمة المسروق مرتين، ولو قالوا ذلك لم يمكنه أن يلزمهم بما لا يلزمه غيرهم. ولهذا قال سبحانه: { كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله } أي ما كان يمكنه أخذه في دين ملك مصر لأن دينه لم يكن فيه طريق إلى أخذه - إلا أن يشاء الله - استثناء منقطع، أي: لكن إن شاء الله أخذه بطريق آخر، أو يكون متصلاً بأن يبيئ الله سبحانه سبباً آخر بطريق يؤخذ به في دين الملك من الأسباب التي كان الرجل في دين الملك يُعتقل بها.

فإذا كان المراد بالكيد فعلاً من الله سبحانه بأن يبسر لعبده المؤمن المظلوم المتوكل عليه أموراً يحصل بها مقصوده بالانتقام من الظالم وغير ذلك فإن هذا خارج عن الحيل



الفقهية، فإننا إننا تكلمنا في حيلٍ يفعلها العبد لا فيما يفعله الله سبحانه، بل في قصة يوسف تنبيه على أن من كاد كيداً محرماً فإن الله يكيده. وهذه سنة الله في مرتكب الحيل المحرمة، فإنه لا يبارك له في هذه الحيل كما هو الواقع.

وفيها تنبيه على أن المؤمن المتوكل على الله إذا كاده الخلق فإن الله يكيده له ويتصر له بغير حول منه ولا قوة، وعلى هذا فقوله بعد ذلك: { نرفع درجات من نشاء } قالوا: بالعلم.

وفيه تنبيه على أن الخفي الذي يتوصل به المقاصد الحسنة مما يرفع الله به الدرجات، وفيه دليل على أن يوسف كان منه فعل، فيكون بهذا العلم هو ما اهتدى به يوسف إلى أمرٍ توكل في إتمامه على الله، فإن اهتداهه لإلقاء الصاع واسترجاعهم نوع فعلٍ منه، لكن ليس هذا وحده هو الحيلة. والحيل الفقهية (٨) بها وحدها يتم غرض المحتال لو كانت حلالاً.

النوع الثاني من كيده لعبده: هو أن يلهمه سبحانه أمراً مباحاً، أو مستحباً، أو واجباً يوصله به إلى المقصود الحسن، فيكون هذا على إلهامه ليوسف أن يفعل ما فعل هو من كيده سبحانه أيضاً. وقد دل على ذلك قوله: { نرفع درجات من نشاء } فإن فيه تنبيهاً على أن العلم الدقيق الموصل إلى المقصود الشرعي صفة مدح، كما أن العلم الذي يُخصم به المبطل صفة مدح. حيث قال في قصة إبراهيم: { وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء }. وعلى هذا فيكون من الكيد ما هو مشروع لكن لا يجوز أن يراد به الكيد الذي تُستحل به المحرمات، أو تسقط به الواجبات فإن هذا كيد لله، والله هو المكيد في مثل هذا، فمحال أن يشرع الله أن يكاد دينه.



وأيضًا؛ فإن هذا الكيد لا يتم إلا بفعل يُقصد به غير مقصوده الشرعي، ومحال أن يشرع الله لعبد أن يقصد بفعله ما لم يشرع الله ذلك الفعل له. وأيضًا فإن الأمر المشروع هو عام لا يخص به شخص دون شخص، فإن الشيء إذا كان مباحًا لشخص؛ كان مباحًا لكل من كان على مثل حاله، فإذن؛ من احتال بحيلة فقهية محرمة أو مباحة لم يكن له اختصاص بتلك الحيلة لا بفهمها ولا بعلمها، لأن الفقهاء كلهم يَشْرُكُونَهُ في فهمها، والناس كلهم يساوونه في عملها، وإنما فضيلة الفقيه إذا حدثت حادثة أن يتفطن لاندراج هذه الحادثة تحت الحكم العام الذي يعلمه هو وغيره، أو يمكنهم معرفته بأدلتها العامة نصًا أيضًا واستنباطًا، فأما الحكم فمقرر قبل تلك الحادثة.

فإذن؛ احتياج الناس إلى الحيل لا يجدد أحكامًا شرعية لم تكن مشروعة قبل ذلك، بل الأحكام مستقرّة وجدت تلك الحاجة، أو لم توجد، فإن كان الشارع قد جعل الحكم يتغير بتغير تلك الحاجة؛ كان حكمًا عامًا وجدت حاجة ذلك الشخص المعين، أو لم توجد، وإن لم يكن جعل لتلك الحاجة تأثيرًا في الحكم، فالحكم واحد سواء وجدت تلك الحاجة مطلقًا، أو لم توجد.

والله سبحانه إنما كاد ليوسف كيدًا جزاءً منه على صبره وإحسانه وذكره في معرض المنّة عليه، فلو لم يكن ليوسف عليه السلام اختصاص بذلك الكيد لم يكن في مجرد عمل الإنسان أمر مباح له ولغيره منّة عليه في مثل هذا المقام، فعلم أن المنّة كانت عليه في أن أُلهم العمل بما كان مباحًا قبل ذلك، فإنه قد يلهم العبد ما لا يلهمه غيره، ولهذا قال بعض المفسرين في قوله تعالى { كدنا } صنعنا، وبعضهم قال ألهمنا يوسف. ومن احتال بعمل هو مباح في نفسه على الوجه الذي أباحه الشارع فهذا جائز بالاتفاق، وإنما الكلام في أنه



هل يباح له ما كان محرماً على الإطلاق مثل الخيانة والغلول، أو يباح له فعل المباح على غير الوجه المشروع مثل الحيل الربوية؟ يوضح ذلك: أن نفس الأحكام مثل إباحة الفعل لا يجوز أن تسمى كيداً، وإنما الكيد فعل من الله ابتداءً، أو فعل من العبد يكون العبد به فاعلاً، وعلى التقديرين فليس هذا من الحيل الشرعية.

وهذا الذي ذكرناه في معنى الكيد إنما انضم إليه معرفة الأفعال التي فعلها يوسف عليه السلام، والأفعال التي فعلها الله له؛ تيقن اللبيب أن الكيد لم يكن خارجاً عن إلهام فعلٍ كان مباحاً، أو فعلٍ من الله تم به ذلك الفعل، وأن حاجة يوسف لم تُبح له فعل شيء كان حراماً على الإطلاق في الجملة قبل ذلك، وهذا هو المقصود، والله أعلم". (٩)

إِذَا مَا سُهِيلٌ أَبْرَزَتْهُ غَمَامَةٌ ... عَلَى مَنْكِبٍ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ يَلْمَحُ

دَعَا بَعْضُنَا بَعْضًا فَبِتْنَا كَأَنَّا ... رَأَيْنَا حَبِيبًا كَانَ يَنَأَى وَيَنْزَحُ

وَذَلِكَ أَنَا وَاثِقُونَ بِقُرْبِكُمْ ... وَأَنَّ النَّوَى عَمَّا قَلِيلٍ تَزْحَرُحُ

.....

١. قال ابن تيمية رحمه الله في الفتاوى الكبرى في وجه مناداة إخوة يوسف عليه السلام بالسارقين (٦) /

(١٢٧): "قد ذكروا في تسميتهم سارقين وجهين:

أحدهما: أنه من باب المعارض، وأن يوسف نوى بذلك أنهم سرقوه من أبيه حيث غيبوه عنه بالحيلة التي احتالوها عليه وخانوه فيه، والخائن يسمى سارقاً، وهو من الكلام المشهور حتى إن الخونة من ذوي الديوان يسمون لصوفاً.

الثاني: أن المنادي هو الذي قال ذلك من غير أمر يوسف عليه السلام. قال القاضي أبو يعلى وغيره: أمر يوسف بعض أصحابه أن يجعل الصاع في رحل أخيه، ثم قال بعض الموكلين بالصيغان - وقد فقدوه ولم يدروا من أخذه



منهم - : (أيتها العير إنكم لسارقون) على ظنّ منهم أنهم كذلك، ولم يأمرهم يوسف بذلك. فلم يكن قول هذا القائل كذباً كان في حقه وغالب ظنه ما هو عنده، ولعل يوسف قد قال للمنادي: هؤلاء قد سرقوا، وعنى بسرقة من أبيه، والمنادي فهم سرقة الصواع وهو صادق في قوله: (نفقد صواع الملك)، فإن يوسف لعله لم يطلع على أن الصواع في رحالهم ليتّم الأمر؛ فنادى: (إنكم لسارقون) بناء على ما أخبر به يوسف، وكذلك لم يقل: سرقتم صاع الملك، إنما قال: نفقده، لأنه لم يكن يعلم أنهم سرقوه، أو أنه أطلع على ما صنعه يوسف فاحترز في قوله فقال: (إنكم لسارقون)، ولم يذكر المفعول ليصح أن يضمّر سرقتم يوسف، ثم قال: (نفقد صواع الملك)، وهو صادق في ذلك، وكذلك احترز يوسف في قوله: { معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده } ولم يقل إلا من سرق. وعلى التقدير فالكلام من أحسن المعارض."

٢. الضُّغْت: مجموعة من شماريخ قنو النخل.

٣. أحكام القرآن للجصاص (١٧٦ / ٣)

٤. تفسير القاسمي "محاسن التأويل" (٢٠٤ / ٦)

٥. معتقد أهل السنة والجماعة إثبات صفة الكيد والمكر على حقيقتها بلا تمثيل ولا تعطيل ولا تكييف ولا تحريف. قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (١١١ / ٧) في ردّه على من زعم أنّ في القرآن مجازاً: "وكذلك ما ادّعوا أنه مجاز في القرآن؛ كلفظ: المكر والاستهزاء والسخرية المضاف إلى الله، وزعموا أنه مسمّى باسم ما يقابله على طريق المجاز، وليس كذلك، بل مسميات هذه الأسماء إذا فعلت بمن لا يستحق العقوبة؛ كانت ظلماً له، وأما إذا فعلت بمن فعلها بالمجنّي عليه عقوبة له بمثل فعله؛ كانت عدلاً؛ كما قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾، فكاد له كما كادت إخوته لما قال له أبوه: ﴿لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾. وقال في التدمرية (٢٦): "وهكذا وصف نفسه بالمكر والكيد، كما وصف عبده بذلك، فقال: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾، وقال: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا . وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾، وليس المكر كالمكر ولا الكيد كالكيد". وقد فصل الكلام عليها ابن القيم في المدارج (٤١٥ / ٣)، وانظر أيضاً: مختصر الصواعق المرسلّة (٣٢ / ٢) - (٣٤)

٦. تفسير ابن كثير (٤٠١ / ٤ - ٤٠٣) باختصار.

٧. أي من باب الخلق والتقدير والإرادة الكونية، لا من باب الأمر والتشريع والإرادة الشرعية.



٨. عرف الشاطبي رحمه الحيل الفقهيّة في الموافقات (٤ / ٢٠١) بقوله: «حقيقتها المشهورة: تقديم عمل ظاهره الجواز لإبطال حكم شرعي، وتحويله في الظاهر إلى حكم آخر». أه. ولم تُعرف الحيل في عهد النبوة ولا في عهد الصحابة، بل إن النبي صلى الله عليه وسلم قد أقفل بابها بمثل قوله: "لا يُجمع بين متفرّق، ولا يُفرّق بين مجتمع خشية الصدقة"، رواه البخاري (١٤٥٠) قال ابن القيم رحمه الله تعالى في إعلام الموقعين (٣ / ١٥٩): «وهذا نصّ في تحريم الحيلة المفضية إلى إسقاط الزكاة، أو التنقيص منها بسبب الجمع والتفريق، فإذا باع بعض النصاب قبل تمام الحول تحيلاً على إسقاط الزكاة أو التنقيص منها بسبب الجمع أو التفريق، فقد فرق بين المجتمع فلا تسقط الزكاة عنه بالفرار منها. ومثل: لعنه صلى الله عليه وسلم للمُحلّل والمُحلّل له". أه. وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في الفتاوى الكبرى (٦ / ٧٩): "أما الإفتاء بها وتعليمها للناس، وإنفاذها في الحكم، واعتقاد جوازها؛ فأول ما حدث في الإسلام في أواخر عصر صغار التابعين بعد المئة الأولى بسنين كثيرة، وليس فيها والله الحمد حيلة واحدة تُؤثّر عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، بل المستفيض عن الصحابة أنهم كانوا إذا سُئلوا عن فعل شيء من ذلك أعظموه وزجروا عنه".

٩. الفتاوى الكبرى (٦ / ١٣٣ - ١٣٤)



الابتلاء بالأسقام

ليس للمؤمن مندوحة عن التَّفَقُّه في سنن الابتلاء، وأنَّ الله تعالى إذا أحبَّ قومًا ابتلاهم، وأنَّ أمرَ المؤمن كَلَّه خير، فالحكيم سبحانه يبتلي عباده حتى يستخلص خُلاصتهم لخُلاصة كرامته. ولقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إِنَّ عِظَمَ الْجُزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلَاءِ، وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخَطَ فَلَهُ السَّخَطُ". وهذا صريح في حصول الابتلاء لمن أحبه الله تعالى. وكم من عبوديةٍ يجبها الله غرسها وأصلحها في قلب عبده بسبب مصيبة في دنياه. وحسبك داءً أن تصحَّ وتسلما.

وعن أبي يحيى صهيب بن سنان رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنْ أَمْرَهُ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ؛ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ". فعليك براحتي الشكر والصبر -باركك الله تعالى-.

إن الحياة كُلُّها ابتلاء لقياس صلاحية الإنسان لسكنى الجنة أم لا، فالجنة هي لأحباب الله المؤمنين الصادقين الصابرين، فإذا ضعف أحدهم بخطيئة في دار الامتحان؛ ابتلاه ربه بتكديرٍ يرفأ شقَّ ثوبِ إيمانه، وبمصيبةٍ ترفعُ درجته، وتكفر خطيئته، وتنبه قلبه من غفلته. ففي كل عثرة في حياتك، ومنعطفٍ من عمرك، وخيبة أملٍ فيمن حولك؛ اهتف بنفسك: هذا ابتلاءٌ من ربك: (لننظر كيف تعملون) فتأملها جيدًا، فإن في طيِّ المحنِّ منحةً، وأتونُ الكَيرِ يَفْرُزُ صِدْقَ اللّجينِ من زيف النحاس، ولله الأمر من قبل ومن بعد.



وكل أمرٍ قربك من ربك فهو خير، وكما قيل: يا بن آدم لقد بورك لك في حاجة أكثرت فيها من قرع باب سيدك. فتفائل بالله وأحسن الظن به، واعلم أنه أشد من المصيبة انتظارها. وكثيراً ما تكون النهاية عبارة عن بداية جديدة، فالمتفائل يجعلها درجاً لمجده، والمتشائم يصيرها قبراً لهيمته. ومن أجمل ما كتبه ابن القيم رحمه الله عبارة تستحق الوقوف الطويل في محراب تأملها: "يا بن آدم، كلُّ يريدك لنفسه، إلا الله، فإنه يريدك لنفسك".

وكم لله من لطفٍ خفيٍّ ... يدقُّ خفاهُ عن فهمِ الذكيِّ

وكم يسرُّ أتى من بعدِ عُسْرِ ... ففرَّجَ كُرْبَةَ القلبِ الشَّجيِّ

وكم أمرٍ تساء به صباحاً ... وتأتيتك المسرةُ بالعشيِّ

إذا ضاقت بك الأحوال يوماً ... فتق بالواحد الفرد العليِّ

ومن أنواع الابتلاء الأمراض والأسقام التي يقدرها الله على من رحم من عباده، فالمریض المؤمن المدنف، ساكن النفس، لاهج بحمد ربه بإنعامه عليه بهذا البلاء! ولكن غير الواثقين بربهم لا يعلمون حقائق كنوز الرضى وذخائر الثقة. إنه يقرأ في منشور فلاحه وصفاً للمرضي عنهم: (العابدون الحامدون السائحون) ويتدبر قول ربه: (والله يحب الصابرين) فتفهو نفسه الواثقة لمزيد من اليقين حتى يكون الخبر كالمعاينة. وكم من مريض أو مكروب أو مضرور يفتح الله له باباً لمناجاته والأنس به حال كربه ومرضه، حتى إذا زال كربه؛ فقد معه كثيراً من موارد ذلك الأنس والسرور والمناجاة.

والمؤمن يرى الأمراض نعماً لا عذاباً، هو لا يطلبها بل يسأل ربه العافية، لكن إن نزلت به صبر ورضي وشكر. فأسقام الجسد على ثلاثة أنحاء:



فمنها العارض ومن أعظمه الحمى - أمٌ مِلْدَمٌ - فهي تدخل كل عضو وتفور في كل مفصل، فهي كفارة طيبة للخطيئات.

الثاني: أمراض ملازمة تحل معه وترتحل، لا تفارقه في فراشه ولا طعامه ولا لذته ولا عبادته كالسكر والضغط والعاهة ونحو ذلك من الأسقام التي يسمونها: الدائمة، فهي نِعَمَ الصَّاحِبِ والرَفِيقِ في الطريق للآخرة، فالجسد يتأقلم ويتعايش معها على طول السنين، فلا يتأذى بها كشدّة العارض النازل، مع ذلك فهي تنظف صحيفته وتُنقيها على مرّ الأيام من الذنوب، حتى إذا وافى العبدُ ربّه إذ الكثير من خطاياهم قد زالت بسبب تلك الأسقام في دنياه.

والثالث: الأسقام المُفضية للوفاة بإذن الله تعالى، فمنها ما هو شهادةٌ لصاحبها، ومنها دون ذلك، وكلها خير ونعمة لمن احتسب الأجر ورضي بالله ربّاً مدبراً، وحمده على كل حال، وشكره على كل فضل. وبالجملة: فالمؤمن يعلم أنّ المصيبة كفارة للسيئات ورفعته للدرجات، ولا يزال البلاء بالعبد حتى يمشي على الأرض وليس عليه خطيئة. وقال إبراهيم المقري وقد رفته بغلته فكسرت رجله: "لولا مصائب الدنيا؛ قدمنا على الله مفاليس".

والمرض لا يُقربُ الأجل، ولا الصحة تدفعه، إنها هي أسبابٌ مجردة، أما المُسببُ الخلاق الذي يُنزل الداء ويرفعه ويُجيب ويُميت فهو الله وحده، فالمؤمن يبذل السبب وقلبه معلق بالله تعالى. حتى من أصيب بمرضٍ خطير كالسرطان فهو بين إحدى الحسنين؛ شفاءً أو شهادةً بإذن الله، لأنّه إن لم يدخل فيه بالنص كالتاعون والمبطون ومريض ذات الجنب؛ فهو داخل بالمعنى للعلل التي ذكرها العلماء في توصيفهم لأمراض الشهادة.



ومن رحمة الله بعبده أن تأتيه رسلُ ربه كالأمراض الخطيرة، فتُلْمَحُ له بقرب رحيله إليه، فيستعد للقاء الله ويشتاق بتوبة وعمل، ويتخفف من كدر الدنيا لراحة الآخرة، وينفض عن ظهره أوزار الخطايا ومظالم العباد، إنما الفاجعة بموت الفجأة للمفترطين الغافلين، والله المستعان.

إن المؤمن يفرح بالله ويرضى بقضائه، وإن السعيد من ولد آدم هو من كان عظيم الإيمان راسخ اليقين رخي البال بالقناعة، وهي الحياة الطيبة، والمؤمن ينتظر من الله أجر صبره وحمده، فعن فضالة بن عبيد رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا صلى بالناس، يخترُ رجالاً من قامتهم في الصلاة من الخِصاصة - أي من الجوع، وهم أصحاب الصفة - حتى يقول الأعراب: هؤلاء مجانين. فإذا صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم انصرف إليهم، فقال: "لو تعلمون ما لكم عند الله تعالى، لأحببتم أن تزدادوا فاقة وحاجة". رواه الترمذي وصححه.

والله تبارك وتعالى يتلى أوليائه حتى إذا ضاقت أمورهم فرّجها برحمته، وإن تعسّرت أحوالهم يسرها بفضله، وإن أظلمت نفوسهم نورها بهداه، وإن انقطعت سُبُلهم وصلها بإحسانه، فهو طبيب عباده يتليهم ليرفع درجاتهم ويطهرهم، وفرجه لهم عند حاجتهم أقرب إليهم من رمش عيونهم، فليس مع الله ضيعة. وغمسةٌ في الجنة تُنسي شقاء الدنيا كله!

يا صاحب الهم إن الهم منفرج... أبشر بخير فإن الفارج الله

وإذا بُليت فثق بالله وارض به.... إن الذي يكشف البلوى هو الله



والله ما لك غير الله من أحد... فحسبك الله في كل لك الله

فالبلاء إن نزل معه الصبر والرضا فهو رحمة ونعمة، فإن قابله بجزع وتسخطٍ فهو عذاب إلى عذاب. فكلٌ مصيبة ليست في الدين فهي نعمة في الحقيقة.

وأولياء الله مهما اشتدت بهم البلياء فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون، وبالجملة؛ فالمبتلى في دنياه إن رزق الثقة فلا عليه ما يفوته من الحطام، وليعلم أنّ الفرج أقرب له من مارٍ أنفه، وكفى بالإيمان حظًا، "ألا ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وتذهبون بالنبي إلى رحالكم".

فاشدّد يدك بحبل الله معتصمًا ... فإنّه الركن إن خانتك أركانُ

وليس على المؤمن أن يتمنى البلاء، بل عليه أن يسأل الله العافية، فإن نزل بلاء صبرٍ ورضيٍّ وحمدٍ وشكرٍ، فهو متوكل على ربه وراضٍ عنه قبل وقوع البلاء وأثنائه وبعد زواله، لا تزيده الابتلاءاتُ إلا يقينًا، ولا المصيباتُ إلا صبرًا، ولا المسراتُ إلا شكرًا وزهدًا، وهو على الدوام يسأل ربّه عونَهُ وتوفيقه وحفظه، والله لا يخلف وعده بإجابة من دعاه. وفي دعائك ربّك: لا تنس: اليقين.

وليس كلّ من ظنّ بنفسه الصبر والرضى وقت السعة والرخاء يكون كذلك وقت الضيق والشدة، فالنية قُلبٌ، والعزائم تنفسخ، والعقل يعزّب، والعزيمة تخور، والنفس تضعف، إن لم يكن الله تعالى معه بلطفه وحفظه. فاستودع نفسك ومن تحبّ من لا تضيع لديه الودائع، وذلك الله وحده.



ولما بثَّ الله الخلائق اختار لك هذا الزمان وهذا المكان ليكونا محل الابتلاء الإلهي لك، فكن خيرَ ذاكِرٍ صابرٍ حامدٍ شاکرٍ تائبٍ مستغفرٍ. واعلم أنّ للمؤمن بحرٌ لا تكدره مصائب الزمان، إنه بحر الرضى بالله تعالى، فاغمسْ كلَّ همِّ لك في بحر الرضى بالله، حينها تنطفئ نيران المصيبة ببرد السلام. فليس مرادُه أن يُعذَّب، ولكن يبتلي ليُهذَّب.

دع المقادير تجري في أعنتها ... ولا تبتئن إلا خالي البالي

ما بين غمضة عينٍ وانتباهتها ... يغيّر الله من حالٍ إلى حالٍ

واعلم أنّ قدرك إن لم تذهب إليه؛ جاء إليك. فكن لله، وبالله، ومع الله، وإلى الله؛ فهو الغاية وما سواه هباء، وهو الباقي وما سواه فناء، وهو الحقُّ وما سواه باطل، قال سبحانه: (وأن إلى ربك المنتهى) وقال: (وأن إلى ربك الرجعى) فمهما سلكت من دروب الحياة خيراً أو شراً، سروراً أو حزناً، صحة أو سقماً، شوقاً أو خوفاً؛ فإليه وحده المنتهى. وبعد؛ فاتق الله يا عبد الله، واحمد الله تعالى واشكره كثيراً على أن فضلك على غيرك تفضيلاً بالعلم به والفرح به والأنس به في وقتٍ ترى فيه من يفرّ من الله حال شدته وكرهته، فلا يفرغ للصلاة والدعاء، بل لسفر أو هو أو مسكر (ألا بذكر الله تطمئن القلوب).

ويا من ابتلاك الله بسقم في جسدك عليك بالتالي:

أولاً: الرضى بمُرّ القضاء، فمن آمن بالله ربّاً؛ رضى بمقاديره عليه، وتيقن أنه يتقلّب في قدرته وحكمته ورحمته ولطفه، وأنه منتظر للفرج في الدنيا وللأجر في الآخرة.

ثانياً: الإلحاح على الله تعالى في الدعاء، فهو من أنزل الداء وهو وحده القادر على رفعه. قال تعالى: (وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله).



والتوحيد والتوكّل والدعاء هي أعظم علاج بإذن الله، قال ربنا: (وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ) أي كافيهِ عما سواه.

ثالثاً: الرقية الشرعية بالقرآن وبما صح من أدعية رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقد قال الله تعالى عن القرآن: (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله) فكيف بلحم ودم وروح. واعلم أن القرآن شفاء لكل مرض بلا استثناء: جسدياً كالحمى والسرطان أو روحياً كالعين والسحر. ولكن لا بد أن تتيقن من أن القرآن شفاء، لا أن تأخذه على سبيل التجربة، والله تعالى قد قال في كتابه: (ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين) فقد وصفه بالشفاء الموجب للعافية بإذن الله، ولم يصفه بالدواء الذي قد ينفع وقد لا ينفع، فالقرآن كله شفاء، وبعض آياته أبلغ في الشفاء كالفاتحة وآية الكرسي والمعوذات.

والأفضل والأكمل أن يرقى المريض نفسه فهي أبلغ وأقوى وأخلص. ومن صفات السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بلا حساب أنهم "لا يسترقون". أي لا يطلبون الرقية من غيرهم بل يرقون أنفسهم.

رابعاً: على المؤمن أن يأخذ بأسباب الشفاء من الأدوية المباحة، فإن النبي صلى الله عليه وسلم قد قال: "عباد الله تداووا ولا تداووا بحرام".

وفي الأمراض الوبائية ينبغي اتخاذ الأسباب التي أمر بها الشرع، فمن كان في البلد المطعون فلا يخرج منه فراراً منه، ومن كان خارجاً فلا يدخله، مع التوكّل التام على الله تعالى في كل الأمور.



ولا بد للمؤمن في كل أمره من حراسة كنز إيمانه و يقينه وتعلقه بربه تبارك وتعالى،
والدنيا بلا إيمان خراب بلقع، مهما تعطفت ملذاتها، واشمخرت رفها، أما الإيمان فهو السبيل
الوحيد الموصل لطيب العيش وسكينة الأبد وسعادة الخلود. وتذكر أن الذنوب
جراحات، ورب جرح وقع في مقتل. وإن الدنيا بطمعتها وشدتها فانية نافذة، أما الذي عند
الله من أجر ورضوانٍ وجنة وكذلك من نار وعذاب؛ فهو الباقي الذي لا نفاذ له، (ما
عندكم ينفد وما عند الله باق).

تَفْنِي اللَّذَاذَةَ مِمَّنْ نَالَ صَفْوَتَهَا ... مِنْ الْحَرَامِ وَيَبْقَى الْإِثْمُ وَالْعَارُ

تُبْقَى عَوَاقِبُ سُوءٍ فِي مَغَبَّتِهَا ... لَا خَيْرَ فِي لَذَّةٍ مِنْ بَعْدِهَا النَّارُ



حكم التداوي، وهل يقدر في الرضا؟

إن الأصل في التداوي الجواز، وقد يكتنفه ما يحيله إلى الوجوب أو الاستحباب أو الكراهة أو التحريم. ولا يقدر التداوي في الرضا إلا بما يقدره في التوكل؛ كالاتماد بالقلب على السبب دون المسبب سبحانه، وكالتداوي بمكروه كالكي، وإلا فالأصل أن التداوي ليس بقادر لأنه من تناول الأسباب التي أباحها الله، وبما أنها مأذونة شرعاً فهي غير قاذحة شرعاً، ولا بمنزلة صاحبها من تمام الرضا وكمالها بإذن الله، وإن كان الأكمل لمن وثق بقلبه تركه، لصحة ما ورد في ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أولاً، ولأن العادة في الأسباب جارية على أن دفع الداء بالأدوية دون مرتبة دفع الجوع والعطش بالطعام والشراب، كما قد يترتب على الدواء ضرر في نفس المرض أو غيره، وقد يصاحبه نقص في التوكل واليقين والرضا ونحو ذلك بسبب ضعف القلب أمام واردات آلام الأدوية ورجاء الأسباب المادية المشروعة للشفاء، ولأن ترك الاستشفاء بالأدوية - خلا النبوية - فيه مزيد اعتماد وتفويض ورضا بتدبير الله تعالى.

بيان ذلك: أن الاستشفاء هو من قبيل جلب المصلح للبدن ودفع المفسد بإذن الله، وهو في ذلك يجري مجرى الطعام والشراب والاستدفاء ونحو ذلك، وقد أمر الله تعالى بحفظ البدن فقال سبحانه: (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة)، وقد كان من هديه ﷺ التداوي في نفسه، والأمر لمن أصابه مرض من أهله وأصحابه، ومن أدلة ذلك قوله عليه الصلاة والسلام: «ما أنزل الله من داء إلا أنزل له شفاء، علمه من علمه وجهله من جهله». (١) وقال ﷺ: «لكل داء دواء، فإذا أصيب دواء الداء برأ» (٢) بإذن الله. (٣) وعند



أحمد: "فإذا أصبت دواء الداء، برأ بإذن الله تعالى". (٤) لذلك فلا يخرج من هذا العموم أي مرض حتى الإيدز والسرطان والكورونا ونحوها، ولكن علاجها لا زال في طي علم علام الغيوب سبحانه، فإذا أذن لعباده أن يعلموه يسر لهم أسباب ذلك. وقال ابن القيم على الحديث الأنف: "فيه تقوية لنفس المريض والطبيب وحث على طلب ذلك الدواء، والتفتيش عليه". (٥) وقال القرطبي رحمه الله: "هذه كلمة صادقة العموم؛ لأنها خبر عن الصادق عن الخالق: (ألا يعلم من خلق)، فالدواء والدواء خلقه، والشفاء والهلاك فعله، وربط الأسباب بالمسببات حكيمته وحكمته، وكل ذلك بقدر لا معدول عنه". (٦)

وعن أسامة بن شريك رضي الله عنه قال: كنت عند النبي ﷺ وجاءت الأعراب (٧) فقالوا: يا رسول الله، أنتداوي؟ فقال: «نعم يا عباد الله تداووا، فإن الله عز وجل لم يضع داء إلا وضع له شفاء، غير داء واحد» قالوا: ما هو؟ قال: «الهَرَم». (٨)

قلت: فعاد الأمر بجملته إلى حال المرض والمريض ونوع الدواء، ويختلف الأمر من شخص لآخر ومن حال لآخر حتى لنفس الإنسان. فإن وثق بيقينه وتوكله وحسن ظنه بربه وثقته به وعظيم صبره ورضاه وعدم انتقاص أمور دينه، واكتفى برقيته على نفسه، وتلذذ بالرضا بمُرّ القضاء؛ فالأفضل له ترك التداوي الحسي إلا من زمزم والعسل والحبة السوداء ونحو ذلك مما جاء في الوحي الإرشاد إليه. وعليه؛ فتركه للتداوي غير النبوي أفضل تسليماً ورضاً. أما من لم يجتمع له ذلك فالتداوي في حقه أكد، ولا يسع أكثر الناس إلا ذلك، وليس في دين من تداوى بالمباح منقصة من ذلك بحال، بل هو مُتَّبِعٌ للشرع، مطيع للرب.



وعلى ذلك؛ فقد يكتنف المرض أحوال تُرَجِّحُ أفضلية التداوي؛ كقيام المريض على أمور ضرورية للناس تحتلُّ بمرضه، أو أن يخشى ضيق نفسه بالمرض، أو نوع تضجّر، أو ضعف صبر، واضطراب، وتشويش جمعية قلبه بانشغاله بمدافعة الألم والمرض عن عبادات أنفع لقلبه، أو انشغال عما هو أولى كمصالح المسلمين العامة ونحو ذلك، فيستحبُّ له التداوي جلبًا للمصلحة الأعلى.

أما إن خشي على نفسه التلف والهلكة؛ كنزيف يحتاج لرتق أو كيٍّ، وجرت العادة بنفع ذلك الدواء، كذلك من خشي إيذاء غيره؛ كمن به مرض مُعدٍ ولا يتمكن من الاحتراز من نقل العدوى، ولا يستطيع عزل نفسه، أو خشي على دينه من الجزع والتسخط فالواجب في حقه التداوي. أما إن استوى الطرفان فهو على الإباحة. علمًا أنَّ التداوي بالكلي مكروه، وأما التداوي بالحرام كالخمر والخنزير والدم والنجاسات والميتة فحرام. والله أعلم.

وقد اختلف أهل العلم في الجملة في حكم التداوي، هل هو مباح وتركه أفضل؟ أم مستحبٌّ؟ أم واجب؟ فالمشهور عند أحمد الأول، وعند الشافعي الثاني، وذكر النووي أنه مذهب جمهور السلف والخلف، وعند أبي حنيفة أنه مؤكّد حتى يُداني به الوجوب، وعند مالك استواء الطرفين. أما الرقية فمستحبة من الإنسان لنفسه ولغيره، أما الاسترقاء - وهو طلب الرقية - فخلاف الأولى.

والجمهور على أن التداوي مباح، وإن اختلفوا هل الأولى فعله أو تركه. وفعلُ النبي صلى الله عليه وسلم للتداوي دليل على أصل الإباحة. أما تخييره صلى الله عليه وسلم للمرأة التي كانت تصرع بين الصبر (٩) والدعاء لها بالشفاء مع ضمان اللجنة لها فهو دليل على عدم وجوب التداوي، وقد ترك التداوي جماعة من السلف. قال شيخ الإسلام ابن



تيمية رحمه الله: "ولست أعلم سالفًا أوجب التداوي، وإنما كان كثير من أهل الفضل والمعرفة يفضل تركه تفضلاً واختياراً لما اختار الله ورضي به وتسليماً له". (١٠) وقد نقل الذهبي رحمه الله الإجماع على عدم وجوب التداوي. (١١) ولما قيل لأبي بكر الصديق رضي الله عنه - وهو في مرض الموت -: ألا نأتيك بطبيب؟ قال: "قد رأني". قالوا: فما قال لك؟ قال: قال لي: "إني فعّال لما أريد". (١٢)

قال الشاطبي رحمه الله: «وقد تكون المشقة الداخلة على المكلف من خارج لا بسببه، ولا بسبب دخوله في عمل تنشأ عنه؛ فهنا ليس للشارع قصد في بقاء ذلك الألم وتلك المشقة والصبر عليها، كما أنه ليس له قصد في التسبب في إدخالها على النفس، غير أن المؤذيات والمؤلمات خلقها الله تعالى ابتلاء للعباد وتمحيصاً، وسلطها عليهم كيف شاء ولما شاء ف {لَا يَسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ} [الأنبياء: ٣٢]، وفهم من مجموع الشريعة الإذن في دفعها على الإطلاق، رفعاً للمشقة اللاحقة، وحفظاً على الحظوظ التي أذن لهم فيها». (١٣)

والتداوي هو من جملة الأقدار، فعن أبي خزيمة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قلت: يا رسول الله، أرأيت رُقى نسترقئها، ودواء نتداوى به، وثقاة (١٤) نتقيها، هل تردّ من قدر الله شيئاً؟ قال: «هي من قدر الله» (١٥). قال ابن القيم رحمه الله: "وقد أجابهم النبي ﷺ بما شفى وكفى، فقال: هذه الأدوية والرقى والتقى هي من قدر الله، فما خرج شيء عن قدره، بل يردّ قدره بقدره، وهذا الردّ من قدره، فلا سبيل إلى الخروج عن قدره بوجه ما، وهذا كردّ قدر الجوع والعطش والحرّ والبرد بأضدادها، وكردّ قدر العدو بالجهاد، وكلّ من قدر الله، الدافع والمدفوع والدفع". (١٦)



وقال ابن مفلح رحمه الله تعالى: "يُباحُ التداوي، وتركه أفضل، نصّ عليه (١٧) قال في رواية المرّودي: العلاج رخصة، وتركه درجة أعلى منه. وسأله إسحاق بن إبراهيم بن هانئ في الرجل يمرض يترك الأدوية أو يشربها قال: إذا توكل فتركها أحبّ إليّ.

وذكر أبو طالب في كتاب التوكل عن أحمد رضي الله عنه أنه قال: أحبُّ لمن عقد التوكل وسلك هذا الطريق ترك التداوي من شرب الدواء وغيره. وقد كانت تكون به علل فلا يخبر الطبيب بها إذا سأله، وقدمه ابن تميم وابن حمدان، وهو قول ابن عبد البرّ، وحكاه عمن حكاه لقوله صلى الله عليه وسلم في حديث ابن عباس: "يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفاً بغير حساب، (١٨) هم الذين لا يسترقون، ولا يتطيرون، ولا يكتون وعلى ربهم يتوكلون". متفق عليه. (١٩) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من اكتوى أو استرقى فقد برئ من التوكل". رواه أحمد وغيره وإسناده ثقات وصححه الترمذي". (٢٠) (٢١)

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "فإن الناس قد تنازعوا في التداوي هل هو مباح أو مستحب أو واجب؟ والتحقيق: أن منه ما هو محرم، ومنه ما هو مكروه، ومنه ما هو مباح، ومنه ما هو مستحب. وقد يكون منه ما هو واجب، وهو ما يعلم أنه يحصل به بقاء النفس لا بغيره، كما يجب أكل الميتة عند الضرورة، فإنه واجب عند الأئمة الأربعة وجمهور العلماء، وقد قال مسروق: "من اضطر إلى أكل الميتة فلم يأكل حتى مات دخل النار". فقد يحصل أحياناً للإنسان إذا استحرّ المرض ما إن لم يتعالج معه مات، والعلاج المعتاد تحصل معه الحياة كالتغذية للضعيف وكاستخراج الدم أحياناً". (٢٢) وقال أيضاً: "وليس التداوي بضرورة لوجوه:



أحدها: أن كثيراً من المرضى أو أكثر المرضى يُشْفون بلا تداوٍ لا سيَّما في أهل الوبَر والقري والساكين في نواحي الأرض، يشفيهم الله بما خلق فيهم من القوى المطبوعة في أبدانهم الرافعة للمرض، وفيما ييسره لهم من نوع حركة وعمل، أو دعوة مستجابة، أو رقية نافعة، أو قوة للقلب وحسن التوكل، إلى غير ذلك من الأسباب الكثيرة غير الدواء. وأما الأكل فهو ضروري ولم يجعل الله أبدان الحيوان تقوم إلا بالغذاء، فلو لم يكن يأكل لمات، فثبت بهذا أن التداوي ليس من الضرورة في شيء.

وثانيها: أن الأكل عند الضرورة واجب، والتداوي غير واجب. ومن نازع فيه خصمته السنة في المرأة السوداء التي خيرها النبي صلى الله عليه وسلم بين الصبر على البلاء ودخول الجنة وبين الدعاء بالعافية، فاخترت البلاء والجنة. ولو كان رفع المرض واجباً لم يكن للتخير موضع كدفع الجوع. وفي دعائه لأبي بالحمى، وفي اختياره الحمى لأهل قباء، وفي دعائه بفناء أمته بالطعن والطاعون، وفي نهيه عن الفرار من الطاعون.

وخصمتهُ حال أنبياء الله المبتلين الصابرين على البلاء حين لم يتعاطوا الأسباب الدافعة له مثل أيوب عليه السلام وغيره. وخصمتهُ حال السلف الصالح؛ فإن أبا بكر الصديق رضي الله عنه حين قالوا له: ألا ندعو لك الطبيب؟ قال: قد رأني، قالوا: فما قال لك؟ قال: إني فعال لما أريد. ومثل هذا ونحوه يروى عن الربيع بن خثيم المخبت المنيب الذي هو أفضل الكوفيين أو كأفضلهم، وعمر بن عبد العزيز الخليفة الراشد الهادي المهدي، وخلق كثير لا يحصون عدداً.

ولست أعلم سالفاً أوجب التداوي، وإنما كان كثير من أهل الفضل والمعرفة يفضل تركه تفضلاً واختياراً لما اختار الله ورضي به وتسليماً له، وهذا المنصوص عن أحمد وإن



كان من أصحابه من يوجبه، ومنهم من يستحبه ويرجحه، كطريقة كثير من السلف استمساکًا لما خلقه الله من الأسباب، وجعله من سنته في عباده.

وثالثها: أن الدواء لا يُستيقن، بل وفي كثير من الأمراض لا يظن دفعه للمرض؛ إذ لو اطّرد (٢٣) ذلك لم يمت أحد، بخلاف دفع الطعام للمسغبة والمجاعة فإنه مستيقن بحكم سنة الله في عباده وخلقته.

ورابعها: أن المرض يكون له أدوية شتى، فإذا لم يندفع بالمحرّم انتقل إلى المحلّل، (٢٤) ومحال ألا يكون له في الحلال شفاء أو دواء، والذي أنزل الداء أنزل لكل داء دواء إلا الموت. ولا يجوز أن يكون أدوية الأدوية في القسم المحرم، وهو سبحانه الرؤف الرحيم. وإلى هذا الإشارة بالحديث المروي: "إن الله لم يجعل شفاء أمتي فيما حرم عليها". (٢٥) بخلاف المسغبة فإنها وإن اندفعت بأي طعام اتفق إلا أن الخبيث إنما يباح عند فقد غيره، فإن صوّرت مثل هذا في الدواء فتلك صورة نادرة؛ لأن المرض أندر من الجوع بكثير، وتعيّن الدواء المعين، وعدم غيره نادر فلا ينتقض هذا. على أن في الأوجه السالفة غنى.

وخامسها - وفيه فقه الباب - أن الله تعالى جعل خلقه مفتقرين إلى الطعام والغذاء لا تندفع مجاعتهم ومسغبتهم إلا بنوع الطعام وصنفه، فقد هدانا وعلّمنا النوع الكاشف للمسغبة المزيل للمخمصة. وأما المرض فإنه يزيله بأنواع كثيرة من الأسباب ظاهرة وباطنة روحانية وجسمانية، فلم يتعيّن الدواء مزيلاً. ثم الدواء بنوعه لم يتعيّن لنوع من أنواع الأجسام في إزالة الداء المعين. ثم ذلك النوع المعين يخفى على أكثر الناس بل على عامتهم دركه ومعرفته، والخاصة المزاولون منهم هذا الفن أولو الأفهام والعقول يكون الرجل منهم قد أفنى كثيراً من عمره في معرفته ذلك ثم يخفى عليه نوع المرض وحقيقته، ويخفى



عليه دواؤه وشفاءؤه، ففارقت الأسباب المزيلة للمرض الأسباب المزيلة للمخمصة في هذه الحقائق البينة وغيرها، فكذلك افرقت أحكامها كما ذكرنا". (٢٦)

وقال ابن باز رحمه الله تعالى: "التداوي لا بأس به، ولا حرج فيه، ولا ينقص الإيمان، يقول النبي صلى الله عليه وسلم: "عباد الله تداووا ولا تداووا بحرام". (٢٧) ويقول النبي صلى الله عليه وسلم: "ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء، علمه من علمه وجهله من جهله". (٢٨) لكن ترك طلب الاسترقاء هو الذي جاء في الحديث: "ولا يسترقون". (٢٩) أي: لا يطلبون من يرقى لهم ويقرأ عليهم "ولا يكتون"، فترك الكي أفضل إلا عند الحاجة فلا بأس، (٣٠) يقول النبي صلى الله عليه وسلم: "الشفاء في ثلاث: كية نار، أو شربة عسل، أو شرطة محجم". (٣١) فإذا دعت الحاجة إلى الكي أو الاسترقاء أو نحو ذلك فلا بأس به، فالتداوي مطلوب "ما أنزل الله من داء إلا وأنزل له شفاء". لكن مع التداوي يعتمد على الله، ويسأل ربه الشفاء، ويعلم أنه سبحانه هو الشافي ويده الأمر. والتداوي من الأسباب، فالعلاج عند الأطباء أو عند القراء كلها أسباب، والتوفيق والشفاء بيد الله جل وعلا". (٣٢) وقال العثيمين رحمه الله: "إذا غلب على الظن نفع الدواء مع احتمال الهلاك بتركه فالتداوي واجب. وإن غلب على الظن نفع الدواء، ولكن ليس هناك احتمال للهلاك بترك الدواء، فالتداوي أفضل. وإن تساوى الأمران فترك التداوي أفضل". (٣٣)

وكم من مريض استعجل شفاؤه بمحرم كان فيه هلاكه، فأراد العاجلة ولات حينَ شفاء!

وقد ييسر الله تعالى الشفاء من المرض العضال برؤيا صالحة، وقد ذكروا أن عائشة رضي الله عنها لما سحرتها جاريتها رأت في منامها أن اغتسلي من ثلاثة آبار يمد بعضها من



بعض، فاستقي لها فاغتسلت فبرأت بإذن الله. (٣٤) وأسند البيهقي رحمه الله عن الليث بن سعد رحمه الله قال: رأيت إسماعيل بن عتبة بصيراً، ثم رأيتُه قد عمي، ثم رأيتُه قد أبصر، فقلت له. فقال: "رأيت رجلاً في المنام قائماً، فقال لي: قل. قلت: ما أقول؟ قال: قل: «يا قريبُ يا مجيبُ، يا سميع الدعاء، يا لطيفُ لما يشاء، رُدَّ عَلَيَّ بَصْرِي، ففُكِّتْهَا فَأَبْصَرْتُ". (٣٥)

هذا؛ وإن الإخبار بالمرض - لحاجة - ليس من الشكوى ولا يقدر في الرضا، فعن أبي سعيد الخدري: أنه دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو موعوك، عليه قطيفة، فوضع يده عليه، فوجد حرارتها فوق القطيفة. فقال أبو سعيد: ما أشدَّ حمَّاك يا رسول الله! قال: "إنا كذلك، يشتد علينا البلاء، ويضاعف لنا الأجر". فقال: يا رسول الله! أي الناس أشدَّ بلاء؟ قال: "الأنبياء ثم الصالحون، وقد كان أحدهم يُبتلى بالفقر، حتى ما يجد إلا العباءة يجوبها (٣٦) فيلبسها، ويُبتلى بالقمل حتى يقتله، ولأحدهم كان أشدَّ فرحاً بالبلاء، من أحدكم بالعطاء". (٣٧) وقد بَوَّب البخاري رحمه الله تعالى في الأدب المفرد باب: هل يكون قول المريض: "إني وجع" شكاية؟ وساق الحديث عن هشام، عن أبيه قال: "دخلت أنا وعبد الله بن الزبير على أسماء - قبل قتل عبد الله بعشر ليال - وأسماء وجعة. فقال لها عبد الله: كيف تجدينك؟ قالت: وجعة. قال: إني في الموت. فقالت: لعلك تشتهي موتي، فلذلك تتمناه؟ فلا تفعل، فوالله ما أشتهي أن أموت حتى يأتي على أحد طرفيك، أو تُقتل فأحتسبك، وإما أن تظفر فتقرَّ عيني، فأياك أن تُعرض عليك خُطَّة، فلا توافك، فتقبلها كراهية الموت. وإنما عنى ابن الزبير ليقتل فيحزنها ذلك". (٣٨)



أما إن لم يكن هناك حاجة من الإخبار فالكف عنه أولى، وليكن حاله كحال يعقوب عليه السلام: (إنما أشكو بثي وحزني إلى الله)، ولا يكن كالشاكين ربهم لخلقه! وقد نظر أعربي إلى رجل يشكو ما هو فيه من الضيق والضرّ فقال: «يا هذا أتشكو من يرحمك إلى من لا يرحمك؟».

وإذا عرّتك بليّةٌ فاصبر لها ... صبر الكريم فإنه بك أعلم

وإذا شكوت إلى ابن آدم إنما ... تشكو الرحيم إلى الذي لا يرحم

.....

١ . البخاري (٥٦٧٨) دون جملة «عَلِمَهُ مِنْ عِلْمِهِ...» فإنها عند أحمد (٢٧٨ / ٤) وحسنه محققوه، والحاكم

(١٩٦ / ٤)

٢ . قال ابن الملك في شرح المصابيح (٩١ / ٥): «بَرَأٌ: بفتحين، يقال: بَرَأْتُ مِنْ الْمَرَضِ بَرَأً بَرَاءً بِالْفَتْحِ، فَأَنَا

بَارِئٌ، وَأَبْرَأَنِي اللَّهُ مِنْهُ، وَعَنْ أَهْلِ الْحِجَازِ: بَرَأْتُ بِالْكَسْرِ، بَرَاءً بِالضَّمِّ.

٣ . مسلم (٢٢٠٤) قوله: "فَإِذَا أُصِيبَ دَوَاءُ الدَّاءِ" أي إذا أصاب المريض الدواء المناسب شُفي بإذن الله

تعالى، وفيه إشارة إلى أهميّة دقة التشخيص للمرض، وحُسن اختيار الدواء المناسب، من حيث النوع والكم، وتقصي

أقلّ الأعراض الجانبية حدوثاً. قال الزرقاني في شرح المواهب اللدنية بالمنح المحمدية (٣٥٧ / ٩): "فإذا أصاب

المريض دواء الداء المناسب له، سواء أصابه بتجربة أو أخبار عارف، واستعمله على القدر الذي ينبغي، في الوقت

الذي ينبغي؛ برأ بإذن الله تعالى، لأن الشيء يُداوى بضده غالباً، لكن قد تدقّ حقيقة المرض وحقيقة طبع الدواء،

فيقلّ الفقه بالمتضادين، ومن ثم أخطأ الأطباء، فمتى كان مانعاً بخطأ أو غيره؛ تخلّف البرء، فإن تمت المضادة حصل

البرء، فصحت الكلية واندفع التدافع، وهذا أحد محملي الحديث."

٤ . المسند (١٤٥٩٧) وقال محققوه: حديث صحيح، إسناده على شرط مسلم.



٥. الزاد (١٧ / ٤)
٦. عن: فيض القدير للمناوي (٣٦١ / ٥)
٧. وقد كان الصحابة يفرحون بهم ليتعلّموا من أجوبة رسول الله ﷺ لهم، وفي هذا بيان جمال خلق الصحابة مع نبيهم ﷺ، وهيتهم له، وتوقيره، رضوان الله عليهم.
٨. أحمد (٤ / ٢٧٨) وأبو داود (٣٨٥٧) وصححه الألباني. وأخرجه الترمذي (٢٠٣٨) وقال: حسن صحيح. وصححه ابن حبان في الموارد (١٣٩٥) والبوصيري في الزوائد (١٩٢٤) وصححه الألباني.
٩. ولازمُهُ ترك التداوي على الأظهر.
١٠. مجموع الفتاوى (٥٦٤ / ٢١)
١١. الطب النبوي (٢٢٧)
١٢. الجامع لأحكام القرآن (١٩ / ٢٩٧) وتفسير ابن كثير (٨ / ٣٧٢)
١٣. الموافقات (٢ / ٢٦٠)
١٤. الثقة: ما يُتوقَى به الضرر، كالدرع والترس ونحو ذلك، لذلك فالتقوى جُنَّةٌ من غضب الله وعذابه.
١٥. أحمد (٣ / ٤٢١)، الترمذي (٢٠٦٦)
١٦. الزاد (٤ / ١٤)
١٧. أي الإمام أحمد رحمه الله.
١٨. ومن فضل الله ورحمته وكرمه أن جعل مع كل واحد من السبعين ألف سبعين ألفاً أيضاً، فيكون مجموعهم أربعة مليارات وتسعمئة مليون مؤمن: $(٧٠٠٠٠ \times ٧٠٠٠٠ = ٤٩٠٠٠٠٠٠٠٠٠)$ والظاهر أن الأعداد هنا مقصودة بذاتها وليست على سبيل المبالغة كعادة العرب في المبالغة بالسبعين، لأن جاذة العرب في المبالغة بالعدد أنهم يكتفون بذكره وحده بلا إضافات عليه، كقولهم رأيت سبعين مرة ونحو ذلك، أما في هذا الحديث فقد رُتبت أعداد لاحقة على أعداد سابقة فمع كل ألف سبعين ألفاً، أو مع كل واحد سبعين ألفاً، أما الحثيات الربانية



فلا يقدر قدرها إلا الله تعالى، ومثل هذا العدد المقصود حديث رسول الله ﷺ: «يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجزؤونها»، رواه مسلم (٢٨٤٢) والله أعلم. فعند أحمد (٢٢) وأبي يعلى في مسنده عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أعطيت سبعين ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب، وجوههم كالقمر ليلة البدر، قلوبهم على قلب رجل واحد، فاستزدت ربي عز وجل فزادني مع كل واحد سبعين ألفاً». وقال الهيثمي في المجمع (١٨٧١٢): «رواه أحمد وأبو يعلى، وفيهما المسعودي وقد اختلط، وتابعه لم يسم، وبقية رجال أحمد رجال الصحيح». وصححه البوصيري والألباني في الصحيحة (١٤٨٤) وقال بعد ذكره كلام الهيثمي الأنف: «لكن الحديث صحيح، فإن له شواهد كثيرة عن جمع من الصحابة، وفاته حديث أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «سألت ربي عز وجل، فوعدني أن يدخل من أمتي سبعين ألفاً على صورة القمر ليلة البدر، فاستزدت فزادني مع كل ألف سبعين ألفاً فقلت: أي رب؛ إن لم يكن هؤلاء مهاجري أمتي، قال: إذن أكملهم لك من الأعراب». أخرجه أحمد (٣٥٩ / ٢) عن زهير بن محمد عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قلت: وهذا إسناد على شرط مسلم، لكن زهير هذا وهو أبو المنذر الخراساني فيه ضعف من قبل حفظه. والحديث قال الحافظ ابن حجر في «الفتح» (٣٤٥ / ١١): «رواه أحمد والبيهقي في «البعث» من رواية سهل بن أبي صالح... وسنده جيد، وفي الباب عن أبي أيوب عند الطبراني، وعن حذيفة عند أحمد، وعن أنس عند البزار، وعن ثوبان عند ابن أبي عاصم، فهذه طرق يقوي بعضها بعضاً». قلت: وعن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق عند أحمد أيضاً (١٩٧ / ١). أهـ.

وقد جاء في حديث آخر: «وعدني ربي أن يدخل الجنة من أمتي سبعين ألفاً، مع كل ألف سبعون ألفاً لا حساب عليهم ولا عذاب، وثلاث حثيات من حثيات ربي». فعدهم في هذا الحديث أربعة ملايين وتسعمئة ألف (٤,٩٠٠,٠٠٠) مع زيادة حثيات الكريم الرحيم الوهاب تبارك وتعالى. فلعل الله تعالى قد بشره أولاً بسبعين ألف مع كل ألف، ثم زاده سبعين ألفاً مع كل واحد، وفوق ذلك كله الحثيات الإلهية الثلاث، أي يدخل الجنة بلا حساب ولا عذاب بقدر حثياته الثلاث تبارك وتعالى وتقدس، وهي حثيات عظيمة، ولا يقدر قدرها إلا الله تعالى. والله أعلم كم قدر الحثية، والحثية في اللغة: هي ملء الكفين. نسأل الله الكريم أن يجعلنا جميعاً ووالدينا وأحبابنا منهم، آمين.



٢٠. أحمد (١٨٢٢١) وحسنه محققوه، والترمذي (٢٠٥٥) وقال: هذا حديث صحيح، وصححه الألباني.
٢١. الآداب الشرعية لابن مفلح (٣٥٩/٢)
٢٢. مجموع الفتاوى (١٨ / ١٢)
٢٣. يصح لغة: اضطرر واطرد.
٢٤. لعل في العبارة قلب، فيكون الكلام: "إذا لم يندفع بالمحلل انتقل إلى المحرم"، أي قياساً على أكل الميتة لمن خاف على نفسه الهلكة، ولا يقصد بذلك بيان الحكم - فهو لا يقول به - إنما قصد التدرج في القياس لإبطاله بسبب عدم اتحاد العلتين، مع بيان الفرق بينهما، هذا هو الأظهر. أما إن لم يكن ثم قلب فقد يكون قد قصد التقسيم العقلي الملجئ بالقسمة الثنائية، فالدواء إما بالحلل أو الحرام، وبما أن الشارع قد حرّم الحرام، وبيّن أنه ليس فيه شفاء، فيلزم من ذلك أن الدواء الشافي بإذن الله محصور في الحلل، والله أعلم.
٢٥. ابن حبان في صحيحه (٤ / ٢٣٣) وأبو يعلى في المسند (١٢) وشرح ثلاثيات المسند (١ / ٨٢٥) وقال السفاريني: صحيح. وصححه كذلك في كشف اللثام (٦ / ٢٠٠). وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٥ / ٨٦): "رجال رجال الصحيح، خلا حسان بن محارق، وقد وثقه ابن حبان".
٢٦. مجموع الفتاوى (٢١ / ٥٦٣ - ٥٦٦)
٢٧. الترمذي (٢٠٣٨) وقال: حسن صحيح. وصححه الألباني.
٢٨. البخاري (٥٦٧٨) دون جملة «علمه من علمه...» فإنها عند أحمد (٤ / ٢٧٨) وحسنه محققوه، والحاكم (٤ / ١٩٦)
٢٩. البخاري ١٦٣/٧ (٥٧٠٥)، ومسلم ١٣٧/١ (٢٢٠) (٣٧٤) وجاءت عند مسلم بلفظ "لا يرقون" وقد ردها المحققون للشذوذ. قال ابن القيم رحمه الله: "زاد مسلم وحده «ولا يرقون» فسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: "هذه الزيادة وهم من الراوي، لم يقل النبي صلى الله عليه وسلم: "لا يرقون" لأن الراقي محسن إلى أخيه، وقد قال صلى الله عليه وسلم حين سئل عن الرقى: "من استطاع منكم أن ينفع أخاه فلينفعه". (رواه أحمد (٣ / ٣٠٢) ومسلم (١٤ / ١٨٦) وقال صلى الله عليه وسلم: "لا بأس بالرقى ما لم تكن شركاً". (رواه



أبو داود (٣٨٨٦) وأيضاً فقد رقى جبريل النبي صلى الله عليه وسلم. (رواه مسلم (١٧٠/١٤) والفرق بين الراقي والمسترقي: أن المسترقي سائل مستعط ملتفت إلى غير الله بقلبه، والراقي محسن نافع". المستدرك على مجموع الفتاوى (١ / ٢٧) وانظر: مفتاح دار السعادة (٥٨٠) وقال العثيمين رحمه الله: "لا يرقون" كلمة غير صحيحة، ولا تصح عن النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأن معنى "لا يرقون" أي: لا يقرؤون على المرضى، وهذا باطل، فإن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يرقى المرضى". شرح رياض الصالحين (١/٢٩٠)

٣٠. قال ابن القيم رحمه الله تعالى: "أحاديث الكي أربعة أنواع: أحدها: فعله، والثاني: عدم محبته له، والثالث: الثناء على من تركه، والرابع: النهي عنه. ولا تعارض بينها بحمد الله تعالى، فإن فعله يدل على جوازه، وعدم محبته له لا يدل على المنع منه، وأما الثناء على تاركه فيدل على أن تركه أولى وأفضل، وأما النهي عنه، فعلى سبيل الاختيار والكراهة، أو عن النوع الذي لا يحتاج إليه، بل يفعل خوفاً من حدوث الداء. والله أعلم". زاد المعاد (٤ / ٦٥)

٣١. صححه ابن باز في المجموع (١/٢٠٦) والألباني في صحيح الجامع (٣٧٣٤) أما لفظ البخاري فبسند عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "الشفاء في ثلاثة؛ في شرطة محجم، أو شربة عسل، أو كية بنار، وأنا أنهى أمتي عن الكي".

٣٢. دروس للشيخ عبد العزيز بن باز (١٧ / ١٢)

٣٣. كتب ورسائل العثيمين (١ / ٢١٥)

٣٤. الجامع لمسائل المدونة لابن يونس الصقلي (٧/٨٤٥) وقد ذكرها ابن القيم في الروح (١/١٩١)

٣٥. شعب الإيمان (٢/٣٥٦)

٣٦. "يجوبها": الجوب الخرق والقطع.

٣٧. الأدب المفرد (١/١٧٩) وشعب الإيمان للبيهقي (١٢/٢٢٧) وصححه الألباني في صحيح

الجامع (٩٩٥) وعند أحمد بنحوه في المسند (٣/٩٤)، ومصنف عبد الرزاق (٢٠٦٢٦)، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٠٤٧)

٣٨. الأدب المفرد (٥٠٩) وصححه الألباني.



أحكام تَمَيُّ الموت خشية الفتنَة أو غيرها

الحمد لله الذي جعل الموت راحةً لوليّه من وَصَبِ الدنيا وَنَصَبِ لأوائها، ونهايةً سعيدةً لعبده من ضيقها وَعَتَّتِهَا وَكَدَّرِهَا وَعَنَائِهَا، ومعبرًا وحيدًا للوصولِ إليه تعالى ولقائه ورؤيته وسلامه في دار السلام، قال صلى الله عليه وسلم: "تعلّموا أنّه لن يرى أحدٌ منكم ربه عز وجل حتّى يموت". (١) والرب تبارك وتعالى يُبشِّرُ عباده ببقياه في الدار الآخرة بقوله سبحانه: (من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت).

فالموت هو الباب الوحيد للقاء وليّ الله تعالى ربّه تعالى، وهو طريق الوصول للجنة والدار الآخرة، ولقاء الأحباب كرسول الله صلى الله عليه وسلم والمرسلين والصحابة والسابقين، وكأحباب المؤمن من خاصته الذين سبقوه كوالديه أو أجداده أو زوجته وذريته وأقاربه وجيرانه وأحبابه الذين فرطوه بالرحيل للدار الآخرة، لذلك قال غير واحد من الصحابة عند موتهم: مرحبًا بحبيب جاء على فاقه! (٢) فهذا معاذ رضي الله عنه يقول عند احتضاره: "مرحبًا بالموت مرحبًا! زائرٌ مُعَبٌّ، وحبیبٌ جاء على فاقه"، (٣) وكذلك بلال رضي الله عنه حين قالت زوجته عند موته: واكرّباه! قال: "لا، بل واطرّباه! غدًا ألقى الأعبة محمدًا وحزبه". (٤) وقال حذيفة رضي الله عنه حين احتضِر: "جاء حبيب على فاقه، لا أفلح من ندم". (٥) يعني على التمني. وقال عمّار رضي الله عنه بصفيين: "اليوم ألقى الأعبة محمدًا وحزبه". (٦) وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: "أحبُّ الموتَ اشتياقًا إلى ربي". (٧)



أما الكافر فحين يأتيه موته فلا شيء يكرهه أكثر مما أمامه، فيضيّق واسعُهُ، ويستوحش أنسه، ويخاف حينَ لات مأمِن، ويهلك حين يفوته النجاء، ويوقن حينها بأن الله هو الحق المبين، (وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور).

ففسك لم، ولا تلم المطايا ... ومث كمدًا، فليس لك اعتذار

وقد يأخذه ابتداءً وهمه إلى لقاء أحبته الغابرين، لكن هيهات فلا سعادة في الآخرة لكافر، فإنهم يتبرؤون من بعضهم، قال تعالى: (الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين)، وقال سبحانه وتعالى: (إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من انصار)، ولما من رسول الله صلى الله عليه وسلم على اليهودي الزبير بن باطا القرظي بشفاعة خطيبه صلى الله عليه وسلم ثابت بن قيس بن الشماس ليدي كانت لليهودي عليه في الجاهلية، فوهبه نفسه وأهله وماله، وبعد أن توثق من ذلك كله سأل عن أحبابه من اليهود الذي ذبحوا، فأخبره، فقال بكل خيبة وخذلان وحسرة: "فإني أسألك يا ثابت بيدي عندك إلا ألحقتني بالقوم، فوالله ما في العيش بعد هؤلاء من خير، فما أنا بصابر فتلة دلو ناضح حتى ألقى الأحبة!" فقدّمه ثابت فضرب عنقه. فلما بلغ أبا بكر الصديق، قوله: "ألقي الأحبة"، قال: "يلقاهم في نار جهنم خالدًا مخلدًا". (٨)

إذا الحياة لغير الله وجهتها ... فطوها في صميم الأمر نقصان

فدرها ضيعة تُفضي لمهلكة ... وزادها جلمد في شكل عقيان

فعش إذا شئت أو فلتمت كمدًا ... فالموت والعيش بعد اليوم سيان!



وبعد؛ فكثيرٌ من الناس يسأل عند كثرة الفتن واضطراب أحوال الفرد أو الجماعة سؤالاً يدل على حرصهم على لقاء ربهم تبارك وتعالى وهم أنقياء أتقياء معافون، فيقول القائل منهم: هل تمنّي الموت من رُخصِ الفتن؟

والجواب: أن الأصل للمؤمن تمنّي بقاءه في الحياة ليعبد ربه ويستكثر من خيره، فكل يوم يمرّ عليه يزيد فضله وأجره وذخره إلى منقلبه، فقد قال صلى الله عليه وسلم: "خيركم من طال عمره وحسن عمله". (٩) والمؤمن مسلمٌ أمره إلى ربه ووليّه، فيرضى بما قضى الله له بالبقاء أو الرحيل، ويجاهد نفسه على إرضاء ربه تبارك وتعالى.

بيد أنه يرخص في الفتن ما لا يُرخص في غيرها، وذلك لأن الفتن سبب في اضطراب الأمور، وانقلاب القلوب، وانتكاس الأحوال، واختلال الأديان، إلا من عصم الله تعالى بحياة صالحة رشيدة، أو موت مُسلمٍ مُذهبٍ، فقد روى الترمذي رحمه الله تعالى (١٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث اختصام الملاء الأعلى: «اللهم إني أسألك فعل الخيرات، وترك المنكرات، وحب المساكين، وإذا أردت بعبادك فتنة فاقبضني إليك غير مفتون ..» الحديث، وقد حمل الإمام مالك (١١) دعاء عمر رضي الله عنه: "اللهم كبرت سنّي، وضعفت قوّتي، وانتشرت رعيتي؛ فاقبضني إليك غير مضيع ولا مفرط" الذي رواه عنه في موطنه فقال: "ولا أرى عمر دعا على نفسه بالشهادة إلا أنه خاف التحول من الفتن، وقد كان يجب البقاء في الدنيا"، وكان من دعائه رضي الله عنه في آخر عمره: «اللهم ارزقني شهادة في سبيلك، واجعل موتي في بلد رسولك. قالت حفصة: فقلت: أنى يكون هذا؟ قال: يأتيني به الله إذا شاء». (١٢) وقد استجاب الله دعاءه، فتوفاه صديقاً شهيداً رضي الله عنه.



وعليه؛ فلا يُشعر تمنّي الموت عند الضرر إلا إن خاف المؤمن على دينه، فعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا يتمنين أحدكم الموت لضر أصابه، فإن كان لا بد فاعلاً، فليقل: اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي". (١٣) وفي رواية قال أنس: لولا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لا يتمنين أحدكم الموت"، لتمنيته. (١٤) فدل الحديث على النهي عن تمنّي الموت لأجل مصائب الدنيا، لما في ذلك من الجزع، وعدم الصبر على المقدّر، وعدم الرضا بالقضاء، وهذ من رقة الدين، وضعف اليقين في الأغلب. ولا يلزم من وجود ذلك ضعف الإيمان لكل من تمنّى الموت لضرر الدنيا، بل قد يكون سبب تمنّيه جهله بالحكم الشرعي وعدم بلوغه النهي، أو نسيانه وغيبته عن باله حين أمنيته، سيّما والغالب اختلال المزاج عند من تمنّى هذه الأمر الشديد جداً.

كم من هُمومٍ أحرقت كبدِي التي ... بجوانحي لكنني أتجلدُ

أوأه دمعِي لا تبخ سرِّي الذي ... أكننته قلباً حزيناً يكمدُ

لكننا اللوعاتُ حينَ أوارها ... تجثوا على القلبِ القوي فيهمدُ

تتهشمُ الأضلاعُ من رجعِ الصدى ... من أنّةِ مكلومةٍ تترددُ

وعلى كل حال؛ فالمؤمن مُفتنٌ تَوَّابٌ، وقد يرد على قلب المؤمن أحياناً عوارض من ذلك بلا استمرار، بسبب واردٍ غير مُحتمل، أو مزاجٍ تَكَدَّرَ، أو قلبٍ غَضِبَ، أو نفسٍ نَفَهَتْ، أو غفلةٍ تمكّنت، كتب الله النقص والخطأ والخطيئة على عباده لعلهم إليه يرجعون، والله تعالى يغفر لعباده ويعفو عنهم ما داموا غير مُصرّين، قال سبحانه: (إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا



إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ)، والطائِف: لَمَّةُ الشَّيْطَانِ ووسوسته وتغطيته ذَكَرَ القلبَ على وجه السرعة والمباغته بنسيان أو غفلة أو ضعف إرادة ونحو ذلك. وتدبَّر كيف وصفهم سبحانه في ثاني الحال بقوله الأكرم: (فإذا هم مبصرون): فأتى بـ"إذا" الفجائية المقتضية سرعة تنبههم من غفلتهم ويقظتهم من سنتهم واغتسالهم بالذكر من درن الغفلة.

وعن قيس بن أبي حازم قال: دخلنا على خبَّاب رضي الله عنه وقد أكتوى سبع كيَّات في بطنه، فقال: لو ما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهانا أن ندعو بالموت لدعوتُ به. (١٥) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا يتمنى أحدكم الموت، ولا يدعُ به من قبل أن يأتيه، إنَّه إذا مات أحدكم انقطع عمله، وإنه لا يزيد المؤمنَ عمره إلا خيراً". (١٦) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا يتمنِّي أحدكم الموت، إما محسن، فلعله يزداد خيراً، وإما مسيء لعله يستعيب". (١٧)

ويا ربَّ عامِلني بما أنتَ أهلهُ ... فذنبِي عظيمٌ والرَّحيلُ دَنَا لِيَا

وقد تمنَّاه بعض الصحابة خوفاً على دينهم، فعن عَلِيمٍ قال: كنا جلوساً على سطح معنا رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، قال يزيد: لا أعلمه إلا عبساً الغفاري، والناس يخرجون في الطاعون، فقال عبس: يا طاعون خذني، ثلاثاً يقولها، فقال له عليم: لم تقول هذا؟ ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا يتمنى أحدكم الموت، فإنه عند انقطاع عمله، ولا يردُّ فيستعيب" فقال: إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:



"بادروا بالموت ستاً: إمرة السفهاء، وكثرة الشرط، وبيع الحكم، واستخفافاً بالدم، وقطيعة الرحم، ونشواً يتخذون القرآن مزامير يقدمونه يغنيهم، وإن كان أقلّ منهم فقهاً". (١٨)

وقد تمنى سيّد الأوس سعد بن معاذ رضي الله عنه الموت ودعا لنفسه به بشرطه، ولعله قد نوى الدعاء بالشهادة لأنّ إصابته كانت في المعركة، ولعله كذلك خشي أن يضعف إيمانه بعد توقف حرب قريش، فأحبّ أن يلقي ربه وهو في الغاية من الإيمان، فالجهد يغذي جذوة إيمان القلب ما لا يلحق به في السّلم، فعن عائشة رضي الله عنها أن سعداً أصيب يوم الخندق في أكحله (١٩) فحسّمه (٢٠) رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده بمشقصٍ، وضرب له خيمة في المسجد ليعوده من قريب.. الحديث، وفيه: أن سعداً قال: «اللهم إنك تعلم أنه ليس أحد أحبّ إليّ أن أجاهدهم فيك من قوم كذبوا رسولك وأخرجوه، اللهم فإني أظنّ أنك قد وضعت الحرب بيننا وبينهم، فإن كان بقي من حرب قريش شيء فأبقني لهم حتى أجاهدهم فيك، وإن كنت وضعت الحرب فافجرها، واجعل موتي فيها، فانفجرت من لُبّيته - وفي لفظ: من ليلته -، فلم يرعهم - وفي المسجد خيمة من بني غفار - إلا الدم يسيل إليهم، فقالوا: يا أهل الخيمة، ما هذا الذي يأتينا من قبلكم؟ فإذا سعد يغذو جرحه دمًا، فمات منها». (٢١)

لئن عزّ ديني واستبيحت جوارحي ... فأين مقام العزّ إلا مقاميا

فسعد رضي الله إنما تمنى الشهادة في سبيل الله لأنه قد جرح هذا الجرح الذي دعا به في المعركة، وهذا حسن مطلوب؛ لأنه طلب الشهادة هو ذروة الإيمان، وهو دليل على الصبر والثبات والرضا بما يصيبه في ذلك ممّا يقدره الله عليه، فعن أبي هريرة رضي الله عنه



أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "والذي نفسي بيده، وددتُ أني أقاتل في سبيل فأقتل، ثم أحيأ، ثم أقتل، ثم أحيأ، ثم أقتل". (٢٢)

فيا رب هل إلا بك النصر يُبتغى... عليهم، وهل إلا عليك المعولُّ

وحال المؤمن محبة الحياة على طاعة الله تعالى، فلا يزال صدره بستاناً من ذكر ربه، وقلبه منشراً بدعاء مولاه، مستأنساً بقرب إلهه، يرتفع عند ربه مع امتداد أعماله في الحياة، ويزداد أجره بتوالي الصالحات، ويعمر عمره بالقربات، قد شامت بصيرته أعالي الجنات، فرفع همته لأعلى الدرجات، ووضع الدنيا حيث وضعها ربه، (بل تؤثر الحياة الدنيا . والآخرة خير وأبقى)، (والآخرة خير لمن أتقى). فالحياة هي القالب الذي يسعى به العبد للقربات، والمحل الذي يفوز منه برضوان رب البريات تبارك وتعالى.

ولما حضرت معاذاً رضي الله عنه الوفاة قال: "انظروا أصبحنا؟"، فأني فقيل: لم تُصبح، فقال: "انظروا أصبحنا؟"، فأني فقيل له: لم تُصبح، حتى أتني في بعض ذلك فقيل: قد أصبحت، قال: "أعوذ بالله من ليلة صباحها إلى النار، مرحباً بالموت مرحباً! زائرٌ مُغبٌّ، وحبیبٌ جاء على فاقه، اللهم إني قد كنت أخافك، فأنا اليوم أرجوك، اللهم إنك تعلم أنني لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لجري الأنهار، ولا لغرس الأشجار، ولكن لظماً الهواجر، ومكابدة الساعات، ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذكر". (٢٣) وقد كان معاذ رضي الله عنه ممن أوتوا العلم والإيمان والحكمة ومحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي أقسم على محبته، فهنيئاً لمعاذ تلك الخصوصية النبوية. ومن مواعظه الجليلة قوله الرضي لأبي إدريس الخولاني رحمه الله تعالى: "إنك تجالس قومًا لا محالة يخوضون في الحديث، فإذا رأيتهم غفلوا، فارغب إلى ربك تعالى عند ذلك رغبات". (٢٤) وأوصى ابنه



وصية حادبٍ ناصحٍ مشفقٍ: "يا بُنَيَّ، إِذَا صَلَّيْتَ صَلَاةً، فَصَلِّ صَلَاةً مُودَّعٍ: لَا تَنْظُنُّ أَنَّكَ تَعُودُ إِلَيْهَا أَبَدًا، وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّ الْمُؤْمِنَ يَمُوتُ بَيْنَ حَسَنَتَيْنِ: حَسَنَةٍ قَدَّمَهَا، وَحَسَنَةٍ أُخْرَاهَا". (٢٥) فَالْحَيَاةُ بِالْإِيمَانِ هِيَ الْحَيَاةُ الَّتِي تَسْتَحِقُّ أَنْ تُسَمَّى حَيَاةً، ثُمَّ تَكْمَلُ بِنَعِيمِ الْجَنَّةِ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: (وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا هُوَ وَوَعْدُ الْآخِرَةِ لَهَايَ الْحَيَاةُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ). وَوَعْدُ الْآخِرَةِ قَرِيبٌ، وَمَهْمَا عَاشَ الْمَرْءُ فَهُوَ إِلَى الْوَفَاةِ يَسِيرٌ، (إِنَّمَا تَوَعَّدُونَ لَأْت). إِلَيْكَ.. وَإِلَّا لَا تُشَدُّ الرِّكَائِبُ.

يَحِبُّ الْفَتَى طَوْلَ الْبَقَاءِ وَإِنَّهُ ... عَلَى ثِقَةٍ أَنَّ الْبَقَاءَ فَنَاءٌ

وَتَأْمَلُ الرِّغَائِبَ الْعُمَرِيَّةَ فِي الْحَيَاةِ، قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "لَوْ لَا ثَلَاثٌ فِي الدُّنْيَا لَمَا أَحْبَبْتُ الْبَقَاءَ فِيهَا؛ لَوْ لَا أَنْ أَحْمِلَ أَوْ أَجْهَزَ جَيْشًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَلَوْ لَا مَكَابِدَةُ هَذَا اللَّيْلِ، وَلَوْ لَا مَجَالِسَةُ أَقْوَامٍ يَنْتَقُونَ أَطْيَابَ الْكَلَامِ كَمَا يُنْتَقَى أَطْيَابُ الثَّمْرِ؛ لَمَا أَحْبَبْتُ الْبَقَاءَ". (٢٦) وَتَأْمَلُ اتِّفَاقَ سَبَابِ حَبِّهِ لِلْحَيَاةِ مَعَ سَبَابِ مَعَاذِ وَأَبِي الدَّرْدَاءِ، لَا جَرَمَ فَالْقَبْسُ وَاحِدٌ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

وَلَمَّا اشْتَكَى سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَامَ الْفَتْحِ فِي مَكَّةَ، وَعَادَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ أُخَلِّفُ بَعْدَ أَصْحَابِي (٢٧) قَالَ: "إِنَّكَ لَنْ تُخَلِّفَ فَتَعْمَلْ عَمَلًا تَبْتَغِي بِهِ وَجْهَ اللَّهِ إِلَّا أزدَدتْ بِهِ دَرَجَةً وَرِفْعَةً، وَلَعَلَّكَ أَنْ تُخَلِّفَ حَتَّى يَنْتَفِعَ بِكَ أَقْوَامٌ وَيُضَرَّ بِكَ آخَرُونَ". (٢٨) فَتَدْبِرُ هَذِهِ الْبَشْرَى لِكُلِّ مَنْ عَاشَ عَلَى الْإِيمَانِ، وَفِيهِ: فَضِيلَةُ طَوْلِ الْعُمُرِ لِلْإِزْدِيَادِ فِي الْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "وَلَعَلَّكَ أَنْ تُخَلِّفَ حَتَّى يَنْتَفِعَ بِكَ أَقْوَامٌ"، أَي: يَطِيلُ اللَّهُ عَمْرَكَ، وَكَذَلِكَ كَانَ، فَإِنَّهُ عَاشَ بَعْدَ ذَلِكَ أَزِيدَ مِنْ أَرْبَعِينَ سَنَةً، بَلْ قَرِيبًا مِنْ خَمْسِينَ عَامًا، أَذْ كُنْتَ وَفَاتَهُ سَنَةٌ خَمْسٌ وَخَمْسِينَ مِنْ



الهجرة، وقيل: سنة ثمان وخمسين، وهو المشهور، فيكون قد عاش بعد حجة الوداع خمسًا وأربعين، أو ثمانينًا وأربعين. وقوله صلى الله عليه وسلم: "حَتَّى يَنْتَفِعَ بِكَ أَقْوَامٌ وَيُضَرَّ بِكَ آخَرُونَ"، أي: ينتفع بك المسلمون بعلمك وعملك ودعوتك ودعائك وجهادك في سبيل الله تعالى، فعاش حتى فتح الله به وبمن معه العراق وغيره، وانتفع به أقوامٌ في دينهم وديناهم.

وفي الحديث آية وبرهان لنبوة النبي صلى الله عليه وسلم، فقد أخبر بطول عمره وبعمله الصالح ونفعه المتعدّي قبل وقوعه بكل هذه السنين. وقد قالها وسعدٌ في غمرة المرض الشديد الذي خشي على نفسه منه، ففي صدر الحديث قال: "عادني رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع في وجع أشْفَيْتُ منه على الموت، فقلت: يا رسول الله بلغ بي من الوجع ما ترى، وأنا ذو مال.. " الحديث.

قال النووي رحمه الله تعالى: "في هذا الحديث فضيلة طول العُمُرِ للازديادِ من العملِ الصَّالح، والحثُّ على إرادة وجهِ الله تعالى بالأعمال". (٢٩) لذلك كان شيخنا ابن باز رحمه الله تعالى يقول بمشروعية الدعاء بموجب هذا الحديث فيقول الداعي: اللهم أطل عمري في طاعتك. ونحو ذلك. فالدنيا مزرعة الآخرة حتى آخر رمق فيها، وقد ذكروا أن الجنيد رحمه الله تعالى كان يقرأ القرآن وهو في سياق الموت ويصلي، فختم، ف قيل له: في مثل هذه الحال يا أبا علي؟ فقال: "وَمَنْ أَحَقُّ مِنِّي بِذَلِكَ، وَهَا هِيَ تُطَوَّى صَحِيفَةٌ عَمَلِي"، ثم كَبَّرَ ومات رحمه الله تعالى. (٣٠)

لَهْفِي عَلَى عَمْرٍ تَقْضَى غَافِلًا ... وَتَرَكْتُ لِلنَّفْسِ السَّفِيهَةِ غَارِبِي



يا صاحبي إن جُزّت قبري هائمًا ... فانصح لنفسك واعتبر بتجاربي

وعن أبي سلمة رحمه الله تعالى عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: "كان رجلان من بلي من قضاة أسلموا مع النبي صلى الله عليه وسلم، واستشهد أحدهما، وأُخِّر الآخر سنة. قال طلحة بن عبيد الله: فأريت الجنة، فرأيت فيها المؤخر منها أدخل قبل الشهيد! فعجبتُ لذلك، فأصبحت فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال رسول الله ﷺ: "أليس قد صام بعده رمضان، وصلى ستة آلاف ركعة، (٣١) أو كذا وكذا ركعة صلاة السنّة". (٣٢) وفي رواية: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "فما بينهما أبعد مما بين السماء والأرض". (٣٣)

وبالجملة؛ فالناس في تمني الموت على خمسة أقسام:

الأول: من يتمناه لينال الشهادة في سبيل الله تعالى. فهذا مشروع محمود، ولكن لا يلزم من ذلك الاستعجال به، بل الأولى له أن يسأل ربه أن يمنّ عليه بأن يستكثر من صالحات الأعمال والقرب والعلم والذكر والجهاد، ثم يختم له بالشهادة في سبيله، فيجمع بين مرتبتي الصّدّيقية والشهادة.

الثاني: من يتمناه شوقاً إلى ربه. وهذا مشروع، لأنّ قلق الشوق لا مدفع له عند بعض النفوس إلا باللقاء، فكيف إن كان لقاء رب العالمين تبارك وتعالى! وقد سبق ذكر قول أبي الدرداء رضي الله عنه: "أحبُّ الموتَ اشتياقاً إلى ربي"، فشوقه قد ساقه لتمني عبور الباب للمحبوب سبحانه وبحمده. وتأمل أيضاً حال معاذٍ وبلالٍ وحذيفة وعمّار في كثير من السلف رضي الله عنهم حين حضرتهم مناياهم فقد كانوا يطربون لذلك ويبتهجون



ويستبشرون ويشتاقون، ويهتفون: غداً نلقى الأحبة محمدًا وحزبه. وهم لم يسألوا ربهم الموت لكنهم فرحوا بنزوله، لأنه الباب الوحيد للوصول للدار الآخرة التي يلقون الله تعالى فيها ثم نبيّه صلى الله عليه وسلم وأصحابه وأحبابه.

إذن فتمنّي الموت شوقاً إلى الله تعالى مشروع، ولكنه مشروط بأمرين:

الأول: ألا يكون دافعه التألّي على الله تعالى، والإعجابُ بعمله، والثقةُ بقبوله، والأمنُ من مكر الله تعالى، ونسيانُ صفات جلاله تبارك وتعالى، فهذا من سوء الأدب مع الله سبحانه وتعالى، (وما قدروا الله حق قدره). بل الموفق هو من يبسط الرجاء على حسن ظنه بربه تعالى لا بعمله مهما بلغ، فالقبولُ غيبٌ، والخاتمةُ غيبٌ، والمصيرُ غداً غيبٌ لا يعلمه إلا علام الغيوب سبحانه وتعالى. ولولا انتظار المؤمنين لقاء ربهم يوم القيامة لتقطعت نفوسهم حَسَرَات. لذلك كان عامّة من ورد عنهم مثل ذلك من السلف إنما يصرحون بالشوق للقاء الله تعالى عند الاحتضار أو قبيله حين نزول أمارات الرحيل لله والدار الآخرة، والله المستعان.

الثاني: أن يكون قلقه مفضياً به إلى الخشية من نقص دينه عبر تشوُّش قلبه بواردات لا يطيق لها دفعا، أو قسوة قلبه مع طول المدى، وهذا في الحقيقة آيلٌ إلى معنى تمنّي الموت عند الخوف من الفتن. ورسول الهدى صلى الله عليه وسلم قد وضح ذلك غاية الوضوح بقوله: "لا يتمنّين أحدكم الموت لضرّ أصابه، فإن كان لا بد فاعلاً، فليقل: اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي". (٣٤) وتأمل تعليق الدعاء بالحياة والوفاة بالخيرة الإلهية من جهة، وبالرضا باختيار الله له من جهة أخرى، فصار الداعي مُحاطاً بخير الله من جميع جهاته. وهذا من حرص الشفيق صلى الله عليه وسلم على حماية



قلوب أمته من استجرار العواطف غير الموفقة لها، فسدت ذريعة الخطأ أولاً ثم فتح باب الأمل من جميع الجوانب، ولا غرو فقد مدحه ربه تبارك وتعالى بقوله الأكرم: (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ)، بل رحمته عامّة، قال سبحانه فيه: (وما أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ)، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قيل: يا رسول الله ﷺ ادع الله على المشركين. قال: "إني لم أبعث لعاناً، وإنما بُعثت رحمة". (٣٥) وعنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "يا أيها الناس إنما أنا رحمة مهداة". (٣٦) فصلوات الله وسلامه وبركاته عليه وآله ومن تبعه بإحسان.

الثالث: من يتمناه خوفاً من فتنة تحول بينه وبين رضا ربه. وهذا مشروع كما مر معنا، مع تسليم الأمر لله والدعاء بما ورد به الخبر.

الرابع: من يتمناه جزعاً من الدنيا. وهذا مذموم بكل حال، وقد يُفضي به ذلك للانتحار وهو من أكبر الذنوب عياداً بالله تعالى. فالواجب الصبر على لأواء الدنيا وتقوى الله فيها، والاستعانة به في دفع ما يضره من بلاء الدين والدنيا.

الخامس: من يتمناه ملاً من الدنيا واكتفاءً بما عاشه من عمره. والغالب أن هذا يكون عند تقدّم السن وضعف الأعضاء واعتلال الجسد وموت الأقران والإحساس بثقله على أهله، فهذا حكمه حكم غيره، فهو يختلف باختلاف حاله ودافعه وموجبه، فيكون مذموماً إن كان زهداً في صالح الأعمال، وملاً من القربات لرب البريّات، ومشروعاً إن خاف نقص دينه بتقصير في فريضة، أو وقوع في خطيئة، أو زيغ في فتنة ونحو ذلك. قال الربيع بن بزة رحمه الله تعالى: «إِنَّمَا يُحِبُّ الْبَقَاءَ مَنْ كَانَ عُمُرُهُ لَهُ غُنْماً، وَزِيَادَةً فِي عَمَلِهِ، فَأَمَّا مَنْ



عُيِّنَ عُمُرُهُ وَاسْتَزَلَّهُ هَوَاهُ، فَلَا خَيْرَ لَهُ فِي طُولِ الْحَيَاةِ". (٣٧) ومن شواهدهم في مآلهم
حياتهم قول زهير بن أبي سلمى في معلقته:

سَيِّمْتُ تَكَالِيفَ الْحَيَاةِ وَمَنْ يَعِشُ ... ثَمَانِينَ حَوْلًا لَا أَبَالَكَ يَسَامٍ

وقال آخر:

إِذَا عَاشَ الْفَتَى سَبْعِينَ عَامًا ... فَقَدْ ذَهَبَ اللَّذَاذَةُ وَالْفَتَاءُ

وقال لبيد العامري بعد أن بلغ الثلاثين ومئة سنة فيما يُحكى:

وَلَقَدْ سَيِّمْتُ مِنَ الْحَيَاةِ وَطُولِهَا ... وَسُؤَالَ هَذَا الْخَلْقِ كَيْفَ لَبِيدُ

وقول أوس بن ربيعة الخزاعي:

لَقَدْ عَمَّرْتُ حَتَّى مَلَّ أَهْلِي ... ثَوَائِي عِنْدَهُمْ وَسَيِّمْتُ عُمْرِي

وقال زهير بن جناب الكلبي:

لَقَدْ عَمَّرْتُ حَتَّى لَا أَبَالِي ... أَحْتَفِي فِي صَبَاحٍ أَوْ مَسَاءٍ

وقال المتنبي:

وَإِذَا الشَّيْخُ قَالَ أَفَّ فَمَا مَلَّ ... حَيَاةً وَإِنَّمَا الضُّعْفُ مَلًّا

أَلَّةُ الْعَيْشِ صِحَّةٌ وَشَبَابٌ ... فَإِذَا وَلَّى عَنِ الْمَرْءِ وَلَّى

وقال أبو العتاهية ونُسب إلى أبي محمد التيمي:

إِذَا مَا مَضَى الْقَرْنُ الَّذِي أَنْتَ مِنْهُمْ ... وَخُلِّفْتَ فِي قَرْنٍ فَأَنْتَ غَرِيبٌ



وإن امرأً قد سارَ خمسينَ حِجَّةً ... إلى منهلٍ من وزدهِ لقريبُ

ولله ما أجمل رد ذلك الشيخ ولذيد عيشه بالرضا والذكر، فقد دخل سليمان بن عبد الملك مسجد دمشق، فرأى شيخاً، فقال: يا شيخ، أيسرُّك أن تموتَ؟ فقال: لا والله، قال: ولم، وقد بلغت من السنِّ ما أرى؟ قال: مضى الشبابُ وشرُّه، وبقي الشيبُ وخيرُه، فأنا إذا قعدتُ ذكرتُ الله، وإذا قُمتُ حمدتُ الله، فأحبُّ أن تدومَ لي هاتانِ الحالتان. (٣٨)

ومن رقيقِ نصح الشيخ عبد العزيز السلطان رحمه الله تعالى قوله النفيس: "اعلم أن طول العمر محبوب ومطلوب إذا كان في طاعة الله، لقوله: "خيرُكم من طال عمره، وحسنَ عمله". (٣٩) وكلما كان العمر أطول في طاعة الله؛ كانت الحسنات أكثر والدرجات أرفع. وأما طوله في غير طاعة، أو في المعاصي، فهو شرٌّ وبلاء، تكثر السيئات وتضاعف الخطيئات.

ومن زعم أنه يجب طول البقاء في الدنيا ليستكثر من الأعمال الصالحة المقربة إلى الله تعالى فإن كان مع ذلك حريصاً عليها ومشغراً فيها، ومجانباً لما يشغل عنها من أمور الدنيا فهو بالصادقين أشبه، وإن كان متكاسلاً عنها ومسوّفاً فيها - أي الأعمال الصالحة - فهو من الكاذبين المتعللين بما لا يغني عنه، لأن من أحب أن يبقى لأجل شيء وجدته في غاية الحرص عليه مخافة أن يفوته ويُحال بينه وبينه، ولا سيما والعمل الصالح محله الدنيا، ولا يمكن في غيرها، لأن الآخرة دار جزاء وليست بدار عمل.

فتفكر يا أخي في ذلك عسى الله أن ينفعنا وإياك، واستعن بالله واصبر واجتهد وشمّر، وبادر بالأعمال الصالحة قبل أن يُحال بينك وبينها فلا تجد إليها سبيلاً، وكن حذراً من



مفاجأة الأجل فإنك غرّض للآفات، وهدف منصوب لسهام المنايا، وإنما رأس مالك الذي يمكنك إن وفقك الله أن تشتري به سعادة الأبد هو هذا العمر. قال الله جل وعلا: (أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر). فأياك أن تنفق أوقاته وأيامه وساعاته وأنفاسه فيما لا خير فيه ولا منفعة، فيطول تحسرك وندمك وحنزك بعد الموت.

إذا كان رأس المال عمرك فاحترز... عليه من الإنفاق في غير واجب" (٤٠)

والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا به.

.....

١. مسلم (١٦٩، ٤/٢٢٤٥)
٢. الفاقة: هي الحاجة الشديدة.
٣. الزهد. لأحمد بن حنبل (١٤٨)، حلية الأولياء (١/٢٣٩).
٤. الشفاء (٢/٥٦٩).
٥. الحاكم في المستدرک (٤/٥٤٧).
٦. البزار في مسنده (١٤١٠).
٧. أبو داود في الزهد (٢٣٧)، والبيهقي في الشعب (٩٦١١).
٨. الخبر بطوله في سيرة ابن هشام (٢/٢٤٣). والناضح: الحبل الذي تستخرج بواسطته المياه من البئر بالسانية، والمراد بقوله: "فتلة دلو ناضح"، هو مقدار ما يأخذ الرجل الدلو إذا أخرجت فيصبتها في الحوض، يفتلها أو يردّها إلى موضعها.
٩. أحمد (٢٠٤٤٤) وحسنه الأرنؤوط، والترمذي (٢٣٢٩) وصححه الألباني.



١٠. الترمذي (٣٢٣٣) وصححه الألباني.
١١. كما في الجامع لابن أبي زيد القيرواني (١٨٢).
١٢. البخاري (١٨٩٠).
١٣. البخاري ١٥٦/٧ (٥٦٧١) ومسلم ٦٤/٨ (٢٦٨٠) (١٠).
١٤. البخاري (٥٦٧١)، ومسلم (٢٦٨٠)
١٥. مسلم (٤ / ٢٠٦٤) (٢٦٨١).
١٦. مسلم (٤ / ٢٠٦٥) (٢٦٨٢).
١٧. أحمد (٧٥٧٨) وصححه محققوه والألباني.
١٨. أحمد (١٦٠٤٠) وصححه محققو المسند والألباني في الصحيحة (٢ / ٦٧٢ / ٩٧٩).
١٩. وهو عرق في وسط الذراع يكثر فصده.
٢٠. أي: قطع سيلانه بكيفية.
٢١. البخاري (٤١١٧) ومسلم (١٧٦٩).
٢٢. البخاري (٧٢٢٦).
٢٣. الزهد. لأحمد بن حنبل (١٤٨)، حلية الأولياء (١ / ٢٣٩).
٢٤. حلية الأولياء (١ / ٢٣٦).
٢٥. حلية الأولياء (١ / ٢٣٤)، وقد ورد هذا الحرف: "صلّ صلاة مودّع" في حديث مرفوع، لكن لا يثبت سنده.
٢٦. ابن المبارك في الجهاد (٢٢٢)، وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد (١١٧). ونقلت عن أبي الدرداء كذلك رضي الله عنه كما عند أحمد (١٣٥)، وابن المبارك (٢٧٧) كلاهما في الزهد.



٢٧. أي: أموت في مكة وقد هاجرت منها! وقال ابن الملّقن رحمه الله تعالى في الإعلام بفوائد عمدة الأحكام (٣١/٨): "كأنه أشفق من موته بمكة بعد أن هاجر منها وتركها لله، فخشي أن يقدر ذلك بهجرته أو في ثوابه عليها، أو خشية بقاءه بمكة بعد انصراف النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه إلى المدينة وتخلّفه عنهم بسبب المرض، فإنهم كانوا يكرهون الرجوع فيما تركوه لله تعالى، وقد جاء في رواية أخرى: "أخلف عن هجرتي" أو أنه سأله عن طول عمره وبقائه بعد أصحابه".

٢٨. مسلم ١١/٨ (٢٥٦٤) (٣٤).

٢٩. شرح النووي على مسلم (٧٨/١١).

٣٠. العاقبة في ذكر الموت، لعبد الحق الإشبيلي (١٣٣).

٣١. فعدد الركعات المفروضة سبع عشرة ركعة في اليوم واللييلة، وعدد أيام السنة ٣٥٤ يوماً، وحاصل ضربها ٦٠١٨ ركعة. والعرب فصحاء بلغوا يلغون في البيان ما زاد من العدد الكبير إن كانت الزيادة أو النقص يسيرين، وهو ما يسميه بعضهم حذف الكسور.

وهذا العدد المذكور إنما هو فيما لو اقتصر على الفريضة فقط، وهذا هو الحد الأدنى المفروض على كل مسلم. فإن أضفنا الرواتب ١٢ ركعة والتهجد ١١ ركعة فمجموعها ٤٠ ركعة في اليوم واللييلة؛ وعلى ذلك فعدد ركعات السنة الواحدة ١٤١٦٠ ركعة! وعدد سجوداتها يقارب الثلاثين ألف سجود، فكم لله من منح وألطف وهبات ورحمات في صلاة العبد وسجوده! فله الحمد والشكر والمِنَّة.

وهذا ما سوى بقية النوافل من ذوات الأسباب والمطلقة، نسأل الله الكريم من فضله، وتدبر كيف سمى صلى الله عليه وسلم الركعة سجدة، ولعل مرد ذلك لما فيها من مشترك معنى السجود العام بالركوع والخاص بالسجود.

وضمّ لقلبك - رحماني الله وإياك - ما جاء في صحيح مسلم (٤٨٨) بسنده عن ثوبان رضي الله عنه مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أخبرني بعمل أعمله يدخلني الله به الجنة، أو قال: قلت: بأحب الأعمال إلى الله. فقال: "عليك بكثرة السجود لله، فإنك لا تسجد لله سجدة إلا رفعك الله بها درجة، وحطّ عنك بها خطيئة". وكذا ما جاء عن ربيعة بن كعب الأسلمي خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن أهل الصفة رضي الله عنهم قال: كنت أبيت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتته بوضوءه وحاجته، فقال: "سألني" فقلت: أسألك مُرافقتك في الجنة! فقال: "أو غير ذلك؟"، قلت: هو ذاك، قال: "فأعني على نفسك بكثرة"



السُّجُودِ". رواه مسلم (٤٨٩). وأهل الصُّفَّة: هم فقراء المهاجرين، ومن لم يكن له منزل يسكنه، فكانوا يأوون إلى موضع مظلل في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال شيخنا العثيمين رحمه الله تعالى في شرح رياض الصالحين (١٠٣/٢): "وكثرة السجود تستلزم كثرة الركوع، وكثرة الركوع تستلزم كثرة القيام؛ لأن كل صلاة في كل ركعة منها وسجودان، فإذا كثر السجود كثر الركوع وكثر القيام، وذكر السجود دون غيره، لأن السجود أفضل هيئة للمصلي، فإن أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، وإن كان المصلي قريباً من الله؛ قائماً كان، أو راکعاً، أو ساجداً، أو قاعداً، لكن أقرب ما يكون من ربه وهو ساجد. وفي هذا دليل على فضل السجود". أهـ.

وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد... ذخراً يكون كصالح الأعمال

٣٢. مسند أحمد (٨٣٩٩) وحسنه محققوه، ومسند أبي يعلى الموصلي (٦٤٨) وصححه محمد سليم أسد.
٣٣. ابن ماجه (٣٨٦٩) وصححه الألباني.
٣٤. البخاري (٥٦٧١)، ومسلم (٢٦٨٠).
٣٥. مسلم (٢٥٩٩).
٣٦. الحاكم في المستدرک (١ / ٣٥) واللفظ له وقال: هذا حديث صحيح على شرطها ووافقه الذهبي. وقال الحافظ الهيثمي: رواه البزار والطبراني في الصغير والأوسط ورجال البزار رجال الصحيح. ورواه ابن سعد في الطبقات (١ / ١٩٢) والبيهقي في الدلائل (١ / ١٥٩) مرسلًا، وصحح الألباني إسناده مع إرساله في السلسلة (٤٩٠). وله شواهد متصلة لا بأس بها.
٣٧. الزهد الكبير للبيهقي (١ / ٢٤١).
٣٨. تاريخ دمشق لابن عساكر (٦٨ / ١٧٣).
٣٩. أحمد (٢٠٤٤٤) وحسنه الأرنؤوط، والترمذي (٢٣٢٩) وصححه الألباني.
٤٠. مفتاح الأفكار للتأهب لدار القرار. عبد العزيز السلیمان (٣ / ٢٦٨).



أخطاء في فهم الرضا بالله تعالى أو تطبيقه

إنّ الرضا باب عظيم من أبواب الدين، وهو من أعمال القلوب الكبار، وداخل في لباب الإسلام، إذ أصل الإسلام تسليم واستسلام لله تعالى بتوحيده وطاعته، وعين الاستسلام الرضا، فالرضا هو محض التسليم، وكهف السكينة، وإكسير الانقياد، وموقد الهمة للعبادة. ولما كان الرضا بهذه الأهمية؛ كان حتماً على كل موفّق فهم حدوده للوصول لغاياته، دون روغان عن جادته، ولا زيغ عن محجّته. والخطأ فيه إما من صادر من باب التصوّر والعلم والفهم والتنظير، أو من باب العمل والسلوك والتطبيق. والهدى أن يأخذ الله بيد عمك وعين بصيرتك فينيرك بالعلم والإيمان، فاللهم اهدنا الصراط المستقيم. فمن الأخطاء في باب الرضا:

الأول: نقص الفقه في معانيه الشرعية:

ذلك أن ميدان الرضا خصيب بالمعاني التي تحملها المفردات المترادفة والمتباينة، فيلزم من أراد فهم الرضا أن يتفقه في مقاصد ألفاظ الشرع، حتى لا يقع التباس يُحيل الباطل في عينه لحق يتوهمه؛ فيضلل ويضلّ، قال ابن القيم رحمه الله: "وكثيراً ما يشتبه في هذا الباب المحمود الكامل بالمذموم الناقص، ومن ذلك: اشتباه الرضا عن الله بكل ما يفعل بعبده مما يحبه ويكرهه بالعزم على ذلك وحديث النفس به، وذلك شيء والحقيقة شيء آخر، كما يحكى عن أبي سليمان أنه قال: "أرجو أن أكون أعطيت طرفاً من الرضا، لو أدخلني النار لكنت بذلك راضياً". فسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: "هذا عزم منه على الرضا



وحديث نفس به، ولو أدخله النار لم يكن من ذلك شيء". وفرق بين العزم على الشيء وبين حقيقته". (١)

هذا؛ ولبعض المتعبدة الجهال عجائب في فهم الرضا آت ببعضهم للمروق من الشريعة عياداً بالله تعالى من مضلات الفتن وعمّيات الجهل، قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: "ليس في الوجود شيء أشرف من العلم، كيف لا وهو الدليل، فإذا عُدِم وقع الضلال.

وإن من خفي مكائد الشيطان أن يزيّن في نفس الإنسان التعب ليشغله عن أفضل التعب وهو العلم، حتى إنه زيّن لجماعة من القدماء أنهم دفنوا كتبهم ورموها في البحر. وهذا قد ورد عن جماعة. وأحسن ظني بهم أن أقول: كان فيها شيء من رأيهم وكلامهم فما أحبوا انتشاره. وإلا فمتى كان فيها علم مفيد صحيح لا يخاف عواقبه؛ كان رميها إضاعة للمال. وقد دنت حيلة إبليس إلى جماعة من المتصوفة حتى منعوا من حمل تلامذتهم المحابر، وهذا من خفي حيل إبليس، (وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ) (٢) وقال أيضاً: "اعلم أن أول تلبيس إبليس على الناس صدّهم عن العلم، لأن العلم نور، فإذا أطفأ مصابيحهم خبطهم في الظلم كيف شاء. وقد دخل على الصوفية في هذا الفن من أبواب:

أحدها: أنه منع جمهورهم من العلم أصلاً، وأراهم أنه يحتاج إلى تعب وكُفٍ، فحسّن عندهم الراحة، فلبسوا المراقع، وجلسوا على بساط البطالة! قال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى: "أسس التصوّف على الكسل". ومقصود الإمام بهذا أن مقصود النفس الولايات، وأما استجلاب الدنيا بالعلوم فإنه يطول ويتعب البدن، وقد يحصل المقصود أو لا يحصل.



والصوفية قد تعجّلوا الولايات، فإنهم يُرون بعين الزهد واستجلاب الدنيا، فإنها اليهم سريعة.

ومن الصوفية من ذم العلماء، ورأى أن الاشتغال بالعلم بطالة، وقالوا: إن علومنا بلا واسطة. وإنما رأوا بُعد الطريق في طلب العلم، فقصّروا الثياب، ورقّعوا الجباب، وحملوا الرّكاء، وأظهروا الزهد.

والثاني: أنه قنّع قوم منهم باليسير منه، ففاتهم الفضل الكثير في كثرته. فاقتنعوا بأطراف الأحاديث، وأوهمهم أن علو الإسناد والجلوس للحديث كلّه رياسة ودنيا، وأن للنفس في ذلك لذة.

وكشف هذا التلبس أنه ما من مقام عالٍ إلا وله فضيلة وفيه مخاطرة، فإن الإمارة والقضاء والفتوى كلها مخاطرة، وللنفس فيه لذة، ولكنها فضيلة عظيمة كالشوك في جوار الورد، فينبغي أن تُطلب الفضائل ويُتقي ما في ضمنها من الآفات. فأما ما في الطبع من حب الرياسة فإنه إنما وُضع لتُجلب هذه الفضيلة، كما وضع حب النكاح ليحصل الولد. وبالعلم يُتقوّم قصد العلم، كما قال يزيد بن هارون: "طلبنا العلم لغير الله، فأبى إلا أن يكون لله". (٣) ومعناه: أنه دلنا على الإخلاص. ومَن طالب نفسه بقطع ما في طبعه لم يمكنه.

والثالث: أنه أوهم قومًا منهم أن المقصود العمل، وما فهموا أن التشاغل بالعلم من أوفى الأعمال. ثم إن العالم وأن قصر سير عمله فإنه على الجادة، والعابد بغير علم على غير الطريق.



والرابع: أنه أرى خلقًا كثيرًا منهم أن العلم هو ما اكتسب من البواطن، حتى إن أحدهم تتخايل له وسوسةً فيقول: "حدّثني قلبي عن ربي" (٤) وكان الشبلي (٥) يقول:

إذا طالبوني بعلم الورق ... برزت عليهم بعلم الخرق

وقد سمّوا علم الشريعة علم الظاهر، وسمّوا هواجس النفوس العلم الباطن.. ومن يترك العلم، ويقول أنه يعتمد على الإلهام والخواطر فليس هذا بشيء، إذ لولا العلم النقلى ما عرفنا ما يقع في النفس أمن الإلهام للخير أو الوسوسة من الشيطان. واعلم أن العلم الإلهامي الملقى في القلوب لا يكفي عن العلم المنقول، كما أن العلوم العقلية لا تكفي عن العلوم الشرعية.

وجاء رجل إلى سهل بن عبد الله وبيده محبرة وكتاب، فقال لسهل: جئت أن أكتب شيئاً ينفعني الله به، فقال: "اكتب، إن استطعت أن تلقى الله وبيدك المحبرة والكتاب فافعل"، قال: يا أبا محمد؛ أفدني فائدة. فقال: "الدنيا كلّها جهل إلا ما كان علمًا، والعلم كله حجة إلا ما كان عملاً، والعمل كله موقوف إلا ما كان منه على الكتاب والسنة، وتقوم السنة على التقوى". ومن أقواله: "احفظوا السواد على البياض، فما أحد ترك الظاهر إلا تزندق". وقال: "ما من طريق إلى الله أفضل من العلم، فإن عدلت عن طريق العلم خطوة؛ تهت في الظلام أربعين صباحًا". وعن أبي بكر الدقاق قال: سمعت أبا سعيد الخزاز يقول: "كل باطن يخالف ظاهرًا فهو باطل". وقد نبه الإمام أبو حامد الغزالي في كتاب الأحياء فقال: "من قال إن الحقيقة تخالف الشريعة أو الباطن يخالف الظاهر فهو إلى الكفر أقرب منه إلى الإيمان". وقال ابن عقيل: "جعلت الصوفية الشريعة اسمًا، وقالوا: المراد منها الحقيقة. قال: وهذا قبيح، لأن الشريعة وضعها الحق لمصالح الخلق وتعباداتهم، فما الحقيقة



بعد هذا سوى شيء واقع في النفس من إلقاء الشياطين، وكل من رام الحقيقة في غير الشريعة فمغرور مخدوع".

ولما انقسم هؤلاء بين متكاسل عن طلب العلم (٦) وبين ظان أن العلم هو ما يقع في النفوس من ثمرات التعبد، وسموا ذلك العلم العلم الباطن؛ ومهوا عن التشاغل بالعلم الظاهر! قال جعفر الخلدي: "لو تركني الصوفية لجتكم بإسناد الدنيا، (٧) لقد مضيت إلى عباس الدوري وأنا حدث (٨) فكتبت عنه مجلساً واحداً، وخرجت من عنده فلقيني بعض من كنت أصحابه من الصوفية فقال: أيش هذا معك؟ فأريته إياه، فقال: ويحك، تدع علم الحرق وتأخذ علم الورق! ثم خرق الأوراق، فدخل كلامه في قلبي فلم أعد إلى عباس". وقال أبو سعيد الكندي: "كنت أنزل رباط الصوفية، وأطلب الحديث في خفية بحيث لا يعلمون، فسقطت الدواة يوماً من كمي (٩) فقال لي بعض الصوفية: أستر عورتك! (١٠) وقال الحسين الصفار: "كان بيدي محبرة، فقال لي الشبلي: غيب سوادك عني يكفيني سواد قلبي".

وإن من أكبر المعاندة لله تعالى الصد عن سبيل الله، وأوضح سبيل الله العلم؛ لأنه دليل على الله وبيان لأحكام الله وشرعه وإيضاح لما يحبه ويكرهه، فالمنع منه معاندة لله وشرعه، ولكن الناهين عن ذلك ما تفتنوا لما فعلوا. قال عبد الله بن خفيف: "اشتغلوا بتعلم العلم، ولا يغرنكم كلام الصوفية، فإني كنت أخبئ محبرتي في جيب مرقعتي، والكاغد في حزة سراويلي، وكنت أذهب خفية إلى أهل العلم، فإذا علموا بي خاصموني وقالوا: لا تفلح! ثم احتاجوا إلي بعد ذلك". وقد كان الإمام أحمد بن حنبل يرى المحابر بأيدي طلبة العلم فيقول: "هذه سرج الإسلام". وكان هو يحمل المحبرة على كبر سنه،



فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: إِلَى مَتَى يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ؟ فَقَالَ: "مَعَ الْمَحْبَرَةِ إِلَى الْمَقْبَرَةِ". وَقَالَ فِي قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي مَنْصُورِينَ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَهُمْ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ». (١١) فَقَالَ أَحْمَدُ: "إِنْ لَمْ يَكُونُوا أَصْحَابَ الْحَدِيثِ فَلَا أُدْرِي مَنْ هُمْ". وَقِيلَ لَهُ: إِنْ رَجُلًا قَالَ فِي أَصْحَابِ الْحَدِيثِ: إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سُوءٍ! فَقَالَ أَحْمَدُ: "هُوَ زَنْدِيقٌ". وَقَدْ قَالَ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: "إِذَا رَأَيْتُ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِ الْحَدِيثِ فَكَأَنِّي رَأَيْتُ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ".

واعلم أن هؤلاء القوم لما تركوا العلم وانفردوا بالرياضات على مقتضى آرائهم؛ لم يصبروا عن الكلام في العلوم، فتكلموا بواقعاتهم، (١٢) فوعدت الأغاليط القبيحة منهم، فتارة يتكلمون في تفسير القرآن، وتارة في الحديث، وتارة في الفقه، وغير ذلك. ويسوقون العلوم إلى مقتضى علمهم الذي انفردوا به، والله سبحانه لا يُخْلِ الزمان من أقوام قوَّامٍ بشره، يردون على المتخرِّصين، ويبينون غلط الغالطين". (١٣) وقال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: "فإذا جاءت عصا الشريعة المحمدية ابتلعت ما صنعه الخارجون عنها من السَّخْرِ الْمُفْتَرَى، (وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى)". (١٤)

فلا تركزنَّ أخي إلى العازفين عن العلم، الراغبين عن التعلُّم، فالعلم وقود العمل، ونور الطريق، ومنار المنهاج، وعمل بلا علم وبإل وحسرة، وفي أمر أعمال القلوب ترد على النفوس وساوس لا تنقمع بإذن الله إلا بنور ساطع من علم يجلو دياجير ظلمات الجهالات، وصدق الله تعالى إذ قال في محكم التنزيل: (قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب).



ولعل من حِكَمِ الله تعالى بإفكار كثير من أهل العلم صيانةً لحَرَمِ العلم، حتى لا يكون تعلم علم الشرع سُوقًا لطلاب الدنيا، بل مُتَجَرًّا للراغبين في الله والدار الآخرة، فترى الناس تُعطي وتهدي وتوظف أهل الدنيا دون كثير من أهل العلم، فنتج عن ذلك ألا يتجه للعلم إلا من أحبّ العلم لذاته لأنه مقرب إلى الله تعالى، فأحبّ طلب العلم لله لا للناس، ولو أن الناس أعطوا أهل العلم على علمهم لتصدّر للعلم طلاب الدنيا لا الدين، ولأصبح لفتاوى العلماء أسعار في بورصة البيع والشراء بحسب أهواء المُشترين، لكنّ الحكيم سبحانه صان العلم عن الطامعين، ولعل هذا من حِكَمِ أن الوظائف الدينية كالقضاء والحسبة والتعليم ونحوها لا يُعطى أصحابها أجرًا بل رزقًا ومكافأة تكفيه من بيت المال ما يقوم حاله وعياله. وطلب العلم سلاح ذو حدّين، فإن طلبه لله تعالى رفعه وأدناه من ربّه وأوشك أن يكون مع الصديقين، أما إن طلبه للدنيا فقد خاب وخسر. وفي سنن أبي داود عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من تعلّم علمًا مما يُبتغى به وجه الله، لا يتعلّمه إلا ليصيب به عرضًا من الدنيا؛ لم يرح رائحة الجنة يوم القيامة". (١٥) والله أعلم. وقد ذكر شيخ الإسلام رحمه الله تعالى أخبارًا عن تحبّط الشياطين بخواطر العبّاد كيما يفتنّوهم عن الاستقامة، فمن ذلك قوله رحمه الله تعالى: "كما إن كثيرًا من العبّاد يرى الكعبة تطوف به، ويرى عرشًا عظيمًا وعليه صورة عظيمة، ويرى أشخاصًا تصعد وتنزل فيظنها الملائكة، ويظن أن تلك الصورة هي الله تعالى وتقدس، ويكون ذلك شيطانًا!

وقد جرت هذه القصة لغير واحد من الناس، فمنهم من عصمه الله وعرف أنه الشيطان كالشيخ عبد القادر (١٦) في حكايته المشهورة، حيث قال: كنت مرّة في العبادة،



فرأيت عرشاً عظيماً، وعليه نور، فقال لي: يا عبد القادر؛ أنا ربك، وقد أحللتُ لك ما حرّمت على غيرك. قال: فقلت له: أنت الله الذي لا إله إلا هو! اخسأ يا عدو الله. قال: فتمزّق ذلك النور وصار ظلمة، وقال: يا عبد القادر؛ نجوت مني بفقهاك في دينك وعلمك وبمنازلاتك في أحوالك (١٧) لقد فنتتُ بهذه القصة سبعين رجلاً. فقيل له: كيف علمت أنه الشيطان؟ قال: بقوله لي: أحللت لك ما حرمت على غيرك. وقد علمت أن شريعة محمد صلى الله عليه وسلم لا تُنسخ ولا تُبدّل، ولأنه قال: أنا ربك. ولم يقدر أن يقول: أنا الله الذي لا إله إلا أنا.

ومن هؤلاء من اعتقد أن المرئي هو الله، وصار هو وأصحابه يعتقدون أنهم يرون الله تعالى في اليقظة، ومستندهم ما شاهدوه. وهم صادقون فيما يخبرون به، ولكن لم يعلموا أن ذلك هو الشيطان. وهذا قد وقع كثيراً لطوائف من جهال العبّاد يظن أحدهم أنه يرى الله تعالى بعينه في الدنيا، لأن كثيراً منهم رأى ما ظن أنه الله، وإنما هو شيطان". (١٨)

الثاني: ترك معونة الناس بحجة الرضا بالقضاء:

إنّ من المهمات: معرفة أن الرضا محرّك إيجابي، ودافع لإغاثة الملهوف، وإعانة المحتاج، وإغناء المسكين، ونصر المظلوم، وفكّ العاني، والقيام لله في ذلك كله، وليس معناه الإعراض عنهم، والتويّي عند حاجتهم، والإدبار عن نفعهم بحجة الرضا:

صمّتُ الفقير بكاءً لا يُحسُّ به ... في ضجّة الكون إلا من يُعانيه

يبكي بكاءً مريراً لا دموعَ له ... إذ أنه عن عيون الناس يُخفيه

لأنه مُعدّمٌ لا مال في يده ... سوى التّعفُّف في أسمى معانيه



لا يسأل الناس إلحافاً ولا طمعاً ... وفيه من حسرة الإملاق ما فيه

ذاك الذي يستحق العون فانتبهوا ... ولا تقولوا غناء النفس يكفيه

ففتشوا الآن في الأحياء عنه ولا ... يستصغر الأجر عند الله مُعْطِيهِ

الثالث: تمني البلاء:

من الأخطاء في باب الرضا: تمني البلاء. فيتمنى العبد بلاء كي يرضى به، وهو منه أصلاً في عافية، ولا يدري عاقبته في نفسه، ولا مدى احتمال له، ولا يدري عن توفيق الله له بثبوت عزمه على الرضا، فكم انفسخت في الناس من عزيمة، وبطلت من همّة، واضمحلت من إرادة! وليس من سنة الرسل تمني البلاء وإن التذوا به حين يقع لعظيم إيمانهم وقوة علمهم وعصمة الله تعالى لهم، ونبي صلى الله عليه وسلم كان يسأل ربه العافية، ويوصي أمته بذلك، وكلُّ الهدى في سنته، والسلامة لا يعدلها شيء. قال المباركفوري رحمه الله تعالى: "قوله صلى الله عليه وسلم: "إذا أحب الله قومًا ابتلاهم". (١٩): المقصود الحث على الصبر على البلاء بعد وقوعه، لا الترغيب في طلبه للنهي عنه". (٢٠) ومما يدل على ذلك قوله عليه الصلاة والسلام: "أيها الناس؛ لا تتمنوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا". (٢١) فهناك عليه الصلاة والسلام عن تمني البلاء، وأمرنا أن نسأل الله أن يعافينا منه كذلك، كما أمرنا بالصبر عند وقوعه.

وقال عليه الصلاة والسلام: "تعوذوا بالله من جهد البلاء، ودرك الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء". (٢٢) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعوذ من جهد البلاء، ودرك الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء".



(٢٣) وفي صحيح مسلم (٢٤) عن أنس رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عاد رجلاً من المسلمين قد خَفَتَ (٢٥) فصار مثل الفَرخ (٢٦)، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "هل كنت تدعو بشيء، أو تسأله إِيَّاه؟" قال: نعم كنت أقول: اللهم ما كنت معاقبي به في الآخرة فعجِّله لي في الدنيا. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "سبحان الله، لا تطيقه، أو لا تستطيعه. (٢٧) أفلا قلت: اللهم آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار؟" قال: "فدعا الله له فشفاه". ففي هذه الأحاديث وأمثالها استحباب التعوذ من البلاء، وكرهة تمنّيه. والخطأ ليس في سؤال الله العافية وتمني عدم البلاء، بل الخطأ في سؤال الله إِيَّاه وقد عافاه، وتمنّيه وقد نهاه، (ما يفعل الله بعذابكم). وقد مرّ الكلام عن ذلك.

وتأمل تفسير الحسن البصري لآية الحسنة فقد قال في قوله تعالى: (ربنا آتنا في الدنيا حسنة) هي العلم والعبادة، (وفي الآخرة حسنة) هي الجنة". (٢٨) نسأل الله الكريم من فضله. قال ابن القيم رحمه الله تعالى: "هذا من أحسن التفسير؛ فإنَّ أجَلَ حسنات الدنيا العلم النافع والعمل الصالح". (٢٩) وهذا تفسير للشيء ببعض معناه، أو بالمهم من تأويله، وإلا فحسنات الدنيا الشرعية والدينية المباحة لا تُحصى بفضل الله وكرمه، وبالله التوفيق.

الرابع: اشتراط عدم الإحساس بالألم:

ليس من شرط الرضا فقد الإحساس بالمؤلم، فهذا ممتنع على الطبيعة، بل إن الكمال أن يكون الرضا مع الألم حتى يتجرّد ذلك العمل القلبي الجميل من حظوظ النفس. وقد مضى الكلام على هذا.



الخامس: ترك الأسباب بحجة الرضا بالقضاء:

العبد دائرٌ في عبوديّته بين مأمور بفعله، ومحذور بتركه، فوظيفته فعل المأمور واجتناب المنهي، وهو بهذا يفعل الأسباب المأمور بها، ويترك المنهي عنها.

ومن الأسباب التي لا بد له من فعلها - أي هو مأمور بها - ما يحفظ حياته من الطعام، والشراب، واللباس، والمسكن، وكذلك الأسباب الموجبة لبقاء نوع الإنسان من النكاح، وما يحافظ على عقله، وماله، وغير ذلك من ضرورات الحياة. وإن تعطيل شيء مما أمر الله به، أو الوقوع فيما نهى الله عنه يفسد حياته وآخرته. وفعل الأسباب ليس مانعاً من الرضا، بل ذلك من الرضا بقضاء الله وقدره، ولا يتحقق الرضا بالقضاء إلا بفعل الأسباب المأمور بها، قال تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ، جَزَاءُؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ } . وقال سبحانه: { لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } . وغيرهما من الآيات الكثيرة التي تدل على أن فعل الأسباب من الإيمان والعمل الصالح بكل أنواعه وكيفياته، ومنه الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والحب في الله، والبغض فيه وله، والجهاد في سبيل الله، وابتغاء الرزق الحلال من غير جشع أو طمع، والإنفاق في وجوه الخير، وغير ذلك من العبادات الواجبات والمسنونات والمستحبات. وكما قيل: "من أراد أن يبلغ محل الرضا فليلزم ما جعل الله رضاه فيه". (٣٠)



ومن قال أو ظن أو فهم أن الرضا ترك التدبير أو ترك الأسباب؛ فقد طعن في الشريعة التي جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم، فالله عز وجل يقول: (فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه)، وقال: (كلوا من رزق ربكم واشكروا له لبدة طيبة ورب غفور)، وقال: { فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا }، والغنيمة: اكتساب. وقال تعالى: { فَاصْرُبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاصْرُبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ } فهذا عمل، وقد هاجر صلى الله عليه وسلم مستخفياً، كما ظاهر في الحرب بين درعين وهو أَرْضَى الخلق طرّاً برهم صلى الله عليه وسلم.

فالرضا والتسليم لله، والإيقان بأن قضاء الله ماضٍ نافذ، واتباع سنة الرسول صلى الله عليه وسلم في السعي فيما لا بد منه من الأسباب، من مطعم ومشرب، وتحرز من عدو، وإعداد الأسلحة، واستعمال ما تقتضيه سنة الله تعالى المعتادة؛ هو الحق والصواب، والخير والفلاح للعبد في ذلك، (٣١) وبالله التوفيق.

السادس: ترك الدعاء أو الإلحاح فيه بحجة الرضا:

وهذا باطل، فالدين وعاء الدعاء، والله يجب أن يُدعى، وقد أمر كثيراً بالدعاء. والدعاء الملحّ بصلاح أمور الدين واضح المشروع مؤكّد الاستحباب، أما في أمور الدنيا فمشروع كذلك بشرط سكون القلب بما قسم الله له. وربنا تعالى يقول: { ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ }، وقال سبحانه: { وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ }، وقال: { وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا }، وقال عز وجل: { ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً }، والآيات في هذا كثيرة.



وفي صحيح مسلم (٣٢) بسنده عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: "لما كان يوم بدر نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المشركين وهم ألف، وأصحابه ثلاثمئة وتسعة عشر رجلاً، فاستقبل نبي الله صلى الله عليه وسلم القبلة، ثم مدّ يديه، فجعل يهتف بربه: "اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم آت ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تُعبد في الأرض" فما زال يهتف بربه ماداً يديه، مستقبلاً القبلة، حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه، ثم التزمه من ورائه وقال: يا نبي الله، كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك. فأنزل الله عز وجل: (إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين) فأمدّه الله بالملائكة.

وقال صلى الله عليه وسلم: "من لا يسأل الله يغضب عليه". (٣٣) فإذا كان سؤال الله يرضيه؛ لم يكن الإلحاح فيه منافياً لرضاه.

أمّا سؤال العباد، وإهراق ماء حياة الوجه تحت لعاعتهم، فذلك عيب في صدق التدبّر، فإنه يُطفئ الرضا، ويذهب بهجته، ويبدّل حلاوته مرارة، ويكدر صفوه شوباً دنيئاً.

فإن إِرَاقَةَ مَاءِ الْحَيَاةِ ... دُونَ إِرَاقَةِ مَاءِ الْمُحَيَّا

ومن قال: إن الدعاء بكشف البلاء يقدر في الرضا والتسليم. فالجواب عليه: إن الطلب من الله ليس ممنوعاً، بل هو عبادة من أجل العبادات التي أمر الله بها، وكرّر أمره به وأبدأ فيه وأعاد، لأهميته بل لضرورة العبد له. كما قال سبحانه وتعالى: { وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ



يَرشُدُونَ}، وقال سبحانه وتعالى: { وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زِينٌ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } (٣٤) ومن مآثور الإمام الشافعي رحمه الله:

أتهزأ بالدعاء وتزدرية ... وما تدري بما صنع الدعاء

سهام الليل لا تخطي ولكن ... لها أمدٌ وللأمدِ انقضاء

واعلم أن القلوبَ ضعيفةً، والشُّبهَ خطَّافةً، وأن الأفكارَ والتصوِّراتَ والعلومَ لها واردات عقلية إن لم يكُ صاحبها مُحصِّناً بآثارةٍ من علم الوحي، مُعتصماً بآثر الرسول المعصوم صلى الله عليه وسلم، مُقتنياً آثارَ السلف الصالح في معتقده وسلوكه وهديه وسَمْتِه وقصده وقوله وعمله؛ فهو على شفا جُرفِ هار، والمحفوظ الموفق من حفظه الله ووفقه. فادع الله تعالى أن يُنجيك من شبكة الشبهات، وادعه دعاء الغرق لعله ينظر إليك نظر رحمة وإجابة وقبول، فينجيك من شرِّ نفسك وشرِّ الشيطان وشركه. وتأمل وصية ابن المبارك رحمه الله تعالى ومررها على عقلك، واضعاً يدك على قلبك، لهجاً بدعاء ربك أن يعصمك من سوء الفتن. قال رحمه الله تعالى: "إن البصراء لا يأمنون من أربع: ذنبٍ قد مضى لا يُدرى ما يصنع فيه الرب عز وجل، وعمرٍ قد بقي لا يُدرى ما فيه من الهلكة، وفضلٍ قد أُعطي العبد لعله مكرٌ واستدراج، وضلالةٍ قد زينت يراها هدى، وزينِ قلب ساعةً، فقد يُسلب المرء دينه ولا يشعر!" (٣٥)

وسئل شيخ الإسلام رحمه الله عما ذكر القشيري في باب الرضا عن الشيخ أبي سليمان أنه قال: "الرضا ألا يسأل الله الجنة، ولا يستعيد من النار"، فهل هذا الكلام صحيح؟



فأجاب بجواب تأصيلي من جهة التثبت أولاً من نسبة هذا الكلام لمن نُسب إليه، ثم فند هذا الباطل بدلائل القرآن والسنة والبراهين العقلية، وسأخص مهتماته مستعيناً بالله تعالى، قال رحمه الله تعالى: "الحمد لله رب العالمين، الكلام على هذا القول من وجهين: أحدهما: من جهة ثبوته عن الشيخ، والثاني: من جهة صحته في نفسه وفساده.

أما المقام الأول: فينبغي أن يُعلم أن الأستاذ أبا القاسم (٣٦) لم يذكر هذا عن الشيخ أبي سليمان (٣٧) بإسناد، وإنما ذكره مرسلًا عنه، وما يذكره أبو القاسم في رسالته فيه الصحيح والضعيف والموضوع كحال غيره.

وطلب الجنة والاستعاذة من النار طريق أنبياء الله ورسله وجميع أوليائه السابقين المقربين وأصحاب اليمين، كما في السنن أن النبي صلى الله عليه وسلم سأل بعض أصحابه: "كيف تقول في دعائك؟" قال: أقول: اللهم إني أسألك الجنة، وأعوذ بك من النار. أما إني لا أحسن دندنتك ولا دندنة معاذ! فقال: "حولها ندندن". (٣٨) فقد أخبر أنه هو صلى الله عليه وسلم ومعاذ وهو أفضل الأئمة الراتبين بالمدينة في حياة النبي صلى الله عليه وسلم إنما يدندنون حول الجنة، أفيكون قول أحد فوق قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعاذ ومن يصلي خلفها من المهاجرين والأنصار؟!!

وقد ثبت في الصحيح (٣٩) عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلّوا عليّ، فإنه من صلى عليّ مرة صلى الله عليه عشرًا. ثم سلوا الله لي الوسيلة، فإنها درجة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا ذلك العبد. فمن سأل الله لي الوسيلة؛ حلّت عليه شفاعتي يوم القيامة". فقد أخبر أن الوسيلة التي لا تصلح إلا لعبد واحد من عباد الله، ورجا أن يكون هو ذلك العبد، وهي



درجة في الجنة. فهل بقي بعد الوسيلة شيء أعلى منها يكون خارجًا عن الجنة يصلح للمخلوقين؟!!

وفي الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إن لله تعالى ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قومًا يذكرون الله عز وجل، تنادوا: هلموا إلى حاجتكم، فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا. فيسألهم ربهم - وهو أعلم - ما يقول عبادي؟ قال: يقولون: يسبحونك، ويكبرونك، ويمجدونك، ويمجّدونك. فيقول: هل رأوني؟ فيقولون: لا والله ما رأوك. فيقول: كيف لو رأوني؟! قال: يقولون: لو رأوك كانوا أشدّ لك عبادة، وأشدّ لك تمجيدًا، وأكثر لك تسييحًا.

فيقول: فماذا يسألون؟ قال: يقولون: يسألونك الجنة. قال: يقول: وهل رأوها؟ قال: يقولون: لا والله يا رب ما رأوها. قال: يقول: فكيف لو رأوها؟ قال: يقولون: لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصًا، وأشد لها طلبًا، وأعظم فيها رغبة.

قال: فمم يتعوذون؟ قال: يقولون: يتعوذون من النار. قال: فيقول: وهل رأوها؟ قال: يقولون: لا والله ما رأوها. فيقول: كيف لو رأوها؟! قال: يقولون: لو رأوها كانوا أشد منها فرارًا، وأشد لها مخافة.

قال: فيقول: فأشهدكم أني قد غفرت لهم. قال: يقول ملك من الملائكة: فيهم فلان ليس منهم، إنما جاء لحاجة. قال: هم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم". (٤٠) فهو لاء الذين هم من أفضل أولياء الله كان مطلوبهم الجنة، ومهر بهم من النار.



والنبي صلى الله عليه وسلم لما بايع الأنصار ليلة العقبة، وكان الذين اتبعوه من أفضل السابقين الأولين الذين هم أفضل من هؤلاء المشايخ كلهم. قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: اشترط لربك ولنفسك ولأصحابك. قال: "أشترط لنفسي أن تنصروني مما تنصرون منه أنفسكم وأهليكم، وأشترط لأصحابي أن تواسوهم". قالوا: فإذا فعلنا ذلك فما لنا؟ قال: "لكم الجنة". قالوا: مُدِّ يدك، فوالله لا نُثْقِلُك ولا نَسْتَقِيلُك. (٤١)

فهؤلاء الذين هم من أعظم خلق الله محبة لله ورسوله، وبذلاً لنفوسهم وأموالهم في رضا الله ورسوله على وجه لا يلحقهم فيه أحد من هؤلاء المتأخرين، وقد كان غاية ما طلبوه بذلك الجنة. فلو كان هناك مطلوب أعلى من ذلك لطلبوه، ولكن علموا أن في الجنة كل محبوب ومطلوب، بل وفي الحقيقة ما لا تشعر به النفوس لتطلبه، فإن الطلب والحب والإرادة فرع عن الشعور والإحساس والتصوّر، فما لا يتصوّر الإنسان ولا يحسّه ولا يشعر به يمتنع أن يطلبه ويحبه ويريده. فالجنة فيها هذا وهذا، (٤٢) كما قال تعالى: { لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد }، وقال: { وفيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين }. ففيها ما يشتهون وفيها مزيد على ذلك، وهو ما لم يبلغه علمهم ليشتهوه، كما قال صلى الله عليه وسلم: "ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر". (٤٣) وهذا باب واسع.

فإذا عرفت هذه المقدمة؛ فقول القائل: الرضا أن لا تسأل الله الجنة ولا تستعيذه من النار، إن أراد بذلك أن لا تسأل الله ما هو داخل في مسمى الجنة الشرعية، فلا تسأله النظر إليه ولا غير ذلك مما هو مطلوب جميع الأنبياء والأولياء، وأنت لا تستعيذ به من احتجابه عنك، ولا من تعذيبك في النار؛ فهذا الكلام مع كونه مخالفاً لجميع الأنبياء والمرسلين



وسائر المؤمنين، فهو متناقض في نفسه، فاسد في صريح العقول، وذلك أن الرضا الذي لا يُسأل؛ إنما لا يسأله لرضاه عن الله، ورضاه عنه إنما هو بعد معرفته به ومحبه له. وإذا لم يبق معه رضا عن الله ولا محبة لله؛ فكأنه قال: يرضى ألا يرضى، وهذا جمع بين النقيضين! ولا ريب أنه كلام من لم يتصور ما يقول ولا عقله.

يوضح ذلك أن الراضي إنما يحمله على احتمال المكاره والآلام ما يجده من لذة الرضا وحلاوته، فإذا فقد تلك الحلاوة واللذة امتنع أن يحتمل الماء ومرارة، فكيف يُتصور أن يكون راضياً وليس معه من حلاوة الرضا ما يحمل به مرارة المكاره (٤٤). وإنما هذا من جنس كلام السكران، والفاني الذي وجد في نفسه حلاوة الرضا فظن أن هذا يبقى معه على أي حال كان، وهذا غلط عظيم منه.

وإن أراد بذلك أن لا يسأل التمتع بالمخلوق، بل يسأل ما هو أعلى من ذلك؛ فقد غلط من وجهين: من جهة أنه لم يجعل ذلك المطلوب من الجنة، وهو أعلى نعيم الجنة. ومن جهة أنه أيضاً أثبت أنه طالبٌ مع كونه راضياً. فإذا كان الرضا لا ينافي هذا الطلب فلا ينافي طلباً آخر إذا كان محتاجاً إلى مطلوبه. ومعلوم أن تمتعه بالنظر لا يتم إلا بسلامته من النار، وبتنعمه من الجنة بما هو دون النظر. وما لا يتم المطلوب إلا به فهو مطلوب، فيكون طلبه للنظر طلباً للوازمه التي منها النجاة من النار، فيكون رضاه لا ينافي طلب حصول المنفعة ودفع المضرة عنه، ولا طلب حصول الجنة ودفع النار ولا غيرهما مما هو من لوازم النظر. فتبين تناقض قوله.



وأيضًا فإذا لم يسأل الله الجنة ولم يستعذ به من النار؛ فيما أن يطلب من الله ما هو دون ذلك مما يحتاج إليه من طلب منفعة ودفع مضرة، وإما ألا يطلبه. فإن طلب ما هو دون ذلك واستعاذ مما هو دون ذلك؛ فطلبه للجنة أولى، واستعاذته من النار أولى.

وإن كان الرضا ألا يطلب شيئًا قط ولو كان مضطرًا إليه، ولا يستعذ من شيء قط وإن كان مضرًا؛ فلا يخلو: إما أن يكون ملتفتًا بقلبه إلى الله في أن يفعل به ذلك، وإما أن يكون معرضًا عن ذلك. فإن التفت بقلبه إلى الله فهو طالب مستعذ بحاله، ولا فرق بين الطلب بالحال والقال، وهو بهما أكمل وأتم، فلا يعدل عنه. وإن كان معرضًا عن جميع ذلك؛ فمن المعلوم أنه لا يحيا ويبقى إلا بما يقيم حياته ويدفع مضارّه بذلك. والذي به يحيا من المنافع ودفع المضار إما أن يحبه ويطلبه ويريده من أحد، أو لا يحبه ولا يطلبه ولا يريد، فإن أحبه وطلبه وأراده من غير الله كان مشرکًا مذمومًا، فضلًا عن أن يكون محمودًا، وإن قال: لا أحبه ولا أطلبه ولا أريده لا من الله ولا من خلقه؛ قيل: هذا ممتنع في الحي، فإن الحي ممتنع عليه ألا يجب ما به يبقى، وهذا أمر معلوم بالحس. ومن كان بهذه المثابة امتنع أن يوصف بالرضا، فإن الراضي موصوف بحب وإرادة خاصة، إذ الرضا مستلزم لذلك، فكيف يسلب عنه ذلك كله. فهذا وأمثاله مما يبين فساد هذا الكلام.

وأما في سبيل الله وطريقه ودينه فمن وجوه:

أحدها: أن يقال: الراضي لا بد أن يفعل ما يرضاه الله، وإلا فكيف يكون راضيًا عن الله من لا يفعل ما يرضاه الله؟! وكيف يسوغ رضا ما يكرهه الله ويسخطه ويذمه وينهى عنه؟! وبيان هذا: أن الرضا المحمود إما أن يكون الله يحبه ويرضاه، وإما ألا يحبه ويرضاه، فإن لم يكن يحبه ويرضاه، لم يكن هذا الرضا مأمورًا به لا أمر إيجاب ولا أمر استحباب، فإن



من الرضا ما هو كفر؛ كرضا الكفار بالشرك، وقتل الأنبياء وتكذيبهم، ورضاهم بما يسخطه الله ويكرهه. قال تعالى: { ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم }، فمن اتبع ما أسخط الله برضاه وعمله فقد أسخط الله. وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "إن الخطيئة إذا عمّلت في الأرض كان من غاب عنها ورضيها كمن حضرها، ومن شهدها وسخطها كان كمن غاب عنها وأنكرها". (٤٥) وقال صلى الله عليه وسلم: "سيكون بعدي أمراء تعرفون وتنكرون، فمن أنكر فقد برئ، ومن كره فقد سلم، ولكن من رضي وتابع". (٤٦) وقال تعالى: { يحلفون لكم لترضوا عنهم فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين }. فرضانا عن القوم الفاسقين ليس مما يحبه الله ويرضاه، وهو لا يرضى عنهم. وقال تعالى: { أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل }، فهذا رضا قد ذمه الله. وقال تعالى: { إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها }، فهذا أيضًا رضا مذموم، وسوى هذا وهذا كثير.

فمن رضي بكفره وكفر غيره وفسقه وفسق غيره ومعاصيه ومعاصي غيره؛ فليس هو متبعا لرضا الله، ولا هو مؤمن بالله، بل هو مُسخط لربه، وربّه غضبان عليه، لاعن له، ذام له، متوعد له بالعقاب.

وطريق الله التي يأمر بها المشايخ المهتدون إنما هي الأمر بطاعة الله، والنهي عن معصيته. فمن أمر، أو استحب، أو مدح الرضا الذي يكرهه الله ويذمه، وينهى عنه، ويعاقب أصحابه؛ فهو عدو لله، لا ولي لله، وهو يصد عن سبيل الله، وطريقه ليس بسالك لطريقه وسبيله. وذلك أن الرضا نوعان:



أحدهما: الرضا بفعل ما أمر به وترك ما نهى عنه، ويتناول ما أباحه الله من غير تعدّد إلى المحظور كما قال: { والله ورسوله أحق أن يرضوه }، وقال تعالى: { ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون }، وهذا الرضا واجب. ولهذا ذم من تركه بقوله: { ومنهم من يلمزك في الصدقات فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون }.

والنوع الثاني: الرضا بالمصائب، كالفقر والمرض والذل؛ فهذا الرضا مستحب في أحد قولي العلماء، وليس بواجب، وقد قيل: إنه واجب، والصحيح: أن الواجب هو الصبر، كما قال الحسن: "الرضا غريزة، ولكن الصبر مُعَوَّلُ المؤمن".

وأما الرضا بالكفر والفسوق والعصيان؛ فالذي عليه أئمة الدين أنه لا يرضى بذلك، فإن الله لا يرضاه كما قال: { ولا يرضى لعباده الكفر }، وقال: { والله لا يحب الفساد }، وقال تعالى: { فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين }. فإذا كان الله سبحانه لا يرضى لهم ما عملوه، بل يسخطه ذلك، وهو يسخط عليهم ويغضب عليهم؛ فكيف يُشرع للمؤمن أن يرضى ذلك، وألا يسخط ويغضب لما يسخط الله ويغضبه.

والمقصود هنا أن ما ذكره القشيري عن النصر آبادي من أحسن الكلام حيث قال: "من أراد أن يبلغ محل الرضا؛ فليلزم ما جعل الله رضاه فيه"، وكذلك قول الشيخ أبي سليمان: "إذا سلا العبد عن الشهوات فهو راض". وذلك أن العبد إنما يمنعه من الرضا والقناعة طلب نفسه لفضول شهواتها، فإذا لم يحصل سخط، فإذا سلا عن شهوات نفسه رضي بما قسم الله له من الرزق. وكذلك ما ذكره عن الفضيل بن عياض أنه قال لبشر



الحافي: "الرضا أفضل من الزهد في الدنيا، لأن الراضي لا يتمنى فوق منزلته"، كلام حسن، لكن أشك في سماع بشر الحافي من الفضيل. وكذلك ما ذكره معلقاً قال: "قال الشبلي بين يدي الجنيد: لا حول ولا قوة إلا بالله. فقال الجنيد: قولك ذا ضيق الصدر، وضيق الصدر لترك الرضا بالقضاء". فإن هذا من أحسن الكلام. وكان الجنيد رضي الله عنه سيّد الطائفة ومن أحسنهم تعليماً وتأديباً وتقويماً. وذلك أن هذه الكلمة كلمة استعانة لا كلمة استرجاع. وكثير من الناس يقولها عند المصائب بمنزلة الاسترجاع، ويقولها جزعاً لا صبراً. فالجنيد أنكر على الشبلي في سبب قوله لها إذ كانت حالاً ينافي الرضا، ولو قالها على الوجه المشروع لم ينكر عليه. (٤٧)

ومثل ما ذكر القشيري أنه قيل: كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري: "أما بعد؛ فإن الخير كله في الرضا، فإن استطعت أن ترضى وإلا فاصبر". فهذا الكلام كلام حسن وإن لم يعلم إسناده. وإذا تبين أن فيما ذكره مسنداً ومرسلاً ومعلقاً ما هو صحيح وغيره؛ فهذه الكلمة لم يذكرها عن أبي سليمان إلا مرسله. وبمثل ذلك لا تثبت عن أبي سليمان باتفاق الناس، فإنه وإن قال بعض الناس: إن المرسل حجة؛ فهذا لم يعلم أن المرسل هو مثل الضعيف وغير الضعيف، فأما إذا عرف ذلك فلا يبقى حجة باتفاق العلماء، كمن علم أنه تارة يحفظ الإسناد وتارة يغلط فيه. والكتب المسندة في أخبار هؤلاء المشايخ وكلامهم مثل كتاب حلية الأولياء لأبي نعيم، وطبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن، وصفة الصفوة لابن الجوزي، وأمثال ذلك لم يذكروا فيها هذه الكلمة عن الشيخ أبي سليمان. ألا ترى الذي رواه عنه مسنداً حيث قال: "قال لأحمد بن أبي الحواري: يا أحمد؛ لقد أوتيتُ من الرضا نصيباً لو ألقاني في النار لكنت بذلك راضياً". فهذا الكلام مأثور عن



أبي سليمان بالإسناد، ولهذا أسنده عنه القشيري من طريق شيخه أبي عبد الرحمن، بخلاف تلك الكلمة، فإنها لم تُسند عنه، فلا أصل لها عن الشيخ أبي سليمان.

ثم إن القشيري قرن هذه الكلمة الثانية عن أبي سليمان بكلمة أحسن منها، فإنه قبل أن يرويها قال: "وسئل أبو عثمان الحيري النيسابوري عن قول النبي صلى الله عليه وسلم: "أسألك الرضا بعد القضاء" (٤٨)، فقال: "لأن الرضا بعد القضاء هو الرضا". فهذا الذي قاله الشيخ أبو عثمان كلام حسن سديد. ثم أسند بعد هذا عن الشيخ أبي سليمان أنه قال: "أرجو أن أكون قد عرفت طرفاً من الرضا؛ لو أنه أدخلني النار لكنت بذلك راضياً!" فتبين بذلك أن ما قاله أبو سليمان ليس هو الرضا، وإنما هو عزم على الرضا، وإنما الرضا ما يكون بعد القضاء. وإن كان هذا عزمًا فالعزم قد يدوم، وقد يفسخ. وما أكثر انفساخ العزائم، خصوصًا عزائم الصوفية، (٤٩) ولهذا قيل لبعضهم: بماذا عرفت ربك؟ قال: "بفسخ العزائم ونقض الهمم". وقد قال تعالى لمن هو أفضل من هؤلاء المشايخ: { ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون }، وقال تعالى: { يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص }، وفي الترمذي: أن بعض الصحابة قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: لو علمنا أيّ العمل أحبّ إلى الله لعملناه؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية. (٥٠) وقد قال تعالى: { ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب } الآية. فهؤلاء الذين كانوا قد عزموا على الجهاد وأحبّوه؛ فلما ابتلوا به كرهوه، وفروا منه. وأين ألم الجهاد



من ألم النار وعذاب الله الذي لا طاقة لأحد به؟! ومثل هذا ما يذكرونه عن سمنون المحب، أنه كان يقول:

وليس لي في سواك حظٌ ... فكيفما شئتَ فاخترني

فأخذه الحسر من ساعته، أي حصر بولهُ، (٥١) فكان يدور على المكاتب (٥٢)، ويفرق الجوز على الصبيان ويقول: ادعوا لعممكم الكذاب. (٥٣) وحكى أبو نعيم الأصبهاني أن سمنون قال: يا رب، قد رضيتُ بكل ما تقضيه عليّ. فاحتبس بوله أربعة عشر يوماً. فكان يتلوى كما تتلوى الحية، يتلوى يميناً وشمالاً، فلما أطلق بوله قال: رب قد تبتُ إليك.

قال أبو نعيم: فهذا الرضا الذي ادعى سمنون ظهر غلظه فيه بأدنى بلوى، مع أن سمنوناً هذا كان يضرب به المثل، وله في المحبة مقام مشهور. وقد ذكر القشيري في باب الرضا عن رويم المقرئ رقيق سمنون قال: قال رويم: إن الراضي لو جعلت جهنم عن يمينه ما سأل الله أن يحولها عن يساره! فهذا يشبه قول سمنون: فكيف ما شئتَ فامتحنني. وإذا لم يطق الصبر على عسر البول أفيطيق أن تكون النار عن يمينه!؟

والفضيل بن عياض كان أعلى طبقة من هؤلاء، وابتلي بعسر البول فغلبه الألم حتى قال: بحببي لك إلا فرجتَ عني؛ ففرج عنه. ورويم وإن كان من رفقاء الجنيد فليس هو عندهم من هذه الطبقة، بل الصوفية يقولون إنه رجع إلى الدنيا، وترك التصوف، حتى روي عن جعفر الخلدي صاحب الجنيد أنه قال: من أراد أن يتكتم سرّاً فليفعل كما فعل رويم؛ كتم حب الدنيا أربعين سنة، (٥٤) فقيل: وكيف يتصور ذلك؟ قال: وليّ إسماعيل



بن إسحاق القاضي قضاء بغداد، وكان بينهما مودة أكيدة فجذبه إليه، وجعله وكيلاً على بابه، فترك لبس التصوف، ولبس الخنز والقصب والديقي، وأكّل الطيبات (٥٥) وبني الدور، وإذا هو كان يكتم حبّ الدنيا ما لم يجدها، فلما وجدها ظهر ما كان يكتم من حبّها. هذا مع أنه رحمه الله كان له من العبادات ما هو معروف، وكان على مذهب داود.

وهذه الكلمات التي تصدر عن صاحب حال (٥٦) لم يفكر في لوازم أقواله وعواقبها، لا تُجعلُ طريقة ولا تُتخذ سبيلاً، ولكن قد يستدل بها على ما لصاحبها من الرضا والمحبة ونحو ذلك، وما معه من التقصير في معرفة حقوق الطريق، (٥٧) وما يقدر عليه من التقوى والصبر، والرسول صلوات الله عليهم أعلم بطريق سبيل الله وأهدى وأنصح، فمن خرج عن سنتهم وسبيلهم كان منقوصاً مخطئاً محروماً، وإن لم يكن عاصياً (٥٨) أو فاسقاً أو كافراً.

ويشبه هذا الأعرابي الذي دخل عليه النبي صلى الله عليه وسلم وهو مريض كالفرخ، فقال: "هل كنت تدعو الله بشيء؟" (٥٩) قال: كنت أقول: اللهم ما كنت معاقبي به في الآخرة فاجعله في الدنيا. فقال: "سبحان الله، لا تستطيعه ولا تطيقه، هلا قلت: "ربنا آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار". (٦٠) فهذا أيضاً حمّله خوفه من عذاب النار، ومحبهه لسلامة عاقبته، على أن يطلب تعجيل ذلك في الدنيا، وكان مخطئاً في ذلك غالباً. والخطأ والغلط مع حسن القصد وسلامته، وصلاح الرجل وفضله ودينه وزهده وورعه وكراماته كثير جداً، فليس من شرط وليّ الله أن يكون معصوماً من الخطأ والغلط، بل ولا من الذنوب، وأفضل أولياء الله بعد الرسول أبو بكر الصديق رضي الله



عنه، وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال له لما عَبَرَ الرَّوْيَا: "أصبت بعضًا وأخطأت بعضًا". (٦١)

. ويشبهه - والله أعلم - أن أبا سليمان لما قال هذه الكلمة: "لو ألقاني في النار لكنت بذلك راضيًا"، أن يكون بعض الناس حكاه بما فهمه من المعنى أنه قال: الرضا أن لا تسأل الله الجنة ولا تستعيذه من النار.

وتلك الكلمة التي قالها أبو سليمان - مع أنها لا تدل على رضاه بذلك - ولكن تدل على عزمه بالرضا بذلك، فنحن نعلم أن هذا العزم لا يستمر، بل ينفسخ، وأن هذه الكلمة كان تركها أحسن من قولها (٦٢) وأنها مُستدرَكة، (٦٣) كما استدركت دعوى سمنون ورويم، وغير ذلك. فإن بين هذه الكلمة وتلك فرقًا عظيمًا؛ فإن تلك الكلمة مضمونها: أن من سأل الجنة واستعاذ من النار لا يكون راضيًا! وفرقٌ بين من يقول: أنا إذ فعل كذا كنت راضيًا، وبين من يقول: لا يكون راضيًا إلا من لا يطلب خيرًا، ولا يهرب من شرّ.

وبهذا وغيره يعلم أن الشيخ أبا سليمان كان أجَلّ من أن يقول مثل هذا الكلام، فإن الشيخ أبا سليمان من أجلاء المشايخ وساداتهم، ومن أتبعهم للشريعة، حتى إنه قال: "إنه لتمرُّ بقلبي النكتة من نكت القوم فلا أقبلها إلا بشاهدين الكتاب والسنة". (٦٤) فمن لا يقبل نكتة قلبه إلا بشاهدين يقول مثل هذا الكلام؟! وقال الشيخ أبو سليمان أيضًا: ليس لمن ألهم شيئًا من الخير أن يفعله حتى يسمع فيه بأثر، فإذا سمع فيه بأثر كان نورًا على نور، بل صاحبه أحمد بن أبي الحواري كان من أتبع المشايخ للسنة، فكيف أبو سليمان!



وتمام تركية أبي سليمان من هذا الكلام تظهر بالكلام في المقام الثاني؛ وهو قول القائل كائناً من كان: "الرضا أن لا تسأل الله الجنة ولا تستعيذه من النار". ونقدم قبل ذلك مقدمة نبين بها أصل ما وقع في مثل هذه الكلمات من الاشتباه والاضطراب. وذلك أن قوماً كثيراً من الناس من المتفكِّهة، والمتصوِّفة، والمتكلِّمة وغيرهم، ظنوا أن الجنة هي التنعم بالمخلوق، من أكل، وشرب، ونكاح، ولباس، وسماع أصوات طيبة، وشمّ روائح طيبة، ولم يُدخلوا في مسمى الجنة نعيمًا غير ذلك.

ومذهب سلف الأمة وأئمتها ومشايخ الطريق إثبات تنعم المؤمنين برؤية ربهم، كما في الحديث الذي في النسائي (٦٥) وغيره، عن النبي صلى الله عليه وسلم: "اللهم بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق، أحيني إذا كانت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي، اللهم إني أسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضا، وأسألك القصد في الفقر والغنى، وأسألك نعيماً لا ينفد، وقرة عين لا تنقطع، وأسألك الرضا بعد القضاء، وبرّد العيش بعد الموت، وأسألك لذة النظر إلى وجهك، وأسألك الشوق إلى لقاءك، من غير ضراء مضرة، ولا فتنة مضلة، اللهم زيننا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين". وفي صحيح مسلم (٦٦) وغيره، عن صهيب، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إذا دخل أهل الجنة الجنة؛ نادى مناد: يا أهل الجنة؛ إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه. فيقولون: ما هو؟ ألم يُبَيِّضْ وجوهنا، ويثقل موازيننا، ويدخلنا الجنة، ويجرنا من النار، قال: فيكشف الحجاب، فينظرون إليه. فما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه". وكلما كان الشيء أحب، كانت اللذة بنيله أعظم. وهذا متفق عليه بين السلف والأئمة ومشايخ الطريق. كما روي عن الحسن البصري أنه قال: "لو علم العابدون



بأنهم لا يرون ربهم في الآخرة؛ لذابت نفوسهم في الدنيا شوقاً إليه". وكلامهم في ذلك كثير.

وطوائف من المتصوفة، والمتفكرة، والمتبته وافقوا هؤلاء على أن المحبة ليست إلا هذه الأمور التي يتنعم فيها المخلوق، ولكن وافقوا السلف والأئمة على إثبات رؤية الله، والتنعم بالنظر إليه، وجعلوا يطلبون هذا النعيم وتسمو إليه همتهم، ويخافون فوته، وصار أحدهم يقول: "ما عبدتك شوقاً إلى جنتك، أو خوفاً من نارك، ولكن لأنظر إليك، وإجلالاً لك". (٦٧) وأمثال هذه الكلمات، ومقصودهم بذلك هو أعلى من الأكل والشرب، والتمتع بالمخلوق، لكن غلطوا في إخراج ذلك من الجنة.

وقد يغلطون أيضاً في ظنهم أنهم يعبدون الله بلا حظ ولا إرادة، وأن كل ما يطلب منه فهو حظ النفس، وتوهموا أن البشر يعمل بلا إرادة ولا مطلوب ولا محبوب، وهو سوء معرفة بحقيقة الإيمان والدين والآخرة. وسبب ذلك أن همّة أحدهم المتعلقة بمطلوبه ومحبوه ومعبوده تنفيه عن نفسه، حتى لا يشعر بنفسه وإرادتها، فيظن أنه يفعل لغير مراده، والذي طلب وعلق به همته غاية مراده ومطلوبه ومحبوه. وهذا كحال كثير من الصالحين والصادقين، وأرباب الأحوال والمقامات، يكون لأحدهم وجدٌ صحيح، وذوق سليم، لكن ليس له عبارة تبين كلامه، فيقع في كلامه غلط وسوء أدب، مع صحة مقصوده، وإن كان من الناس من يقع منه في مراده واعتقاده.

فهؤلاء الذين قالوا مثل هذا الكلام إذا عنوا به طلب رؤية الله تعالى أصابوا في ذلك، لكن أخطئوا من جهة أنهم جعلوا ذلك خارجاً عن الجنة، فأسقطوا حرمة اسم الجنة، ولزم من ذلك أمور منكرة، نظير ما ذكره عن الشبلي رحمه الله أنه سمع قارئاً يقرأ: {منكم من



يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة}، فصرخ، وقال: أين يريد الله؟ فيُحمد منه كونه أراد الله، ولكن غلط في ظنه أن الذين أرادوا الآخرة ما أرادوا الله، وهذه الآية في أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم الذين كانوا معه بأحد، وهم أفضل الخلق، فإن لم يريدوا الله، أفيريد الله من هو دونهم كالشبيلي وأمثاله؟! ومثل ذلك ما أعرفه عن بعض المشايخ أنه سئل مرة عن قوله تعالى: {إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون}. (٦٨) قال: فإذا كان الأَنْفُس والأموال في ثمن الجنة، فالرؤية بم تنال؟ فأجابه مجيب بما يشبه هذا السؤال.

والواجب أن يُعلم أن كل ما أعدّه الله للأولياء من نعيم بالنظر إليه، وما سوى ذلك هو في الجنة، كما أن كل ما وعد به أعداءه هو في النار. وقد قال تعالى: {فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون}. وفي الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم: "يقول الله: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، بله (٦٩) ما أطلعتهم عليه". (٧٠) وإذا علم أن جميع ذلك داخل في الجنة، فالناس في الجنة على درجات متفاوتة، كما قال: (انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً). وكل مطلوب للعبد بعبادة أو دعاء أو غير ذلك من مطالب الآخرة هو في الجنة. وطلب الجنة، والاستعاذة من النار، طريق أنبياء الله ورسله، وجميع أوليائه السابقين المقربين، وأصحاب اليمين". (٧١)

وبعد؛ فعلى المؤمن ألا يستحسر عن الدعاء، فهو من أعظم أسباب التوفيق في الدنيا والآخرة، وألا يزيغ بظن عدم جدواه، أو أنه معارضٌ لرضا القلب، بل عليه أن يسأل ربه ما شاء من مطالب الدنيا والآخرة، وأن يُعلي همته في مطالبه، وألا ينكل عن سؤال ربه ما



يؤرق راحته ويكدر صفوه، فإن الروح إذا كَلَّت عميت أو كادت، ورب أمر صغير تُبنى عليه كبريات الأمور، والله المستعان. فيا نازفًا همّه بدموعه، ومُرسلاً شجنه بأنيته، وبأثا شكايته بزفراته؛ أبشر ببشرى الله لك: (فإني قريب).

السابع: الظن بأن التنعم بالمباحات ينقص الرضا.

وهذا ظن باطل، فإن الله تعالى يقول: (قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق)، والنبى صلى الله عليه وسلم قد حبب الله إليه النساء والطيب، وكان لا يردّ موجودًا ولا يتكلّف مفقودًا، وربّ مباح أعان على طاعة ورَدّ عن شهوة حرام. قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: "ما زال جماعة من المتزهدين يُزرون على كثير من العلماء إذا انبسطوا في مباحات. والذي يحملهم على هذا الجهل. فلو كان عندهم فضل علم ما عابوهم. وهذا لأن الطباع لا تتساوى، فرب شخص يصلح على خشونة العيش، وآخر لا يصلح على ذلك، ولا يجوز لأحد أن يحمل غيره على ما يطيقه هو.

غير أن لنا ضابطًا هو الشرع، فيه الرخصة وفيه العزيمة. فلا ينبغي أن يُلام من حصر نفسه في ذلك الضابط. ورب رخصة كانت أفضل من عزائم لتأثير نفعها.

ولو علم المتزهدون أن العلم يوجب المعرفة بالله تعالى، فتنتبت القلوب من خوفه، وتنحلّ الأجسام للحذر منه؛ فوجب التلطفُ حفظًا لقوة الرحلة. ولأن آلة العلم والحفظ القلب والفكر، فإذا رُفِّهت الآلة جاد العمل، وهذا أمر لا يُعلم إلا بالعلم.



فلجهل المتزهدين بالعلم أنكروا ما لم يعلموا، وظنوا أن المراد إتعاب الأبدان، وإنضاء الرواحل، وما علموا أن الخوف المضني يحتاج إلى راحةٍ مقاومة، كما قال القائل: "رَوْحُوا القلوب تعي الذكر". (٧٢)

ولكن لا يعني هذا أن تكون الدنيا هي المقصد، فقد خاب من أولاد آدم من كان سعيه لها دون الدار الحيوان الآخرة، قال تبارك وتعالى: (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نَوَفَّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ). وقال صلى الله عليه وسلم: "تعس عبد الدينار، والدرهم، والقטיפفة، والخميصة، إن أعطي رضي، وإن لم يُعط لم يرض". (٧٣) اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همّنا ولا مبلغ علمنا.

أَظْهَرُوا لِلنَّاسِ نُسْكَآ ... وَعَلَى الْمَنْقُوشِ دَارُوا

وَلَهُ صَامُوا وَصَلُّوا ... وَلَهُ حَجَّوْا وَزَارُوا

وَلَهُ قَامُوا وَقَالُوا ... وَلَهُ حَلَّوْا وَسَارُوا

لَوْ غَدَا فَوْقَ الثُّرَيَّا ... وَهُمْ رِيَشٌ لَطَارُوا

والمقصود؛ أن تنعم المؤمن فيما آتاه الله تعالى مما أباحه لا ينافي الرضا ولا ينقصه، وقد كان حال النبي صلى الله عليه وسلم قائم على القناعة وإحسان سياسة النفس بما تيسر من الطيبات، فالموجود لا يرده، والمفقود لا يطلبه، وكان يجب الطيبات من النساء والطيب والحلواء والعسل والدباء واللحم وغيرها، ولم يهتد به من منع نفسه اللحم ظاناً أن هذا من هدي الشريعة، فقد كان صلى الله عليه وسلم يأكله، بل وذكر حبه له، ورسول الله لا يجب



إلا طيبًا، ففي حديث جابر رضي الله عنه لما أضافه وقدم له اللحم قال صلى الله عليه وسلم: "كأنك قد علمت حُبنا للحم". (٧٤) فإن من كماله صلى الله عليه وسلم أنه يحب من الطعام الطيبات التي يحبها سائر الناس، فقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يكون غذاءَ الآدميين تبعًا لما تقوم به أجسادهم، فجعلها من مشتبهاتهم من الطيبات، فميل النفوس لما يلائمها مما اقتضته سنة الله تعالى في خلقه هو من الكمالات، وضده نقص، وإن من أطيب وأنفع وأقوى ما يقوم به الجسد اللحم. وعليه؛ فقد أحب رسول الله صلى الله عليه وسلم طيبات اللحم كما أحب العسل والحلواء والدُّبَّاء (٧٥) وغير ذلك مما نقل من محبته له، ولعل رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قصد بذكر محبته للحم تطيب قلب جابر وإدخال السرور عليه لما قدّمه من أيّ طعام كان، خاصة وأن في تقديم اللحم للأضياف كلفته في ذلك الزمن، كما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ذكر المحبة بلفظ الجمع "حُبنا للحم"، فلعلّ فيه إشعار بأن من معه هم كذلك، وأنه قد أدخل نفسه معهم في تلك المحبة، كذلك فالبشر على العموم محبون لهذا اللون من الطعام، بل لعله في رأس السلم الغذائي في رغائب موائدهم سواء أدركوا حاجتهم منه أم لم يدركوها، وتأمل تقديمه في الولائم لمن كان قادرًا، كما في أمره صلى الله عليه وسلم لعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه لما تزوج فقال: "أولم ولو بشاة"، (٧٦) وكان صلى الله عليه وسلم يأكل لحم الإبل والغنم والدجاج والصيد والسمك وضحّى عن نسائه بالبقر، وقد أضاف إبراهيم عليه السلام الملائكة عجلًا مشويًا، وقد ذكر الله تعالى اللحم طعامًا لأهل الجنة فقال سبحانه: (ولحم طير مما يشتهون)، وأخرج مسلم (٧٧) من حديث ثوبان رضي الله عنه في سؤالات اليهودي لرسول الله صلى الله عليه وسلم وفيه: "قال اليهودي: فما تُحفتهم حين يدخلون



الجنة؟ قال: "زيادة كبد النون"، قال: فما غذاؤهم على أثرها؟ قال: "يُنحر لهم ثور الجنة، الذي كان يأكل من أطرافها"، (٧٨) قال: فما شراهم عليه؟ قال: "من عين فيها تُسمى سلسبيلًا.. فذكر الحديث، وفيه: فقال اليهودي: لقد صدقت، وإنك لنبِيٌّ. وانصرف".

وروى الشيخان (٧٩) حديثاً عجيباً عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: "تكون الأرض يوم القيامة خبزةً واحدة يتكفَّؤها الجبار بيده (٨٠) كما يكفُّ أحدكم خبزته في السفر، (٨١) نُزلاً لأهل الجنة"، (٨٢) فأتى رجل من اليهود فقال: "بارك الرحمن عليك يا أبا القاسم، ألا أخبرك بنزل أهل الجنة يوم القيامة؟" قال: "بلى"، قال: "تكون الأرض خبزة واحدة". كما قال النبي صلى الله عليه وسلم، فنظر النبي صلى الله عليه وسلم إلينا، ثم ضحك حتى بدت نواجذه، ثم قال (٨٣): "ألا أخبرك بإدامهم؟" (٨٤) قال: "إدامهم بالأمم ونون"، قالوا: وما هذا؟ قال (٨٥): "ثور ونون، يأكل من زائدة كبدهما سبعون ألفاً". والنون هو الحوت، أما البالام فقد بيَّنه حين استفهموه بأنه الثور. (٨٦) وقد سبق وأخبرهم النبي صلى الله عليه وسلم بذلك كما في حديث ثوبان الأنف، فجاء هذا الخبرُ فصدَّقه في كل ما قال، وهذا من دلائل نبوته صلى الله عليه وسلم، وفيه أن الأرض ستصبح بقدرة الله تعالى خبزة واحدة ورغيفاً عظيماً وطعاماً طيباً نزلاً من الله تعالى لأهل الجنة، فسبحان من بيده أمر كل شيء، وهو على كل شيء قدير. ولعل من حكم ذلك حتى يوقن أهل الجنة أن لا عوداً إلى الدنيا بعد فناء الأرض التي أكلتهم أوَّلاً فأكلوها آخرًا، فيزداد نعيمهم بالخلود.

وعلى المؤمن أن يوقن بصدق كل ما ثبت عن النبي ﷺ، قال الله تعالى (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا). أما المراد من الضحك في هذا الحديث فهو كما لُ



التبسم، وإنما ضحك سرورًا بأن شهد له الخبر الإسرائيلي بما في التوراة بتصديق ما أخبر أصحابه به، كما قال تعالى: (أولم لكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل).

وبالجملة؛ ففي هذا إثبات محبته صلى الله عليه وسلم للحم على خلاف من امتنعوا منه قصدًا ممن يُسمون بالنباتيين الذين خالفوا فطر الناس. قال ابن حجر رحمه الله تعالى في الفتح (٨٧): "وكان ذلك لقلة الشيء عندهم فكان حبهم له لذلك.. وأما ما ورد عن عمر وغيره من السلف من إثارة أكل غير اللحم على اللحم، فإما لقمع النفس عن تعاطي الشهوات والإدمان عليها، وإما لكراهة الإسراف والإسراع في تبذير المال لقلة الشيء عندهم إذ ذاك". وكفى بهذه الآية الفاذة الجامعة، قال سبحانه: (قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون).

ومن فتح له باب زهد فليحمد الله تعالى عليه، ولكن لا يحمل الناس على مذهبه ولا يلزمهم ما لم تلزمهم به الشريعة، وكل ميسر لما خلق له، فقد يكون من ظاهره الترف أعلى درجة عند الله ممن ظاهره الزهد، فقد تكون تلك المظاهر معينة له على ضبط إيمانه بسياسة نفس حكيمة وبطرائق مشروعة وله خبايا لا يعلم بها إلا الله، وقد كان زين العابدين علي بن الحسين رحمه الله تعالى - فيما ذكره الذهبي عن ابن إسحاق - يُخَلِّ، لأنه كان يُنفق سرًا ويظن أهله أنه يجمع الدراهم. فما مات فقداه أهل مئة بيت في المدينة لم يكونوا على علم بمن يضع لهم الطعام عند أبوابهم ليلاً حتى رحل لربه رحمه الله تعالى، ولما غسلوه وجدوا بظهره أثرًا مما كان ينقل الجرب بالليل إلى منازل الأرامل. فالاعتبار ليس بالظاهر، والمقصود؛ أن الزهد عبادة عزيزة لكنها جارية على الأحكام التكليفية الخمس، فزهد



واجب عن الحرام، ومستحبّ عما يشغل عن الآخرة، ومكروه في حال إشغاله عن عبادة أُرْجى في الميزان منه، ومباح فيما استوى طرفاه، ومحرمّ فيما لو ترتّب عليه تفریط في واجب أو وقوع في حرام، ونحو ذلك. وبالجملة؛ فليس لأحد ان يحمل الناس على أمرٍ شِدَّةٍ ولهم فيها سعة في دين الله تعالى، فمن الناس من يُلزم أهله وولده وأسرته بأمور من الزهد هي من الفضائل لا من العزائم، بل قد يقع بعضهم في تحريم حلالٍ بيّن الحِلِّ، وقد يؤوّل الأمر بهم بسبب الإلزام لخلاف مقصده الناصح ونيّته الصادقة، لكن إن وُفّق للينٍ وحكمةٍ فعرضها عليهم عرضًا مُقنعًا مناسبًا لطيفًا رفيقًا كان ذلك أدعى لقبولهم، لكن بلا اخشيشانٍ خُلُقٍ، ولا إلزامٍ بعيشٍ لم يُلزمهم به الدين. وعن عبد الله بن المبارك رحمه الله تعالى قال: جاء رجل إلى وهيب بن الورد رحمه الله، فجعل كأنه يذكر الزهد، قال: فأقبل عليه وهيب فقال: "لا تحمل سعة الإسلام على ضيقة صدرك". (٨٨) وقال أيوب رحمه الله تعالى: "إن زهدَ رجلٍ فلا يجعلنَّ زُهدَهُ عذابًا على الناس". (٨٩)

ولمن زوي عنه شيءٌ يريد من رزق الله تعالى: أبشِرْ، فإنك بعين الله تعالى وعلمه، فقد خار لك صالحك، وسوف يسوق رزقك المناسب لك في أوانه المناسب لك، فهو القائل: (له مقاليد السماوات والأرض يسطر الرزق لمن يشاء ويقدر إنه بكل شيءٍ عليم)، وتدبر عموم (كل شيءٍ) فلا تخفى عليه خافيتك يا عبده، فهو عليم بك وبحاجتك ورغبتك وبما يُصلح دينك ودنياك، فاحمد واشكره وارض عنه وأرضه، والحمد لله رب العالمين.

١. مدارج السالكين (٢ / ١٢٥) باختصار.

٢. صيد الخاطر (٣١/١)



٣. ورويت كذلك عن الإمام الشافعي رحمه الله تعالى.

٤. وقد قيل لبعضهم: ألا ترحل حتى تسمع من عبد الرزاق؟ فقال: ما يصنع بالسباع من عبد الرزاق من يسمع من الخلاق؟!

٥. الشبلي من أهل القرن الثالث، وكان فقيهاً مالكيًا فترك التعليم ولبس الخرق وتصوف، وله أقوال حسنة رائقة، وأخرى قبيحة لا يتابع عليها. قال الذهبي رحمه الله: "صَحِبَ الشَّبْلِيَّ الجُنَيْدَ وَعَيْرُهُ، وَصَارَ مِنْ شَأْنِهِ مَا صَارَ. وَكَانَ فَقِيهًا عَارِفًا بِمَذْهَبِ مَالِكٍ، وَكَتَبَ الْحَدِيثَ عَنْ طَائِفَةٍ. وَقَالَ الشُّعْرَى، وَلَهُ أَلْفَاظٌ وَحِكْمٌ وَحَالٌ وَتَمَكُّنٌ، لَكِنَّهُ كَانَ يَحْصُلُ لَهُ جَفَافٌ دِمَاحٌ وَسُكْرٌ، فَيَقُولُ أَشْيَاءَ يُعْتَذِرُ عَنْهُ، فِيهَا بَأٌ - أَيْ كِبَرٌ - لَا تَكُونُ قَدْوَةً. وَكَانَ رَحِمَهُ اللَّهُ لَهْجًا بِالشُّعْرَى الْعَزَلِ وَالْمَحَبَّةِ. وَلَهُ ذَوْقٌ فِي ذَلِكَ، وَلَهُ مُجَاهَدَاتٌ عَجِيبَةٌ أَنْحَرَفَ مِنْهَا مِزَاجُهُ". سير الأعلام (١٥ / ٣٦٥ - ٣٦٧) باختصار وانتقاء. وقال شيخ الإسلام: "يروى عن الشبلي أنه كان يقول: "الله الله". فقيل له: لم لا تقول لا إله إلا الله؟ فقال: أخاف أن أموت بين النفي والإثبات. وهذه من زلات الشبلي التي تغفر له لصدق إيمانه وقوة وجده وغلبة الحال عليه، فإنه كان ربما يُجَنُّ ويذهب به إلى المارستان، ويخلق لحيته. وله أشياء من هذا النمط التي لا يجوز الاقتداء به فيها؛ وإن كان معذورًا أو مأجورًا، فإن العبد لو أراد أن يقول: "لا إله إلا الله" ومات قبل كماها لم يضره ذلك شيئًا، إذ الأعمال بالنيات، بل يكتب له ما نواه". مجموع الفتاوى (١٠ / ٥٥٦)

٦. ذكر أهل العلم أن طلب العلم يلزم بالشروع فيه كالجهد والحج، ولعل هذا مما قصدته سفيان بن عيينة بقوله الشريف: "من طلب العلم فقد بايع الله عز وجل".

اغْتَنِمِ فِي الْفَرَاغِ شُغْلَ عُلُومٍ ... فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مَوْتُكَ بَعْتَهُ

كَمْ صَحِيحٍ رَأَيْتَ مِنْ غَيْرِ سُقْمٍ ... ذَهَبَتْ نَفْسُهُ الصَّحِيحَةَ فَلْتَهُ

٧. يقصد علو الإسناد الذي أدركه بكتابته، ثم فاته بإتلاف سنده.

٨. أي يافعٌ صغير السن.

٩. وهو ما يسمى الآن بجيب الثوب، والمُخْبَا.

١٠. والناس أعداء لما جهلوا، (بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه).

يُقْضَى عَلَى الْمَرْءِ فِي أَيَّامِ مَحْتَتِهِ ... حَتَّى يَرَى حَسَنًا مَا لَيْسَ بِالْحَسَنِ



١١. أحمد (١٠٧٦) والترمذي (٣٠ / ٢) وصححه الألباني في الصحيحة (١ / ٦٨٨)
١٢. أي: ماجرياتهم.
١٣. تليس إبليس (٢٨٤-٢٩١) مختصراً.
١٤. جامع المسائل لابن تيمية، المجموعة الخامسة (١/٢٢٦)
١٥. أبو داود (٣٦٦٤) وابن ماجه (٢٥٢) وصححه الألباني. قوله: "لم يرح"؛ قال الكسائي: «هو بضم الياء؛ من قوله: أرحت الشيء، فأنا أريحه إذا وجدت ريحه». وقال أبو عمرو: «لم يرح بكسر الراء؛ من رُحت أريح إذا وجدت الريح». وقال غيرهما: «بفتح الياء والراء، والمعنى واحد، وهو شم الرائحة». أه. من صحيح الترغيب والترهيب (٣/١٥٧). وفي رواية: "لم يجد عَرَفَ الجنة". قال ابن قيم الجوزية رحمه الله تعالى: "عَرَفَ الجنة، الرائحة، مبالغة في تحريم الجنة، لأن من لم يجد ريح الشيء لا يتناوله قطعاً". عون المعبود (١٠/٩٨).
١٦. وهو الجيلاني رحمه الله تعالى.
١٧. أي مجاهدتك نفسك في مرضي الله تعالى.
١٨. مجموع الفتاوى (١ / ١٧١)
١٩. البخاري ١٠٩/٧ (٥٤٧٠)، ومسلم ١٧٤/٦ (٢١٤٤) (٢٣)
٢٠. تحفة الأحوذى (٧ / ٦٦)
٢١. البخاري ٦٢/٤ (٢٩٦٦)، ومسلم ١٤٣/٥ (١٧٤٢)
٢٢. البخاري ١٥٧/٨ (٦٦١٦) ومسلم ٧٦/٨ (٢٧٠٧) (٥٣)
٢٣. البخاري (٨/٩٣) ومسلم (٨/٧٦)
٢٤. مسلم (٢٦٨٨)
٢٥. أي ضَعُفٌ جداً. ويقال: خَفَّتْ الصوت، إذا ضعف وسكن.
٢٦. أي في ضعف ولد الطير.



٢٧. وهذا من رفقته ورحمته وشفقته ونصحه صلى الله عليه وسلم.
٢٨. الطبري في التفسير (٤ / ٢٠٥)، وابن عبد البر في الجامع (١ / ٢٢٩)، وغيرهما.
٢٩. مفتاح دار السعادة (١ / ٣٣٩)
٣٠. نقلها القشيري في "الرضا" عن النصر آبادي.
٣١. وانظر: المنهاج (٣ / ٩١) وإكمال المعلم (٢ / ٩٠٣ - ٩٠٤ . ٤) والبحر المحيط الشجاع في شرح صحيح الإمام مسلم بن الحجاج لمحمد آدم الأثيوبي (٥ / ٥٣٦)
٣٢. مسلم (١٧٦٣)
٣٣. أحمد (١ / ٩٧٠)، ومسند أبي يعلى (٦٦٥٥) وحسنه حسين سليم أسد، والترمذي (٥ / ٤٥٦) وحسنه الألباني.
٣٤. وانظر: الرضا بالقضاء. د. سالم بن محمد القرني. عن: مجلة جامعة أم القرى (٥ / ٣٤١) - (٣٥٠)
٣٥. شعب الإيثار (٢ / ٢٦٠) وسير أعلام النبلاء: (٨ / ٣٥٩). ولعله لو قال خمس كان أولى، ولعله قصد أن زيغ القلب مبني على الضلالة، والله أعلم.
٣٦. هو القشيري رحمه الله تعالى.
٣٧. هو الداراني رحمه الله تعالى.
٣٨. وفي رواية: "حولها نُدُنْدِن". والحديث عند أحمد (٣ / ٤٧٤) بسند صحيح، وأبو داود (١ / ٢٩٢) (٧٩٢) وصححه الألباني. وقال العيني في شرح أبي داود (٣ / ٤٥٠): "دندنتك" الدندنة: قراءة مبهمّة، غير مفهومة، والهينمة مثلها، أو نحوها. وقوله: "حولها" أي: حول الجنة والنار، "دندندن" أي: في طلبها، من دندن الرجل إذا اختلف في مكان واحد مجيئاً وذهاباً. وقال ابن رجب في فتح الباري (٥ / ١٨٩): "حولها نندندن": وهذا يشعر بأنه يجوز الدعاء بمصالح الآخرة بأي لفظ كان. قلت: وبرواية الأفراد: "حولها" أي الجنة، وهو متضمن النجاة من النار.



٣٩. مسلم ٤/٢ (٣٨٤) (١١)
٤٠. البخاري ١٠٧/٨ (٦٤٠٨) ومسلم ٦٨/٨ (٢٦٨٩) (٢٥)
٤١. معرفة الصحابة لأبي نعيم (١ / ٣٨٤)
٤٢. أي فيها مما هو معروف ومتصوّر لنا في الدنيا من المتع واللذائذ - مع الفارق - وفيها أيضًا ما ليس له جنس في الدنيا من لذائذ خاصة بالجنة، لا يتصوّر لها ولا يتخيّلها البشر، نسأل الله الكريم من فضله.
٤٣. البخاري ١٤٣/٤ (٣٢٤٤) ومسلم ١٤٣/٨ (٢٨٢٤) (٢)
٤٤. كما أثر عن بلال رضي الله عنه لما سئل عن احتماله العذاب في مكة قال: مزجت مرارة العذاب بحلاوة الإيمان ففاقت حلاوة الإيمان المرارة فاحتملتها. أو نحو هذا.
٤٥. أبو داود (٤٣٤٥) وحسنه الألباني.
٤٦. مسلم (٣ / ١٤٨١) (١٨٥٤)
٤٧. فلو قالها من باب طلب معونة الله تعالى والتقرب إليه بذكره كان قولها مشروعًا محمودًا.
٤٨. أحمد (١٨٣٥١) والنسائي (١٣٠٥) وصححه الألباني في الكلم الطيب (١٠٦)
٤٩. وهو غالب لا مضطرد كما قال، فمنهم من يثبت في عزيمته كالجبال الرواسي لعظيم إيمانه وقديم دُرْبته وقوة أطر نفسه على الاستقامة، وكان فسحها غالبًا لديهم بالخصوص لأن إرادتهم غلبت علمهم، فعلمهم بالله تعالى وبشرعه ليس على المستوى المطلوب لإيمانهم، فيبتدئ المرید بقوة عزيمة رغبًا ورهبًا ومحبة وشوقًا، لكنها لا تلبث أن تضعف أو تضمحل في ثاني الحال، لأنها مبنية على وهج رغبة وطرف من علم، فعادت دعوى غير مُحَقَّقة. أما إن ساعدها علم فقيه بطريق الرسول صلى الله عليه وسلم في أعمال الجوارح وأحوال القلوب وما يصلح لها وما يقيمها وما يقوِّمها لاختلاف الحال إلا من مانعٍ من خارجٍ كفساد نية أو ضعف تدين أو خذلانٍ مقدور، والله أعلم.
٥٠. الترمذي (٥ / ٤١٢) (٣٣٠٩) وصححه الألباني.
٥١. كأنه أصيب بفشل كلوي مؤقت أو حَجَرَ سَدَّ مسالكه.



٥٢. أي طلاب الكتابيب.

٥٣. لأنهم لم يقارفوا ذنوبًا، فعمدُ الطفل خطأً، ومن رحمة الله تعالى بهم أن يحتسب لهم الحسنات

دون السيئات.

٥٤. من غرائز النفوس التي لا تكاد تنفك عنها حب الدنيا، قال تعالى: (زين للناس حب الشهوات

من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والحرث)، وقد أرشد سبحانه بعد بيان حالنا الضعيف مع زينة الدنيا إلى ما ينبغي لنا حقاً أن نرتقي إليه، فقال تبارك وتعالى: (قل أؤنبؤكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله). وقال سبحانه مُعَرِّباً غريزة بني آدم: (وتحبون المال حبا جما)، وقال سبحانه مبيِّناً حقيقة الدنيا وحال الغافلين معها: (اعلموا أنها الحياة الدنيا لعب وهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً)، ثم نقل الوصف مباشرة للآخرة فقال: (وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله) أي: اختاروا مصيركم، واحرثوا لآخرتكم، واعملوا لمنازلكم غداً. وتدبر قوله تعالى ورجمته بنا حين زوى كثيراً من ترف الدنيا عنا، فقال سبحانه: ﴿وَلَوْ لَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُوتِيَهُمْ سُقْفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ قال الحسن رحمه الله تعالى: "لولا أن يكون الناس كفاراً أجمعون، يميلون إلى الدنيا، لجعل الله تبارك وتعالى الذي قال، ثم قال: والله لقد مالت الدنيا بأكثر أهلها، وما فعل ذلك، فكيف لو فعله؟! ذكره الطبري في تفسيره (٥٩٨/٢١).

وروى أحمد (١٤٠٣٧) والنسائي (٦١/٧) بسند جيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "حُبُّ إِي مِنْ دُنْيَاكُمْ النِّسَاءِ، وَالطَّيِّبِ، وَجُعِلَتْ قِرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ". وروى البخاري (٥٤٣١) من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: "كَانَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يُحِبُّ الْحُلُوءَ وَالْعَسَلَ". ونحو هذا من الطيبات المعينة على عبادة الله تعالى. فحُبُّ الدُّنْيَا غَرِيْزَةٌ هَذَبَتْهَا الشَّرِيعَةُ، وَأَكْثَرُهَا مَحْتَاغٌ لِمُجَاهَدَةِ قَلْبٍ حَتَّى يَكْتَفِيَ مِنْهَا بِالْبُلُغَةِ لِلْوَصُولِ لِمَعَايِشِهِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، وَالْعَاقِلُ هُوَ مَنْ لَمْ يُحِبِّ الدُّنْيَا لِذَاتِهَا بَلْ بِهَا تَفْضِي بِهِ إِلَى مَرْضَاةِ اللَّهِ. قال ابن تيمية رحمه الله في الصَّفْدِيَّةِ (٢ / ٢٧٢): "لَيْسَ فِي الدُّنْيَا مِنَ اللَّذَاتِ أَعْظَمَ مِنْ لَذَةِ الْعِلْمِ بِاللَّهِ وَذِكْرِهِ وَعِبَادَتِهِ، وَلِهَذَا كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: "حُبُّ إِي مِنْ دُنْيَاكُمْ النِّسَاءِ وَالطَّيِّبِ، وَجُعِلَتْ قِرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ"، هَكَذَا لَفْظُ الْحَدِيثِ، لَمْ يَقُلْ: حُبُّ إِي ثَلَاثَ، فَإِنَّ الْمُحِبِّ إِيهِ مِنَ الدُّنْيَا اثْنَانِ، وَجُعِلَتْ قِرَّةُ عَيْنِهِ فِي الصَّلَاةِ، فَهِيَ أَعْظَمُ مِنْ ذِيكَ، وَلَمْ يَجْعَلْهَا مِنَ الدُّنْيَا". ومن



أمثلة محبة العلم أن ابن هطيل رحمه الله تعالى كان مؤلماً بشرح الرضى على كافية ابن الحاجب، لا يفارقه في أغلب أوقاته، فلما حضرته الوفاة طلب هذا الشرح، ثم وضعه على صدره، وقال:

تَمَّعَ مِنْ شَمِيمِ عَرَارٍ نَجِدٍ ... فَمَا بَعْدَ الْعَشِيَّةِ مِنْ عَرَارٍ

وبالجملة؛ فلعل مقصودهم بكتمان حب الدنيا: أي حبّ المبالغة في زينتها والتنافس في حطامها الذي يقسّي القلب فيغفل عن معالي الآخرة. وبها قصدوا - وهذا أظهر - : ترك مظاهر التصوف التي أصلها المتصوفة لأنفسهم من غير هدى من الله، (ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم)، فاشترطوا زياً معيناً من الصوف والخرق البالية زعماً أنه من لوازم الطريق، وما هو من لوازمه، ولكن من اكتفى به زهداً في الدنيا بدون شهرة أو تعظيم أو قصد أنها سنة متبعة فحسن، والله أعلم.

٥٥ . لعل قصده الترفه والتنعم لا مطلق الطيبات، فقد قال سبحانه: (قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون). وفي صحيح البخاري معلقاً (١٠/٢٦٤) - وقد وصله النسائي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده - باب قول الله تعالى: { قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده }، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا في غير إسراف ولا مخيلة". وقال ابن عباس: "كل ما شئت، والبس ما شئت، ما أخطأك اثنتان: سرف أو مخيلة". وأخرج البيهقي في السنن الكبرى (١٧١٨٦) أن ابن عباس لما ذهب لمناظرة الخوارج قالوا له: مرحباً بك يا أبا عباس فما هذه الحلة؟ قال: قلت: ما تعيبون علي؟! لقد رأيت على رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن ما يكون من الحلل، ونزلت: (قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق). ولنا في الأنبياء أسوة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «بينا أيوب يغتسل عرياناً فخرّ عليه جرادٌ من ذهب، فجعل أيوب يحتشي في ثوبه، فناداه ربه: يا أيوب، ألم أكن أغنيتك عما ترى؟ قال: بلى وعزتك، ولكن لا غني بي عن بركتك». رواه البخاري (٢٧٩) قال القسطلاني رحمه الله في إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري (١/٣٣٣): "قوله: "ولكن لا غني بي عن بركتك": أي خيرك، واستنبط منه فضل الغنى لأنه سبب بركة، ومحال أن يكون أيوب صلوات الله عليه وسلامه أخذ هذا الماء حباً للدنيا، وإنما أخذه كما أخبر هو عن نفسه لأنه بركة من ربه تعالى لأنه قريب العهد بتكوين الله تعالى، أو أنه نعمة جديدة خارقة للعادة، فينبغي تلقّيها بالقبول، ففي ذلك شكر لها وتعظيم لشأنها، وفي الإعراض عنها كفرٌ بها، وفيه جواز الاغتسال عرياناً؛ لأن الله تعالى عاتبه على جمع الجراد، ولم يعاتبه على الاغتسال عرياناً". أه. باختصار.



٥٦. أي: انه استغرق بمشاعر قلبه الدينية وخواطر روحه الإيمانية بلا قيود عقلٍ يحجزه عن تجاوز أو تبين حقائق الأمور على ضوء العلم الشرعي، فهو إحساس وإرادة بلا كفاية علم وبصيرة.
٥٧. أي حقوق سلوك التنسك والتعبد، فليس حماً مباحاً لكل من أراد، بل هو مشروط بشروط الشرع، كالإخلاص والاتباع والعلم والتوكل والمجاهدة والتثبت ونحوها.
٥٨. لجهله، ويُعتذر عنه إن كان ثم تأويل، ولا يتابع على خطئه.
٥٩. وهذا من فراسته صلى الله عليه وسلم، ومعرفته بنفوس أصحابه وطبائعهم، أو من وحي الله تعالى له.
٦٠. مسلم (٦٨/٨) وفي رواية: "فقالها، فشفاه الله".
٦١. رواه البخاري (٤٣/٩، ٥٥) ومسلم (٥٥/٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، أن رجلاً أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: إني رأيت الليلة في المنام ظُلةً تنطف السمن والعسل، فأرى الناس يتكفون منها فالمستكثر والمستقل، وإذا سبب واصل من الأرض إلى السماء، فأراك أخذت به فعلوت، ثم أخذ به رجل آخر فعلا به، ثم أخذ به رجل آخر فعلا به، ثم أخذ به رجل آخر فانقطع ثم وصل.
- فقال أبو بكر: يا رسول الله بأبي أنت، والله لتدعني فأعبرها. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "اعبر" قال: أما الظُلةُ فالإسلام، وأما الذي ينطف من العسل والسمن فالقرآن، حلاوته تنطف فالمستكثر من القرآن والمستقل، وأما السبب الواصل من السماء إلى الأرض فالحق الذي أنت عليه؛ تأخذ به فيعليك الله، ثم يأخذ به رجل من بعدك فيعلو به، ثم يأخذ رجل آخر فيعلو به، ثم يأخذ رجل آخر فينقطع به، ثم يوصل له فيعلو به. فأخبرني يا رسول الله، بأبي أنت، أصبت أم أخطأت؟ قال النبي صلى الله عليه وسلم: "أصبت بعضاً وأخطأت بعضاً"، قال: فوالله لتحدثني بالذي أخطأت. قال: "لا تُقسم". قلت: ولعله حدثه لاحقاً عنها إبراراً لقسمه، ولم يشهد ابن عباس ذلك، والله أعلم. والظُلة: هي السحابة تظل من تحتها، وقد يطلق على الجبل، ومنه قول الله تعالى: (وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين) ومعنى تنطف: أي تقطر. ومعنى يتكفون، من التكفف وهو مدّ الأيدي للأخذ. والسبب هو الجبل، ومنه قول الله تعالى: (فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع)، وكل ما يتوصل به إلى ما يتعذر الوصول إليه، فهو سبب. وعبر الرؤيا وعبرتها - بتخفيف الباء وبتشديدها كذلك - إذا أخبر بما يؤول إليه أمرها.



٦٢. إنصاف عظيم ولطف بالغ من هذا الإمام الجليل. وهذا من حفظ مقامات أهل الفضل، ولا يعرف الفضل لأهل الفضل إلا أهل الفضل. قال ابن كثير في البداية والنهاية (١٠ / ٢٧٨): "أبو سليمان الداراني عبد الرحمن بن عطية، أحد أئمة العلماء العاملين، أصله من واسط، سكن قرية غربي دمشق يقال لها داريا. وقد سمع الحديث من سفيان الثوري وغيره، وروى عنه أحمد بن أبي الحواري وجماعة". وقال الذهبي في تاريخ الإسلام (١٥ / ٢٥٣): "قال الجنيدي: قال أبو سليمان: أفضل الأعمال خلاف هوى النفس. وقال: لكل شيء علم، وعلم الخذلان ترك البكاء، ولكل شيء صداد، وصداد نور القلب شبع البطن. وقال أحمد بن أبي الحواري: سمعت أبا سليمان يقول: أصل كل خير الخوف من الله، ومفتاح الدنيا الشبع، ومفتاح الآخرة الجوع. وقال أبو سليمان: إذا تكلف المتعبدون أن يتكلموا بالإعراب ذهب الخشوع من قلوبهم. وقال أحمد: رأيت أبا سليمان حين أراد أن يلبي غشي عليه، فلما أفاق قال: بلغني أن العبد إذا حج من غير وجهه، فلبى قيل له: لا لبيك ولا سعديك حتى تطرح ما في يديك، فما يؤمننا أن يقال لنا مثل هذا! ثم لبى. وقال الجنيدي: شيء يروى عن أبي سليمان أنا أستحسنه كثيرا، قوله: من اشتغل بنفسه شغل عن الناس، ومن اشتغل بربه شغل عن نفسه وعن الناس". وقال ابن القيم في روضة المحبين (١ / ٤٣٩): "قال ابن أبي الحواري رحمه الله تعالى: سئل أبو سليمان الداراني رحمه الله وأنا حاضر: ما أقرب ما يتقرب به إلى الله عز وجل؟ فبكى، ثم قال: مثلي يسأل عن هذا، أقرب ما يتقرب به إليه أن يطّلع على قلبك وأنت لا تريد من الدنيا والآخرة إلا هو". وقال (١ / ٤٤١): "قال أبو سليمان الداراني: من صفا صفا له، ومن كدر كدر عليه، ومن أحسن في ليله كوفئ في نهاره، ومن أحسن في نهاره كوفئ في ليله، ومن ترك لله شهوة من قلبه فالله أكرم أن يعذب بها قلبه". وقال في المدارج (٢ / ٢٢): "قال أبو سليمان الداراني: الورع أول الزهد، كما أن القناعة أول الرضا". وبالجمل فاشيخ أبو سليمان الداراني مشهور بالعلم والعبادة والفضل والوعظ والخير والحروف النافعة، رحمه الله تعالى.

٦٣. أي محسوبة من جمل أخطائه.

٦٤. وقد استشهد شيخ الإسلام بهذا الحرف الداراني في مواطن كثيرة في مؤلفاته، ومن أسباب ذلك أنه من أجلاء المتصوفة، وله قبول رحيب لديهم، من باب شاهد الأهل، رحمها الله تعالى.

٦٥. سنن النسائي (٣ / ٥٤) (١٣٠٥) وصححه الألباني.

٦٦. مسلم (٢٩١)

٦٧. مروية عن العابدة رابعة العدوية رحمها الله تعالى، إن صحّ النقل عنها.



٦٨. يرد في القرآن العزيز لفظ شري واشترى وما تفرع عنهما، والفرق في المعنى أن ما جاءت بحرف التاء (يشترى، اشتراه، ليشتروا..) فهي الأخذ - وهو المسمى عرفاً بالشراء -، أما ما خلت من التاء (يشري، شروا، وشروه) فهي بمعنى البيع. ومعنى الآية هنا (ومن الناس من يشري)، أي يبيع نفسه.

٦٩. قال الجوهري في الصحاح (٢٢٢٧/٦): "بله: كلمة مبنية على الفتح مثل كيف، ومعناها: دع. قال كعب بن مالك يصف السيوف:

تذرُ الجماجم ضاحياً هاماتها .. بله الأكَفَّ كأنها لم تُخلق

٧٠. البخاري ١٤٣/٤ (٣٢٤٤) ومسلم ١٤٣/٨ (٢٨٢٤) (٢)

٧١. الفتاوى الكبرى (٢ / ٤٠١ - ٤١٢) باختصار.

٧٢. صيد الخاطر (١ / ٣٠)

٧٣. البخاري ١١٤/٨ (٦٤٣٥) والقطيفة: كساء له خمل، والخميصة: ثوب خزّ أو صوف معلّم.

النهاية (٨٤/٤، ٨١/٢)

٧٤. أحمد في مسنده (١٥٢٨١) وقال محققوه: إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين غير

نبيح العنزي، فقد روى له أصحاب السنن، وهو ثقة.

٧٥. روى البخاري (٥٤٣١) من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: "كان رسول الله ﷺ يُحِبُّ

الحلواء والعسل". وروى أيضاً (٢٠٩٢) عن أنس رضي الله عنه: "أن خيَّاطاً دعا رسول الله ﷺ لطعام صنعه،

قال أنس: فذهبت مع رسول الله ﷺ إلى ذلك الطعام، فقرَّبَ إلى رسول الله ﷺ خبزاً من شعير ومرقاً فيه دُبَّاءٌ

وقديد، قال أنس: فرأيت رسول الله ﷺ يتبعُ الدُّبَّاءَ من حوالي الصَّحْفَةِ، فلم أزل أحبُّ الدُّبَّاءَ من يومئذٍ". والدُّبَّاءُ

هو اليقطين وهو القرع. أما القديد فهو اللحم المُقَدَّدُ المُشَرَّحُ المُملَّحُ، يقطع طووالاً ويملَّح ويحفف في الشمس، وفائدة

الملح أن يخرج الرطوبة من اللحم سريعاً، ويُعلَّقُ في مكان جافٍّ حتى لا تدركه العفونة، وتبقى بعض بكتيريا نافعة

تنضج اللحم على الوقت الطويل. وهي تقنية للطعام قديمة عند أكثر الشعوب.

٧٦. البخاري (٥١٥٥) ومسلم (١٤٢٧)

٧٧. مسلم (٣١٥)



٧٨. ولعلّ الثور الوحشي، وهو من أطيب الصيد عند العرب.
٧٩. البخاري (٢٧٩٢) ومسلم (٢٧٩٢)
٨٠. أي يقلّبها ويميلها بيده لإصلاحها وإنضاجها.
٨١. وتسمّى خبزة الملة.
٨٢. أي ضيافة لهم حين ينزلونها.
٨٣. أي: اليهودي.
٨٤. أي: ما يؤكل به الخبز.
٨٥. أي: اليهودي.
٨٦. ولعل الثور وفي مصابيح الجامع للبدر الدماميني (٤٤٩/٩): "حكى السفاقي عن الخطابي أنه قال: أما النون، فهو الحوت، وأما بالأم، فإنه شيء مبهم دلّ الجواب من اليهودي على أنه اسم للثور، وهو ما لم ينتظم، فيشبه أن يكون اليهودي أراد أن يعمي الاسم بتقطيع الهجاء، وقدم أحد الحرفين، فقال: بالام، وإنما هو في حق الترتيب؛ لا با هجاء لأي على وزن لعي؛ أي: ثور، فصحّف فيه الرواية: «بالام»، فأشكّل واستبهم. قال: وهذا أقرب ما يقع لي فيه، إلا أن يكون ذلك بغير لسان العرب، فإن المخبر يهودي، فلا يبعد أن يكون إنما عبّر عنه بلسانه".
- أه. قلت: وقد أخبر صلى الله عليه وسلم بتحفتهم في حديث ثوبان رضي الله عنه الثابت في مسلم (٣١٥) في سؤالات اليهودي، وإجابات رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومنها: «تحفتهم يوم يدخلون الجنة زيادة كبد النون». قال: ما غذاؤهم على إثرها؟ قال: «يُنحر لهم ثور الجنة، الذي كان يأكل من أطرافها» قال: فما شراهم على إثرها؟ قال: «من عين فيها تسمى سلسبيلاً». ولا يبعد أن يكون الثور هو بقر الوحش الذي يسمّى المها والوضيحي، فهو من شرّد الصيد، وتستطيعه العرب جدًّا، وإن كان هو والحوت من حيوان الجنة الذي ليس في الدنيا منهما سوى الاسم، وبالله التوفيق.
٨٧. الفتح (٥٥٦ / ٩)
٨٨. تهذيب الحلية (٣ / ٣٥)
٨٩. موسوعة ابن أبي الدنيا (١٩١ / ٥)



هل الدعاء على الظالم فضيلة؟

إن كانت النازلة مظلمة فيشرع الدعاء برفعها من جهة أنها ابتلاء، أما الظالم فيُستحب الدعاء له بالهداية والمغفرة مع قطع شره عن نفسه وعن الناس، وهذا أفضل من الدعاء عليه، وإن كان ذلك جائزاً لأنه من طلب الاقتصاص الذي هو من فروع العدل، أما العفو فمن فروع الإحسان وهو أفضل وأكمل، وربنا جل وعز يقول: (وأن تعفوا أقرب للتقوى)، ويقول: (ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور)، ويقول: (والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين)، فليس من سبب المؤمنين شفاء صدورهم لأجل دنيا، بل لأجل الدين، كما قال تعالى في نصره لدينه: (ويشف صدور قوم مؤمنين ويذهب غيظ قلوبهم).

والدعاء انتقام، ونبي الله صلى الله عليه وسلم ما انتقم لنفسه قط، قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: "ما انتقم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قطُّ لنفسه، إلا أن تُتَّهَكَ محارمُ الله، فإذا انْتَهَكَت محارم الله لم يَقم لغضبه شيء حتى ينتقم لله". (١) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قدم الطفيل وأصحابه فقالوا: يا رسول الله، إن دوساً قد كفرت وأبت فادع الله عليها! فقيل: هلكت دوس فقال: "اللهم اهد دوساً وائت بهم". (٢) والإمام أحمد رحمه الله لما قيل له في الدعاء على ظالمه أجاب: "وما ينفعك أن يُعذَّبَ اللهُ أحداً بسببك". فالمؤمن لا يتشفي للدنيا، بل ينصح لكل المؤمنين ويعفو عنهم إن كان في عفوهِ إصلاحاً، ويدعو بكف شر الظالم عن نفسه وعن الناس. قال شيخ الإسلام رحمه الله: "والناس أربعة؛ منهم من يتنصر لنفسه ولربه، وهو الذي فيه دين وغضب لله، ومنهم من



لا ينتصر لنفسه ولا لربه، وهو الذي فيه جبن وضعف دين، ومنهم من ينتقم لنفسه لا لربه، وهو شر الأقسام، وأما الكامل فهو الذي ينتصر لحق الله ويعفو عن حق نفسه عند المقدرة". (٣) وقال في الصبر على أذى الناس وترك الانتقام منهم: "النوع الرابع: ما يحصل له بفعل الناس في ماله أو عرضه أو نفسه، فهذا النوع يصعب الصبر عليه جداً، لأن النفس تستشعر المؤذي لها، وهي تكره الغلبة، فتطلب الانتقام، فلا يصبر على هذا النوع إلا الأنبياء والصدّيقون.

وكان نبينا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أُؤْذِيَ يَقُولُ: "يَرْحَمُ اللهُ مُوسَى، لَقَدْ أُؤْذِيَ بِأَكْثَرِ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ". (٤) وأخبر عن نبي من الأنبياء أنه ضربه قومه، فجعل يقول: "اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي، فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ". (٥) وقد روي عنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ جَرَى لَهُ مِثْلُ هَذَا مَعَ قَوْمِهِ، فَجَعَلَ يَقُولُ مِثْلَ ذَلِكَ. (٦) فجمع في هذا ثلاثة أمور: العفو عنهم، والاستغفار لهم، والاعتذار عنهم بأنهم لا يعلمون.

وهذا النوع من الصبر عاقبته النصر والهدى والسُرور والأمن، والقوة في ذات الله، وزيادة محبة الله ومحبة الناس له، وزيادة العلم. ولهذا قال الله تعالى: (وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (٢٤)). فبالصبر واليقين تُنال الإمامة في الدين، فإذا انضاف إلى هذا الصبر قوة اليقين والإيمان ترقى العبد في درجات السعادة بفضل الله تعالى، و(ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢١)). ولهذا قال الله تعالى: (ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥)).

ويُعين العبد على هذا الصبر عدة أشياء:



أحدها: أن يشهد أن الله سبحانه وتعالى خالق أفعال العباد، حركاتهم وسكناتهم وإراداتهم، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فلا يتحرك في العالم العلوي والسفلي ذرة إلا بإذنه ومشيئته، فالعباد آله، فانظر إلى الذي سلطهم عليك، ولا تنظر إلى فعلهم بك، تسترح من الهم والغم.

الثاني: أن يشهد ذنوبه، وأن الله إنما سلطهم عليه بذنبه، كما قال تعالى: (وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ (٣٠)). فإذا شهد العبد أن جميع ما يناله من المكروه فسببه ذنوبه، اشتغل بالتوبة والاستغفار من الذنوب التي سلطهم عليه بسببها عن ذمهم ولوهمهم والوقعة فيهم.

وإذا رأيت العبد يقع في الناس إذا آذوه، ولا يرجع إلى نفسه باللوم والاستغفار، فاعلم أن مصيبته مصيبة حقيقية، وإذا تاب واستغفر وقال: هذا بذنوبي، صارت في حقه نعمة. قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه كلمة من جواهر الكلام: "لا يرجون عبد إلا ربه، ولا يخافن عبد إلا ذنبه". (٧) ورؤي عنه وعن غيره: "ما نزل بلاء إلا بذنب، ولا رُفِعَ إلا بتوبة". (٨)

الثالث: أن يشهد العبد حُسن الثواب الذي وعده الله لمن عفا وصبر، كما قال تعالى: (وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٤٠)) ولما كان الناس عند مقابلة الأذى ثلاثة أقسام: ظالم يأخذ فوق حقه، ومقتصد يأخذ بقدر حقه، ومحسن يعفو ويترك حقه، ذكر الأقسام الثلاثة في هذه الآية، فأولها للمقتصدين، ووسطها للسابقين، وآخرها للظالمين.



ويشهد نداء المنادي يوم القيامة: "إِلَّا لِيُقَمَّ مَنْ وَجَبَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ". (٩) فلا يُقَوْم إِلَّا مَنْ عَفَا وَأَصْلَح. وإذا شهدَ مع ذلك فوتَ الأجر بالانتقام والاستيفاء، سهَّلَ علمه الصبر والعفو.

الرابع: أن يشهد أنه إذا عفا وأحسنَ أورثه ذلك من سلامة القلب لإخوانه، ونقائه من الغشِّ والغُلِّ وطلبِ الانتقام وإرادةِ الشرِّ، (١٠) وحصلَ له من حلاوة العفو ما يزيد لذته ومنفعتَه عاجلاً وآجلاً، على المنفعة الحاصلة له بالانتقام أضعافاً مضاعفةً، ويدخل في قوله تعالى: (والله يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) (١٣٤)، فيصير محبوباً لله، ويصير حاله حال من أخذ منه درهمٌ فعوَّضَ عليه ألوفاً من الدنانير، فحينئذٍ يفرحُ بما منَّ الله عليه أعظمَ فرحاً يكون.

الخامس: أن يعلم أنه ما انتقم أحد قطُّ لنفسه إلا أورثه ذلك ذُلًّا يجده في نفسه، فإذا عفا أعزَّه الله تعالى، وهذا مما أخبر به الصادق المصدوق حيث يقول: "ما زاد الله عبداً بعفوٍ إلا عزاً". (١١) فالعزَّ الحاصل له بالعفو أحبُّ إليه وأنفع له من العزِّ الحاصل له بالانتقام، فإنَّ هذا عزٌّ في الظاهر، وهو يُورث في الباطن ذُلًّا، والعفو ذُلٌّ في الباطن، وهو يورث العزَّ باطناً وظاهراً.

السادس - وهي من أعظم الفوائد -: أن يشهد أن الجزاء من جنس العمل، وأنه نفسه ظالمٌ مذنب، وأن من عفا عن الناس عفاً الله عنه، ومن غفر لهم غفر الله له. فإذا شهد أن عفوهم عنهم وصفحهم وإحسانهم مع إساءتهم إليه سببٌ لأن يجزيه الله كذلك من جنس عمله، فيعفو عنه ويصفح، ويُحسن إليه على ذنوبه، ويسهِّلَ عليه عفوهُ وصبره، ويكفي العاقل هذه الفائدة.



السابع: أن يعلم أنه إذا اشتغلت نفسه بالانتقام وطلب المقابلة ضاع عليه زمانه، وتفرق عليه قلبه، وفاته من مصالحه ما لا يمكن استدراكه، ولعل هذا أعظم عليه من المصيبة التي نالته من جهتهم، فإذا عفا وصفح فرغ قلبه وجسمه لمصالحه التي هي أهم عنده من الانتقام.

الثامن: أن انتقامه واستيفاءه وانتصاره لنفسه، ورسول الله عليه وسلم ما انتقم لنفسه قط، فإذا كان هذا خير خلق الله وأكرمهم على الله لم ينتقم لنفسه، مع أن أذاه أذى الله، ويتعلق به حقوق الدين، ونفسه أشرف الأنفس وأزكاها وأبرها، وأبعدها من كل خلق مذموم، وأحقها بكل خلق جميل، ومع هذا فلم يكن ينتقم لها، فكيف ينتقم أحدنا لنفسه التي هو أعلم بها وبما فيها من الشرور والعيوب، بل الرجل العارف لا تساوي نفسه عنده أن ينتقم لها، ولا قدر لها عنده يوجب عليه انتصاره لها.

التاسع: إن أُوذي على ما فعله الله، أو على ما أمر به من طاعته ونهي عنه من معصيته، وجب عليه الصبر، ولم يكن له الانتقام، فإنه قد أُوذي في الله فأجره على الله. (١٢) ولهذا لما كان المجاهدون في سبيل الله ذهب دماؤهم وأموالهم في الله لم تكن مضمونة، فإن الله اشترى منهم أنفسهم وأموالهم، فالثمن على الله لا على الخلق، فمن طلب الثمن منهم لم يكن له على الله ثمن، فإنه من كان في الله تَلَفه كان على الله خَلْفه، وإن كان قد أُوذي على مصيبة فليرجع باللوم على نفسه، ويكون في لومه لها شغل عن لومه لمن آذاه، وإن كان قد أُوذي على حظ فليوطن نفسه على الصبر، فإن نيل الحظوظ دونه أمرٌ أمرٌ من الصبر، فمن لم يصبر على حرِّ الهواجر والأمطارِ والثلوجِ ومشقةِ الأسفارِ ولصوصِ الطريقِ، وإلا فلا



حاجة له في المتاجر. وهذا أمر معلوم عند الناس أن من صدق في طلب شيء من الأشياء بُدِّل من الصبر في تحصيله بقدر صدقه في طلبه.

العاشر: أن يشهد معية الله معه إذا صبر، ومحبة الله له إذا صبر، ورضاه. ومن كان الله معه دفع عنه أنواع الأذى والمضرات ما لا يدفعه عنه أحد من خلقه، قال تعالى: (وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (٤٦))، وقال تعالى: (وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦))

الحادي عشر: أن يشهد أن الصبر نصف الإيمان، فلا يبدل من إيمانه جزاءً في نصرة نفسه، فإذا صبر فقد أحرز إيمانه، وصانه من النقص، والله يدافع عن الذين آمنوا.

الثاني عشر: أن يشهد أن صبره حكمٌ منه على نفسه، وقهرٌ لها، وغلبةٌ لها، فمتى كانت النفس مقهورةً معه مغلوبةً، لم تطمع في استرقاقه وأسرِهِ وإلقائه في المهالك، ومتى كان مطيعاً لها سامعاً منها مقهوراً معها، لم تزل به حتى تُهلكه، أو تتداركه رحمةً من ربه. فلو لم يكن في الصبر إلا قهره لنفسه ولشيطانه، فحينئذٍ يظهر سلطان القلب، وتثبت جنوده، ويفرح ويقوى، ويطرُد العدو عنه.

الثالث عشر: أن يعلم أنه إن صبر فالله ناصرُه ولا بُدَّ، فالله وكيلٌ من صبر، وأحال ظالمه على الله، ومن انتصر لنفسه وكله الله إلى نفسه، فكان هو الناصر لها. فأين من ناصره الله خيرُ الناصرين إلى من ناصره نفسه أعجز الناصرين وأضعفه؟

الرابع عشر: أن صبره على من آذاه واحتماله له يُوجب رجوع خصمه عن ظلمه، وندامته واعتذاره، ولوم الناس له، فيعود بعد إيدائه له مستحيماً منه نادماً على ما فعله، بل



يَصِيرُ مَوَالِيَا لَهُ. وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: (ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥)).

الخامس عشر: ربّما كان انتقامه ومقابلته سبباً لزيادة شرّ خصمه، وقوّة نفسه، وفكرته في أنواع الأذى التي يُوصّلها إليه، كما هو المشاهد. فإذا صبر وعفا أمّن من هذا الضرر، والعاقِل لا يختارُ أعظمَ الضررين بدفعِ أدناهما. وكم قد جلبَ الانتقامُ والمقابلةُ من شرِّ عَجَزَ صاحبه عن دفعه، وكم قد ذهبَت نفوس ورتاسات وأموالٌ لو عفا المظلومُ لبقيت له.

السادس عشر: أنّ من اعتادَ الانتقامَ ولم يَصْبِرْ لا بُدَّ أن يقعَ في الظلم، فإنّ النفس لا تَقْتَصِرُ على قدرِ العَدْلِ الواجب لها، لا علماً ولا إرادةً، وربما عجزت عن الاقتصار على قدرِ الحقِّ، فإنّ الغضبَ يخرُجُ بصاحبه إلى حدٍّ لا يعقلُ ما يقول ويفعل، فبينما هو مظلومٌ يَنْتَظِرُ النَّصْرَ وَالْعِزَّ، إذ انقلبَ ظالماً يَنْتَظِرُ المَقْتَّ والعقوبةَ.

السابع عشر: أنّ هذه المظلّمة التي ظلّمها هي سببٌ إمّا لتكفيرِ سيئته، أو رفعِ درجته، فإذا انتقمَ ولم يَصْبِرْ لم تكنْ مُكفِّرةً لسيئته ولا رافعةً لدرجته.

الثامن عشر: أنّ عفوّه وصبره من أكبر الجُنْدِ له على خصمه، فإنّ من صَبَرَ وعفا كان صبره وعفوّه مُوجِباً لذلِّ عدوّه وخوفه وخشيتيه منه ومن الناس، فإنّ الناس لا يسكتون عن خصمه، وإن سكت هو، فإذا انتقمَ زال ذلك كله. ولهذا تجدُّ كثيراً من الناس إذا شتم غيره أو آذاه يُحِبُّ أن يستوفي منه، فإذا قابله استراح وألقى عنه ثقلاً كان يجده.



التاسع عشر: أنه إذا عفا عن خصمه استشعرت نفس خصمه أنه فوقه، وأنه قد ربح عليه، فلا يزال يرى نفسه دونه، وكفى بهذا فضلاً وشرفاً للعفو.

العشرون: أنه إذا عفا وصفح كانت هذه حسنة، فتولد له حسنة أخرى، وتلك الأخرى تولد له أخرى، وهلمَّ جرّاً، فلا تزال حسناته في مزيد، فإن من ثواب الحسنة الحسنة، كما أن من عقاب السيئة السيئة بعدها. وربما كان هذا سبباً لنجاته وسعادته الأبدية، فإذا انتقم وانتصر زال ذلك". (١٣)

ومن عجائب شيخ الإسلام ابن تيمية التي تدل على سمو أخلاقه العالية وسلامة صدره ما ذكره الحافظ ابن كثير رحمه الله من أن شيخ الإسلام لما ألف كتابه "الاستغاثة" وهو المعروف بالرد على البكري. (١٤) ترصد له ابن البكري الصوفي على الطريق ومعه جماعة من أصحابه، وضربوا شيخ الإسلام ضرباً شديداً حتى طرحوه على الأرض، ثم هربوا. فاجتمع كثير من محبيه بعدها ومعهم الجند وطلبوا من شيخ الإسلام أن يأذن لهم بالانتقام من ابن البكري فرفض شيخ الإسلام وقال لهم: "إما أن يكون الحق لي أو لكم أو لله؛ فإن كان لي فهو في حل، وإن كان لكم فإن لم تسمعوا مني فلا تستفتوني وافعلوا ما شئتم، وإن كان لله فالله يأخذ حقه كيف شاء متى شاء".

قالوا: فهذا الذي فعلوه معك هو حلال لهم؟ قال: "هذا الذي فعلوه قد يكونون مثابين عليه مأجورين فيه!" فقالوا: فتكون أنت على الباطل وهم على الحق، فإذا كنت تقول إنهم مأجورين فاسمع منهم ووافقهم على قولهم. فقال لهم: "ليس الأمر كما تزعمون، فإنهم قد يكونون مجتهدين مخطئين، ففعلوا ذلك باجتهادهم، والمجتهد المخطئ له أجر". (١٥) لكنهم لم يكثرثوا لكلامه وسعوا في طلب ابن البكري في كل مكان، وضيّقوا عليه حتى لم



يجد مكانًا يختبئ فيه إلا بيت شيخ الإسلام، فأواه شيخ الإسلام وخبأه وشفع له عند السلطان فعفا عنه السلطان! (١٦)

وقال رحمه الله تعالى في الفتنة التي كانت بينه وبين ابن مخلوف (١٧): «وأنا والله من أعظم الناس معاونة على إطفاء كل شر فيها وفي غيرها، وإقامة كل خير. وابن مخلوف لو عمل مهما عمل والله ما أقدر على خير إلا وأعمله معه، ولا أعين عليه عدوه قط، ولا حول ولا قوة إلا بالله. هذه نيتي وعزمي مع علمي بجميع الأمور، فإني أعلم أن الشيطان ينزغ بين المؤمنين، ولن أكون عونًا للشيطان على إخواني المسلمين، ولو كنت خارجًا لكنت أعلم بماذا أعاونه، لكن هذه مسألة قد فعلوها زورًا والله يختار للمسلمين جميعهم ما فيه الخيرة في دينهم وديارهم، ولن ينقطع الدور وتزول الحيرة إلا بالإنابة إلى الله والاستغفار والتوبة وصدق الالتجاء، فإنه سبحانه لا ملجأ منه إلا إليه، ولا حول ولا قوة إلا بالله».

(١٨)

وقال (١٩): "إني قد أحللت السلطان الملك الناصر من حبسه إياي لكونه فعل ذلك مقلدًا غيره معذورًا، ولم يفعله لحظ نفسه، بل لما بلغه مما ظنه حقًا من مُبلغه، والله يعلم أنه بخلافه، وقد أحللت كل واحد مما كان بيني وبينه إلا من كان عدوًّا لله، ورسوله". (٢٠)

ولما استشاره الملك الناصر محمد بن قلاوون في قتل القضاة الذين آذوه وكانوا قد أفتوا بقتله، وكان قد أخرج من جيبه فتاوى لبعضهم في قتله، واستفتاه في قتل بعضهم، قال ابن تيمية: "ففهمت مقصوده، وأن عنده حنقًا شديدًا عليهم لما خلعوه وبايعوا الملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير. فشرعت في مدحهم والثناء عليهم وشكرهم، وأن هؤلاء لو ذهبوا لم تجد مثلهم في دولتك، أما أنا فهم في حلٍّ من حقي ومن جهتي، وسكنت



ما عنده عليهم". فكان القاضي ابن مخلوف قاضي المالكية يقول بعد ذلك: "ما رأينا أتقى من ابن تيمية، لم نُبق مُمكنًا في السعي فيه، ولما قدر علينا عفا عنا". (٢١)

ومن كلامه النفيس جدًّا فيمن آذوه، في رسالة كتبها لأصحابه رحمه الله: «فلا أحب أن ينتصر من أحد بسبب كذبه علي أو ظلمه وعدوانه، فإنني قد أحللت كل مسلم، وأنا أحب الخير لكل المسلمين، وأريد بكل مؤمن من الخير ما أحبه لنفسي، والذين كذبوا وظلموا فهم في حلٍّ من جهتي، وأما ما يتعلق بحقوق الله فإن تابوا تاب الله عليهم وإلا فحكم الله نافذ فيهم. فلو كان الرجل مشكورًا على سوء عمله لكنت أشكر كل من كان سببًا في هذه القضية؛ لما ترتب عليها من خير الدنيا والآخرة، (٢٢) لكن الله هو المشكور على حسن نعمه وآلائه وأياديه التي لا يقضى للمؤمن قضاء إلا كان خيرًا له، وأهل القصد الصالح يشكرون على قصدهم وأهل العمل الصالح يشكرون على عملهم وأهل السيئات نسأل الله أن يتوب عليهم». (٢٣)

وقال ابن القيم رحمه الله: "كان بعض أصحابه الأكابر يقول: وددت أني لأصحابي مثله لأعدائه وخصومه، وما رأيتَه يدعو على أحد منهم قط، وكان يدعو لهم. وجئتُ يومًا مبشرًا له بموت أكبر أعدائه، وأشدَّهم عداوة وأذى له، فنهرتني وتنكر لي واسترجع، ثم قام من فوره إلى بيت أهله فعزاهم، وقال: إني لكم مكانه، ولا يكون لكم أمر تحتاجون فيه إلى مساعدة إلا وساعدتكم فيه، ونحو هذا من الكلام، فسُرَّوا به ودعوا له وعظَّموا هذه الحال منه، فرحمه الله ورضي عنه". (٢٤) والله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وأحسنُ الناسِ مَنْ للناسِ أنفعُهُم ... وأسوأُ الناسِ زهَّادُ بني رَحِمِ



وأصدقُ الصَّحْبِ من في العُسْرِ تبصرُهُ... وأكذبُ الصَّحْبِ من في الضيقِ عنكَ عَمٍ

.....

١. البخاري (٦٨٥٣) ومسلم (٢٣٢٧)
٢. مسلم (٢٥٢٤)
٣. مختصر الفتاوى المصرية لابن تيمية (١ / ٣٢٥)
٤. البخاري (٣١٥٠، ٣٤٠٥) ومسلم (١٠٦٢)
٥. البخاري (٣٤٧٧، ٦٩٢٩) ومسلم (١٧٩٢)
٦. الطبراني عن سهل بن سعد، كما في مجمع الزوائد (١١٧/٦). وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح.
٧. انظر شرحها في مجموع الفتاوى (١٦١/٨-١٨٠)
٨. أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣٥٩ / ٢٦) من دعاء العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه حينما استسقوا به في عام الرمادة، بلفظ: «اللهم إنه لم ينزل بلاءٌ إلا بذنب، ولم يُكشَفْ إلا بتوبة...». وإسناده ضعيف جداً.
٩. ابن أبي حاتم وابن مردويه وغيرهما عن ابن عباس وأنس. انظر: الدر المنثور (٣٥٩/٧) عن: محقق جامع المسائل.
١٠. ذكر أبو يعلى في طبقات الحنابلة (١ / ١٩٦) أن رجلاً جاء إلى الإمام أحمد فقال له: نكتبُ عن فلان؟ فقال: إذا لم تكتب عنه فعمّن يكون ذلك؟! قالها مراراً. فقال له الرجل: إنه يتكلم فيك. فقال الإمام أحمد: رجلٌ صالح، ابتلي فينا، فماذا نعمل!
١١. مسلم (٢٥٨٨)
١٢. وهذا ملحظٌ عظيمٌ جداً، حريٌّ بكلٍ داعٍ إلى سبيل ربه أن يتأمله ويحويه في صدره، فسبيل الأنبياء وأتباعهم مليء بأذى الناس الذين يعادون ويصاولون عن شهواتهم المحرمة من أراد حجزهم عنها لمرضاة الله تعالى، كما قال جل وعز: (وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون)، وقال سبحانه: (وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من



المجرمين وكفى بربك هاديا ونصيرا)، والمقصود أن من أوقف نفسه لله فلا يُشرع له الانتقام لنفسه إن أودى من أجل الله، فهو لله وباللّه وإلى الله، وفي سبيل الله، وضامن على الله، وأجره على الله.

١٣. جامع المسائل لابن تيمية، تحقيق عزيز شمس (١/١٦٨ - ١٧٤) بتصرف يسير.

١٤. وهو كتاب غزير الفوائد عظيم النفع، وبخاصة في زماننا، لأنه في رد شبه القبورية عن توحيد العبادة لله تعالى. وقد لخصه ابن كثير في كتاب "تلخيص كتاب الاستغاثة".

١٥. وهذا معنى بديع وقصد شريف ونباهة نادرة لهذا الإمام، وبخاصة في هذا المقام، ذلك أن النفوس تضعف عند فوران قدر الغضب، والحكمة تعزب حين عصف سوء الظن بالناس.

ومن نماذج حسن الظن الجميل في الناس ما نقله الماوردي رحمه الله تعالى في أدب الدنيا والدين (١/١٨٠) عن بنت عبد الله بن مطيع أنها قالت لزوجها طلحة بن عبد الرحمن بن عوف الزهري، وكان أجود قريش في زمانه: ما رأيت قوماً أأم من إخوانك! قال: مه، ولم ذلك؟ قالت: أراهم إذا أسرت لزموك، وإذا أعسرت تركوك. قال: هذا والله من كرمهم، يأتوننا في حال القوة بنا عليهم، ويتركوننا في حال الضعف بنا عنهم. فانظر كيف تأول بكرمه هذا التأويل حتى جعل قبيح فعلهم حسناً، وظاهر غدرهم وفاءً. وهذا محض الكرم ولباب الفضل، وبمثل هذا يلزم ذوي الفضل أن يتأولوا الهفوات من إخوانهم.

وإن الذي حانت بفلج دماؤهم ... هم القوم كل القوم يا أم خالد

١٦. انظر: البداية والنهاية (١٤/٧٦)، وذيل طبقات الحنابلة (٢/٤٠٠)، والعقود الدرية (ص ٢٨٦)، والكواكب الدرية (ص ١٣٩) وفي ذكره لخبر إصلاحه بين الحنابلة والأشعرية مجموع الفتاوى (٣/٢٢٧)

١٧. والسبب وراء هذه المحنة أن السلطان بيبرس الجاشنكير طلب ابن تيمية إلى مصر يوم الخامس من رمضان عام ٧٠٥ فتوجه إليها ابن تيمية فدخلها يوم ٢٢ رمضان، فعقد له مجلس بالقلعة، وقد اجتمع فيها القضاة وأكابر الدولة، وفي المجلس أراد ابن تيمية الكلام إلا أنه لم يُسمح له، وادّعى عليه ابن مخلوف المالكي (قاضي المالكية وكان من أشد خصوم ابن تيمية) ومعه نصر المنبجي (الصوفي الضال الحلولي الاتحادي، وكان صاحب حظوة ووجاهة عند أمير مصر بيبرس الجاشنكير)؛ حيث ادّعى ابن مخلوف على ابن تيمية أنه يقول: "إن الله فوق العرش حقيقة، وإن الله يتكلم بحرف وصوت"، فسأله القاضي عن ذلك، فأخذ ابن تيمية يبدأ حديثه في حمد الله



والثناء عليه، فقيل له: "أجب، ما جئنا بك لتخطب"، فعلم أنها المحاكمة لا المجادلة، فقال: "ومن الحاكم في؟" قيل له: "القاضي المالكي"، فقال له الشيخ: "كيف تحكم في وأنت خصمي؟"، فغضب غضباً شديداً وانزعج، فأصدر حكمه عليه، وحُبس ابن تيمية في برج أياماً، ثم نُقل مع أخويه: شرف الدين عبدالله، وزين الدين عبدالرحمن إلى الحبس المعروف باسم "الجُبِّ" في ليلة عيد الفطر. ثم استطاع الملك الناصر محمد بن قلوون أن يستعيد ملكه ثانية، ويخرج ابن تيمية من محبسه ويستشيريه في قتل ابن مخلوف والمنبجي وغيرهم، فرفض ابن تيمية ورده عما هم به من البطش بهم. ومرت الأيام ثم حبسه الناصر الحبسة السابعة حتى مات في حبسه رحمه الله تعالى. وانظر: البداية والنهاية، لابن كثير (٤٣ / ١٤)

- ١٨ . مجموع الفتاوى (٣ / ٢٧١)
- ١٩ . في سجنه الأخير.
- ٢٠ . الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية (ص: ٨٢)
- ٢١ . العقود الدرية (ص: ٢٩٨)
- ٢٢ . أي من كونهم سبباً في خلوته بالله تعالى وأنسه به، والتفكر في الآلاء، والتدبر في الآيات، والتأمل في الحياة وبعد الممات، بعيداً عن الصوارف والمشغلات.
- ٢٣ . العقود الدرية (ص: ٢٨١)
- ٢٤ . مدارج السالكين (٢ / ٣٤٥)



فقه مسلكي في شأج التشدد في حراسة الخطرات

إن النية شأنها عظيم، ولا قبول للعمل إلا بها، ولكن هذا لا يعني أن ينتهي الأمر بصاحبها للوسواس، فمن الناس من يتشدد في شأن الوسواس والخطرات، ويتكلف حراسة النية وملاحظتها بشكل ينغص عليه عيشه وعيش من حوله، ويشتت جمعيته على الله تعالى من حيث أراد جمعها. وليس تصوّر هذا وتحديث النفس به شرط لسلوك الصراط المستقيم، لأنّ العبد إذا آمن أنّ الله خالق كل شيء ومالك كل شيء ومدبّر كل شيء؛ فإنّه بذلك ينتظم كل توجهات وتصوّرات وأعمال قلبه، وهذا كافيه في الحقيقة، وهذه التفاصيل المسلكية الدقيقة إنّما تصلح لمن شغل نفسه بهذا وانهمك فيه وانغمس في مجاهدات القلب به.

وقلتُ: تصلح له؛ لأنّ من اشتغل بذلك فإن لم يوفّق لتفصيل شيخ مُسدّد، وإلا فيُخشى عليه من أمرين: أولاهما: متالف الوسواس، حين يخلو بفكره مع نفسه بلا قيد علم. والثاني: مزالقي الأباطيل، حين يأخذ بيده شيخ خرافة أو سالك بدعة.

هذا، وبيان خداع النفس وخطراتها وتلبيسات الشيطان وتسويلاته فيها ومدخله في النيات ونحوها طيب وفاضل، لكن لا بد من العلم والحكمة والأناة في تناولها تأصيلاً وتطبيقاً، فقد يُوفّق الكاتب في ذلك فيجلو للقارئ ريناً كان بقلبه، أو يدفع شبهة محيرة لعقله، أو خطرة مقلقةً للبه، فيريح قلبه من ثقل همّ ليس مكلف به، وكم من حرفٍ أراح صدرًا! وفي المقابل قد تقصر أفهام بعض الناس عن إدراك مقصود المؤلف، وقد يفوت



المصنّف قيّد أو تبيان ونحو ذلك، بل قد لا يُوفّق أصلاً للهدى في تقييده وتأصيله، فيُضِلُّ ويُضِلُّ!

ومن ذلك أن الحارث المحاسبي رحمه الله لما صنّف كتابه الرعاية في الخطرات والوساوس قرأه فثأّم من أهل الاجتهاد والإخلاص؛ فشوّش عليهم جمعيّة قلوبهم لأنّه فتح أذهانهم لمجاهدة وتحقيق ودفع أمور عاديّة تجري على كلّ الناس مما لم يكلفهم الله بها، فاجتهدوا فوق طاقتهم بمراقبة تلك الخطرات والوساوس وتنقيتها وتقليب النظر فيها، فعاد عليهم ذلك بالقنوط واليأس والفشل والكآبة، وتشتّت جمعيتهم، وتفرّقت نيّاتهم، فانقطع كثير منهم عمّا كانوا فيه من الخير والنسك قبل دخول ذلك الكتاب عليهم!

وقد تنبّه الإمام أحمد لذلك فمَنع من الحارث وكتبه بل ومن مصاحبته. وقد ذكر ابن الجوزي رحمه الله (١) أنّ أبا زرعة سُئل عن المحاسبي وكتبه، فقال للسائل: "إيّاك وهذه الكتب، بدع وضلالات، عليك بالأثر؛ فإنك تجد فيه ما يغنيك عن هذه الكتب. قيل له: في هذه الكتب عبرة! فقال: من لم يكن له في كتاب الله عبرة فليس له في هذه عبرة. بلغكم أنّ مالكا أو الثوري أو الأوزاعي أو الأئمة صنّفوا كتباً في الخطرات والوساوس وهذه الأشياء؟!".

وعليه؛ فإنّ التدقيق والتعمّق المتكرر الشديد في النية وطبيعة النفس ووساوسها قد يوصل المرء للحيرة والاضطراب، ومن ثمّ الانقطاع والفشل، بل والخبل أحياناً عند بعض من يقصر فهمه عن دفع وارد فكره.



وتأمل هذه الحروف النفيسة للشيخين: قال ابن القيم رحمه الله في أقسام النفوس وطبائعها وانقسام الناس بالنسبة إليها: "وسألت يوماً شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن هذه المسألة وقطع الآفات والأشغال بتنقية الطريق وتنظيفها. فقال لي جملة كلامه: النفس مثل الباطوس - وهو جُبُّ القَدَر -، كلما نبشته ظهر وخرج، ولكن إن أمكنك أن تسقف عليه وتعبره وتجوّزه فافعل، ولا تشتغل بنبشه، فإنك لن تصل إلى قراره، وكلما نبشت شيئاً ظهر غيره.

فقلت: سألت عن هذه المسألة بعض الشيوخ، فقال لي: مثل آفات النفس مثل الحيات والعقارب التي في طريق المسافر، فإن أقبل على تفتيش الطريق عنها والاشتغال بقتلها انقطع ولم يمكنه السير قطّ، ولكن لتكن همّتك المسير والإعراض عنها وعدم الالتفات إليها، فإذا عرض لك فيها ما يعوقك عن المسير فاقتله، ثم امض على سيرك. فاستحسن شيخ الإسلام ذلك جدّاً وأثنى على قائله". (٢)

وبالله التوفيق، والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان.

.....

(١) تلبس إبليس (ص: ١٦١)

(٢) وانظر: المدارج (٢/ ٣١٣، ٣١٤)، مجموع الفتاوى (٢/ ٤٧٩)، المستدرك على مجموع

الفتاوى (٥/ ٢٢٩)



زيعة الحكيم

إن حاجة الناس للعلماء ضرورة كضرورة المريض للعافية والمسافر للنجم الهادي، وسئل أهل مكة: كيف كان عطاء فيكم؟ فقالوا: كان مثل العافية، لا نعرف فضلها حتى نُفقد.

ألا وإن كثيراً من النزاع بين المسلمين والخصوماتِ والبغِي والفرقة قد حدث حين تجاوز العلماء من ليس منهم، وأسقطهم من لم يعرف قدرهم.

ولقد تنبه علماء الأمة لهذا الخطر المستشير والخطل المستطير، فصدحوا بحرمة ذلك السبيل وخطر ذلك المهيع، وأن من كان همُّه تسقط عشرات إخوانه واصطياد زلاتهم وتكبير عيوبهم وستر حسناتهم وطعن نيّاتهم والتأليب عليهم فهو ضالٌّ ظالم، وأنّ الفرض حفظ قدر العالم مع عدم متابعته إن أخطأ. فأصدروا وكرروا بيانات وفتاوى ووصايا، وفيهم كفاية ومقنعٌ بحمد الله لمن أراد برّد السكينة في صدره، أما الهاوي فلا يرده عن هواه انتطاح القمّرين أمامه! ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله، والله تعالى لا يُتقربُ إليه بمعصيته، والسعيدُ من عوفي. ومهلاً يا زارع الريح لتحصدنّ الزوبعة!

لقد صاح العلماء فيمن خاف الوعيد من الاسترسال في ذلك وأنه منحدرٌ زلق، نهايته النزاع والفشل وذهاب الريح في الدنيا، ثم قبض الريح صفراً من حسناتٍ رجاها أهلؤها غداً ولكن لم ينالوها، لأنها لم تكُ حسناتٍ أصلاً، أو لأنها قد اقتصت منهم في ديوان المظالم، وعساها أن تكفي عن مراكمة خطايا العباد على الظهر الظالم لهم في الدنيا.. رحماك ربي.



(ليحملوا أوزارهم وأوزارًا مع أوزارهم) وعند مسلم (١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "أتدرون من المفلس؟" قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: "إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيُعطي هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فُتيت حسناته قبل أن يُقضى ما عليه؛ أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار".

إن العالم بشرٌ مُعرَّضٌ للخطأ في فتواه، سواء من جهة عدم إدراك الصواب والتحرير أو من جهة طريقة البيان والتقرير، أو حتى من جهة النية والتجريد، فيطير بذلك أهل الشهوات والشبهات، فينشرون خطأ الفقيه، ويطلقون ما قيده، ويُعمِّمون ما خصَّصه، وقيسون على فتواه ما ليس منها، إذ همُّهم شهواتهم لا هداياتهم، وزلة العالم زلة العالم ومضروب لها الطبل، نعوذ بالله من فتنة القول والعمل.

إن حملة العلم يصلون ما أمر الله به أن يوصل، ويحفظون أقدار أولي الفضل والعلم والسابقة، ولا يعرف الفضل لأولي الفضل سوى أهل الفضل. والعالم العامل في المحل رحمة من الله وبركة على أهله تمشي على قدمين، قال يوسف بن أسباط: كان أبي قدرياً، وأخوالي روافض، فأنقذني الله بسفيان. وتأمل جميل ثناء ابن القيم عن شيخه ابن تيمية لما كان سبياً - بإذن الله - للأخذ بيد ابن القيم للسنة المحضة. والموفقون هم من يحفظون قدر العالم حتى وإن تعثر ببعض البدع أو الأخطاء أو الاجتهادات التي لا تُخرجه من أصول أهل السنة الكليّة.



قال سعيد بن المسيب رحمه الله تعالى: "ليس من شريفٍ ولا عالمٍ ولا ذي فضلٍ إلا وفيه عيب. ولكن من الناس من لا ينبغي أن تُذكر عيوبه، ومن كان فضلهُ أكثر من نقصه؛ وُهَبَ نقصه لفضله". (٢) وقال الحافظ الذهبي رحمه الله: "ولو أن كلَّ من أخطأ في اجتهاده مع صحة إيمانه وتوحيه لا تُتباع الحق أهدرناه وبددناه؛ لقلَّ من يسلم معنا من الأئمة". (٣) وقال: "ليس من شرط العالم ألا يُخطئ" (٤) إلا ما أجمل الإنصاف وأعزّه وأروعه وأورعه!

وثمة خيط رفيع بين تقدير العلماء وتقديسهم، فالأول واجب محمود والثاني ممنوع. وبعض الناس فرّ من الثانية فألحق بها الأولى، وهذا خطأ، فالعلم رَفَعَهُم.

وكيف لا يكون ذلك لهم وهم ملحُّ الناس وزينة الأرض وحلى الدنيا، وهم نجومٌ لا يضل معها الساري، ومنهلٌ يرتوي منه الصّادي، ولا تزال قلوب العابدين بعلومهم معمورة، وصدورهم من وصاياهم مأهولة. والعلماء هم شهب الله على المبطلين، ورجومته على رؤوس المجرمين، وعلى امتداد تاريخ الأمة المجيد نجد أن الأمة قد مرّت بمنعطفات صعبةٍ للغاية، وكان فضلٌ توجيهها بعد الله على أيدي حفظوا الأمانة فحفظتهم، اللهم أكثر مخلصيهم وأقوياءهم وزهادهم إله الحق.

ولنأخذ مثالين على بركة العالم وحسن أثره في الناس، وعظيم صبره وجميل إنصافه، ورفقه في الحجاج مع قوّة البرهان وشدة الإلزام، وهما خبر ابن عباس وخبر جابر بن عبد الله رضي الله عنهم، وكلاهما مع أشدّ الناس في الخصومة، وهم الخوارج.



ففي خبر ابن عباس رضي الله عنهما مع أهل النهروان: قال ابن عباس رضي الله عنهما: "إنه لما اعتزلت الخوارج دخلوا داراً وهم ستة آلاف، وأجمعوا أن يخرجوا على علي بن أبي طالب وأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم معه. قال: وكان لا يزال يجيء إنسان فيقول: يا أمير المؤمنين، إن القوم خارجون عليك - يعني علياً - فيقول: دعوهم، فإنني لا أقاتلهم حتى يقاتلوني، وسوف يفعلون. فلما كان ذات يوم، أتته قبل صلاة الظهر فقلت له: يا أمير المؤمنين، أبردنا بالصلاة، (٥) لعلني أدخل على هؤلاء القوم فأكلمهم. فقال: إني أخافهم عليك (٦) فقلت: كلا، وكنت رجلاً حسن الخلق لا أؤذي أحداً، فأذن لي.

فلبست حلة من أحسن ما يكون من اليمن، وترجّلت، (٧) ودخلت عليهم نصف النهار، فدخلت على قوم لم أر قوماً قط أشد منهم اجتهاداً، جباههم قرحت من السجود، وأيديهم كأثما ثفن الأبل، (٨) وعليهم قمص مرخصة، (٩) مشمرين، مسهمة وجوههم (١٠) من السهر، فسلمت عليهم، فقالوا: مرحباً يا ابن عباس، ما جاء بك؟

قال: قلت: أتيتكم من عند المهاجرين والأنصار، ومن عند صهر رسول الله صلى الله عليه وسلم علي، وعليهم نزل القرآن، وهم أعلم بتأويله. فقالت طائفة منهم: لا تُخاصموا قريشاً فإن الله قال: (بل هم قوم خصمون) فقال اثنان أو ثلاثة: لنكلمنه.

فقلت لهم: ترى ما نَقَمْتُمْ على صهر رسول الله صلى الله عليه وسلم، والمهاجرين والأنصار، وعليهم نزل القرآن، وليس فيكم منهم أحد، وهم أعلم بتأويله منكم؟ قالوا: ثلاثاً. (١١) قلت: ماذا؟ قالوا: أمّا إحداهن: فإنه حَكَمَ الرجال في أمر الله عز وجل، وقد قال الله عز وجل: (إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ) فما شأن الرجال والحكم بعد قول الله عز وجل؟ فقلت: هذه واحدة، وماذا؟ قالوا: وأما الثانية: فإنه قاتل ولم يسب ولم يغنم، فلئن كانوا



مؤمنين ما حلّ لنا قتالهم وسبّاهم. قلت: وماذا الثالثة؟ قالوا: إنه محّا نفسه من أمير المؤمنين، إن لم يكن أمير المؤمنين، فإنه لأمير الكافرين. قلت: هل عندكم غير هذا؟ قالوا: كفانا هذا.

قلت لهم: أما قولكم: حكّم الرجال في أمر الله عز وجل، أنا أقرأ عليكم في كتاب الله عز وجل ما ينقض قولكم، أفرجعون؟ (١٢) قالوا: نعم. قلت: فإن الله عز وجل قد صير من حكمه إلى الرجال في ربيع درهمٍ ثمن أرنب، وتلا هذه الآية: (لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم) إلى آخر الآية. وفي المرأة وزوجها: (وإن خفتن شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها) إلى آخر الآية. فنشدتكم بالله، هل تعلمون حكم الرجال في إصلاح ذات بينهم، وحقن دمائهم، أفضل، أم حكمهم في أرنبٍ وبضع امرأة؟ فأيهما ترون أفضل؟ قالوا: بل هذه. قال: خرجت من هذه؟ قالوا: نعم. (١٣)

قلت: وأما قولكم: قاتل ولم يسب ولم يغنم، فتسبون أممك عائشة؟ فوالله لئن قلت: ليست بأمتنا، لقد خرجتم من الإسلام، ووالله لئن قلت: نسبيها نستحل منها ما نستحل من غيرها، لقد خرجتم من الإسلام، فأنتم بين الضالّتين، إن الله عز وجل قال: (النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم) فإن قلت: ليست بأمتنا، لقد خرجتم من الإسلام، أخرجت من هذه؟ قالوا: نعم.

وأما قولكم: محّا نفسه من أمير المؤمنين، فأنا آتيكم بمن ترضون: يوم الحديبية، كاتب المشركين أبا سفيان بن حرب وسهيل بن عمرو، فقال: "يا عليّ، اكتب: هذا ما اصطاح عليه محمدٌ رسولُ الله"، فقال المشركون: والله لو نعلم أنك رسول الله ما قاتلناك. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اللهم إنك تعلم أنى رسولك، أمح يا علي، اكتب: هذا



ما كاتب عليه محمد بن عبد الله"، فوالله لرسول الله صلى الله عليه وسلم خير من علي، فقد محا نفسه. قال: فرجع منهم ألفان، وخرج سائرهم فقتلوا". (١٤) وقد وقع عند عبد الرزاق والطبراني أن عدد الحرورية حين خرجوا كان أربعة وعشرين ألفاً، رجع منهم بعد مناظرة ابن عباس عشرون ألفاً، وبقي أربعة آلاف، فقتلوا، والله أعلم.

أما خبر جابر بن عبد الله رضي الله عنهما فقد حدث به يزيد بن صهيب الفقير، قال: "كنت قد شغفني (١٥) رأي من رأي الخوارج. فخرجنا في عصابة ذوي عدد، نريد أن نحج ثم نخرج على الناس. (١٦) قال: فمررنا على المدينة، فإذا جابر بن عبد الله جالس إلى سارية يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإذا هو قد ذكر الجهنميين، (١٧) فقلت: يا صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم (١٨) ما هذا الذي تحدثوننا؟ والله يقول: (ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته) و(كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدها فيها) فما هذا الذي تقولون؟

قال: أتقرأ القرآن؟ قلت: نعم، قال: فاقراً ما قبله، (١٩) إنه في الكفار، ثم قال: فهل سمعت بمقام محمد الذي يبعثه الله فيه؟ (٢٠) قلت: نعم، قال: فإنه مقام محمد صلى الله عليه وسلم المحمود الذي يخرج الله به من يخرج، قال: ثم نعت وضع الصراط، ومر الناس عليه، قال: وأخاف ألا أكون أحفظ ذلك، (٢١) قال: غير أنه قد زعم أن قوماً يخرجون من النار بعد أن يكونوا فيها، (٢٢) قال: فيخرجون كأنهم عيدان السماسم، (٢٣) قال: فيدخلون نهراً من أنهار الجنة، فيغتسلون فيه، فيخرجون كأنهم القراطيس، فرجعنا، قلنا: ويحكم، أترون هذا الشيخ يكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فرجعنا، فلا والله



ما خرج غير رجل واحد، أو كما قال". (٢٤) ولحديث الشفاعة العظمى روايات أوفى في الصحيحين وغيرهما.

ومن كان لهم مقام في الدعوة إلى الله والجهاد في سبيله ونحو ذلك من مقامات الإسلام فإن إقالة عثرته متأكدة في حقه أبلغ من غيره، مع عدم متابعتة فيها، فحفظُ السابقة من هدي السلف. قال ابن القيم رحمه الله: "ومن له علم بالشرع والواقع يعلم قطعاً أن الرجل الجليل الذي له في الإسلام قدمٌ صالحٌ وآثارٌ حسنةٌ، وهو من الإسلام وأهله بمكانٍ، قد تكون منه الهفوة والزلة، هو فيها معذورٌ بل مأجورٌ لاجتهاده، فلا يجوز أن يُتبع فيها، ولا يجوز أن تُهدر مكانته وإمامته في قلوب المسلمين". (٢٥) وتأمل ما روته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أقبلوا ذوي الهيئات عثراتهم إلا الحدود". (٢٦)

ولله مُعَاذٌ ما افقهه! فعن يزيد بن عميرة عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: "تكون فتنةٌ يكثر فيها المال، ويُفتح فيها القرآن حتى يقرأه المؤمنُ والمنافق والصغير والكبير والرجل والمرأة، يقرأه الرجل سرّاً فلا يُتبعُ عليها، فيقول: والله لأقرأته علانية، ثم يقرأه علانية فلا يُتبعُ عليها، فيتخذ مسجداً وابتدع كلاماً ليس في كتاب الله ولا من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإياكم وإياه فإن كل ما ابتدع ضلالة.

قال يزيد: ولما مرض معاذ بن جبل مرضه الذي قبض فيه كان يُغشى عليه أحياناً ويفيق أحياناً، حتى غشي عليه غشيةً ظننا أنه قد قبض، ثم أفاق وأنا مقابله أبكي! فقال: ما يبكيك؟ قلت: والله لا أبكي على دنيا كنتُ أنا لها منك، ولا على نسب بيني وبينك، ولكن أبكي على العلم والإيمان الذي أسمع منك يذهب.



قال: فلا تبك، فإنَّ العلم والإيمان مكانهما، من ابتغاهما وجدتهما، فابتغه حيث ابتغاه إبراهيم عليه الصلاة والسلام، فإنه سأل الله تعالى وهو لا يعلم وتلا: (إني ذاهب إلى ربي سيهدين) وابتغه بعدي عند أربعة نفرٍ، وإن لم تجده عند واحد منهم فسأل عن الناس أعيانه؛ عبد الله بن مسعود وعبد الله بن سلام وسلمان وعويمر أبو الدرداء. وإياك وزيغة الحكيم، وحُكْمُ المنافق". (٢٧)

وفي رواية له عن معاذ - وفيها - : " وأحذركم زيغة الحكيم، فإن الشيطان قد يقول كلمة الضلالة على لسان الحكيم، وقد يقول المنافق كلمة الحق " قال: قلت لمعاذ: وما تدري رحمك الله أن الحكيم قد يقول كلمة الضلالة، وأنَّ المنافق يقول كلمة الحق؟ قال: " بلى، اجتنب من كلام الحكيم المشتهرات التي يقال: ما هذه؟ ولا يثنينك ذلك عنه فإنه لعله يُراجع، وتلقَّ الحق إذا سمعته، فإن على الحق نوراً". (٢٨)

فرضي الله عن معاذ إذ أعطانا معياراً ومنهاجاً في التعامل مع أهل العلم ومن تشبه بهم ممن ليس منهم، حال صواب الجميع أو خطئهم.

وانظر لسوسة القلب حين تنحت فيه حبُّ التصدّر والظهور والعلوُّ على الخلق، وكيف قرأ القرآن سرّاً فلم يتبعه الناس، فقرأه جهراً فلم يتبعوه، حتى آل به الأمر أن اتَّخذ مسجداً وأحدث بدعاً وضلالات. فمقصوده ليس وجه الله والدار الآخرة مهما حفظ من العلوم ودرس على المشايخ وقرأ من الكتب، بل العلوُّ في الأرض عن طريق التصدر على منابر العلم، فاحذر يا طالب العلم أن تتبغى العلوُّ في الأرض على أقرانك وعلى الناس، وابتغِ سموَّ السماء بتقواك ومنازل الآخرة بنصحك وتواضعك، فإن الله تعالى يقول: (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين).



وتأمل فقه معاذ رضي الله عنه في تحذيره من زيغة الحكيم، لذلك فلا تُعْنِقِ فَرِحًا بكل نكتة علمية انقدحت لك، فما كل ما يلمع ذهبًا ولا كل بيضاء شحمة، وكم من قدحة قاتلة، وكم من دهليز جهل على باب فكرة، وكم أعرض الراسخون عن مسائل صانوا بها صفاء علومهم.

وبالجملة: لا تفرح بالطراف على التليد، واجتنب في العلم الغرائب، فالغريب مريب. وعليك بجادة السالفين الأول ذوي الأمر الأول والنمط الأوسط، الذين وقفوا عن علم، وكفوا عن ورع.

وحينما تحدثك نفسك يا طالب العلم بظفر في مسألة، فلا تظن أن الأكابر قد كفوا عنها لجهل، لذا تأن كثيرًا حتى تعلم سبب رغبتهم عنها فلعله الصواب، واحذر من أن تتخذ قولاً أو عملاً ليس لك فيه سلف صالح، فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية، وسبع الأفكار أضرى من سبع الأجساد.

فقل لمن يدعي في العلم معرفة... حفظت شيئاً وغابت عنك أشياء

واعلم أن التريث والتحرير ومشاورة أهل الاختصاص لها ثمراتها: فقد يكون الوارد مطروقاً قد فصله السابقون ولم تعلم به، أو كان سببه ومقتضاه قائماً فتركوه تورعاً، أو تبين لهم بطلانه لعل لم تدركها.. أو غير ذلك.

ولا يعني هذا ترك الاشتغال بكل وارد فكري جديد، فهذا ليس بمقصود، فالتقليد المحض ليس بعلم، والتقيّد بقيد الأمر السائد قصورٌ في التحصيل، والإبداع النافع مطلب شرعي، بل القصد هو التمهّل والتريث والأناة والمشاورة للراسخين لتحرير الوارد من



فروع العلم قبل نشره، لأنه في يدك حتى يطير في الأرجاء، فإن كان مُحَرَّرًا فنعماً هو، وإن كان غير ذلك فعليك غرْمُهُ وَتَبِعْتُهُ.

وبالجملة: فإياك أن تستوليَ برودةَ عادتك على حرارة قريحتك؛ فيستبدَّ بك التقليد الجاف وتنطفئ شعلتك المضيئة، حينها تكون قد كسرت شراعك ودفنت إبداعك.

ومما يؤسف له أن بعضاً من أمور الأمة المُلحَّة (العصريَّة) لا نجد لبعض الأكابر حديثاً فيها ترفّعاً أو تزهّداً أو انشغالاً - مع انتشارها بين الناس كنار الهشيم - فنشأ عن اعتزال هؤلاء الكلام فيها أن انبرى لها غير أهلها فألقحوها الضلال، فاستيقظ أصحابنا وصاحوا بأهله - بعد خراب البصرة - وخير لهم أن يصيحوا بأنفسهم أولاً.. فقد ذهبت ليلي فما أنت صانع؟!!

ولله درّ ابن مسعود ما أحكمه حين قال: "إنكم لن تزالوا بخيرٍ ما دام العلم في كباركم، فإذا كان العلم في صغاركم سفّه الصغيرُ الكبيرَ". (٢٩)

ولقد مرّ الإمام أبو حنيفة رحمه الله على جماعة يتفقّهون، فقال: ألهم رأسٌ؟ قالوا: لا. قال: إذن لا يفلحون أبداً. (٣٠) ومن بديع شعر عبد الوهاب بن علي المالكي رحمه الله:

متى يصلُ العِطاشُ إلى ارتواءٍ ... إذا استتقتِ البحارُ من الرّكايَا

ومن يُثني الأَصاغِرَ عن مُرادٍ ... إذا جلسَ الأكابرُ في الزّوايَا

إذا استوتِ الأسافلُ والأعالي ... فقد طابت مُنادمةُ المنايَا



إن الله تعالى قد جعل العالم بركة للناس، ونجماً في السماء للحق هادياً، بما ينشره من علم الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله وعمله وسمته وخلقته. فهو وارث تركة الرسول صلى الله عليه وسلم وهو الذي يوزعها على الناس ويهديهم - بإذن الله - لها، ولا يزال في الأمة خير ما كان فيها علماء ربانيون يصلون حاضر الأمة بصدرها الزاهر المنير. وبالله التوفيق، وصلى الله وسلم وبارك على محمد وعلى آله وصحبه وحزبه.

(١) (١٨/٨) (٢٥٨١) (٥٩)

(٢) التمهيد (١١ / ١٧٠)، الكفاية (٧٩)

(٣) السير (١٤ / ٣٧٤)

(٤) السير (١٤ / ٣٣٩)

(٥) أي آخر صلاة الظهر عن أول وقتها، وهو سنة عند اشتداد الحر، وغرضه إفساح الوقت له كي يدرك صلاة الجماعة بعد المناظرة رضي الله عنه.

(٦) لأنهم قد قتلوا ابن خباب لما مر بهم وزوجه الحامل وقتلوا غيره كثير، لاستحلالهم دماء مخالفينهم، فهم يكفرون من ليس معهم، ففتنتهم شديدة وشرهم مستطير، ووصفوا في السنة بشر الخلق والخليقة.

(٧) أي سرح شعر رأسه.

(٨) أي: ركبها الغليظة.

(٩) أي: مغسولة.

(١٠) أي: متغيرة ألوانها من الصيام والقيام، وهذا من إنصافه رضي الله عنه، فانظر عظيم فتنة إبليس بهم كيف وهم مع هذا الحال من شديد العبادة وابتغاء التقوى ودقيق الورع، (ومن يضل الله فما له من هاد) ولهم نصيب



من قول الله تعالى: (قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً. الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا). وما من أمرٍ لله إلا وللشيطان فيه حظان لا يُبالي بأيها أسقط العباد: الزيادة والنقصان.

وتأمل مدى ضلالتهم في قصتهم مع التابعي الجليل عبد الله بن خباب وزوجه، وقد ساقها الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٧ / ٣١٨) بقوله: "وكان من جملة من قتلوه عبد الله بن خباب صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، أسروه وامرأته معه وهي حامل فقالوا: من أنت؟ قال: أنا عبد الله بن خباب صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإنكم قد روّعتموني. فقالوا: لا بأس عليك، حدثنا ما سمعت من أبيك فقال: سمعت أبي يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "ستكون فتنة القاعد فيها خير من القائم، والقائم خير من الماشي، والماشي خير من الساعي". رواه أحمد (١٤٤٦). فاقناده بيده، وبينما هو يسير معهم إذ لقي بعضهم خنزيراً لبعض أهل الذمة فضربه بعضهم فشق جلده، فقال له آخر: لم فعلت هذا وهو لذمي؟ فذهب إلى ذلك الذمي فاستحلّه وأرضاه، وبينما هو معهم إذ سقطت ثمرة من نخلة فأخذها أحدهم فألقاها في فمه، فقال له آخر: بغير إذن ولا ثمن؟ فألقاها ذاك من فمه، ومع هذا قدّموا عبد الله بن خباب فذبحوه، وجاؤوا إلى امرأته فقالت: إني امرأة حبل، ألا تتقون الله، فذبحوها وبقرها وبطنها عن ولدها!" عائداً بربي من مضلات الفتن.

(١١) وفي هذا الثبوت من استدلال المخالف فقد تكون حجة عليك قبولها ولإذعان والتسليم لها، وقد تكون شبهة عليك أن تكشفها له وتبطلها من عينيه.

(١٢) وفي هذا إلزام الخصم بالرجوع عن قوله إن تبين له بطلانه، وقد كانت هذه طريقة رسول الله صلى الله عليه وسلم مع اليهود وغيرهم.

(١٣) وتأمل حسن السياق والترتيب والإلزام وإخلاء شبهة الخصم من مضمونها ومبررها.

(١٤) عبد الرزاق في المصنف (١٨٦٧٨) والطبراني (١٠٥٩٨) والحاكم (١٥٠/٢) وغيرهم، وذكر أحمد في المسند (٣١٨٧) طرفاً من القصة بسند جيد. وقد رويت قصة أمر النبي صلى الله عليه وسلم بمحو "محمد رسول الله" في البخاري (٢٧٣١) و(٢٧٣٢) ومسلم (١٧٨٤)

(١٥) أي تملكني بأن دخل شغاف قلبي، والشغاف: غلاف القلب.

(١٦) ولا أعلم أن الخوارج جالدوا المشركين يوماً، وتأمل الحال مع الغلاة في هذا الزمان كيف يقتلون المسلمين ويدعون المشركين متذرعين بأن القريب مرتد والمرتد يقتل قبل الكافر الأصلي، هكذا بلا إقامة حجة ولا



إبانة محجة، كيف والحجة عليهم لا لهم، (ومن يضلل الله فلن تجد له وليا مرشداً) وهذه خصلة الخوارج فقد وصفهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله: "يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الإسلام مروق السهم من الرمية، يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان، لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد". البخاري (٧٤٣٢) ومسلم (١٠٦٤) فمشكلتهم في ضلال العلم لا نقص التعبد وقوة الإرادة، (ومن يرد الله فنته فلن تملك له من الله شيئاً أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم) فمن هذه الوجه فيهم شبه من النصارى الضالين. وقد روى عبد الرزاق في تفسيره (٢/٢٩٩) والحاكم في المستدرک (٢/٥٢٢) عن أبي عمران الجوني قال: مرَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه بديرٍ راهبٍ، فناده: يا راهب، يا راهب، فأشرف، قال: فجعل عمر ينظر إليه ويكي. فقيل له: يا أمير المؤمنين، ما يبكيك من هذا؟ قال: ذكرت قول الله عز وجل في كتابه: (عاملة ناصبة تصلى ناراً حامية) فذاك الذي أبكاني. وإن كان هذا الخبر لا يثبت لأن أبي عمران لم يدرك زمان عمر، إنما المراد مغزى القصة لا حقيقتها، ففيها قرعٌ لفؤاد المؤمن تنبيهاً لعظم شأن هدايته للإسلام والإيمان، (بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان) فلا نعمة تضارعها، واعلم أن كثيراً من أهل الضلال من الملل والنحل هم أذكى منك عقولاً لكن الله تعالى لم يشأ لهم الهدى، فالهدى محض توفيق الله وحده. واعتبر ذلك بحال ذلك المنصر الأمريكي الضال المضل إذ يقول: يعز علي حرص المسلمين على ارتياد المسجد خمس مرات ودينهم باطل! (وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفاً).

(١٧) وهم الذين يخرجهم الله تعالى من النار فيدخلهم الجنة، وهم من أهل الكبائر من الموحدين، وهذا ينقض أصل الخوارج الأعظم بقولهم بتكفير مرتكب الكبيرة مطلقاً، فحديث الشفاعة ثابت في الصحيحين، وفيه ذكر الجهنميين.

لذلك أوصى عليُّ ابن عباس رضي الله عنهم أن يُحاجج الخوارج بالسنة، وقال له: لا تجادلهم بالقرآن؛ فإن القرآن حمالٌ وجوه، ولكن جادلهم بالسنة، قال ابن عباس: "يا أمير المؤمنين فأنا أعلم بكتاب الله منهم، في بيوتنا نزل، قال: صدقت، ولكن القرآن حمالٌ ذو وجوه، تقول ويقولون، ولكن خاصمهم بالسنن، فإنهم لن يجدوا عنها محيصاً". وقد عزاه السيوطي في الإثقان (٢/١٢٢) إلى ابن سعد. كذلك نُقل عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: لا تجادلوهم بالقرآن فإنه حمال وجوه ولكن حاججُوهم بالرواية. أي بالسنة المروية.

لذلك فالخوارج لا يعدون السنة من مصادر التلقي لديهم، ولو علموا تأويل القرآن ما فعلوا فالسنة شارحة القرآن، قال تعالى: (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نَزَلَ إِلَيْهِمْ) فالمبين هو رسول الهدى صلى الله عليه وسلم،



وقد أمر الله تعالى في القرآن أكثر من أربعين مرة بطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولقد حدث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لعن الله الواشيات والمستوشيات، والمتنمصات، والمتفلجات للحسن، المعيرات خلق الله، فبلغ ذلك امرأة من بني أسد، يقال لها: أم يعقوب، وكانت تقرأ القرآن، فأنته، فقالت: ما حديث بلغني عنك: أنك قلت: كذا وكذا.. وذكرته؟ فقال عبد الله: ومالي لا ألعن من لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في كتاب الله؟ فقالت المرأة: لقد قرأت ما بين لוחي المصحف، فما وجدته، قال: إن كنت قرأته لقد وجدته، قال الله عز وجل: (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) قالت: إني أرى شيئاً من هذا على امرأتك الآن؟ قال: اذهبي فانظري، فذهبت فلم تر شيئاً، فجاءت، فقالت: ما رأيت شيئاً، فقال: أما لو كان ذلك لم نجامعها". رواه البخاري (١٨٤/٦) ومسلم (١٦٦/٦) ومعنى المتنمصات: من النمص وهو تزيين الحواجب وتدقيقها بالموسى ونحوه طلباً للحسن، والنامصة التي تصنع ذلك بالمرأة، والمتنمصة التي تطلبه. والمتفلجات: هن اللاتي يطلبن الفلج بصناعة وهو تباعد ما بين الثنايا. ومعنى لم نجامعها: أي لم أجتمع معها كناية عن طلاقها إن هي فعلت.

(١٨) ففي يزيد خير بتوقيره للصحابة، لذلك يَسِّرُ الله تعالى له الهدى على أيديهم رضي الله عنهم.

(١٩) أي اقرأ سياق الآية وسباقها، فلا تكن كمن قرأ (ويل للمصلين) دون ما بعدها. وأمثال ذلك في القرآن العزيز كقوله تعالى: (وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا) فيبتدئ من قوله: (ما وعدنا). ومثل أن يبتدئ بقوله: (إن الله) في قوله تعالى: (لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ) وقوله: (لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ) ونحو ذلك. ومراد جابر التنبية للسياق العام لخبر الآيات وأنها ليست كما فهمها الخوارج لأنهم اقتصروا على جملة دون سياقها.

(٢٠) وهنا يحتج جابر بالسنة التي فيها قطع لنزاع المخالفين، وهذا تمام الفقه. فيشرح بالسنة قول الله تعالى: (عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا) فقرره بالقرآن ثم ألزمه بالسنة.

(٢١) وهذا من ورعه رحمه الله.

(٢٢) وإلى هذا الموضع قصد حابر لأن فيه إبطالاً لأصل الخوارج في تكفير صاحب الكبيرة، وهو ما انتبه له يزيد وكان فاتحة خير لتوبته وأصحابه من منهجهم المظلم.



(٢٣) عيدان السماسم: السماسم: جمع سمسم، وتكون عيدانه سوداً دِقَاقاً بعد أخذ ثمرة السمسم ورميها، فشبه الجهنميين الذين أخرجهم الله من النار إلى الجنة بها أثناء إخراجهم من النار بعدما امتحشتهم وأحرقتهم، عياداً بالله تعالى.

(٢٤) مسلم (١/١٢٣)

(٢٥) إعلام الموقعين (٣/٢٨٣)

(٢٦) رواه أبو داود (٤٣٧٥) وغيره، وصححه الألباني في الصحيحة (٦٣٨) وصحيح الجامع (١١٨٥)

(٢٧) المستدرک (٤/٤٦٥) (٨٤٤٠)

(٢٨) أبو داود (٤٦١١) بسند حسن.

(٢٩) ابن عبد البر في جامع العلم (١/١٥٩)

(٣٠) الفقيه والمتفقه للخطيب (٧٩٠)

